قضايا في الدين والحياة والمجتمع

تأملات في عدد من جوامع الكلم

الأستاذ الدكتور
محمد بن لطفي الصباغ

شبكة الألوكة
www.alukah.net

قضايا في الدين والحياة والمجتمع

تأملات في عدد من جوامع الكلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى الأبطال الكبار من شعبنا المسلم في فلسطين ، الذين رفعوا رأس الأمة الإسلامية المكلومة المظلومة.

لقد أعاد هؤلاء الأبطال من رجال ونساء إلى ذاكرتنا واقع الاستشهاد الرائع؛ الذي كان في أمتنا؛ إذ كانوا يحرصون على الموت في سبيل الله أكثر من حرص الناس على الحياة.

تقبّل الله جهادهم ، وجعلهم من الشهداء المقربين.

والعاقبة للمتقين ، والنصر للصابرين ، والحمد لله رب العالمين.

محمد بن لطفي الصباغ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قضايا في الدين والحياة والمجتمع

تأملات في عدد من جوامع الكلم

الأستاذ الدكتور

محمد بن لطفي الصباغ

شبكة الألوكة
www.alukah.net

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٤]، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّدٍ سيّد الأوَّلين، والآخرين، وقائد الغُرِّ المحجَّلين، وعلى آله، وأصحابه أجمعين، والتَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد: فإنِّي أقدِّم هذا الكتاب ـ في طبعته الثَّانية ـ إلى إخواني، وأخواتي من القرَّاء الكرام بعد أحد عشر عاماً من الطبعة الأولى، وبعد أن أعدتُ النَّظر فيه، وأعدت كتابة بعض فصوله، وخرَّجت أحاديثه كُلَّها، وأضفت إضافاتٍ رأيتُها ضروريةً، ونقَّحتُه، وهذَّبتُه قدر استطاعتي، وأصلحت الأغلاط المطبعيَّة؛ التي وقعت في الطَّبعة الأولى.

والحمد لله على ما أولاني من نعمه الَّتي لا تُحصى، وأسأله سبحانه أن يغفر لي زلاَّتي، وأغلاطي.

أقدِّم هذا الكتاب للطَّبع؛ والألمُ يعتصر قلبي، ويهدُّ كياني لما يعانيه المسلمون من التَّنكيل، والتَّقتيل، ومحاولة الإبادة من الكفرة أعداء الله من اليهود، والنَّصارىٰ، ومن المجوس، والملاحدة، وأتباعهم، في بقاعٍ متعدِّدةٍ من أرض الله في فلسطين، والشيشان، وكوسوفا، وأفغانستان، وكشمير، وباكستان، والفليبِّين.... وغيرها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فلقد عَتَوا عُتُـوّاً كبيراً. . . إنَّهم يُقتِّلون النِّساء المسلمات، والشُّيوخ، والأطفال الأبرياء، ويبالغون في استعمال الآلة العسكريَّة؛ الَّتي ما عرف البشر لها نظيراً. يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وأيديهم، وذلك بالعنف، والقهر، والعمل على إغلاق المدارس الدِّينيَّة، وتغيير المناهج في بلاد المسلمين.

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

إنَّنا مؤمنون: أنَّ مصير المُعتدين الهلاكُ المحقَّقُ، وأنّ العاقبة للمتَّقين.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] وهذا صنيعهم كلَّما ضَعُفَ المسلمون، وملكوا هم وسائل القوَّة، وقد أخبرنا ربُّنا: أنَّ هذا شأنهم معنا؛ يقول سبحانه: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ﴾ [البقرة: ٢١٧] ويقول جلَّ جلاله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولكنَّ الأمر الَّذي ليس طبيعياً أن يكون من أبناء المسلمين نفرٌ مخذولٌ ينفِّذ خُطَطَ الأعداء، ويعمل وَفْقَها محارباً لله، ولرسوله، ولأبناء أمَّته من المسلمين؛ فإنَّ هذا النَّفر الخاسر يعمد إلى قتل الدُّعاة، أو تشريدهم، أو محاربتهم في الرِّزق، أو التَّنكيل بهم في السُّجون تنكيلاً شديداً. وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

هذه صفحةٌ مؤلمةٌ من الواقع؛ الَّذي نحياه في أيَّامنا هذه، ولكن هناك صفحةٌ أخرى مشرقةٌ، وضَّاءةٌ، تتمثَّل في هذا الرُّجوع إلى الله، والإقبال عليه في كلِّ بلاد المسلمين؛ فأنت ترىٰ من النَّاشئين أعداداً كبيرةً تتحدَّىٰ ذاك الواقع المؤلم وتتمرَّد عليه، وتعي واقعها، وتدرك الموقف الَّذي ينبغي أن تقفه.

هناك هذه البطولات الفذَّة؛ الَّتي نسمع أنباءها في فلسطين، والشِّيشان. . . شعبٌ أعزل ليس له من وسائل القوَّة شيءٌ يواجه أكبر آلةٍ

عسكريّةٍ فتّاكةٍ في العصر الحاضر ، فلا يستكين ، ولا يلين ، ولا يخضع . . . بل يدافع عن نفسه بتقديم أفواجٍ متتابعةٍ من الأبطال ، والبطلات ، نرجو أن يكونوا شهداءَ عند ربِّهم يُرزقون .

تراهم يُقدِمون على الشَّهادة ـ مؤثِرين الآخرة على الدُّنيا ـ طيِّبةً نفوسهم ، وينالون من عدوِّهم نيلاً بقدر استطاعتهم . ولقد ذكَّرتنا هذه البطولات الفذَّة بما سجَّل التَّاريخ لنا من بطولاتٍ في العهود الإسلاميَّة الأولىٰ .

وحبّذا لو أنَّ أدباءنا ، وشعراءنا[1] وكتَّاب القصَّة من المسلمين يخلِّدون هذه البطولات بأعمالٍ فنِّيَّةٍ ، تكون وفاءً بحقِّهم ، وتذكيراً للجيل الصَّاعد بالاقتداء بهم .

وإني أرىٰ ألا نقتصر في عرض واقعنا على إبراز الصَّفحة المؤلمة ، بل يجب أن نضع إلى جانبها الصَّفحة المشرقة . . . الَّتي تتَّسع مساحتها يوماً بعد يوم .

إنَّ الطُّغيان لن يدوم ، وإنَّ لِلحقِّ سلطاناً لا يمكن أن يخمُد أبداً ، بل لا بدَّ له من أن يظهر ، ويتقدَّم الصُّفوف ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١]. إنّ كيد الأعداء ، وأذنابهم أضحىٰ كيداً واضحاً وضوح الشَّمس لكلِّ ذي عينين ، وقديماً قيل: ربَّ ضارةٍ نافعةٌ ، فلقد نبَّه كيدُهم وعدوانُهم الغافلين منَّا ، وعرَّفنا ذلك حقيقة أعدائنا ، وأكَّد لنا أنَّهم لن يكفّوا عنّا حتّى يردّونا عن ديننا ، ولقد أغراهم ما أحرزوا من نجاح فيما مضىٰ ؛ فجعلهم ذلك يُظهرون ما كانوا يُبطنون ، فبدؤوا يُعلنون ـ بكلِّ وقاحةٍ ـ: أنَّ عدوَّهم الآن هو الإسلام ، ويعلنون كراهيتهم للمسلمين ، ودينهم .

قال الرَّئيس الأمريكيُّ الأسبق «نيكسون» في كتابه «اقتناص اللَّحظة»

---

(١) وإني لأذكر بالثَّناء ، والتقدير ، والإعجاب الشَّاعر المبدع غازي القصيبي الذي نظم قصيدةً همزيةً رائعة سجَّل فيها بطولات الفتيات اللائي قُمْنَ بعملياتٍ استشهاديَّةٍ . وقد نشرها في جريدة الحياة اللندنيَّة في ٣٠/ ١/ ١٤٢٣هـ (١٣/ ٤/ ٢٠٠٢م) وأوردتها في الجزء الثَّالث من كتابي «أقوالٌ مأثورةٌ» وهو تحت الطَّبع .

ص ١٩٥ : [إنَّ الأمريكيِّين ينظرون إلى المسلمين على أنَّهم غير متحضِّرين ، وأنَّهم برابرةٌ مزاجيُّون ، لا يستقطبون الانتباه إلاَّ لأنَّ بعض قادتهم يحكمون مناطق تحتوي على ثلثي الاحتياطيِّ العالميِّ المعروف من النَّفط] .

وهو يقول : [ليس لأيِّ أمَّةٍ في العالم ـ ولا حتَّى للصِّين ـ صورةٌ سلبيَّـةٌ في الضَّمير الأمريكيِّ مثل صورة العالم الإسلاميِّ] .

* * *

أمَّا الحديث عن الكتاب فقد ذكرتُ ما فيه الكفاية في مقدِّمة الطَّبعة الأولىٰ .

وفَّقنا الله إلى ما يُرضيه ، وجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه . وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ ، وآله ، وصحبه ، والحمد لله ربِّ العالمين .

محمَّد بن لطفي الصَّبَّاغ

الرِّياض الأربعاء ١٧ شعبان سنة ١٤٢٣ هـ
الموافق لـ ٢٢ تشرين الأول سنة ٢٠٠٢ م

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

إنَّ الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيِّئات أعمالنا ، ومن الفتن المتلاطمة الَّتي يموج بها عصرنا ، والَّتي يمسك بعضُها برقاب بعض ، ونسأله تعالى أن يحفظنا منها ، وأن يتوفَّانا مسلمين غير ضالِّين، ولا مُضِلِّينَ ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله ، أدَّىٰ الأمانة ، وبلَّغ الرِّسالة ، ونصح الأمَّة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله ، وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدىٰ بهديه إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد ؛ فهذه تأمُّلاتٌ في عددٍ من جوامع الكلِم الَّتي صحَّت عن رسول الله ﷺ . أسأل الله سبحانه أن ينفع بها .

إنَّ العالَم اليوم مشرفٌ على الانهيار ، فقد أفلست نظرياتُه كلُّها ، وهو يتخبَّط باستمرار ، ولا يعصمه من هذا المصير الكالح إلا أن يبتغي الإسلام ديناً ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. لكنَّ ابتغاءه الإسلام متوقفٌ على معرفته ، وهنا يبدو لنا التَّقصير الضَّخم الَّذي يقع فيه علماءُ الإسلام ، ودعاتُه. ولئن كانت هناك أعذارٌ ، وموانعُ لبعض

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جوانب هذا التَّقصير ؛ إنَّ هناك جوانبَ أخرىٰ كثيرةً لا توجد أعذارٌ للمقصِّرين فيها ، ولا يمنعهم مانعٌ من قيامهم بالواجب. إنَّ على الدُّعاة ، والعلماء واجباً كبيراً ، يتلخَّص في عرْضِ مزايا هذا الدِّين العظيم ، وبيان قدرته على حلِّ مشكلات الإنسانيَّة ؛ الَّتي لم تستطع النَّظريات الفكريَّة والسِّياسيَّة الضَّخمة أن تحلَّها. . . وأن يكون هذا العرض بلغة العصر ، وأسلوبه.

هذا جانبٌ ، وهناك جانبٌ لا يقلُّ أهمِّيَّةً عنه في عرض مزايا الإسلام ، وهو أن يقوم مجتمعٌ على مبادئ الإسلام ، وأن يلتزم أبناؤه أحكامَه ، وأخلاقَه ويطبِّقوه في حياتهم في جوانبها المختلفة.

إنَّ الحروب ، والخصومات ، والشِّقاق ، والخلاف هو الَّذي يسود العالم الآن ، وفي الأزمنة الَّتي لا تكون فيها الحروب يكون الخوف من الحروب هو الشُّعور المزعج المقلق. والَّذين يُعرِضون عن هدىٰ الله يكونون في شقاقٍ دائم ، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ﴾ [البقرة: ١٣٧] وكذلك فإنَّ المعيشة الضَّنك ، والضَّائقات الاقتصاديَّة ، والأزمات السِّياسيَّة ، والشَّقاء بمختلف ألوانه ؛ ينتظر الَّذين يُعرضون عن شرع الله ، ودينه ، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وأنا لا أزعم: أنَّ هذا الكتاب يحقِّق الغرض الكبير الَّذي ينتظره النَّاس في كلِّ مكان ، والَّذي ينبغي أن يقوم به دعاة الإسلام ، وعلماؤه ، ولكنَّه لَبِنةٌ صغيرةٌ ، وإشارةٌ صغيرةٌ جدّاً على الطَّريق. وإنِّي لأحسب أنَّ كلَّ جهدٍ مهما كان متواضعاً سيقدم شيئاً في هذا المجال ، ولا سيَّما إن كان هذا الجهد موضوعيّاً.

إنَّ على كلِّ واحدٍ من رجال الإسلام أن يُسهم في عَرْضِ ما يعلم من حقائق هذا الدِّين ، وألاَّ يكِلَّ ، ولا يمَلَّ ، وأن يستغلَّ كلَّ فرصةٍ ، ويغتنم كلَّ مناسبةٍ ، ذلك لأنَّ للكلمة سلطاناً كبيراً ، ولا سيَّما إن قيلت في الوقت المناسب ، والأسلوب المحبَّب. والمسلمون جسدٌ واحدٌ يكمِّل بعضُهم بعضاً. فما ينبغي أن ننتظر رجلاً يقوم بجهدٍ كبيرٍ في كلِّ التَّخصُّصات ، بل يجب أن يتعاون

المخلصون كلٌّ في اختصاصه في بيان عظمة هذا الدِّين ، وقدرته على حلِّ المشكلات كلِّها ، وعلاج الأمراض كلِّها .

إنَّ هناك قضايا في الدِّين ، والحياة ، والمجتمع تعرَّض إليها الحديث النَّبويُّ بعمقٍ ، وأصالةٍ ، ووضوحٍ ، وقد درسنا في كتابنا هذا طائفةً من هذه القضايا ، من خلال دراستنا لعددٍ من الأحاديث ، وكانت دراستُنا موصولةً بالواقع الَّذي نعيشه ، وكان لتحليل الأسلوب البليغ ، والصُّورة المعبِّرة نصيبٌ في هذه الدِّراسة ، وكانت لنا جولاتٌ لغويَّـةٌ في المفردات ، والتَّراكيب ، وجولاتٌ فنِّـيَّـةٌ تكشف عن نواحي الجمال في هذا النَّصِّ الجميل .

إنَّ الحديث النَّبويَّ عالج القضايا كلَّها المتَّصلة بالدِّين من عالم الغيب ، والعقائد ، والمتَّصلة بالأحكام من عباداتٍ ، ومعاملات ، والمتَّصلة بالأخلاق ، والتَّرغيب ، والتَّرهيب ، وفيه طائفةٌ من القصص الرَّائعة بأنواعها المتعدِّدة .

إذاً فقد عالج الحديث النَّبويُّ القضايا المتَّصلة بالحياة من دينٍ ، ودنيا .

وقضايا الحياة ، وشؤون النَّاس لا يمكن أن تنتهي ، ولكنَّنا نجد في الحديث المعالم العامَّة الَّتي تنطوي تحتها هذه الصُّور المتجدِّدة من القضايا اليوميَّة .

وتبدو أهمِّية هذه الأحاديث بالنِّسبة للمسلم من أنَّ الحديث في مآله وحيٌ ، إمَّا ابتداءً بأن يكون الله سبحانه أوحىٰ إلى نبيِّه ﷺ معناه ، وإمَّا انتهاءً بأن يكون في أوَّل أمره اجتهاداً ، وأقرَّه الله عليه . ذلك لأنَّ الحديث نوعان :

١ ـ أوَّلهما توقيفيٌّ ، أُوحي معناه إلى النَّبيِّ ﷺ ، وهو قسمان :

قسمٌ صرَّح النَّبيُّ ﷺ بنسبته إلى الله سبحانه ، وهو ما عُرِف بالحديث القُدسيِّ .

وقسمٌ لم يصرِّح النَّبيُّ ﷺ بنسبته إلى الله سبحانه ، وهو ما يُطلق عليه : الحديث النَّبويُّ .

٢ ـ وثانيهما اجتهاديٌّ [استنبطه النَّبيُّ ﷺ بفهمه لكلام الله ، أو بتأمُّله في حقائق الكون ، وهذا النَّوع ليس من كلام الله ، ولكنَّ الله تبارك وتعالى لا يقرُّ نبيَّه ﷺ إن أخطأ في أمرٍ من أمور الشَّريعة ، بل يُنزِّل في ذلك قرآناً ، يبيِّن له الحقَّ ، كما حدث في قصَّة أسرىٰ بدر . . . أو يوحي إليه بالصَّواب ، ولا يكون هذا الوحي قرآناً][1] .

وهذه الفكرة تمنح معالجة الحديث لهذه القضايا في نظر المسلم أهمِّيةً كبرىٰ ، ذلك لأنَّ فكر الإنسان معرَّضٌ للخطأ ، أما ما ثبت : أنَّه وحيٌ سواءٌ كان قرآناً ، أو حديثاً صحيحاً ؛ فهو مبرَّأٌ من الخطأ .

ولذا فإنَّنا عندما نتحدَّث عن قضايا الحياة ، والدِّين ، والمجتمع من خلال تأمُّلاتٍ في جوامع كَلِمِه ﷺ نحسُّ أنَّنا واقفون على أرض من الصَّخر ، وأنَّ الحقائق الَّتي تقرِّرها تلك الأحاديث حقائقُ نهائيَّةٌ ، لا شكَّ فيها .

* * *

وإنِّي لأعتقد أنَّنا بحاجةٍ ماسةٍ إلى تأصيل ثقافتنا ، وفكرنا ، وذلك بأن نَسْتَقِيَ من الكتاب والسُّنَّة الحلول لمشكلاتنا ، وقضايانا ، وأن نفيد من فهم علمائنا المتقدِّمين لما جاء في هذين المصدرين ؛ ذلك لأنَّ لغةً غريبةً بدأت تسود في الأوساط الثَّقافيَّة القائمة في حياتنا ، فيها الكثير من المفردات ، والتَّراكيب ، والَّتي تحمل مضموناً بعيداً عن تصوُّراتنا ، وقِيَمِنا ، ولا يدري حقيقتها كثيرٌ من النَّاس .

إنَّ هذه الهُجْنة الثَّقافية أمرٌ خطيرٌ حقّاً ، وقد بدأنا نُحِسُّ به ، ونلمِسه في المجلاَّت ، وبعض الكتب ، ويبدو أنَّ هناك مَنْ يدعو لها ، ويروِّجها .

وقد تعاظم أسفي عندما رأيت بعض المجلاَّت الإسلاميَّة قد تسرَّبت إليها هذه الظَّاهرة .

ومن هنا كان حرصي على بحث قضايا الحياة ، والمجتمع ، والدِّين من

---

(١) انظر كتابي الحديث النَّبوي ص ١٥٨ من الطَّبعة الثَّامنة .

خلال تأمُّلاتٍ واعيةٍ في جوامع كَلِم المصطفىٰ ﷺ ، رغبةً في هذا التَّأصيل الَّذي أعدُّه مطلباً من أكثر المطالب إلحاحاً علينا في هذه الآونة .

وأحبُّ أن أُشير إلى أنَّ الأحاديث الَّتي اتَّخذتُها مدار البحث لهاتيك القضايا أحاديثُ صحيحةٌ ، وقد ذكرت مَنْ رواها من أصحاب مدوَّنات السُّنَّة ، وكنتُ أحدِّد الجزء ، والصفحة .

وقد ورد ـ في أثناء شرحي للحديث ـ أحاديثُ كثيرةٌ خَرَّجْتُ معظمها ؛ ليكون القارئ على بيِّنة من أمرها .

وأرجو أن يقدِّم هذا الكتابُ بعض الخدمة لكثيرٍ من طلبة العلم ، ويُعينهم على دراسة الحديث دراسةً فكريَّةً ، وأدبيَّةً ، ولكثيرٍ من الشَّباب الَّذين أقبلوا على الإسلام ، وارتضوه منهج حياةٍ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] . ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ١٠] . اللَّهمَّ علِّمنا ما ينفعُنا ، وانفعنا بما علَّمتنا ، وزدنا علماً ، وتوفَّنا مسلمين ، وألحقنا بالصَّالحين! وصلِّ وسلِّم على عبدك ، ورسولك محمَّدٍ ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين ، والحمد لله ربِّ العالمين .

محمَّد بن لطفي الصَّبَّـاغ

عمَّان ٢٠ المحرم سنة ١٤١١ هـ
١١ آب سنة ١٩٩٠ م

الحديث الأول

بدء الوحي

عن أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

كان أوّل ما بُدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة في النَّوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح[١]، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخلاء[٢]، فكان يخلو بغار حراءٍ، يتحنَّثُ فيه، ـ وهو التَّعبُّد ـ اللَّياليَ أولاتِ العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجع إلى خديجة، فيتزوَّد لمثلها، حتَّى فَجِئَهُ[٣] الحقُّ وهو في غار حراء.

فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: «فأخذني، فغطَّني[٤] حتَّى بلغ مني الجَهْدَ[٥]، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئٍ. فأخذني فغطَّني الثَّانية حتَّى بلغ منِّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئٍ. فأخذني فغطَّني الثَّالثة حتَّى بلغ منّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

---

(١) فلق الصُّبح: ضياؤه، وإنَّما يقال هذا في الشَّيء الواضح البيِّن.

(٢) الخلاء: الخلوة.

(٣) فجئه: جاءه الوحي فجاءةً، ويجوز أن تقول: فجأه.

(٤) غطَّني: عصرني، وضمَّني، وضغطني، وخنقني.

(٥) الجَهْدُ: الغاية والمشقَّة.

فرجع بها رسول الله ﷺ تَرْجُفُ بوادرُه[1] ، حتَّى دخل على خديجةَ ، فقال : «زمِّلوني زمِّلوني!»[2] فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ ، ثُمَّ قال لخديجة : «أي خديجةُ! مالي؟ . . . » وأخبرها الخبر ، قال : «لقد خشيتُ على نفسي!» .

قالت له خديجة : كلا ، أبشِرْ! فوالله لا يُخزيك اللهُ أبداً! واللهِ إنَّك لتصل الرَّحم ، وتصدُق الحديث ، وتحمل الكَلَّ[3] ، وتكسِب المعدوم[4] ، وتَقري الضَّيف ، وتُعين على نوائب الحقِّ .

فانطلقت به خديجة ؛ حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أَسَدِ بن عبد العُزَّىٰ ، وهو ابن عمِّ خديجة أخي أبيها ، وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة ، وكان يكتب الكتاب العربيَّ ، ويكتب من الإنجيل بالعربيَّة ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ .

فقالت له خديجة : أيْ عمِّ! اسمع من ابن أخيك .

قال وَرَقَةُ بن نَوْفَل : يا بن أخي! ماذا ترىٰ؟ فأخبره رسولُ الله ﷺ خبر ما رآه .

فقال له وَرَقَةُ : هذا النَّاموس الَّذي أُنزل على موسىٰ ﷺ . يا ليتني فيها جَذَعاً ! يا ليتي أكون حيَّاً حين يُخرجك قومُك!

قال رسول الله ﷺ : «أوَمُخرِجيَّ هم؟!» .

قال وَرَقَةُ : نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلا عودي . وإن يُدركني يومك ؛ أنصرْكَ نصراً مؤزَّراً[5] .

---

(١) البوادر : جمع بادرة وهي اللَّحمة التي بين المنكب والعنق تضطرب عند فزع الإنسان .

(٢) زمِّلوني : غطُّوني بالثِّياب ، ولفُّوني بها .

(٣) الكَلُّ : الضَّعيف ، وهو في الأصل : الثِّقل ، ويطلق الكَلُّ على الواحد ، وغيره ، والكَلُّ هو من لا يستقلُّ بأمره كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ [النحل : ٧٦] والكَلُّ : اليتيم ، والَّذي لا ولد له ، ولا والد .

(٤) أي : تكسب غيرك المال المعدوم ، أو تكسب الرَّجل المعدم .

(٥) صحيح البخاريِّ رقم ٣ ، ومسلم برقم ١٦٠ ، ومسند أحمد ٦/ ١٥٣ ، والتِّرمذي ٣٦٣٢ ، وانظر «الفتح» ١/ ٢٢ وشرح مسلمٍ للنوويِّ ٢/ ١٩٧ .

في هذا الحديث الجميل الجامع كلامٌ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ عن بدء الوحي ، وكلامٌ لرسول الله ﷺ ، وكلامٌ لخديجة رضي الله عنها ، وكلامٌ لورقة .

وفيه الحوار الَّذي جرىٰ بين الرَّسول ﷺ والمَلَك ، والحوار الَّذي دار بين الرَّسول وخديجةَ ، والحوار الَّذي كان بين الرَّسول وورقةَ ، وشاركت فيه خديجةُ أيضاً .

وفيه بيانٌ لطرفٍ من أخلاق النَّبيِّ ﷺ قرَّرته السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، وبيانٌ لجانبٍ من سلوكه ، وسيرته قبل النُّبوَّة ، وفيه تقريرٌ لسنَّةٍ مضت في أنبياء الله ؛ في أنَّهم يقابَلون بالتَّكذيب ، والعداوة ، ثمَّ الإخراج من الأوطان .

وفي هذا الحديث ما يدلُّ على سعة عقل السَّيدة خديجة ، وثقتها المُطلَقة في رسول الله ﷺ ، وحَدَبها على زوجها ، وإدراكها لسنن الله الكونيَّة .

وفيه ترجمةٌ موجزةٌ لورقة بن نوفل ، ولثقافته ، واطِّلاعه .

وسنفصِّل القول في هذه الأمور ؛ الَّتي عرض لها الحديث. وسنتأمَّل اللَّفتات البيانيَّة ؛ الَّتي نقف عليها فيه ، وهي كثيرةٌ ، ولكنَّنا قبل ذلك نرى أن نورد كلمةً عن رواية عائشة لهذا الحديث ، فعائشة رضي الله عنها لم تكن قد وُلِدت عند بدء الوحي ، ذلك لأنَّها ولدت في السَّنة التَّاسعة قبل الهجرة ، والبعثة كانت في السَّنة الثالثة عشرة قبل الهجرة. قال الإمام النَّوويُّ(١) : [هذا الحديث من مراسيل الصَّحابة رضي الله عنهم ، فإنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم تدرك هذه القضيَّة ، فتكون قد سمعتها من النَّبيِّ ﷺ ، أو من الصَّحابيِّ. وقد قدَّمنا في الفصول : أنَّ مُرْسَلَ الصَّحابيِّ حجَّـةٌ. . .] .

قلت : وفيما قاله الإمام النَّـوويُّ نظرٌ ، فإذا كانت سمعت هذه القصة من رسول الله ﷺ؛ فكيف يكون الحديث مرسلاً؟ إنَّه عندئذٍ يكون متَّصلاً. نعم لو

---

(١) شرح مسلم ٢/ ١٩٧ .

سمعته من أحد الصَّحابة ؛ كان من مراسيل الصَّحابة ، وهي صحيحةٌ دون شكٍّ ؛ لأنَّهم جميعاً عدولٌ. والله أعلم.

كانت أمُّ المؤمنين عائشة أفقه نساء المسلمين ، وأعلمهنَّ بالدِّين ، والأدب ، وقد أكثرت من الرِّواية عن رسول الله ﷺ ، وكان أكابر الصَّحابة يسألونها عن الفرائض ، فتجيبهم ، وروت عن أبيها أبي بكرٍ ، وعن عمر ، وعن غيرهما من الصَّحابة الشَّيء الكثير. كان مسروق إذا حدَّث عن عائشة؛ قال: حدَّثتني الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق ، حبيبة حبيب الله تعالى ، المبرَّأة من فوق سبع سمواتٍ. وقال أبو موسى الأشعريُّ: ما أشكل علينا ـ أصحاب محمَّدٍ ﷺ ـ أمرٌ قطُّ ، فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً.

ذكرنا: أنَّ في هذا الحديث أموراً عديدةً ، منها: بدء الوحي ، وعرضٌ لبعض صوره ، أمَّا بداية الوحي بالرُّؤيا الصَّادقة ؛ فهذا من التَّمهيد ، والتَّهيئة للوضع الجديد ؛ الَّذي سيكون فيه رسولُ الله ، والتدرُّج سنَّةٌ من سُنَن الله في خلقه ، نَتَبَيَّنُها في كثيرٍ من أمور الشَّرع ، وأحكامه. جاء في شرح مسلم: [إنَّما ابتدئ ﷺ بالرُّؤيا ؛ لئلا يفجأه الملك ، ويأتيه صريحُ النُّبوَّة بغتةً ، فلا تحتملها قوى البشريَّة ، فبدئ بأوَّل خصال النُّبوَّة تباشير الكرامة من صدق الرُّؤيا...] نعم إنَّ ابتداء الوحي بالرُّؤيا تمهيدٌ فيه معنى الرِّفق ، والتدرُّج ، وفيه إكرامٌ من الله لعبده ، ورسوله ؛ كيلا يفاجأ بالوحي ؛ الَّذي ذكر القرآن: أنَّه قولٌ ثقيلٌ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] إنَّ هذا التَّمهيد ليتيح للقلب العظيم ؛ الَّذي هو أثبت من الجبال أن يستعدَّ لتلقي هذا الوحي وهذا القرآن العظيم ، وقد قال ﷺ فيما أخرجه مسلمٌ: «رؤيا الأنبياء وحيٌ»(١) وقد جاء في القرآن الكريم ما يدلُّ على ذلك؛ فقد قال تعالى في قصَّة إبراهيم ، وإسماعيل

(١) أخرجه البخاريُّ من قول عُبيد بن عُمير في موضعين برقم ١٣٨ ورقم ٨٥٩ ، وعُبيد بن عُمَير من كبار التَّابعين ، ولأبيه عُمَير صحبةٌ. قال ابن حجر ١/ص٢٣٩: [وقوله: «رؤيا الأنبياء وحي» رواه مسلمٌ مرفوعاً].

عليهما السَّلام: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠١ ـ ١٠٥] ووجه الاستدلال: أنَّ الرُّؤيا لو لم تكن وحياً؛ لما جاز لإبراهيم عليه السَّلام الإقدام على ذبح ولده[١]، وكذلك لم يقل الابن لأبيه: افعل ما تؤمر، فقد أدرك: أنَّ الرُّؤيا وحيٌ من الله تضمَّن أمره بذبح ولده.

بل لقد دلَّت الأحاديث الصَّحيحة: أنَّ الرؤيا من الرَّجل الصَّالح جزءٌ من بضعٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة[٢].

وذكر النَّوويُّ، وابن حجر: أنَّ هناك مع الرُّؤيا الصَّادقة كانت إرهاصاتٌ أخرىٰ تمهِّد للنُّبوة[٣] ثمَّ حَبَّب الله إليه الخلوة؛ ليكون أكثر استعداداً لتلقِّي الوحي، ففي الخلوة فراغ القلب، وصفاء الذِّهن، والبعد عن مشكلات الحياة، وصوارف العيش، والخلوة معينةٌ على التأمُّل، والتَّفكُّر، وبها ينقطع المرء عن مألوفات البشر، ويتخشَّع قلبه.

إنَّ تلقِّي الوحي أمرٌ ليس بالهيِّن... إنَّه يحتاج مستوىً عالياً جدّاً من السُّموِّ الرُّوحيِّ، وقوَّةً في التَّحمُّل كبيرةً جداً. والله يصنع رسله على عينه... فكان ما جاء في الحديث تمهيداً، وتوطئةً.

قال الأستاذ سيِّد قطب في حادثة الوحي: [إنَّه حادثٌ ضخمٌ. ضخمٌ جدّاً. ضخمٌ إلى غير حدٍّ. ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته؛ فإنَّ جوانب كثيرةً منه ستظلُّ خارج تصوُّرنا. إنَّه حادثٌ ضخمٌ بحقيقته، وضخمٌ بدلالته،

---

(١) الفتح ١/ ٢٣٩.
(٢) انظر أحاديث كثيرة في الرؤيا في صحيح البخاري بأرقام ٦٩٨٢ ـ ٧٠٤٧ وصحيح مسلم ٢٢٦١ إلى ٢٢٧٥ هذا وهناك كلمةٌ كتبتُها عن الرُّؤيا في كتابنا «توجيهاتٌ قرآنيَّة» ١٧٥ ـ ١٨٨.
(٣) منها رؤية الضَّوء في اليقظة، وكلام الحَجَرِ، والشَّجَرِ، وسماع الصَّوت. الفتح ٢/ ٢٣ والنَّووي ٢/ ١٩٨.

وضخمٌ بآثاره في حياة البشريّة جميعاً ، وهذه اللَّحظة الَّتي تمَّ فيها هذا الحادث تعدُّ ـ بغير مبالغة ـ هي أعظم لحظةٍ مرَّت بهذه الأرض في تاريخها الطَّويل.

ما حقيقة هذا الحادث الَّذي تمَّ في هذه اللَّحظة؟

حقيقته: أنَّ الله جلَّ جلاله العظيم ، الجبَّار ، القهَّار ، المتكبِّر ، مالك الملك كلِّه قد تكرَّم في عليائه ، فالتفت إلى هذه الخليقة المُسمَّاة بالإنسان ، القابعة في ركنٍ من أركان الكون؛ لا يكاد يرىٰ؛ اسمه: الأرض. وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحدٍ منها؛ ليكون ملتقىٰ نوره الإلهيِّ ، ومستودع حكمته ، ومهبط كلماته ، وممثِّل قدره الَّذي يريده سبحانه بهذه الخليقة ، وهذه حقيقةٌ كبيرةٌ. كبيرة إلى غير حدٍّ. تتكشَّف جوانبُ من عظمتها حين يتصوَّر الإنسان ـ قدر طاقته ـ حقيقة الألوهيَّة المطلقة الأزليَّة الباقية ، ويتصوَّر في ظلِّها حقيقة العبوديَّة المحدودة الحادثة الفانية ، ثمَّ يستشعر وقع هذه العناية الربَّانيَّة بهذا المخلوق الإنسانيِّ ، ويتذوَّق حلاوة هذا الشُّعور ، ويتلقَّاه بالخشوع ، والشُّكر ، والفرح ، والابتهال.. وهو يتصوَّر كلمات الله تتجاوب بها جنباتُ الوجود كلِّه منزَّلةً لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضَّئيلة.

وما دلالة هذا الحادث؟

دلالته ـ في جانب الله سبحانه ـ: أنَّه ذو الفضل الواسع ، والرَّحمة السَّابغة ، الكريم ، الودود ، المنَّان يفيض من عطائه ، ورحمته بلا سببٍ ، ولا علَّة سوىٰ أنَّ الفيض ، والعطاء بعض صفاته الذَّاتيَّة الكريمة.

ودلالته ـ في جانب الإنسان ـ أنَّ الله سبحانه قد أكرمه كرامةً لا يكاد يتصوَّرها ، ولا يملك أن يشكرها ، وأنَّ هذه وحدها لا ينهض لها شكرُه؛ ولو قضىٰ عمره راكعاً ساجداً... هذه... أن يذكره الله... ويختار من جنسه رسولاً يوحي إليه بكلماته. وأن تصبح الأرضُ مسكنُه... مهبطاً لهذه الكلمات الَّتي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوعٍ ، وابتهال.

فأمَّا آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشريَّة كلِّها؛ فقد بدأت منذ اللَّحظة

الأولىٰ ، بدأت في تحويل خطِّ التَّاريخ ، منذ أن بدأت في تحويل الضَّمير الإنسانيِّ . . منذ أن تحدَّدت الجهة الَّتي يتطلَّع إليها الإنسان ، ويتلقَّىٰ عنها تصوُّراته ، وقيمه ، وموازينه . . إنَّها ليست الأرض ، وليس الهوىٰ . . إنَّما هو الوحي الإلهيُّ][1] .

حياته قبل البعثة وموقف خديجة :

في حديث السَّيدة عائشة أمِّ المؤمنين وصفٌ لحياة النَّبيِّ ﷺ قبل البعثة ، ولحياته في المدَّة الَّتي ابتدأ الوحي يتنزَّل فيها ، وذكرٌ لموقف خديجة العظيم . . تلك المرأة الفاضلة ، والزَّوج الحنون العاقلة ، الَّتي كانت عوناً لزوجها في هذا الحدث العظيم ، فهدَّأت من رُوْعِه ، وخفَّفت من ألمه ، وتأثُّره ، وصَحِبَتْهُ إلى مشيرٍ ناصح .

وأُحبُّ هنا أن أشير إلى أنَّ في مدوَّنات الحديث كلاماً رائعاً جميلاً جرىٰ على ألسنة بعض الصَّحابة ، وهو متَّصلٌ بالنَّبيِّ ﷺ ، وهو ـ عند المحدِّثين ـ حديثٌ ؛ لأنَّ تعريف الحديث هو قول النَّبيِّ ﷺ ، وفعله ، وتقريره ، ووصفه .

وواضح من هذا التَّعريف : أن ثلاثة أنواع من الحديث وصلت إلينا بأسلوب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ، فحكاية فعله ، وإيراد وصفه ، ونقل تقريره للأمور الَّتي جرت بمحضره ؛ كلُّ أولئك كان بأسلوب الصَّحابة ، وهناك روائع من هذه الأقوال يقف عليها المرء في كتب السُّنَّة ، وحديثنا الَّذي نحن الآن في صدد دراسته واحدٌ منها ، وأذكر منها أيضاً : قصَّة الثَّلاثة الَّذين خُلِّفوا ، وحديث الإفك ، وغيرهما كثيرٌ .

طرق الوحي :

لننظر إلى قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ : «أوَّل ما بدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة ، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبْح» .

يرىٰ الرُّؤيا في المنام . . وإذا بها تتحقق بحذافيرها في اليقظة بوضوحٍ تامٍّ ،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٦ تفسير سورة العلق .

ولا يوجد فرقٌ أبداً بين ما يراه في النَّوم ، وما يواجهه في اليقظة . وقد عبَّرت السَّيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن ذلك بقولها : «فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح» .

وفلق الصُّبح : ضياؤه ، ولا يقال هذا المثل إلا في الشَّيء الواضح البيِّن : إنَّ ضياء الفجر يعمُّ الوجود ، لا يخفىٰ على مَنْ ينظر إلى الأفق ، ولا سيَّما إن كان في الصَّحراء . وهذه الصُّورة معبِّرةٌ عن المعنىٰ أوضحَ تعبير .

ثمَّ ذكرت رضي الله عنها الطَّريقة الثَّانية من طرق الوحي ، وهي الَّتي تكون بوساطة المَلَك جبريل عليه السَّلام .

والوحي لغةً هو : الإعلام الخفيُّ السَّريع الخاصُّ بِمَنْ يوجَّه إليه ؛ بحيث يخفىٰ على غيره ، أمَّا معنىٰ الوحي في الشَّرع ؛ فهو : تكليم الله سبحانه واحداً من عباده بطريقةٍ من طرق الوحي[1] .

والوحي أمرٌ غيبيٌّ ، والإيمان بالغيب من أوَّل صفات المؤمنين ، ولا يكون المرء مؤمناً إلا بأن يؤمن بالغيب ، وما دام كذلك ؛ فلا نستطيع أن نفصِّل القول فيه إلا بحدود ما ورد في شأنه من النُّصوص الشَّرعيَّة .

ذكرت السَّيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ الحالة الَّتي كان عليها ﷺ عندما أتاه المَلَك .

لقد كان ﷺ يتحنَّث في الغار البعيد عن البلدة ، وجَلَبَتِها ، النَّائي عن مساكن النَّاس ، وأسواقهم ، ومراعيهم ، ومزارعهم ، الجاثم على قمَّة الجبل . وقد أتيح لي أن أزور هذا الغار . . فوجدت الصُّعود إليه صعباً عسيراً ، والوصول إلى سفحه من مكَّة يقتضي سيراً طويلاً ؛ حتَّى تُقطع المسافة .

إنَّ الإقامة في هذا الغار تحقِّق خلوةً حقيقيَّةً ، وعزلةً شعوريَّةً تامَّةً ، وبُعْداً عن المجتمع الَّذي يقوم على الشِّرك ، ويجثو تحت كثيرٍ من المظالم الاجتماعيَّة .

---

(١) انظر كتابي «المحاثُ في علوم القرآن» ٤٥ .

كان ﷺ يأخذ معه زاده ، وشرابه ، ويذهب إلى ذاك الغار يتعبَّد ، وهذه العبادة كانت على دين إبراهيم . وذكر ابن حجر : أنَّ كلمة (يتحنَّث) وردت في سيرة ابن هشام . (يتحنَّف) وشرَحها بقوله : يتَّبع الحنيفيَّة ، وهي دين إبراهيم .

وقد جاء تفسير هذه الكلمة في متن الحديث ـ وهو مدرجٌ من كلام الزُّهريِّ كما رجَّح ذلك أهل العلم ـ قال : [وهو التعبُّد] وهذا التَّفسير تفسيرٌ بالمآل ، لأنَّ الكلمة إذا كانت : (يتحنَّف) فقد رأينا معناها ، وهو : يتبع دين إبراهيم ، وإذا كانت (يتحنَّث) فمعناها : يلقي الحِنْث ، ويتجنَّبه ، والحنث : الإثم ، كما قيل (يتأثَّم) إذا كفَّ عن الإثم . و(تحرَّج) إذا تحفَّظ من الحرج[١] .

وجاء في سيرة ابن هشام ما يأتي : «كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء كلَّ سنةٍ شهراً ، وكان ذلك ممَّا تحنَّثُ به قريشٌ في الجاهلية . . . . وقال ابن هشام تقول العرب : التَّحنُّث ، والتَّحنُّف يريدون الحنيفيَّة ، فيبدلون الفاء من الثَّاء ، كما قالوا : جدث ، وجدف ، يريدون القبر]»[٢] .

وقولها (اللَّيالي أولات العدد) قال ابن حجر : [وإبهام العدد لاختلافه ، كذا قيل ، وهو بالنسبة إلى المُدد الَّتي يتخلَّلُها مجيئه إلى أهله ، وإلا فأصل الخلوة قد عرفت مدَّتها ، وهي شهرٌ ، وذلك الشَّهر كان رمضان ، رواه ابن إسحاق] .

إنَّ في إيثارهِ ﷺ الخلوة ، والبُعد عن ذاك المجتمع الجاهليِّ القائم على الشِّرك درساً لأولئك الَّذين تضطرهم ـ ظروفٌ قاسيةٌ لا يقوون على التمرُّد عليها ـ تضطرهم إلى العيش في بلاد الكفر ، والجاهليَّة ، والشِّرك ؛ إنَّ عليهم أن ينأوا بأنفسهم عن مخالطة المشركين ، ومعايشتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ذلك لأنَّ العزلة عن هؤلاء ، والبُعد عنهم يجعل المرء ناجياً من التأثُّر الكبير بهم ، ويتيح له أن يقيم وسطاً فاضلاً ؛ ولو في عالم الشُّعور ، ويعينه في

---

(١) انظر فتح الباري ١/ ٢٣ والمصباح المنير مادة : أثم .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥١ تحقيق السقا وزميليه .

الوصول إلى هذه الغاية أن يصادق الكتب الجيِّدة ، ويأنس إليها ، ويعاشرها ، وأن يتَّخذ العبادة الواجبة ، والمندوبة وسيلةً إلى الارتقاء بروحه ، والتَّسامي عن الواقع المنحرف ، وأن يستمرَّ على هذا حتَّى يلقى ربَّه ، أو يجعل الله له سبيلاً .

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ؛ قال : قال رجلٌ : أيُّ النَّاس أفضلُ يا رسول الله؟!

قال : «مؤمنٌ مجاهدٌ بنفسه ، وماله في سبيل الله» .

قال : ثمَّ من؟

قال : «رجلٌ معتزلٌ في شِعْبٍ من الشِّعاب ، يعبد ربَّه [وفي روايةٍ : يتَّقي الله] ويدع النَّاس من شرِّه» متَّفقٌ عليه[1] .

ومن الأمور المقرَّرة : أنَّ الجليس الصَّالح خيرٌ من الوَحدة ، والوَحدة خيرٌ من جليس السُّوء . فقد أخرج الحاكم من حديث أبي ذرٍّ مرفوعاً : «الوَحدة خيرٌ من جليس السُّوء»[2] .

بينما كان ﷺ في غار حراء يتعبَّد الله ؛ إذ فاجأه الملك ، فقال : اقرأ . قال : «ما أنا بقارئٍ» قال ﷺ : «فأخذني ، فغطَّني ؛ حتَّى بلغ منِّي الجَهْدَ» . . وذكر أنَّ ذلك تكرَّر منه ثلاث مرَّاتٍ .

لنتصور حال هذا النَّبيِّ الكريم ؛ وهو جالسٌ في مكانٍ خالٍ في ذاك الغار ، يتعبَّد ربَّه في هدوءٍ ، وصفاءٍ ، واستمتاعٍ بالتأمُّل ، والفكر ، لا يعكِّر انفراده شغلٌ ، ولا جلبةٌ ، ولا يقطعه عمَّا هو فيه إنسانٌ ، ولا حيوانٌ . . . إذا هو يفاجأ بالمَلَكِ . . . وهو ﷺ لا يعرف : أنَّه مَلَكٌ .

وبدأه هذا الطَّارق الَّذي اقتحم عليه خلوته بقوله : (اقرأ) ، يخاطب بهذا الطَّلب الرَّجل الأميَّ ؛ الَّذي لم يكن يتلو من كتابٍ ، ولم يكن يخطُّ بيمينه سطراً ، ولا كلمةً . . إنَّها مفاجأةٌ مخيفةٌ مفزعةٌ . فيردُّ ﷺ عليه : «ما أنا بقارئ»

---

(١) البخاريُّ ١١ برقم ٦٤٩٤ ومسلم ٣/ برقم ١٨٨٨ .

(٢) المستدرك ٣/ ٣٤٣ وقال ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٣١ : وسنده حسنٌ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعندئذٍ يعمِد هذا الوافدُ الضَّخم القوي ، فيضمُّه إليه ضمَّةً شديدةً ، ويعصِره عصراً كاد يخنُقه حتَّى بلغ منه الجَهْد . . . ثمَّ أرسله ، وطلب إليه ثانيةً أن يقرأ ، فأجابه : أنَّه ليس بقارئٍ . . . فيغطُّه . . . ويتكرَّر الطَّلب ، والغطُّ ثلاث مرَّاتٍ ، ثمَّ يقول له : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

ثمَّ لا نجد ذكراً لِلْمَلَكِ . . فقد يكون انصرف بعد ذلك . . وغاب عن ناظريه . . وغيابُه المفاجئ يزيد في خوف النَّبيِّ ، واضطرابه .

والنَّصُّ يذكر اضطراب الرَّسول ﷺ ، وفزعه من هذه الحادثة ، فقد رجع إلى خديجة ، وفؤادُه يرجُف ، وبوادره تضطرب ، وهو خائفٌ مروَّعٌ .

ولجأ إلى زوجته الصَّالحة ؛ وهو على هذه الحالة من الفزع ، والاضطراب ، والخوف ، وطلب منها أن تغطِّيه بالثِّياب ، وتلفَّه بها ، شأن من أصابته رِعدةٌ من البرد . . والمفاجأة المذهلة تنعكس على الجسم بآثارٍ كثيرةٍ ، فزمَّله أهله . . حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، وعاد إلى طبيعته .

وهنا قال لخديجة : يا خديجة! مالي؟ يسأل : ماذا أصابني؟ ما هذا الَّذي رأيت؟ وما هذا الَّذي سمعت؟ وصارحها بحقيقة موقفه : أنه أصبح يخشىٰ على نفسه ـ إن عاوده هذا الَّذي جاءه ـ أن يمرض ، أو يموت . فأجابته خديجة تطمئنه بأنَّه لن يصيبه مكروهٌ ، وأنَّ الله لن يخذلَه أبداً ، ولن يخزيه .

إنَّ الجسم البشريَّ بتركيبه الحاليِّ لا يستطيع أن يتحمَّل رؤية المَلَكِ ، لا سيَّما إن كان على صورته الَّتي خلقه الله عليها إلا بعناءٍ ، وشدَّةٍ ، وجَهْدٍ ، ومشقَّةٍ ، فما القول إذا رافق الرُّؤية غطٌّ ، وضمٌّ ، وعصرٌ حتَّى بلغ منه الجَهْد؟ وما القول إذا تكرَّر ذلك ثلاث مرَّاتٍ؟

ليس من شكٍّ في أنَّ هذه الحادثة أثَّرت على جسد الرَّسول تأثيراً واضحاً ، وقد بقي ذاك الأثر جلياً في صحَّته ، وشعوره بالبرد ، ولون وجهه مدَّةً غير قصيرةٍ . . بقي حتَّى وصل ﷺ إلى بيته . والمسافة بين غار حراء وبيته ﷺ مسافةٌ غير قليلةٍ ، وقطْعُها مشياً على الأقدام يستغرق وقتاً طويلاً .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولمّا رأته خديجة ، وسمعت طلبه أن يزمّلوه ؛ سارعت بلهفةٍ مشكورةٍ ، وعنايةٍ تامّةٍ، واهتمامٍ كريمٍ، سارعت إلى تلبية طلبه تزمّله، وتغطّيه، وتدفئه.

قال العيني: [الحكمة في غطّه ثلاث مرّات ؛ ليُظهِر في ذلك الشِّدَّة ، والاجتهاد في الأمور وأن يأخذ الكتاب بقوّة ، ويترك الأناة ، فإنّه أمرٌ ليس بالهوينى ، وكرّرهُ ثلاثاً مبالغةً في التثبُّت][1].

واستنتج بعض أهل العلم: أنَّ هذا الغطَّ المتكرِّر يدلُّ على الحضِّ على التَّعليم ، ولو كان فيه مشقَّةٌ[1].

إنَّ موقف أمِّ المؤمنين السَّيدة خديجة لم يقتصر على العناية بمطالب زوجها ؛ الَّتي طلبها من تغطية له بالثِّياب ، بل تلقَّته بالبشر ، وخفَّفت عنه ما يُعاني ، وانتظرت حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، وجاوزت ذلك إلى أمرين اثنين :

أمّا أوّلهما ؛ فهو إدراك سنَّةٍ من سنن الله في خلقه ، وهي أنَّ من كان متَّصفاً بالصِّفات الكريمة ؛ الَّتي كان يتحلَّى بها زوجها العظيم لا يمكن أن يُضيِّعه الله ، ولا أن يُخزيه ، ثمَّ بدأت تذكر له هذه الصِّفات من صلة الرَّحم ، وصدق الحديث ، وقِرى الضيف ، ومساعدة الفقراء ، والمعوزين. . .

وأمّا ثانيهما ؛ فهو إدراكها : أنَّ هذا الحادث ؛ الَّذي قصَّه عليها زوجها بدايةٌ لدينٍ جديدٍ عظيمٍ ، يخالف ما كان عليه قومُها ، وأرادت أن تتأكَّد من هذا ، وأن تُقنع زوجها به بأن تستشير عالماً خبيراً موثوقاً ، ولكن أنَّىٰ تجده ؛ وأهل مكَّة مشركون ليس فيهم مَنْ يصلح أن يكون ذاك المستشار الأمين ، ويبدو أنَّها تذكَّرت ابن عمٍّ لها ، ترك دين آبائه ، ودخل في دين النَّصرانيَّة ، على يد بعض الرهبان الذين لم تدخل عليهم الشوائب التي دخلت النصرانية فحرَّفتها. . . فاصطحبت زوجها ، وانطلقت به حتَّى أتت ابن عمِّها هذا ورقة بن نوفل ، فأخبره: أنَّ هذا هو النَّاموس الذي أُنزل على موسىٰ. . وتحقَّق

---

(١) عمدة القاري للعيني ١/ ٦١.

لورقة ما كان وقف عليه في الكتب من بشارة الأنبياء السَّابقين بنبيٍّ يأتي ، يتَّصف بكذا ، وكذا من الصِّفات .

سندرس كلام ورقة في موضع آخر ، ولكنَّ الَّذي يعنينا هنا هو موقف خديجة ، وبعدُ نظرها ، وليس من شكٍّ في أنَّ لقاء النَّبيِّ ﷺ ورقة ، ومحاورته له أدخلا على نفسه الطُّمأنينة ، والثِّقة ، وكان ذلك كلُّه من بركة رأي السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، وأرضاها .

ترجمة ورقة :

وفي هذا الحديث ترجمةٌ موجزةٌ لورقةَ بن نوفل ، وذكرٌ لثقافته الواسعة ، فقد جاء في رواية البخاري : أنَّه كان يكتب الكتاب العبرانيَّ ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ ، وفي رواية مسلمٍ : أنَّه كان يكتب الكتاب العربيَّ ؛ أي : أن الرَّجل تمكَّن من معرفة النَّصرانيَّة ومن اللُّغتين ، حتَّى استطاع أن يكتب فيهما ، وأن يستوعب ما جاء في الإنجيل مترجماً ، أو باللُّغة العبرانيَّة[1] وكان شاعراً ، وقد ذكر أصحاب السِّير شعراً له ، والله أعلم بصحَّة ذلك .

فمن ذلك قوله[2] :

فَإِنْ يَكُ حَقّاً يَا خَدِيْجَةُ فَاعْلَمِي ... حَدِيثُكِ إِيَّانَا فَأَحْمَدُ مُرْسَلُ

وما أظنُّ ذلك إلا منحولاً .

ومن الشِّعر الَّذي نسبوه له قولُه :

لَقَدْ نَصَحْتُ لأَقْوَامٍ وَقُلْتُ لَهُمْ ... أَنَا النَّذِيْرُ فَلاَ يَغْرُرْكُمْ أَحَدُ
لاَ تَعْبُدُنَّ إِلَهاً غَيْرَ خَالِقِكُمْ ... فَإِنْ دَعَوْكُمْ فَقُولُوا بَيْنَنَا جَدَدُ

* * *

---

(١) انظر فتح الباري ١/ ٢٥ .
(٢) عمدة القاري للعيني ١/ ٦٤ .

لا شَـيْءَ مِمَّـا تَـرَىٰ تَبْقَـى بَشَـاشَتُـهُ ... يَبْقَـىٰ الإلٰـهُ وَيَفْنَـىٰ المَـالُ وَالـوَلَـدُ
لَـمْ تُغْـنِ عَـنْ هُـرْمُـزٍ يَـوْمَـاً خَـزَائِنُـهُ ... والخُلدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا
وَلاَ سُلَيْمَـانَ إِذْ تَجْـرِي الـرِّيَـاحُ لَـهُ ... وَالإنْـسُ وَالْجِـنُّ فِيْمَـا بَيْنَهَـا بُـرُدُ
أيـنَ الملـوكُ الَّتـي كَـانَـتْ لِعـزتهـا ... مِـن كُـل أوب إليهـا وَافِـد يَفِـدُ
حَـوْضٌ هُنَـالِـكَ مَـوْرُودٌ بِـلاَ كَـدَرٍ ... لاَ بُـدَّ مِـنْ وِرْدِه يَـوْمَـاً كَمَـا وَرَدُوا

وهو منحولٌ أيضاً فيما نظنُّ ، والله أعلم .

وقال ابن القيِّم : [وأسلم القسُّ ورقة بن نوفل ، وتمنَّى أن يكون جَذَعاً إذ يُخرِج رسولَ اللهِ قومُه .

وفي جامع التِّرمذيِّ : أنَّ رسول الله ﷺ رآه في المنام في هيئةٍ حسنةٍ . وفي حديثٍ آخر : أنه رآه في ثيابٍ بياضٍ][(١)] .

وأخرج الحاكم قوله ﷺ: «لا تسبُّوا ورقة فإنِّي رأيت له جنَّةً أو جنَّتين»[(٢)] وصحَّحه على شرط الشَّيخين .

خديجة ، وعائشة :

تروي عائشة في هذا الحديث ما صنعته خديجة من تقوية قلب النَّبيِّ ﷺ ؛ لتلقِّي ما أنزل الله عليه ، فقال لها : «لقد خشيتُ على نفسي» فقالت : كلاَّ والله! لا يخزيك الله أبداً . . . ، وذكرتْ خصاله الحميدة ، وتوجَّهت به إلى ورقة .

وممَّا لفت نظري في هذا الحديث الموقفُ الموضوعيُّ المنصف الَّذي وقفت فيه عائشة راوية هذا الحديث من خديجة ، وموقفها العظيم . . وعائشة كانت تغار منها مع أنَّهما لم تجتمعا ؛ لأنَّها كانت تعلم مكانة خديجة في قلب الرَّسول ﷺ ، وقد حاولت مرَّةً أن تذكر بعض المزايا ، والصِّفات الَّتي تفوق بها خديجةَ ، فما كان من الرَّسول الوفيِّ إلا أن ذكر فضل خديجة ، وعظيم مكانتها .

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢١ ط دمشق .
(٢) المستدرك ٢/ ٦٠٩ .

قال ابن حجر في «الإصابة»: [وقد أثنىٰ النَّبيُّ ﷺ على خديجة ما لم يُثْنِ على غيرها، وذلك في حديث عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتَّى يذكر خديجة، فيحسن الثَّناء عليها، فذكرها يوماً من الأيَّام، فأخذتني الغَيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها. فغضب، ثمَّ قال: «لا والله! ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي؛ إذ كفر النَّاس، وصدَّقتني؛ إذ كذَّبني النَّاس، وواستني بمالها؛ إذ حرمني النَّاس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النِّساء». قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بعدها بِسُبَّةٍ أبداً][(١)].

ومع ذلك فقد ذكرتْ في هذا الحديث فضلَها وعظيمَ عقلها.

نعم يصوِّر هذا الحديث خديجة مهتمَّة أعظم الاهتمام بالرَّسول الكريم، تعُدُّ قضيته قضيَّتها.. ويبدو أنَّها كانت أوَّل من آمن بالله، ورسوله، وصدَّقت بما جاء به، فخفَّف الله بذلك عن رسول الله ﷺ. قال ابن حجر: [فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من الردِّ عليه، فيرجع إليها إلَّا تثبّته، وتهوِّن عليه أمر النَّاس][(٢)].

وهذا التَّعاون بين الزَّوجين هو الَّذي يُعطي الحياة قيمتها، ويُبرز الهدف السَّامي من أهداف الزَّواج، ويجعل الزَّوج يُحِسُّ بالسَّعادة، ويثبِّته على الحقِّ، ويدفعه إلى تحقيق ما يتطلَّع إليه.

إنَّ الَّذي يقف في الأزمات وحيداً، ويواجه المشكلات منفرداً إنسانٌ شقيٌّ، لا يعرف طعم السَّعادة، ويؤلمه أن يُحِسَّ: أنَّه في وادٍ، وأنَّ زوجته في وادٍ آخر؛ مع أنَّها أقربُ النَّاس إليه.

وقد يؤثِّر عليه هذا الوضع، فيجعله يضعُف، ويُخفِق، وينهزم؛ لأنَّ إحساس الإنسان بالتفرُّد يضاعف عليه الألم، يتألَّم من قسوة الأزمة، ويتألَّم مرَّةً أخرىٰ لخذلان النَّاس له، وتركهم له وحيداً يواجه ما يواجه.

---

(١) «الإصابة» ٤/ ٢٧٥.
(٢) «الإصابة» ٤/ ٢٧٣.

إنَّ الزَّوجة هي أولىٰ النَّاس بمساعدة زوجها عندما يقع في أزمةٍ ، تقف معه ، وتمدُّه بالرَّأي ، والمشورة ، وتخفِّف عنه العناء ، وتزيل عنه الخوف ، وتقيه من اليأس .

ولقد كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ الزوجة الصَّالحة المثاليَّة في كلِّ حينٍ ، ولا سيَّما عندما واجه الرَّسول ﷺ ما واجه في غار حراء ، وعاد إلى بيته ترجف بوادره ، فقال : زمِّلوني! زمِّلوني! . . . فزمَّلته ، واعتنت به ؛ حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، ثمَّ قال لخديجة : «أي : خديجة! مالي؟ ما الَّذي أصابني . . والله! لقد خشيتُ على نفسي» قالتْ له خديجة : كلاَّ ، أبشر! فوالله لا يخزيك الله أبداً! والله! إنك لتصل الرَّحم ، وتصدقُ الحديث ، وتحملُ الكلَّ ، وتكسبُ المعدوم ، وتقري الضَّيف ، وتعينُ على نوائب الحقِّ .

إنَّ هذا القول ليدلُّ على مدىٰ ثقتها بزوجها . . . لقد نفت السَّيدة خديجة أن يخزيه الله ، وأقسمت على ذلك [ثمَّ استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبداً بأمرٍ استقرائيٍّ ، ووصفته بأصول مكارم الأخلاق ؛ لأنَّ الإحسان إمَّا إلى الأقارب ، أو إلى الأجانب ، وإما بالبدن ، أو بالمال ، وإما على مَنْ يستقلُّ بأمره ، أو من لا يستقلُّ ، وذلك كلُّه مجموعٌ فيما وصفته به][1] .

ومن الصِّفات الَّتي وصفته بها : قِرى الضيف ، والإعانة على نوائب الحقِّ ، قال ابن حجر : [وقولها : وتعين على نوائب الحقِّ كلمة جامعةٌ لأفراد ما تقدَّم ولِمَا لم يتقدَّم][2] .

وهذه الأخلاق كانت فيه ﷺ قبل أن يكرمه الله بالنُّبوَّة ، ولمَّا بعثه الله بشيراً ، ونذيراً ؛ دعا إلى هذه الأخلاق ، وأصَّلها ، وكيف لا يكون كذلك ؛

---

(١) «فتح الباري» ١/ ٢٤ .
(٢) «فتح الباري» ١/ ٢٥ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهو ﷺ إنَّما بُعِث ليتمِّم مكارم الأخلاق[١].

وهذه الأخلاق كلُّها اجتماعيَّةٌ، تعود على مَنْ يتعامل معهم، ويعاشرهم بالخير الوفير، فتترك فيهم الإعجاب، والمحبَّة، والتَّعلُّق، وقد بدأتها خديجة بدائرة الأسرة، والعشيرة، فذكرت: أنَّه يصل الرَّحم، وصلة الرَّحم مَنْقَبَةٌ عظيمةٌ، تجعل البركة في العمر، ومن لم يكن فيه خيرٌ لأهله لم يكن فيه خيرٌ للآخرين.

ثمَّ ذكرت دائرةً أوسع... يقري الضَّيف، ويغيث الملهوف، ويقف إلى جانب الذين تنزل بهم النَّوائب، وتحلُّ بساحتهم المصائب، وينفق، ويعطي، ويعين الضُّعفاء الَّذين لا يستطيعون تصريف أمورهم بأنفسهم، وهذا الَّذي عنت بقولها: (الكَلَّ) والكَلُّ: هو الذي لا يستقلُّ بأمره ويكون عبئاً على مَنْ يحمله، كما ذكرنا آنفاً.

وذكرتْ صفةً كريمةً، وهي صدق الحديث، فهو الصَّادق الأمين، والصِّدق رأس الفضائل، وهو من أشرف الخصال، وهو يجعل صاحبه ثقةً محبوباً عند النَّاس، وينتهي به إلى الجنَّة.

إنَّ في صنيع خديجة دروساً عدَّةً:

١ ـ منها: جواز أن يُذكر الرَّجل بما فيه من الخير؛ إذا كان ذلك لا يضرُّه.

٢ ـ ومنها: أنَّ مكارم الأخلاق، والصَّدقة، وعون المحتاجين ممَّا يدفع عن المتَّصف بها الخزيَ، ومصارعَ السُّوء.

٣ ـ ومنها: استحباب تأنيس مَنْ نزل به أمرٌ بذكر تيسيره عليه، وتهوينه لديه.

---

(١) الحديث: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» حديثٌ صحيحٌ رواه مالك في الموطَّأ ٢/ ٩٠٤، والبخاريُّ في الأدب المفرد برقم ٢٧٣، وأحمد في المسند ٢/٣١٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٣، والخرائطيُّ في مكارم الأخلاق ص ٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٤ ـ ومنها: أنَّ مَنْ نزل به أمر استُحبَّ له أن يُطْلِع عليه مَنْ يثق بنصيحته، وصحَّة رأيه.

٥ ـ ومنها: أنَّ المرأة الفاضلة العاقلة أهلٌ للمشورة، وإبداء الرَّأي، وأمَّا ما يزعمه بعض الناس من أنَّ المرأة لا تستشار؛ فهذا على إطلاقه خطأ.

وما جاء من قولهم: (شاوروهنَّ، وخالفوهنَّ) فباطلٌ، لا أصل له[١].

وقد أثبتت خديجة رضي الله عنها بهذا الكلام الجامع الجميل كمالَ عَقْلِها، وجزالةَ رأيها، وقوَّةَ نفسها، وثباتَ قلبها، وعِظَمَ فقهها.

وسيِّدنا رسولُ الله هو كما وصفته خديجة.. ولا عَجَبَ في ذلك فهو قد أعدَّه الله لحمل رسالة الإسلام.. والرُّسل مُصْطَفَوْنَ، يختارهم الله، ويصطنعهم، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، ولا شكَّ في أنَّ نبينا هو أفضلهم، وقد ذكر ﷺ في حديثٍ أخرجه مسلمٌ، والتِّرمذيُّ: أنه من صفوة الخلق، فقال: «إنَّ الله اصطفىٰ كِنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشاً من كنانة، واصطفىٰ من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٢].

فهو خيارٌ مِنْ خيارٍ، ولقد زادت سيرته حسناً بعد النُّبوَّة، فصلَّىٰ الله، وسلَّم، وبارك عليه.

في هذا الحديث كلامٌ لورقةَ بن نوفل جديرٌ بالتأمُّل، وقد سبق أنْ عرَّفت بورقة تعريفاً موجزاً، وأود أن نقف مع كلامه هذا وقفةً نتبيّن فيها بعض الحقائق.

قال ورقة لرسول الله بعد أن أخبره خبر ما رآه في الغار: هذا النَّاموسُ الَّذي أُنزل على موسىٰ ﷺ يا ليتني فيها جَذَعاً! يا ليتني أكون حيَّاً حين يخرجك قومك!

قال رسولُ الله ﷺ: «أومخرجيَّ هم؟» قال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئت به إلا عُودي. وإن يدركني يومُك؛ أنصرْكَ نصراً مؤزَّراً.

---

(١) انظر مختصر المقاصد رقم ٥٥٠.

(٢) مسلم ٧/٥٨ برقم ٢٢٧٦ والتِّرمذيُّ ٤/٢٩٢ برقم ٣٦٠٦.

قوله: (هذا النَّاموس الَّذي أُنزل على موسىٰ ﷺ) يريد: أنَّ هذا الَّذي قابلته في الغار، وكلَّمك هو النَّاموس الَّذي أنزل على موسىٰ، والنَّاموس في لغة العرب: صاحب السِّرِّ، وهو هنا جبريل عليه السَّلام. وجبريل أمين الوحي، كان ينزل بالوحي على أنبياء الله: إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، وغيرهم، وفي ذلك طمأنينةٌ للنَّبيِّ ﷺ، وبشارةٌ له بالنُّبُوَّة.

وقوله: (يا ليتني فيها جَذَعاً! يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك!).

نصبت كلمة (جذعاً) على أنَّها خبر (كان) المقدَّرة، أي: يا ليتني أكون فيها جَذَعاً[1]. والجَذَع: الصَّغير من الضأن، والإبل، وغيرهما، يتمنَّىٰ أن يكون عند ظهور الدَّعوة شاباً؛ ليشارك في الدَّعوة إلى الإسلام؛ لأنَّ في الشباب قوَّةً لا توجد عند الشُّيوخ المسنين، ويبدو أنَّ هذه الصُّورة (الجذع) تعاورها الشُّعراء، وقد وردت في شعر قطري بن الفجاءة:

لَا يَرْكَنَنْ أَحَدٌ إِلَى الإِحْجَامِ ... يَوْمَ الوَغَىٰ مُتَخَوِّفاً لِحِمَامِ
فَلَقَدْ أُرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مِنْ عَنْ يَمِينِي تَارَةً وَأَمَامِي
حَتَّى خَضَبْتُ بِمَا تَحَدَّرَ مِنْ دَمِي ... أَكْنَافَ سَرْجِي أَوْ عِنَانَ لِجَامِي
ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أُصِبْ ... جَذَعَ البَصِيرَةِ قَارِحَ الإِقْدَامِ

وقد عبَّر ورقة بتمنِّيه الأمر المستحيل، وهو أن يكون شاباً عند دعوة الرَّسول قومَه إلى الإسلام، عبَّر بتمنِّيه هذا عن إيمانه، ورغبته في الخير، وأنَّ هذا الحادث الَّذي أخبره به صحيحٌ، لا شكَّ فيه، وهذا يدلُّ على تصديقه القويِّ.

وقد فهم بعض العلماء من هذا الحديث: أنَّه يجوز تمنِّي المستحيل؛ إذا كان في أمرٍ محمودٍ من الأمور الَّتي يدعو إليها الشَّرْعُ، بل قد يكون له في ذلك أجرُ مَنْ كان قائماً بهذا الأمر المحمود.

كما لو تمنَّى رجلٌ فقيرٌ أن يكون له من المال مِثْلُ ما لإنسانٍ كريمٍ غنيٍّ،

---

(١) قال النوويُّ: وقال القاضي: الظاهر عندي: أنَّه منصوب على الحال، وخبر ليت قول: (فيها) وهذا الذي اختاره القاضي هو الصَّحيح (٢/ ٢٠٤).

ينفق الكثير في سبيل الله. فهما في الأجر سواءٌ. عن أبي كبشة الأنماريِّ: أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّما الدُّنيا لأربعة نفر: عبدٍ رزقه الله مالاً، وعلماً، فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رحمه، ويعلمُ للهِ فيه حقّاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبدٍ رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النِّيَّة، يقول: لو أنَّ لي مالاً؛ لعملت بعمل فلان، فهو بنيَّته، فأجرهما سواءٌ...» رواه التِّرمذيُّ، وابن ماجه(١).

وفي قول ورقة دليلٌ على قيمة الشَّباب، وأثره في نصرة الدَّعوة، والذَّبِّ عن حياضها، والتَّمكين لها، ثمَّ قال بعد ذلك: يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك! لقد تمنَّى مرَّةً أخرىٰ أن يكون حيّاً حين يخرجه قومه؛ لينصره بما يستطيع من فعل، أو قولٍ، وقد أراد بالتمنِّي الثَّاني أن يُظهر له مدى رغبته في نُصرة هذا الدِّين الجديد، الَّذي قرأ عنه ورقة في الكتب السَّابقة، وأراد أن يخبره بأنَّه عندما يواجه قومه بدعوته؛ سيلقى منهم التَّكذيب، والتَّعذيب، والإيذاء، والاستهزاء، والإخراج من الأوطان، فاستغرب الرَّسول ﷺ ذلك، واستبعد أن يقع؛ لأنَّه لم يكن فيه سببٌ يقتضي الإخراج، لما اشتمل ﷺ عليه من مكارم الأخلاق؛ الَّتي لخَّصتها خديجة رضي الله عنها، ولما يعلم من احترامهم له، وتوقيرهم إيَّاه، حتَّى كانوا يدعونه بالأمين، وكانوا يحكِّمونه فيما شجر بينهم، وينزلون على حكمه، كما حصل معهم في نزاعهم فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه عند بنائهم الكعبة.

فبيَّن له ورقة: أنَّ العلَّة في ذلك مجيئه بدين يدعوهم إلى نبذ الأصنام، وتوحيد الله، وترك ما وجدوا عليه آباءهم، فألفوه، وأصبح من الصَّعب عليهم مفارقته، ويبدو: أنَّ ورقة قد قرأ في الكتب: أنَّهم لا يجيبونه إلى ذلك، وأنَّه سيُنَابِذُهُمْ، وسيعادونه بسبب ذلك، فأخبره بذلك؛ كيلا يُفاجأ به عندما يلقاه.

---

(١) انظر جامع التِّرمذيِّ برقم ٢٣٢٥ وانظر صحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ ٢ برقم ١٨٩٤ وقال: صحيحٌ. وابن ماجه رقم ٤٢٢٨.

هذا وقد عرف رسولُ الله ذلك فيما بعدُ حقيقةً ملموسةً واقعةً عندما بدأ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وإلى مبادئ هذا الدِّين العظيم، فلقي منهم الإعراض، والمعاندة، والاتِّهام بالجنون، والكهانة، والشِّعر، والاستهزاءَ، والإيذاءَ، ونزلت عليه آياتٌ كريماتٌ تقصُّ أخبار الأنبياء السَّابقين مع أقوامهم، وكيف لاقوا العداوة، والمحاربة، والضَّرب، والإهانة، والسُّخرية، والقتل، ولكنَّ العاقبة كانت دائماً للحقِّ، والتقوىٰ.

وهذا سبيل الدُّعاة في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ، لا بُدَّ من أن يلقوا من أهل الشِّرك، والشَّرِّ المعارضة، والمعاندة، والمقاتلة، والمعاداة، والاتهاماتِ الباطلة الكثيرة.

وكلام ورقة تأييدٌ قويٌّ لصحَّة نبوَّة محمَّدٍ ﷺ الَّتي أخبرت عنها الكتب السَّابقة الَّتي وقف عليها ورقة قبل أن ينالها التَّحريف، والتبديل، والَّتي قد جاء في القرآن الكريم الإشارة إليها من نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. ومن نحو قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢]. ومن نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. ومن نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾

[البقرة: ١٤٦ ـ ١٤٧].

أُميـة النَّبيِّ ﷺ:

أريد أن أقف وقفةً يسيرةً أمام قوله ﷺ: «ما أنا بقارئ» قال ذلك مرَّاتٍ ثلاثاً جواباً على طلب المَلَك: اقرأ.

إنَّ هذا الحديث نصٌّ قاطعٌ على أنَّه ﷺ كان أميّاً، لا يقرأ، ولا يكتب، وأميَّتُه ﷺ شرفٌ، ومعجزةٌ بالغةٌ؛ إذ أنَّ هذا الأميَّ جاء قومَه، والعالم كلّه بكتابٍ كريمٍ، تضمَّنت آياتُه عقيدةً صحيحةً، وتشريعاً محكماً، وتوجيهاً قويماً، كتابٍ فيه الحلولُ لمشكلاتِ البشرِ في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ، ويحقِّق السَّعادة للنَّاس، ويقيم المجتمع المثاليَّ الرَّحيم المتعاون. وقد دلَّت على أميَّته ﷺ آياتٌ كريماتٌ من كتاب الله، وأحاديث صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ، ووقائع التَّاريخ[1].

أمَّا الآيات؛ فمنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فهذه الآية تقرِّر: أنَّه ﷺ كان لا يقرأ، ولا يكتب، ولو كان يقرأ، ويكتب؛ لارتاب المبطلون، وقالوا: إنَّ الَّذي أخبرتْ عنه الكتب أنه سيكون النَّبيَّ، أميٌّ، لا يقرأ، ولا يكتب، وهذا قارئ كاتبٌ، فليس هو إذاً النَّبيُّ الموعود، ولَقَالَ أولئك المبطلون: إنَّه قرأ ما في الكتب المختلفة، واطَّلع على كتب الدِّيانات السَّابقة، واقتبس منها، وجاء يتلوها.

ويعجبني ما قاله الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية، قال رحمه الله[2]: [لقد لبثتَ في قومك يا محمَّد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمُراً لا تقرأ كتاباً، ولا تحسن الكتابة، بل كلُّ أحدٍ من قومك، وغيرهم يعرف: أنَّك رجلٌ أمِّيٌّ، لا تقرأ، ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدِّمة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهكذا كان

---

(١) انظر في أميَّة النَّبيِّ ﷺ بحثاً قيماً كتبه محمد بن علي بن طولون في كتابه «مرشد المحتار إلى خصائص المختار» من ص١٤٧ حتى ١٥٤ وانظر كتاب الشَّيخ ابن حجر قاضي قطر السابق في هذا الموضوع وعنوانه: «الرد الشافي الوافر، على من نفي أمية سيد الأوائل والأواخر». وانظر البحث الذي كتبه الآلوسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ورسالة العلاَّمة الشَّيخ سعدي ياسين، وعنوانها: الدَّليل القويُّ على أميَّة النَّبيِّ.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٧.

رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدِّين لا يحسن الكتابة ، ولا يخطُّ سطراً ولا حرفاً بيده ، بل كان له كُتَّابٌ يكتبون بين يديه الوحي ، والرَّسائل إلى الأقاليم] .

ثم خطَّأ مَنْ زعم من متأخِّري الفقهاء كأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي[١] المُتوفى ٤٧٤ هـ : أنَّه ﷺ كتب يوم الحديبية .

وذلك : أنَّ سببَ خطئهم هذا غلطُهم في فهم عبارةٍ وردت في قصَّة الحديبية : [أنه كتب : هذا ما قاضى عليه محمَّد بن عبد الله] والعبارة الموهمة تفسِّرها الرِّواية الأخرى ، والعبارة نفسها لو تأمَّلها الإنسان ؛ لوجد فيها الدَّليل على خطأ الباجي ، ففيها : [ثمَّ قال لعليٍّ : امح رسول الله . قال عليٌّ : لا والله لا أمحوك أبداً . فأخذ رسولُ الله ﷺ الكتاب ـ وليس يحسن يكتب ـ فكتب هذا ما قاضى . . .][٢] فقول الرَّاوي : (وليس يحسن الكتابة) دليلٌ على أنَّ معنى (كتب) أمرٌ بالكتابة ، كما تقول : بنى الأميرُ القصر ، أي : أمر ببنائه .

ورواية مسلمٍ تفسرها ، وهي : [قال لعليٍّ : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمَّدٌ رسول الله . فقال له المشركون : لو نعلم أنَّك رسول الله ؛ تابعناك . ولكن اكتب : محمَّد بن عبد الله . فأمر عليّاً أن يَمْحَاها ، فقال عليٌّ : لا والله! لا أَمْحَاها . فقال رسول الله ﷺ : «أرني مكانها ، فأراه مكانها ، فمحاها ، وكتب ابن عبد الله][٣] . أي : أمر بكتابة (ابن عبد الله) كما يقال : رجم ماعزاً ، وقطع السَّارق ، أي : أمر بذلك . ثمَّ قال ابن كثير[٤] : [ولهذا اشتدَّ النَّكير من فقهاء المشرق ، والمغرب على مَنْ قال بقول الباجي ، وتبرؤوا منه ، وأنشدوا

---

(١) انظر قصَّة أبي الوليد في الفتح ٧/ ٥٠٣ وفي شرح مسلم للنَّوويِّ ١٢/ ١٣٧ وتذكرة الحفَّاظ ٣/ ١١٧٨ و٣/ ١١٧٨ وسير أعلام النُّبلاء ١٨/ ٥٤٠ وتلخيص الحبير ٣/ ١٢٦ وترتيب المدارك ٤/ ٨٠٥ وطبقات المفسِّرين للدَّاودي ١/ ٢٠٢ والتَّراتيب الإداريَّة ١/ ١٧٣ وتفسير ابن كثير ٣/ ٤١٧ والقرطبي ١٣/ ٣٥٣ وفيض القدير ٤/ ٢٥٥ . ومرشد المحتار إلى خصائص المختار لمحمَّد بن علي بن طولون ١٤٧ ـ ١٥٤ .

(٢) فتح الباري ٥/ ٤٤٩ .

(٣) صحيح مسلم برقم ١٧٨٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٧ .

في ذلك أقوالاً ، وخطبوا به في محافلهم ، وإنَّما أراد الرَّجل فيما يظهر عنه : أنَّه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنَّه كان يحسن الكتابة . . وما أورده بعضهم من الحديث : أنَّه لم يمت ﷺ حتَّى تعلَّم الكتابة ؛ فضعيفٌ[1] لا أصل له] .

قال القرطبيُّ : [هذا هو الصَّحيح في الباب : أنَّه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وإنَّما أمر مَنْ يكتب ، وكذلك ما قرأ ، ولا تهجَّى][2] .

ومن الآيات الَّتي تدل على أمِّيَّته قوله سبحانه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٧] ومنها قوله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] ويقول ﷺ : «إنَّـا أمَّـةٌ أمِّيَّـةٌ لا نكتب ، ولا نحسب»[3] .

وقام في الأزمنة الأخيرة مستشرقون ، وقساوسةٌ يطعنون في الإسلام ، ودينه ، فمنهم المستشرق «البرنس كاثياني»[4] الَّذي زعم : أنَّه ﷺ كان يدَّعي الأميَّة ، ويخفي عن قومه معرفته بالقراءة والكتابة ، ومنهم القسُّ البروتستانتيُّ «نلسن الدَّانمركيُّ» الَّذي نشر رسالةً عنوانها «أصدق الأقاويل على صحَّة التوراة والأناجيل» ويشكِّك فيها بالقرآن ، ويتَّهم النَّبيَّ ﷺ بتهمٍ باطلةٍ ، وقد ردَّ عليه عالمٌ من أعظم علماء القرن الماضي وهو العلاَّمة سعدي ياسين في كتابٍ عنوانهِ : «البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنُّقصان» وأتبعه برسالةٍ عنوانها : «الدَّليل القويُّ على أمِّيَّة النَّبيِّ» أجزل الله مثوبته ، وذكر : أنَّ قريشاً كانت تعاديه ، ولم ينقل أنَّهم ردُّوا عليه عندما تلا عليهم الآية : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا

---

(١) أقول : بل موضوع لا أصل له .

(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٣٥٣ .

(٣) البخاريُّ ٤ برقم ١٩١٣ ، ومسلم ٢ ص٧٦١ برقم ١٠٨٠ الرقم الخاص ١٥ ، وأبو داود ٢/ برقم ٢٣١٩ ، والنَّسائيُّ ٤ ص ١٣٩ ، وأحمد ٢/ ٤٢ ـ ٥٢ ـ ١٢٢ ـ ١٢٩ .

(٤) تاريخ العرب ١/ ١١٧ لمحمَّد أسعد طلس ، وهو كتاب سيىءٌ جداً ، محشوٌ بالشُّكوك والنَّزعة القوميَّة .

مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ وإذا تعلَّم في الجاهليَّة فلا بدَّ أن يكون معلمه مشركاً، فلماذا كتم هذا المشرك السِّرَّ؟ ولم يرحل عن بلده إلا مع نفر من قومه، وكانت رحلته تجاريَّةً لا يمكنه أن يتلقى فيها شيئاً من مبادئ القراءة والكتابة. ولم يره أحدٌ ممسكاً بورقةٍ، ولا قلمٍ.

وتعلُّم الكتابة، والقراءة في بيئةٍ محصورةٍ أمرٌ لا يمكن أن يخفىٰ على أبناء تلك البيئة، لا سيَّما وقد عادوه، وقاطعوه، واتَّهَمُوهُ بالكهانة، والجنون، والسِّحر، فلماذا لم يكشفوا حقيقته الَّتي تردُّ قوله[1].

إنَّ أمِّيَّته ﷺ أمرٌ مقطوعٌ به، وهو ما أجمع عليه أهل السُّنَّة، أمَّا أولئك المغفَّلون، والمشكِّكون؛ فلا عبرة بما يقولون.

ومن أعجب ما سمعت في هذا: أنَّ الدُّكتور محمَّد حميد الله فَهِمَ من قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾: أنَّه أمرٌ بتعلُّم القراءة، وتعلُّمها[2]، وظنَّ: أنه جاء بشيءٍ جديدٍ. قلت: إنَّ الأعمى يقرأ ما يحفظ، أو ما يُلقىٰ عليه، وهو لا يقرأ من كتاب، ولا يعرف الكتابة، وكذلك العوامُّ الأمِّيُّون يقرؤون في صلواتهم، وهم لا يخطُّون حرفاً.

* * *

وقفنا وقفاتٍ تأمُّليَّـةً في هذا الحديث الجميل، وأريد أن أختم كلامي في هذا الحديث بكلمتين: كلمةٍ موجزةٍ عن طرق الوحي، وكلمةٍ في معاني الحديث، وأسلوبه.

طـرق الوحــي:

أمَّا طرق الوحي؛ فهي أربعةٌ، وقد ذكرت السَّيِّدة عائشة في هذا الحديث طريقين من طرق الوحي:

---

(١) وواضحٌ الفرق بين رأي الباجي المخطئ وبين كلام المفترين من النَّصارى الَّذين يدَّعون كذباً وزوراً: أنَّه كان قارئاً قبل البعثة، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون.

(٢) وقد سمعت ذلك منه أنا بنفسي عندما جاء إلى جامعة الرِّياض.

١ ـ أوَّلهما : أن يكون الوحي بالرُّؤيا الصَّادقة ، وقد تحدَّثنا عن ذلك بما فيه الكفاية .

٢ ـ وثانيهما : أن يكون الوحي بتكليم النَّبيِّ بواسطة جبريل . [وهذه الصُّورة لها شكلان :

الشَّكل الأول: أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشدَّه عليه ، حتَّى أنَّ جبينه ليعرق في اليوم البارد الشديد البرودة ، وحتَّى تبرك راحلته ، وقد جاء الوحي مرَّة كذلك ؛ وفخذه ﷺ على فخذ زيد بن ثابتٍ ، فثقلت على فخذ زيدٍ ؛ حتَّى كادت ترضُّها .

الشَّكل الثَّاني: أن يأتيه جبريل ، ويتمثَّل له رجلاً فيخاطبُه ، كما قال ﷺ : «أحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلِّمني ، فأعي ما يقول . . » وفي روايةٍ : «وهو أهونه عليَّ» .

وقد يرى ﷺ المَلَكَ في صورته الَّتي خلقه الله عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع مرَّتين][(١)] .

[وقد صوَّر الصَّحابة ـ فيما أوردوا من وصف الرَّسول ﷺ ـ آثار هذه الظاهرة ، ظاهرة الوحي ، فذكروا : أنَّ الرَّسول ﷺ كانت تبدو على وجهه الكريم أماراتٌ معيَّنةٌ في كلِّ مرَّةٍ ينزل عليه القرآن ، وكان أمر هذه الظاهرة لا يخفىٰ على أحدٍ ممَّن ينظرون إليه ـ كما تروي الأحاديث الصَّحيحة ذلك ـ يرونه قد احمَرَّ وجهه فجأةً ، وأخذته حمَّى شديدةٌ ؛ حتى يتفصَّد جبينه عرقاً في اليوم البارد ، وثقل جسمه . . . وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه الشَّريف ﷺ أصواتاً مختلطةً تشبه دويَّ النَّحل ، ثمَّ لا يلبث أن تُسَرَّى عنه تلك الشِّدَّة فإذا هو يتلو قرآناً جديداً ، وذكراً للعالمين . . إنَّ ظاهرة الوحي لا يمكن أن تكون متكلَّفةً ، ولا مصنوعةً ، ولا سيما إذا تأمَّلنا تلك الأصوات المختلطة الَّتي كانت تُسمع عند الوجه النَّبويِّ الشَّريف . ولو كانت صناعةً ، وتكلُّفاً ؛ لكانت طوع يمينه ، فكان لا يشاء يوماً أن يأتي بقرآنٍ جديدٍ إلا جاء به من هذا الطَّريق الَّذي

---

(١) انظر كتابنا «لمحات في علوم القرآن» ص ٤٨ ـ ٤٩ .

اعتاد في تحضيره . . فلقد كانت تنزل بالنَّبيِّ نوازل يتطلَّب لها حلاًّ ، وكذلك كلُّ من حوله ، فلا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على النَّـاس](١) .

أمَّا الطَّريقان الآخران ؛ فهما كما يأتي :

أوّلهما : أن يكون بتكليم الله النَّبيَّ من وراء حجاب ، وبشكلٍ مباشرٍ ، ويسمع النَّبيُّ الكلام ، كما كلَّم الله سبحانه موسىٰ عليه السَّلام من وراء الشَّجرة كما نصَّ على ذلك القرآن : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] .

وثانيهما : أن يكون بإلهام النَّبيِّ في حالة اليقظة ، وإلقاء المعنى في قلبه من غير أن يرى المَلَك ، كما قال ﷺ : «إنَّ روح القدس نفث في رُوعي : أنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطَّلب» رواه ابن ماجه ، وابن حبّـان ، والخطيب ، والبيهقيُّ(٢) .

معاني الحديـث :

وأمَّا المعاني الَّتي نجدها في هذا الحديث ؛ فنستطيع أن نذكر الأمور الآتية :

- في الحديث تقريرٌ لبعض الحقائق الخالدة ممَّا سبق ذكره ، وقد وردت هذه الحقائق في تضاعيف حكاية هذا الخبر العظيم :

* فقد جاء في هذا الحديث ذكرٌ لبداية الوحي ، ولبعض صوره ، وتأريخٌ لأوَّل آيةٍ نزلت في القرآن ، وأين نزلت .

* وفيه عرضٌ مشوِّقٌ لطرفٍ من سيرته ﷺ قبل النُّبوَّة .

* وفيه تقريرٌ لحقيقةٍ أزليَّةٍ كانت ، وستبقىٰ ما دام في الأرض أبرارٌ ، وفجّار ، وهي أنَّ دعاة الخير يقابَلون بالاضطهاد ، والتَّعذيب ، والإخراج ، والتَّكذيب ، وهذه بشرى للمظلومين الَّذين يتعرَّضون لإيذاء طواغيت الشِّرك والضَّلالة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، بشرى تقول لهم : اعلموا : أنَّ طريقكم الَّذي

---

(١) لمحات في علوم القرآن ص ٥٠ ـ ٥٢ .

(٢) المستدرك ٢/ ٤ ، وابن ماجه برقم ٢١٤٤ ، والفقيه والمتفقّه ١/ ٩٢ ـ ٩٣ ، ومناقب الشَّافعيِّ للبيهقي ١/ ٣٢٤ ، وموارد الظَّمآن برقم ١٠٨٤ .

تمضون فيه هو الطَّريق الصَّحيح ، وآية ذلك ما تلقونه في أنفسكم ، وأهليكم ، ومعاشكم ، وهذا ما لقيه الأنبياء ، والدُّعاة ، والمؤمنون ، فاصبروا إنَّ العاقبة للصَّابرين .

* وفي الحديث تقريرٌ لحقيقةٍ أيَّدتها وقائع الحياة ، وأحداث التَّاريخ القريب والبعيد ، وهي أنَّ من كان متَّصفاً بمحاسن الأخلاق لا يضيِّعه الله .

* وفيه أيضاً : أنَّ رسالات الله الَّتي هي في أصولها واحدةٌ تدعو إلى توحيد الله ؛ طرائق الوحي فيها متقاربةٌ متشابهةٌ ، فالمَلَك الَّذي أُنزل على محمَّد هو الَّذي أُنزل على موسىٰ ، وعيسىٰ ، وممَّا يدلُّ على وحدتها أيضاً ما بشَّرت به الكتب السَّابقة بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ .

* وعرض الحقائق من خلال القصَّة يمكِّن لهذه الحقائق أن تستقرَّ في النُّفوس ، وتشدَّ السَّامع ، والقارئ لمتابعة الموضوع ، فالقصَّة تميل إليها النَّفس ، ولا سيما إن كانت القصَّة تُحكى لمسلمٍ عن رسول الله .

* وكان الحديث قائماً علىٰ الحوار الموجز المركَّز المُثير . ففي الحديث حوارٌ بين الرَّسول والمَلَك ، وحوارٌ بين خديجة والرَّسول ، وحوارٌ بين الرَّسول وورقة ، والحوار يضفي الحيوية على النَّصِّ .

* وفي الحديث صورٌ بيانيَّةٌ موفَّقةٌ رائعةٌ ، فالرُّؤيا جاءت مثل فلق الصُّبح ، وفيه التَّعبير عن الفزع بارتجاف البوادر الَّتي بين المنكب ، والعنق ، وذلك لا يكون إلا في الفزع الشَّديد . وفي الحديث صورٌ أخرىٰ ، كقول ورقة : يا ليتني أكون جَذَعاً!

* * *

الحديث الثاني

قصة تخلف كعب وصاحبيه

ومن الأمثلة الرَّائعة الَّتي تدلُّ على علوِّ أسلوب بعض الصَّحابة ، وفصاحته ، وإحكامه قصَّة تخلُّف كعبٍ عن غزوة تبوك ، وكعبٌ شاعرٌ متمكِّنٌ مُفْلِقٌ ، وناثرٌ بليغٌ ، وقاصٌّ موفَّقٌ. نورد هذه القصَّة كما رواها البخاريُّ ، ومسلمٌ.

قال كعبٌ : «لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلا في غزوة تبوك ، غير أنِّي قد تخلَّفت في غزوة بدرٍ ، ولم يُعاتَبْ أحدٌ تخلَّف عنه ، إنَّما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يُريدون عِيرَ قريشٍ ، حتَّى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ. ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهدَ بدرٍ ، وإن كانت بدرٌ أَذْكَرَ في النَّـاس منها. وكان مِنْ خبري حين تخلَّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك : أنِّي لم أكن قطُّ أقوىٰ ، ولا أيسر منِّي حين تخلَّفت عنه في تلك الغزوة. والله! ما جمعتُ قبلها راحلتين قطُّ حتَّى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها ، حتَّى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً ، واستقبل عدداً كثيراً ، فجلَّى للمسلمين أمرهم ؛ ليتأهَّبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجههم الَّذي يريد. . .[(١)] وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثِّمار ، والظِّلال ، فأنا إليها أَصْعَرُ ، فتجهَّز رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقْتُ

---

(١) تشير النِّقاط إلى جُمَلٍ حَذَفْتُها.

أغدو ؛ لكي أتجهَّزَ معه ، فأرجع ، ولم أقض شيئاً ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك ؛ إذا أردتُ ، فلم يزل يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجِدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جَهازي شيئاً ، ثمَّ غدوتُ ، فرَجَعْتُ ؛ ولم أقض شيئاً ، فلم يزل يتمادىٰ بي حتَّى أسرعوا ، وتفارط الغزوُ [أي: فات وسبق] ، فهممت أن أرتحلَ ، فأدركَهم ، فياليتني فعلتُ! ثمَّ لم يقدَّر لي ذلك ، فطفِقتُ إذا خرجت في النَّاس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزُنُني أنّي لا أرىٰ لي أسوةً إلا رجلاً مغموصاً عليه في النِّفاق ، أو رجلاً ممَّن عذر الله تعالى من الضُّعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتَّى بلغ تبوك ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجلٌ من بني سَلِمةَ : يا رسول الله! حَبَسَهُ بُرْداه ، والنَّظر في عِطفيه. فقال له معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ : بئس ما قلت! والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً . . .[1] قال كعب : فلمَّا بلغني : أنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من تبوك ؛ حضرني بثِّي ، فطفِقت أتذكَّر الكذب ، وأقول : بِمَ أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك بكلِّ ذي رأي من أهلي. فلمَّا قيل : إنَّ رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً ؛ زاح عنِّي الباطل ، حتَّى عرفت : أنِّي لم أنج منه بشيءٍ أبداً ، فأجمعت صدقه. وأصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدم من سفرٍ ؛ بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثمّ جلس للنَّاس ، فلمَّا فعل ذلك ؛ جاءه المخلَّفون يعتذرون إليه ، ويحلفون له. وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، وَوَكَل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتَّى جئتُ. فلمَّا سلَّمتُ تبسَّم تبسُّم المُغْضَب ، ثمَّ قال : تعال ، فجئت أمشي ؛ حتَّى جلستُ بين يديه.

فقال لي : ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟

قلت : يا رسول الله! إنِّي والله! لو جلستُ عند غيرك من أهل الدُّنيا ؛ لرأيت أنِّي سأخرج من سخطه بعذرٍ ، لقد أُعطيت جدلاً ، ولكنَّني والله! لقد علمت لئن

---

(١) تشير النِّقاط إلى جملٍ حذفتُها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حدَّثتك اليوم حديث كذبٍ ترضىٰ به عنِّي ليوشكنَّ الله أنْ يسخطك عليَّ ، وإنْ حدَّثتك حديث صدقٍ تجد عليَّ فيه إنِّي لأرجو فيه عقبىٰ الله عزَّ وجلَّ . والله! ما كان لي من عذرٍ، والله! ما كنتُ قطُّ أقوىٰ ، ولا أيسر منِّي حين تخلَّفت عنك .

فقال رسول الله ﷺ: أمَّا هذا فقد صدق . فقم حتَّى يقضي الله فيك .

وسار رجالٌ من بني سَلِمَةَ فاتَّبعوني فقالوا لي : والله! ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلَّفون فقد كان كافيَكَ ذَنْبَـكَ استغفارُ رسولِ الله ﷺ لك .

قال : فوالله! ما زالوا يؤنِّبونني حتَّى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذِّبَ نفسي . ثمَّ قلت لهم : هل لقي هذا معي من أحدٍ؟

قالوا : نعم . لَقِيَهُ معك رجلان، قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك .

قلت : مَنْ هما؟

قالوا : مُرارةُ بن الرَّبيع العَمْريُّ ، وهلال بن أميَّة الواقفيُّ .

قال : فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوةٌ . قال : فمضيت حين ذكروهما لي[(١)] .

أتوقف قليلاً هاهنا لأذكر بعض الملاحظات حول هذا النَّص البليغ المُمتع :

إنَّنا لنجد في هذا الحديث عرضاً لجانبٍ من حياة كعب الجهاديَّة ، والذَّاتيَّة ، فهو لم يترك غزوةً من غزوات النَّبيِّ إلا غزوة بدر ، وتلك الغزوة الَّتي لها ذكرٌ كبير عند النَّاس كانت في الأصل خروجاً للاستيلاء على عير قريشٍ ، ولكنَّ الله جعلها لقاءً بين المؤمنين ، والمشركين .

وهو قد أوتي جدلاً ، وقدرةً على الإقناع ، وهو شديد الخوف من الله ، وقد التزم الصِّدق .

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفي هذا الحديث اعترافٌ من كعب: أنَّه كان عند دعوة الرَّسول للنَّاس إلى الخروج إلى تبوك موسراً قويّاً، ولكن شَدَّهُ إلى البقاء كَسَلٌ، وموسمٌ زاخرٌ بالثِّمار، والفواكه، وفصَّل في عرض تباطئه في الاستعداد حتَّى فات الغزو، ومضىٰ الجيشُ، وكان ذلك بأسلوبٍ جميلٍ ساحرٍ كشف فيه حديث نفسه له، وحلَّل موقفه تحليلاً ذاتيّاً رائعاً. لقد ذكر: أنَّ ممَّا أحزنه في مقامه في المدينة: أنَّه لم يجد له أسوةً، وأنَّه ما كان يرىٰ في تجواله إلا منافقاً، أو مستضعفاً عذره الله.

ومن المواقف الَّتي ذكرها معتزّاً بها حضوره ليلة العقبة الَّتي لا يرىٰ يوماً يعدِلها.

ونجد في الحديث تصويراً دقيقاً لموقفه عندما عاد الرَّسول من غزوته... فقد بلغه: أنَّ رسول الله سأل عنه هناك، وبلغه ذمُّ مَنْ ذمَّه، ودفاعُ من دافع عنه، لقد كان خائفاً من مقابلة الرَّسول ماذا يقول له، لقد فكَّر في الكذب، واستشار ذوي الرَّأي من أهله، وحَسَم الموقف وقرَّر أن يؤثر الصِّدق... ولم يفكِّر في تقليد المُخَلَّفِينَ الَّذين كانوا يعتذرون بأعذارٍ كاذبة، ويحلفون للنَّبيِّ ﷺ، وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً، وقد قبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، واستغفر لهم، وكان في موقفه محنةٌ، ونعمةٌ.

ونعود إلى حديث كعبٍ. قال: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ـ أيُّها الثَّلاثةـ من بين من تخلَّف عنه. قال: فاجتنبنا النَّاس ـ أو قال: تغيَّروا لنا ـ حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض الَّتي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً. فأما صاحباي؛ فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمَّا أنا؛ فكنتُ أشبَّ القوم، وأجلدهم، فكنتُ أخرج، فأشهد الصَّلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه، وهو في مجلسه بعد الصَّلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السَّلام، أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه، وأسارقه النَّظر، فإذا أقبلت على صلاتي؛ نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه؛ أعرض عنِّي.

حتَّى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين ؛ مشيت حتَّى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمِّي ، وأحبُّ النَّاس إليَّ ، فسلَّمت عليه ، فوالله! ما ردَّ عليَّ السَّلام.

فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدك الله هل تعلمني أُحبُّ الله ، ورسوله ﷺ؟ فسكت ، فعدتُ ، فناشدتُه ، فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فقال: الله ، ورسوله أعلم.

ففاضت عيناي ، وتولَّيت حتَّى تسوَّرت الجدار ، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة ؛ إذا نبطيٌّ من نبط أهل الشام ممَّن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة ، يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق النَّاس يشيرون له إليَّ حتَّى جاءني ، فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان ، وكنت كاتباً ، فقرأته ، فإذا فيه:

«أما بعد: فإنه قد بلغنا: أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدارِ هوانٍ ، ولا مضيعة ، فالحقْ بنا ؛ نُواسِك».

فقلت: وهذه أيضاً من البلاء! فتيمَّمتُ بها التَّنُّور ، فسجرتُها.

حتَّى إذا مضت أربعون من الخمسين ، واستلبث الوحي ؛ إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلِّقها ، أم ماذا أفعل؟ قال: لا ، بل اعتزلها ، فلا تقربنَّها. وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتَّى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أميَّة رسولَ الله ﷺ ، فقالت له: يا رسول الله! إنَّ هلال بن أميَّة شيخٌ ضائعٌ ليس له خادمٌ ، فهل تكره أن أَخْدُمَهُ؟ قال: لا ، ولكن لا يقربنَّك. فقالت: إنَّه والله! ما به من حركة إلى شيءٍ ، ووالله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه؟

فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدريني ماذا يقول رسولُ الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجلٌ شابٌّ؟! فلبثت بذلك عشر ليالٍ ، فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهى عن كلامنا .

ثمَّ صلَّيت صلاة الفجر صباح خمسين ليلةً على ظهر بيتٍ من بيوتنا ، فبينا أنا جالسٌ على الحال الَّتي ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت عليَّ نفسي ، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت ، سمعتُ صوت صارخٍ أوفىٰ على سَلْعٍ يقول بأعلىٰ صوته : يا كعبُ بن مالك! أبشر! فخررت ساجداً ، وعرفت : أنَّه قد جاء فرجٌ .

فآذن رسول الله ﷺ النَّاس بتوبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علينا حين صلَّى صلاة الفجر ، فذهب النَّاس يبشِّروننا ، فذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشِّرون ، وركض رجلٌ إليَّ فَرَساً ، وسعىٰ ساعٍ مِنْ أسلم قِبَلي ، وأوفىٰ على الجبل ، وكان الصَّوتُ أسرعَ من الفرس ، فلمَّا جاءني الذي سمعت صوته يبشِّرني ؛ نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتُهما إيَّاه ببشارته ، والله! ما أملك غيرهما يومئذٍ . واستعرت ثوبين ، فلبستُهما ، وانطلقتُ أتأمَّم رسول الله ﷺ ، يتلقَّاني النَّاس فوجاً فوجاً ، يهنِّئونني بالتَّوبة ، ويقولون : لتهنك توبة الله عليك! حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله النَّاس ، فقام طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ يهرول حتَّى صافحني ، وهنَّأني . . .(١) فلمَّا سلَّمت على رسول الله ﷺ قال ـ وهو يَبْرُقُ وجهه من السُّرور ـ : «أبشر بخير يوم مَرَّ عليك مُذْ ولدتك أمُّك» . فقلت : أَمِن عندك يا رسول الله! أم من عند الله؟ قال : «لا . بل من عند الله . . .»(١) .

فلمَّا جلست بين يديه ؛ قلت : يا رسول الله! إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله ، وإلى رسوله .

فقال رسول الله ﷺ : «أمسك عليك بعض مالك ؛ فهو خيرٌ لك» .

فقلت : إنِّي أُمسِك سهمي الَّذي بخيبر ، وقلت : يا رسول الله! إنَّ الله تعالى إنَّما أنجاني بالصِّدق ، وإنَّ من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . فوالله!

---

(١) النقط تشير إلى كلام محذوف لا يضر حذفه .

ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن ممَّا أبلاني الله ، والله ما تعمَّدت كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإنِّي لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي. فأنزل الله ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

[التوبة: ١١٧ ـ ١١٩].

قال كعبٌ: والله! ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ألا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الَّذين كذبوا. إنَّ الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحدٍ ، فقال: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

قال كعب: كنَّا خُلِّفنا ـ أيُّها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الَّذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتَّى قضى الله تعالى فيه بذلك. قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ وليس الَّذي ذكر ممَّا خُلِّفنا تخلُّفنا عن الغزو ، وإنَّما هو تخليفه إيَّانا ، وإرجاؤه أمرنا عمَّن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه.

* وفي هذا الحديث ما يكشف عن موقف الغساسنة عملاء الرُّوم المعادي للإسلام؛ إذ كانوا يتربَّصون بالمسلمين الدَّوائر ، ويتجسَّسون عليهم ، ويحاولون كسب أنصار لهم من صفوف المسلمين ، ولكن الصَّفَّ الإسلاميَّ الَّذي كان كالبنيان المرصوص ردَّ كيد الغساسنة إلى نحورهم ، فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى شيءٍ ممَّا أرادوا ، ولم يجدوا استجابةً من كعبٍ على الرَّغم من أنَّه كان في أشدِّ حالات الضِّيق. بل كان جوابه: (وهذه أيضاً من البلاء).

* وفيه ما يدلُّ على التزام المسلمين بأمر رسول الله ﷺ أن يقاطعوا هؤلاء الثَّلاثة؛ حتَّى إنَّ أقرباءهم الأدنين كفُّوا عن مكالمتهم، وهذا يدلُّ على تماسك المجتمع الإسلاميِّ، وحرصه على طاعة النَّبيِّ ﷺ، وتنفيذ أوامره.

وفيه صورةٌ رائعةٌ تجسِّد وفاء زوجة هلال ذاك الشَّيخ الضَّائع؛ إذ كانت حريصةً على خدمته، فجاءت رسول الله ﷺ تستأذنه، وكان في حديثها صراحةٌ.

* وفيه: أنَّ الشيخ الهرم لم يُعْفَ من العقوبة لتخلُّفه عن الخروج للجهاد؛ فهلال بن أميَّة الَّذي تصفه زوجته بأنَّه شيخٌ ضائعٌ، وأنَّه في موضوع النِّساء ما به حركةٌ إلى شيءٍ كان مدعوّاً إلى الخروج لغزو الرُّوم، وعندما تخلَّف أمر الرَّسول ﷺ النَّاس، وزوجته أيضاً بمقاطعته.

* وهذا الحديث ردٌّ على الَّذين يزعمون: أنَّ حروب الإسلام كلَّها دفاعيَّةٌ، وأنَّه لا هجوم فيها، ونسوا ـ أو تناسوا ـ هذا الحديث، وغيره من الأحاديث، والأحداث الصحيحة الَّتي تدلُّ على فتح المسلمين بالجهاد معظم الدُّنيا المعمورة.

* وفيه ذكر عادةٍ كانت في القوم، وهي إعطاء البشارة لمن يحمل خبراً سارّاً، ويسبق في ذلك، فقد أعطىٰ كعبٌ البشير ثوبين لم يكن يملك غيرهما يومئذٍ، وهذا يقرِّر: أنَّهم لم يكونوا يستكثرون من الملابس؛ لأنَّ كعباً ـ كما يدلُّ الحديث نفسه ـ كان موسراً.

* وفيه ما يدلُّ على مشروعيَّة سجود الشُّكر، وهجران العصاة.

* وفيه ما يدلُّ على عادةٍ اجتماعيَّةٍ، وهي استعارة الملابس.

* وفيه برهان على أنَّ الصِّدق منجاةٌ، وأنَّ التَّوبة النَّصوح مقبولةٌ عند الله.

* وفيه شرحٌ لمعنىٰ كلمة (المخلَّفين) الواردة في سورة التَّوبة.

* وبعد فهذه القصَّة دليلٌ على إيمان كعبٍ؛ الَّذي دفعه إلى الصِّدق، واحتمال ما جرَّ عليه هذا الصِّدق.

وقد عرض كعبٌ كلَّ ما ذكرنا بأسلوبٍ مؤثِّرٍ بليغٍ.

* * *

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الثالث

أخلاق إجتماعية كريمة

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ استعاذ بالله؛ فأعيذوه، وَمَنْ سألكم بالله؛ فأعطوه، وَمَنِ استجار بالله؛ فأجيروه، وَمَنْ آتى إليكم معروفاً؛ فكافئوه، فإن لم تجدوا؛ فادعوا له؛ حتَّى تعلموا أنْ قد كافأتموه» رواه النَّسائيُّ[1].

ورواه أبو داود[2] بلفظ: «مَنِ استعاذكم بالله؛ فأعيذوه، وَمَنْ سألكم بالله؛ فأعطوه، وَمَنْ دعاكم؛ فأجيبوه، ومَنْ آتى إليكم معروفاً؛ فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له؛ حتَّى تعلموا أنْ قد كافأتموه» ورواه أبو داود[3] أيضاً بلفظ: «من استعاذ... ومن سأل... ومن صنع لكم معروفاً...» ورواه ابن حبَّان[4] بلفظٍ مقاربٍ لهذه الرِّواية، ورواه الحاكم[5]، ورواه الطَّبرانيُّ في «الأوسط» مختصراً بلفظ: «مَنِ اصطنع إليكم معروفاً؛ فجازوه، فإن عجزتم عن مجازاته؛ فادعوا له؛ حتَّى تعلموا أنْ قد شكرتم، فإنَّ الله شاكرٌ يحبُّ

---

(١) النسائي ٥/ ٨٢.
(٢) أبو داود برقم ٥١٠٩.
(٣) أبو داود برقم ١٦٧٢.
(٤) ابن حبَّان: موارد الظمآن برقم ٢٠٧١.
(٥) وقد أورده الألبانيُّ في صحيح الجامع ٦٠٢١ وفي صحيح التَّرغيب ٨٤٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الشَّاكرين»[1] وقد رُوي أيضاً عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً. والحديث صحيحٌ[2].

هذا الحديث برواياته نموذجٌ من نماذجَ كثيرةٍ تدلُّ على رعاية الإسلام للأخلاق الاجتماعيَّة الَّتي تؤكِّد المودَّة بين النَّاس، وتحقِّق التَّرابط في مجتمعاتهم، وتملأ صدور البريَّة بالرِّضا، وتغمرهم بالسَّعادة السَّعيدة.

وكلُّ فقرةٍ من فقراته درسٌ عظيمٌ تستحقُّ أن نقف عندها طويلاً متأمِّلين، مستنبطين منها الحِكَم، والعبر.

فإعاذة من استعاذ بالله مكرمةٌ، وإجارة من استجار بالله مكرمةٌ، وإعطاء من سأل بالله مكرمةٌ، وإجابة الدَّاعي مكرمةٌ، وشكر المحسن مكرمةٌ.

إنَّ إجارة المستجير، وإعاذته تُحقِّق له الأمان، وتخلِّصه من الذُّعر، وتبعد عنه الضِّيق.

وما أكثر ما تلاحق المرء في هذه الحياة نكباتٌ، وأزماتٌ، ومشكلاتٌ في صحَّته، وأهله، وماله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] وهو في أكثر الحالات عاجزٌ عن مواجهتها وحده بمفرده.. ومن هنا ندب الإسلام أتباعه إلى أن يعودوا المريض، ويواسوا المنكوب، ويُغيثوا الملهوف، ويعزُّوا الثَّكلى، ويُغيثوا المستغيث، فإذا التجأ المنكوب، أو المكروب إلى أخيه يستثير مروءته، ويطلب نُصرته؛ كان على القادر أن يكون في حاجته، وأن يُغيثه، وينصره.

وممَّا يلفت الأنظار صياغةُ هذا الحديث المحكمة المحبوكة، وجرسُه المتوازن الرَّائع:

---

(١) التَّرغيب والترهيب ٢/ ١٠.

(٢) وانظر رياض الصَّالحين: باب كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله غير الجنَّة، وكراهة مَنْ منع من سأل بالله، وتشفَّع به.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مَنِ استعاذ بالله ؛ فأعيذوه ، وَمَنْ سألكم بالله ؛ فأعطوه ، وَمَنِ استجار بالله ؛ فأجيروه ، ومن دعاكم؛ فأجيبوه .

واستعاذه وعاذ به يعوذ عوذاً وعياذاً ومعاذاً: لاذ به ، ولجأ إليه ، واعتصم .

وفي الحديث جملتان متقاربتان في المعنى وهما «مَنِ استعاذ بالله ؛ فأعيذوه ، وَمَنِ استجار بالله ؛ فأجيروه» .

وإجارة المستجير من مكارم الأخلاق ؛ الَّتي كانت في العرب قبل الإسلام ، وإنَّما بُعث رسول الله ﷺ ليتمِّم هاتيك المكارم .

فقد كانوا يفتخرون بإجارة المُستجير ، كما قال الشاعر :

تُعَيِّـرُنَـا أنَّـا قَلِيْـلٌ عَـدِيْـدُنَـا ... فَقُلْـتُ لَهَـا: إنَّ الكِـرَامَ قَلِيْـلُ
وَمَا قَلَّ مَـنْ كَـانَـتْ بَقَـايَـاهُ مِثْلَنَـا ... شَبَـابٌ تَسَـامَـى لِلْعُـلاَ وكُهُـولُ
وَمَـا ضَـرَّنَـا أنَّـا قَلِيْـلٌ وَجَـارُنَـا ... عَـزِيْـزٌ وَجَـارُ الأَكْثَـرِيْـنَ ذَلِيْـلُ[1]

وكما قال ودَّاك بن نُمَيْل المازنيُّ :

مَقَادِيْمُ وَصَّالُونَ فِي الرَّوْعِ خَطْوُهُمْ ... بِكُـلِّ رَقِيْـقِ الشَّفْـرَتَيْـنِ يَمَـانِ
إذا استُنْجِدوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمُ ... لأيَّـةِ حَـرْبٍ أمْ بِـأَيِّ مَكَـانِ[2]

وقال يزيد بن حِمَّانَ السَّكونيُّ :

إنِّي حَمِدتُ بَنِي شَيْبَانَ إذْ خَمَدَتْ ... نِيْـرَانُ قَـوْمِـي وَفِيْهِـمْ شُبَّـتِ النَّـارُ
وَمِـنْ تَكَـرُّمِهِـمْ فِـي المَحْـلِ أنَّهُـمُ ... لاَ يَعْلَـمُ الجَـارُ فِيْهِـمْ أنَّـهُ الجَـارُ
حَتَّـى يَكُـونَ عَـزِيْـزاً مِـنْ نُفُـوسِهِـمُ ... أَوْ أَنْ يَبِيْـنَ جَمِيْعَـاً وَهْـوَ مُخْتَـارُ[3]

وقال آخر :

نَـزَلْـتُ عَلَـى آل المُهَلَّـبِ شَـاتِيَـاً ... غَرِيْبَـاً عَنِ الأَوْطَـانِ فِي زَمَـنٍ مَحْـلِ

---

(١) الحماسة ١/ ٢٨ .
(٢) الحماسة ١/ ٣٣ .
(٣) الحماسة ١/ ١٠٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فَمَـا زَالَ بِـيْ إِكْـرَامُهُـمْ واقْتِفَـاؤُهُـمْ   وَإِلْطَـافُهُـمْ حَتَّـى حَسِبْتُهُـمْ أَهْلِـي[1]

فإذا كان العرب المشركون في الجاهليَّة يُجيرون مَنْ يستجير بهم ؛ فالمسلمون أحقُّ ، وأولىٰ بهذا الخُلُق ؛ إذا لجأ إليهم واحدٌ منهم يستجيرُهم بالله ، ويلتجئ إليهم بالله .

يجب أن يرتفع المؤمنون إلى رتبةٍ تكون إجارةُ مَنْ يستجير بهم بالله مقدمةً على أيِّ شيءٍ آخر ؛ لأنَّ المؤمنين أشدُّ حبّاً لله . إنَّ المستعيذ بالله ، المستجير به سبحانه جديرٌ بأن يلقىٰ الاهتمام ، واللَّهفة ، والإغاثة مِنْ أخيه المسلم .

فالمسلمون جسدٌ واحدٌ ، إذا اشتكى منه عضوٌ ؛ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى ، تراهم متعاونين ، متحابِّين ، يتميَّزون بالإيثار ، والنُّصرة والبذل ، مجتمعهم واحةٌ غنَّاء ، فيها العدالة ، والكرامة ، والتَّحرر من العبوديَّة ، وفيها روح الجماعة المتعاونة البنَّاءة ، لا يُحسُّ أحدٌ منهم بالضَّيم ، ولا يشعر أنَّه وحيدٌ أمام مصاعب الحياة ، إنّ المجتمع المثاليَّ الَّذي أقامه الرَّسول الكريم ﷺ في المدينة نموذجٌ ناطقٌ لمعنىٰ الإجارة ، والإيثار ، والنُّصرة ، وإنّ الأُخوَّة الإسلاميَّة الَّتي غرسها هذا الدِّين العظيم في نفوس أتباعه جعلتهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ، ويُجيرون إخوانهم ، ويؤوونهم ، وينصرونهم . قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

« . . . وَمَنْ سألكم بالله ؛ فأعطوه ، ومن دعاكم ؛ فأجيبوه » .

* من سألك بالله شيئاً ؛ كان عليك أن تعطيه ما سأل ؛ إن كنت مالكاً له ، مستغنياً عنه ، أمَّا إذا كان الَّذي يطلبه محرَّماً ؛ فلا يُحِلُّ الحَرامَ سؤالٌ مهما كان هذا السُّؤال عظيماً .

فالسُّؤال بالله سؤالٌ عظيم جدَّاً ، وَمِنْ هنا كان على مَنْ سُئِل بالله أن يستجيب

---

(١) الحماسة ١/١٠٩ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للسَّائل؛ للتَّحذير الشَّديد الوارد ـ فيما جاء عن رسول الله ﷺ بسندٍ جيِّدٍ ـ في حقِّ من سئل بوجه الله، ولم يعطِ. عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «... وملعونٌ مَنْ سُئِلَ بوجه الله، ثمَّ منع سائله، ما لم يسأل هجْرَاً»(١).

إنَّ الحياة الإنسانيَّة الفاضلة لا بُدَّ أن تقوم على التَّعاون المثمر بين أبناء المجتمع... ولذلك جاءت نصوصُ القرآن والسُّنَّة الصَّحيحة داعيةً إلى التَّعاون على البرِّ والتَّقوىٰ، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] وأمَّا الأحاديث فكثيرةٌ جدّاً:

* من ذلك ما رواه أبو هريرة عن النَّبي ﷺ؛ قال: «مَنْ نَفَّس عن مسلمٍ كُرْبَةً من كرب الدُّنيا؛ نفَّس الله عنه كربةً من كُرَبِ يوم القيامة، وَمَنْ ستر مسلماً؛ ستره الله في الدُّنيا، والآخرة، وَمَنْ يسَّر على معسرٍ؛ يسَّر الله عليه في الدُّنيا، والآخرة، والله في عَوْنِ العبد ما كان العبد في عَوْنِ أخيه». رواه أحمد، ومسلمٌ، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه(٢).

* ومنها حديث أبي ذرٍّ المشهور(٣)؛ الَّذي يحكي لنا مجيءَ الفقراء يشكون أمرهم للرَّسول ﷺ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يتصدَّقوا، كما يتصدَّق الأغنياء، فأرشدهم إلى أمورٍ، منها قوله في روايةٍ أخرجها أحمد: «رَفْعُكَ العظم عن الطَّريق صدقةٌ، وَعَوْنُكَ الضَّعيف بفضل قوتك صدقةٌ، وبيانك عن الأرتم(٤) صدقةٌ»(٥).

* ومنها حديث أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ سُلامىٰ من

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ، انظر «صحيح الجامع الصَّغير» ٥٨٩٠.
(٢) أحمد ٢/ ٤٠٧، ومسلمٌ ٢٦٩٩، وأبو داود ٤٩٤٦، وصحيح التِّرمذي للألبانيِّ ٢٣٤٨ وابن ماجه برقم ٢٢٥.
(٣) مسلمٌ ١٠٠٦.
(٤) الأرتم: الَّذي لا يبين. جاء في النِّهاية: [كذا وقع في الرواية، فإن كان محفوظاً فلعلَّه من قولهم: رتمت الشَّيء: إذا كسرته، ويكون معناه معنى الأرتِّ، وهو الذي لا يفصح الكلام ولا يصحِّحه، ولا يبيِّنه].
(٥) مسند أحمد ٥/ ١٥٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

النَّاس عليه صدقةٌ كلَّ يومٍ تطلُع فيه الشَّمس: تعدل بين الاثنين صدقةٌ ، وتعين الرَّجل في دابَّته ، فتحملُه عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقةٌ». رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأحمد[١].

* ومنها حديث النُّعمان بن بشيرٍ: «مثل المؤمنين في توادِّهم ، وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ؛ تداعىٰ له سائر الجسد بالسَّهر ، والحُمَّىٰ». رواه أحمدُ ، والبخاريُّ ، ومسلمٌ[٢].

* ومنها حديث ابن عمرٍو: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعىٰ بذمَّتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم». رواه أبو داود[٣].

* ومنها حديث أبي ذرٍّ ؛ الَّذي فيه الوصيَّة بالخدم ، والعبيد ، ومعاونتهم: «إخوانكم خَوَلُكُمْ ، جعلهمُ الله تحت أيديكم ، فَمَنْ كان أخوه تحت يديه ؛ فليُطعمه ممَّا يأكل ، وليُلبسه ممَّا يَلْبَس ، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[٤]. رواه البخاريُّ ، ومسلم.

* ومنها حديث سهل بن حنيف: «من أعان مجاهداً في سبيل الله ، أو غارماً في عسرته ، أو مكاتباً في رقبته ؛ أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه». رواه أحمد[٥].

إنَّ هذه النُّصوص ، وغيرها كثيرٌ ، عندما تواجه المسلم ؛ تدفعه إلى التَّعاون مع إخوانه المسلمين دفعاً داخلياً ، يرجو من ورائه ثواب الله.. وهكذا كان المسلمون في عصر السَّلف الصَّالح ، وبقيت ملامح من هذا التَّعاون إلى أمدٍ قريب.

لا شكَّ أنَّ تنظيم هذا التَّعاون أمرٌ طيِّبٌ كتأسيس الجمعيات الخيريَّة ، ونحو

---

(١) البخاري ٢٩٨٩ ، ومسلم ١٠٠٩ ، وأحمد ٢/ ٣٥٠.
(٢) مسند أحمد ٤/ ٢٧٠ ، ومسلمٌ ٢٥٨٦ ، والبخاريُّ ٦٠١١.
(٣) أبو داود رقم ٢٧٥١.
(٤) البخاريُّ برقم ٣٠ ، ومسلمٌ برقم ١٦٦١.
(٥) مسند أحمد ٣/ ٤٨٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ذلك ، ولكن لا بدَّ من أن يكون الحافز إلى التَّعاون داخلياً ، ينبع من أعماق النَّفس ، وهذا مطلبٌ لا يُنال إلا عن طريق الدِّين. إنَّ الإنسان ـ بسبب الشُّحِّ الَّذي طُبِعت الأنفس عليه ـ قد يتهرَّب من الاشتراك في الأعمال الخيريَّة كما نجد الحال في عددٍ من البلدان الَّتي تجبر أبناءها على المشاركة في هذه الأعمال إجباراً قانونياً بعيداً عن الدِّين ، وموضوع السُّؤال ـ أي: الشِّحاذة ـ بيَّنه الرَّسول ﷺ بأحاديث[1] واضحةٍ صريحةٍ ، فهو لا يحلُّ إلا للفقير المدقع الَّذي لا يجد شيئاً يتقوَّت به ، وعندئذٍ إذا سأل مَنْ نزلت به فاقةٌ كان على المسلم أن يعطيه ما يَسُدُّ حاجته ، ويساعده على تخطِّي الأزمة الَّتي حلَّت به ، ولو أنَّ النَّاس رعوا هذا المبدأ حقَّ الرِّعاية ، فلا يسأل إلا المضطرُّ المحتاج ؛ لما رُدَّ سائلٌ إلا قليلاً. وما أجمل هذا التَّوجيه الكريم ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]. فإمَّا أن تعطيه سؤله ، وإما أن تردَّه ردّاً كريماً.

*** «ومن دعاكم ؛ فأجيبوه»**.

إنَّ إجابة الدَّعوة تُدخل السُّرور على الدَّاعي ، وتجبر خاطره ، وترسِّخ المودَّة بين النَّاس ، وتؤكِّد رابطة الأخوَّة بينهم ، والامتناع عن إجابة الدَّعوة كبرٌ ، واستعلاءٌ على عباد الله ، أو بخلٌ حتَّى لا يضطرَّ إلى أن يدعو النَّاس ، وكلا الأمرين لا يليق بالمسلم أن يتَّصف بهما ، وتبادُل النَّاس الدَّعوات يَجْعَلُ أثرها الطَّيِّب أكبر ، فمن دعاك كان عليك أن تجيبه ، ثمَّ تحرص على أن تكافئه بدعوةٍ مماثلةٍ ؛ إن كنت قادراً. والكريم يقبل دعوة مَنْ يدعوه ، ولا يأبىٰ أن يستجيب ما دام قادراً. وقد تكون الدَّعوة إلى الطَّعام مؤدِّيةً وظيفةً اجتماعيَّةً فاضلةً ، وذلك عندما تلبِّي حاجةً طارئةً في المجتمع ، كأن يكون فقرٌ ، وقلَّةٌ في الطَّعام ، وغلاءٌ في الأسعار ، فإذا أبىٰ النَّاس إجابة الدَّعوة ؛ قلَّت الدَّعوات ، وامتنع الموسرون من إقامتها ، وحُرِمَ بذلك من هو بحاجةٍ ماسةٍ إليها. والدَّعوات من الأمور المحقِّقة لإحياء سنَّة إطعام الطَّعام الَّتي دعا إليها الكتاب والسُّنَّة ، وعلىٰ المسلم أن يتجنَّب التكلُّف ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ،

---

(١) انظر هذه الأحاديث في كتاب التَّرغيب والتَّرهيب للإمام المنذري ١/ ٢٤٥ وما بعدها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فالتكلُّف حجابٌ يحول بين النَّاس وبين الاتصاف بالكرم ، وينتهي بهم إلى البُخلِ المَقِيْت ، المذموم.

والدَّعوات أنواعٌ: فمنها ما كانت إجابته فرضاً لازماً ، كوليمة العرس ، ومنها ما كانت الإجابة فيها مندوبةً ، وذلك كلُّه فيما إذا لم يكن هناك معصيةٌ تحظر على المرء المشاركة في الجلوس ، كما يحصل مع الأسف في بعض المجتمعات الَّتي انحرفت عن مبادئ الإسلام ، كالاختلاط المستهتر ، وكوجود المسكر ، وكلعب الحاضرين بألعابٍ محرَّمةٍ ، وكحضور ناسٍ ضالِّين يهزؤون بالدِّين ، أو كان الطَّعام مشبوهاً ؛ لأنَّ الداعي يأكل الرِّشوة ، والرِّبا ، ويغصِب ، ويسرِق . . وما إلى ذلك.

يا أخي!

إذا دعيت ؛ فأجب ، وإذا سئلت بالله ؛ فأعط ، واعلم أنَّك إن كنت في حاجة أخيك في الدُّنيا ؛ كان الله في حاجتك يوم القيامة . . وما أعظم المكافأة!

وما تدري يا أخي! ما الله قاضٍ في مُقْبِلِ أيَّامك ، فقد تكون محتاجاً إلى من يُغيثك ، ويُعطيك. فاتق الله ، وأغث مَنْ يستغيث بك مِنْ إخوانك المسلمين ، وأعط مَنْ يسألك. وقانا الله وإيَّاك تقلُّبات الزَّمن ، وأدام علينا ، وعليك نعمه ، وعرَّفنا ، وإيَّاك قيمتها ، وألهمنا جميعاً شكرها. يقول ﷺ:

« . . . **وَمَنْ آتى إليكم معروفاً؛ فكافئوه ، فإن لم تجدوا ؛ فادعوا له ؛ حتَّى تعلموا أن قد كافأتموه**».

في هذه القطعة من الحديث حضٌّ على أن يشكر المسلم مَنْ قدَّم إليه معروفاً . إنَّ هذا من مكارم الأخلاق الَّتي دعا إليها رسول الله ﷺ الَّذي تأدَّب بالقرآن في قوله: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ: أنَّ مجازاة فاعل المعروف ينبغي أن تكونَ المكافأة بما يقوىٰ عليه المرء ، أمَّا مَنْ لم يجد ما يكافئ به ؛ فعليه أن يدعو للمُحسن ، ويبالغ في الدُّعاء ، وأن يشكره بعباراتٍ تدلُّ على العرفان ، وتقدير الإحسان ، حتَّى يعلم: أنَّه قام بحقِّ الشُّكر. أمَّا الَّذين يتلقَّون الإحسان ، والمعروف من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الآخرين ، ولا يقابلونهم بالمثل ، ولا يكافئونهم بالدُّعاء ، ولا يذكرونهم بالثَّناء ؛ فهؤلاء قومٌ نأوا عن منزلة الشَّاكرين ؛ الَّذين يحبُّهم الله .

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال : «مَنْ أُعْطِيَ عطاءً ، فوجد ؛ فَلْيَجْزِ به ، فإن لم يَجِدْ ؛ فَلْيُثْنِ ، فإنَّ مَنْ أثنى ؛ فقد شكر ، ومَنْ كتم ؛ فقد كفر ، وَمَنْ تحلَّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ» . رواه التِّرمذيُّ ، وأبو داود[(١)] ، وابن حبَّان ، ولفظه : «مَنْ أُولِيَ معروفاً ، فلم يجد له جزاءً إلا الثَّناء ؛ فقد شكره ، ومَنْ كتمه ؛ فقد كفره ، ومن تحلَّى بباطلٍ ؛ فهو كلابس ثَوْبَيْ زورٍ»[(٢)] .

وهكذا فإنَّ المطلوب ممَّن أُولي المعروف أن يقابل النِّعمة بالنِّعمة ، والعطيَّة بالعطيَّة ، فإن لم يجد ؛ فَلْيَلْجأ عندئذٍ إلى الكلمة الطَّيبة ؛ فهي شكرٌ .

والمعروف أنواعٌ كثيرةٌ ، منها : الهديَّة ، والعطيَّة ، والدَّعوة إلى الطَّعام ، والمعونة المادِّيَّة ، والمعونة المعنويَّة ، كالشَّفاعة ، والدِّفاع عن المسلم في غيابه ، ورعاية أولاده .

وأمَّا قوله ﷺ : «وَمَنْ تحلَّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ»[(٣)] .

فكأنَّ معنى هذه الجملة هاهنا : أنَّ مَنْ لم يشكر المُحسن ، وتفاخر بأنَّ ما فيه من خيرٍ هو من ماله ، ومن كدِّه ، وليس من عطيَّة أحدٍ . إنَّ من فعل هذا كاذبٌ لابسٌ ملابس ليست له[(٤)] ، وهو مذمومٌ ، ولا بُدَّ أن يُكشف حاله ،

---

(١) التِّرمذيُّ برقم ٢٠٣٤ ، وانظر صحيح التِّرمذيِّ ١٦٥٦ ، وأبو داود برقم ٤٨١٣ .

(٢) الإحسان ٨ برقم ٣٤١٥ .

(٣) روى البخاريُّ ٩/ برقم ٥٢١٩ ومسلمٌ برقم ٢١٣٠ ، والنَّسائي في السنن الكبرى ٥/ ٢٩٢ برقم ٨٩٢١ وأبو داود ٤٩٩٧ وأحمد ٦/ ١٦٧ حديثاً نصُّه : «المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثَوْبَيْ زور» .

(٤) قال أبو عبيد : هو الَّذي يلبس ثياب أهل الزُّهد ، والعبادة ، والورع ، ومقصوده أن يظهر للنَّاس : أنه متَّصفٌ بتلك الصِّفة ، ويظهر من التخشُّع ، والزُّهد أكثر مما في قلبه ، فهذه ثياب زورٍ ، ورياءٍ . وقيل : هو كمن لبس ثوبين لغيره ، وأوهم أنَّهما له [وانظر عون المعبود ٤/ ٤٥٧ وفتح الباري ٩/ ٣١٧ ـ ٣١٨ وشرح النَّوويِّ ١٤/ ١١٠] . =

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويُعرف، فيفتضح، ويبوء عندئذٍ بالخسران.

* وبيَّن رسولُ الله ﷺ في حديث أسامة الآتي نموذج دعاءٍ يقوله مَنْ لم يجد ما يكافئ به صانع المعروف إليه.

عن أسامة بن زيدٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صُنِعَ إليه معروفٌ، فقال لفاعله: جزاك الله خيراً! فقد أبلغ في الثَّناء». رواه التِّرمذيُّ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ جيِّدٌ غريبٌ[1].

وفي روايةٍ: «مَنْ أُوليَ معروفاً، أو أُسْدِيَ إليه معروف، فقال لِلَّذي أسداه: جزاك الله خيراً! فقد أبلغ في الثَّناء».

* ويمكن أن يقرِن الدُّعاء بالثَّناء على المحسن، وذكره بالخير في مجالس النَّاس، دلَّ على ذلك حديث عائشة عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «مَنْ أُتي إليه معروفٌ؛ فليكافِ به، وَمَنْ لم يستطع؛ فليذكره؛ فإنَّ مَنْ ذكره؛ فقد شكره، ومن تشبَّع بما لم يعطَ؛ فهو كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ» رواه أحمد[2].

وهكذا فَمَنْ ذكر المعروف، ونسبه إلى صاحبه؛ عُدَّ شاكراً، ومَنْ كتمه؛ كان كافراً للنِّعمة، جاحداً للفضل، كاذباً في ادِّعائه. يروي أنسٌ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ المهاجرين جاؤوا إلى النَّبيِّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله! ذهب الأنصار بالأجر كلِّه، ما رأينا قوماً أحسن بذلاً لكثيرٍ، ولا أحسن مواساة في قليلٍ منهم، ولقد كفونا المؤونة. قال: «أليس تُثنون عليهم به، وتَدْعون لهم؟» قالوا: بلى! قال: «فذاك بذاك» رواه أبو داود، والنَّسائي، واللَّفظ له[3].

* ولقد ربط سيدنا رسول الله ﷺ شكر الله بشكر النَّاس، فمن لا يشكر

= وقيل: المتزيِّن بما ليس عنده، ويتكثَّر بذلك عند النَّاس، ويتزيَّن بالباطل، فهو مذمومٌ كما يذمُّ من لبس ثوبي زورٍ.

(١) التِّرمذيُّ برقم ٢٠٣٤.

(٢) أحمد ٦/ ٩٠.

(٣) سنن النَّسائيِّ الكبرى ٦/ ٥٣ برقم ١٠٠٠٩، وسنن أبي داود برقم ٤٨١٢، وانظر صحيح أبي داود ٤٠٢٧ والتِّرمذيُّ برقم ٢٤٨٧، وأحمد ٣/ ٢٠٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النَّاس ؛ لا يشكر الله ، وذلك لأنَّ الطَّبيعة الخيِّرة ؛ الَّتي تحمل المرء على شكر مَنْ أسدىٰ إليه معروفاً ؛ تحمله من باب أولىٰ على شكر المُنعم الأعظم ، الخالق ، المتفضِّل ؛ الَّذي أسبغ نعمه على عبده ظاهرةً ، وباطنةً ، ولا يُعدُّ شاكراً لله مَنْ كفر أيادي النَّاس عليه ، وجحد فضلهم ، مهما دندن بألفاظ الشُّكر لله ، وعبارات الذِّكر .

عن الأشعث بن قيس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ أشكر النَّاس لله تبارك وتعالى أشكرُهم للنَّاس» . وفي روايةٍ : «لا يشكر اللهَ مَنْ لا يشكر النَّاس» . رواه أحمد ، ورواته ثقاتٌ[(١)] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال : «لا يشكر اللهَ مَنْ لا يشكر النَّاس» رواه أبو داود ، والتِّرمذيُّ[(٢)] .

وممَّا قالت العرب في الشُّكر ، وفضله ، وترك كِتْمان المعروف ، قول الشَّاعر ، وهو رجلٌ من بني الحارث بن كعبٍ :

إِنِّـي شَكَـرْتُـكَ وَالشَّكـورُ بِمَـا أتىٰ ... عِنْـدَ الإِلٰـهِ بِسَعْيِـهِ مَـأْجُـورُ
فَجَعَلْـتُ شُكْـرَكَ بِـالَّـذِيْ أَوْلَيْتَنِـي ... مِنْ فَضْلِ عُرْفِكَ وَالكَرِيْمُ شَكُوْرُ
وَعَـرَفْـتُ أنَّ الشُّكْـرَ خَيْـرٌ عَـادةً ... والكُفْـرُ يَكْسُـدُ بَيْعُـهُ وَيَبُـوْرُ[(٣)]

وقال أيضاً :

وَمَـا يَبْلُـغُ الإِنْعَـامُ فِـي النَّفْـعِ غَـايَـةً ... عَلَى المَرْءِ إلا مَبْلَغُ الشُّكْرِ أَفْضَلُ
وَمَـا بَلَغَـتْ أَيْـدِي المُنِيْلِيْـنَ بَسْطَـةً ... مِنَ الطَّوْلِ إلا بَسْطَةُ الشُّكْرِ أَطْوَلُ
وَلَا رَجَحَتْ فِي الشُّكْرِ يَوْماً صَنِيْعَةٌ ... عَلَىٰ المَرْءِ إلا وَهيَ بالشُّكْرِ أَثْقَلُ
وَلَا بَـذَلَ الشُّكْـرَ امْـرُؤٌ حـقَّ بَـذْلِـهِ ... عَلَـى العُـرْفِ إلا وَهـوَ لِلْمَـالِ أَبْـذَلُ

---

(١) أحمد ٥/ ٢١١ .

(٢) سنن أبي داود ٤٨١١ ، وجامع التِّرمذيِّ ١٩٥٤ ، وانظر صحيح أبي داود ٤٠٢٦ ، وصحيح التِّرمذيِّ ١٥٩٢ .

(٣) حماسة البحتري ١٥٧ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فَمَنْ شَكَرَ المَعْرُوفَ يَوْماً فَقَدْ أَتَى أَخَا العُرْفِ مِنْ حُسْنِ المُكَافَاةِ مِنْ عَلُ[1]

هذا ومن المفيد أن نذكر: أنَّ الإمام السِّبكي ألَّف كتاباً مُمْتِعاً عنوانه: «معيد النِّعم ومبيد النِّقم». والكتاب في أصله يبحث في الشُّكر، وقد ذكر في مطلع الكتاب ما يقرب من ١٢ صفحة كلّها عن الشُّكر، وكيف تزيد النِّعم بسببه.

ثمَّ تعرَّض إلى حديث «مَنْ لم يشكرِ النَّاس؛ لم يَشْكُرِ الله» فذكر درجته، ورواياته الكثيرة، ووفَّق بينه وبين فكرة كون النِّعم كلِّها من الله.

واستوفى الكلام على الشُّكر بالجنان، واللسان. وبقيَّة الكتاب عرضٌ لأمثلةٍ. يقول: [فليس مِنْ شُكْرِ النِّعمة أن تهملها، وتشكرها على وجهٍ غير الوجه الذي عليه بُنيت، فمن عدل عنها إلى نوعٍ آخر من الشُّكر؛ فقد قصَّر، وترك الأهمَّ. وإنَّما الرَّشيد مَنْ جمع الأمرين، فإنْ كان لا بدَّ من التَّفرقة، فالأنسب استعمال كلِّ نعمةٍ فيما خُلِقَتْ له. وهذا يتَّضح بأمثلةٍ[2]].

ثمَّ بدأ بالأمثلة حتَّى بلغت ١١٣ مثالاً.

لقد ربَّى الإسلام أتباعه على خُلُقِ الشُّكر، مهما كان صاحب المعروف صغيراً أو كبيراً، قريباً أو بعيداً، ومهما كان حجم المعروف المُقدَّم؛ لأنَّ الَّذي لا يشكر القليل لا يشكر الكثير؛ إذ القلَّة، والكثرة أمران نسبيَّان، يختلفان باختلاف الظُّروف، والآخذين، والمُعطين.

أمَّا إذا أصبح الشُّكر طبيعةً للمرء فإنَّه يسارع إلى مكافأة المُحسن بما يستطيع، أو يلهج لسانه بالشُّكر، والدُّعاء، والعرفان، والثناء.

عن النُّعمان بن بشيرٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم يشكر القليل؛ لم يشكر الكثير، ومَنْ لم يشكر النَّاس؛ لم يشكر الله، والتَّحدُّثُ بنعمة الله شكرٌ، وتركها كفرٌ، والجماعة رحمةٌ، والفُرقة عذابٌ»[3]

---

(١) حماسة البحتري ١٥٨.

(٢) مفيد النِّعم ص ١٢.

(٣) مسند أحمد ٤/٢٧٨ و٣٧٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رواه عبد الله بن أحمد في زوائده بإسنادٍ لا بأس به.

إنَّ في هذا التَّوجيه النَّبويِّ الكريم تربيةً ساميةً للمسلمين على الفضائل، لأنَّ شكر المحسن يشجِّع على الاستمرار في فعل الخير، والتَّعاون بين النَّاس، ويغري غيره بسلوك مسلكه، فيكثر المحسنون. وذلك عندما يكون فاعل الخير محترماً في مجتمعه، مذكوراً بالخير، يثني عليه النَّاس كلُّهم، ويقابله مَنْ يجد ما يكافئه به بالحسنىٰ، والذِّكر الحسن، فإنَّ ذلك يبرز قيمة فعل المعروف، ويُعلي من شأن الجود، والكرم، ويوقظ في النُّفوس معاني الخير، ويدعوها إلى انتهاج ذاك النَّهج الفاضل.

وكذلك فإنَّ مقابلة المعروف بالمعروف، والشُّكر، والثَّناء سببٌ لتأكُّد المودَّة بين النَّاس، أمَّا كفران النِّعمة، وإنكار المعروف؛ فإنَّه قد يكون ذريعةً لانقطاع فعل الخير بين النَّاس، وقد يولِّد الحقد، والكراهية، والبغضاء بينهم.

إنَّه أدبٌ اجتماعيٌّ رفيعٌ، ما أحرانا أن نربِّي أولادنا عليه، وذلك بأن نعلِّم الطفل نظرياً، وعملياً: أنَّ عليه أن يقدِّم الشُّكر وافراً لكلِّ مَنْ يصطنع معه معروفاً، حتَّى يدرج على هذا، ويُضحي تقديمُ الشُّكر عنده عادةً. والقدوة لها دورٌ كبير في التَّربية، فلندرب أنفسنا على التزام شكر المتفضِّل؛ حتى ولو كان ولداً من أولادنا.

والشُّكر كما يتَّضح من الأحاديث الَّتي ذكرنا درجاتٌ، أعلاها أن تكافئ من آتى إليك معروفاً بأحسن من معروفه، أو مثله؛ إن كنت قادراً على ذلك. وأن تقرن المكافأة بالدُّعاء. وتلي هذه الرُّتبة أن تدعوَ له، وتذكرَه بمعروفه؛ إن لم تجدْ ما تكافئه به.

* ولا بدَّ ونحن في صدد تأمُّل الحديث؛ الَّذي يدعو إلى شكر من أحسن إليه من النَّاس؛ أن نذكر أنَّ علينا واجب شكر الله تبارك وتعالى على ما أنعم من النِّعم الوفيرة الكثيرة، وقد وعد سبحانه أنه سيجزي الشَّاكرين: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِـرَةِ نُؤْتِـهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقد وعد جلَّ جلاله: أنَّه لا يعذِّب مَنْ شكر نعمه، وآمن به: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] ووعد مَنْ شكر الزِّيادة، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

* هذا وإنَّ أحقَّ النَّاس بالشُّكر الوالدان: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤].

ثمَّ يأتي بعد الوالدين المربِّي؛ الَّذي هداك إلى طريق الرَّشاد، ودلَّك على سبيل النَّجاة.

* إنَّه يصعب على نفس المحسن أن يلقى الإساءة ممَّن قدَّم إليه المعروف، أو أن يلقىٰ منه التَّجاهل، ونكران الفضل، وقد يحدث مثل هذا في واقع الحياة، فلا ينبغي أن يصرف المؤمنين عن فعل المعروف وجودُ عددٍ من المنكرين الجاحدين.

ذكر بعضهم: أنَّ رجلاً هبَّت عليه ريح الشُّهرة في غفلةٍ من الزَّمان، فتبوَّأ منصباً كبيراً لمدَّةٍ قصيرةٍ، ثمَّ دالت دولتُه، وعضَّه الدَّهر بنابه، فأوىٰ إلى إنسانٍ كريمٍ يرجو نواله، ومعونته، فما خيَّب رجاءه، وقدَّم له كلَّ ما يقوى عليه من خدمةٍ، ومعونةٍ، وهيَّأ له عملاً جيِّداً ما كان له أن يبلغه لولا وساطته، فما كان منه بعد أن تمكَّن إلا أن تنكَّر له، وأصبح يذكره بسوءٍ، فكشف بذلك عن معدنه، وأساء لنفسه أكثر ممَّا أساء لصاحبه. إنَّ هذا لا يجوز أن يُزهِّد النَّاس في فعل الخير، ولنحذر من أقوالٍ أطلقها أصحابها بعد تجربةٍ مؤلمةٍ مع إنسانٍ لئيمٍ، ومن ذلك ما ينسبونه افتراء إلى النَّبيِّ ﷺ من قولهم: «اتَّق شرَّ من أحسنت إليه» فهذا قولٌ باطلٌ مكذوبٌ. إنَّ الموقف الخسيس الَّذي يقفه الجاحد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للفضل ليس في مصلحته الدُّنيوية فضلاً عن أنَّه ليس في مصلحته الأخرويَّة ، لأنَّ الأيَّام دولٌ ، ولله درُّ القائل :

هِـيَ الأُمُـورُ كَمَـا شَـاهَـدْتَهَـا دُوَلٌ ... مَـنْ سَـرَّهُ زَمَـنٌ سَـاءَتْـهُ أَزْمَـانُ
وَهٰـذِهِ الـدَّارُ لَا تُبْقِـي عَلَـىٰ أَحَـدٍ ... وَلَا يَـدُومُ عَلَـىٰ حَـالٍ لَهَـا شَـانُ

ما يدريه ما تقلُّبات الأيام؟ . إنَّه إذا وقع في أزمةٍ ؛ فلن يجد مَنْ يغيثه ، أو ينجده ، ومهما يكن من أمرٍ ؛ فإنَّ وجود مثل هذا الإنسان أمرٌ شاذٌّ ؛ لأنَّ الفطرة السَّليمة تقضي بمقابلة الإحسان بالإحسان . إنَّ كلمة الشُّكر تدلُّ على نبل الشَّاكر وطيب عنصره ، وتكسبه ثواب الله ، ومحبَّة الناس ، والشُّكر أيضاً دعمٌ لبقاء هذه القيم السَّامية ، والمُثُل العُليا حيَّةً في واقع النَّاس .

وممَّا قالت العرب في الشُّكر ، وفضله ، وترك كِتْمَان المعروفِ ، قولُ رجـلٍ من غطفان :

الشُّكْـرُ أَفْضَـلُ مَـا حَـاوَلْـتَ مُلْتَمِساً ... بِـهِ الـزِّيَـادَةَ عِنْـدِ اللهِ وَالنَّـاسِ(١)

وقال الأحوص بن محمد الأنصاري :

فَـلأَشْكُـرَنَّ لَـكَ الَّـذِي أَوْلَيْتَنِـي ... شُكْـراً تَحـلُّ بِـهِ المَطِـيُّ وتـرحـلُ
مَـدْحـاً تَكُـونُ لَـهُ غَـرَائِـبُ شِعْـرِهـا ... مَبْـذُولَـةً وَلِغَيْـرِه لا تُبْـذَلُ(٢)

وقال صالح بن عبد القدُّوس :

وَاشْكُرْ فَإِنَّ الشُّكْرَ مِنْ حقٍّ عَلَى الإنسانِ وَاجِبْ
لا ترجُ مَنْ لا يَشْكُرِ النُّعْمَىٰ وَيَصْبِرُ فِي العَوَاقِبْ(٣)

وقال أيضاً :

لأَشْكُـرَنَّ هُمَـامَـاً فَضْـلَ نِعْمَتِـهِ ... لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَا(٤)

وقال ابن أذينة اللَّيثيُّ :

---

(١) حماسة البحتري ١٥٨ .
(٢) حماسة البحتري ١٥٨ .
(٣) حماسة البحتري ١٥٩ .
(٤) حماسة البحتري ١٥٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لَا تَكْفُــرَنَّ طَــوالَ عَيْشِــكَ نِعْمَــةً   لُــؤْمَاً تُجَاحِـدُهَـا امـرأً أَوْلَاكَهَـا[1]

وقال طُرَيْحُ بن إسماعيل الثَّقفيُّ:

وَإِذَا خُصِصْــتَ بِنِعْمَــةٍ وَرُزِقْتَهَـــا   مِــنْ فَضْــلِ رَبِّـكَ مِنَّـةً تَغْشَـاهَـا
فَـابْـغِ الـزِّيَـادَةَ فِـي الَّـذِي أُعْطِيْتَـهُ   وَتَمَـامُ ذَاكَ بِشُكْـرِ مَـنْ أَعْطَـاهَـا[2]

* * *

(١) حماسة البحتري ١٦٠ .
(٢) حماسة البحتري ١٦٠ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الرابع

الاقتصاد في الموعظة

أخرج البخاريُّ في صحيحه عن عكرمة ، عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال :

حدِّثِ النَّاسَ كُلَّ جمعةٍ مرَّةً ، فإن أبيت ؛ فمرَّتين ، فإنْ أكثرت ؛ فثلاث مرَّاتٍ ، ولا تُمِلَّ النَّاسَ هذا القرآن ، ولا أُلفينَّك تأتي القوم وهم في حديثٍ من حديثهم ، فَتَقصُّ عليهم ، فتقطعُ عليهم حديثهم ، فتملّهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك ؛ فحدِّثهم وهم يشتهونه . فانظر السَّجع من الدُّعاء فاجتنبه ، فإنِّي عهدتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلاَّ ذلك الاجتناب(١) .

وأخرج أحمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها أوصت بمثل هذه الوصيَّة قاصَّ المدينة(٢) .

إنَّها كلماتٌ رائعاتٌ نافعاتٌ ، قالهنَّ ابن عباسٍ ، وهُنَّ خلاصة تجربته في مخاطبة النَّاس ، ودعوتهم إلى الخير ، وعصارة فهمه لأدب الكلام ، كما يقضي بذلك الكتاب الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، يوصي بهذه الكلمات مَنْ يتصدَّىٰ لدعوة الخَلْقِ إلى الإسلام .

كلماتٌ تزخَر بالحكمة ، وتزدان بالصَّواب ، وهي مع ذلك كلِّه قد صيغت بأسلوب جميلٍ مُحكمٍ .

---

(١) البخاري ٨/ ٦٢ برقم ٦٣٣٧ والفتح ١١/ ١٣٨ .
(٢) المسند ٦/ ٢١٧ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إنَّ هذه الكلمات درسٌ للدُّعاة إلى الله جميعاً ، ولا سيَّما للدُّعاة الَّذين يكثرون الكلام عن حسن قصدٍ ، ويسرفون في الوعظ. وهذا الإكثار ، والإسراف نتيجةٌ لغلطٍ في تصوُّر الدَّعوة ، ليست الدَّعوة كلاماً فقط ، كما يظنُّ كثيرٌ من النَّاس ، إنَّ الكلام لونٌ من ألوان الدَّعوة إلى الله نافعٌ ، وضروريٌّ ، ولكنَّه ليس وحده الدَّعوة.

إنَّ الدَّعوة إلى الله سلوكٌ حسن ، وعاطفةٌ صادقة ، ولهفةٌ حارةٌ لملهوف ، وإغاثةٌ جادةٌ لمستغيث ، ومعونةٌ مجديةٌ لمحتاج ، وإجارةٌ قويةٌ لمستجير ، ومواساةٌ رقيقةٌ دافئةٌ لمحزون ، وكتابةٌ عميقةٌ لمؤلِّف ، وتخطيطٌ واعٍ مدركٌ للعمل. . وأمورٌ أخرىٰ كثيرةٌ جدّاً ، تكون وَفْقَ ما تقتضي حال المدعوِّينَ ، وقد تختلف هذه الأمور من قومٍ إلى قومٍ ، ومن بيئةٍ إلى بيئةٍ ، ومن عصرٍ إلى عصرٍ.

إنَّ مساعدة إنسانٍ في حمل متاعه ، أو إجابته على سؤالٍ أقلقه ، وأعياه الوقوف على جوابه ، أو دعوةً إلى طعام تحمل معنى التَّكريم ، والاهتمام ، إنَّ ذلك ربَّما فاق في تأثيره خطبةً بليغةً ، وكلاماً طويلاً.

إنَّ على الدَّاعية أن يواكب عصره ، ويعلم: أنَّ الأمور المرتجلة ، نفعها قليلٌ ، وربما عادت أحياناً بالضَّرر على صاحبها ؛ لأنَّ الدَّعوات المناوئة تقوم على الدِّراسة ، واستخدام العلوم المختلفة ، والتخطيط. . . إنَّ عليه أن يدرس الوسط الَّذي يعيش فيه ، والبيئة التي يريد أن يعمل فيها ، وستفتح له دراسته هذه مجالاتٍ في الدَّعوة إلى الله ، لم تكن تخطر له على بال ، وستقوده هذه الدِّراسة إلى تخطيطٍ دقيقٍ في كلمته ، وتصرُّفه ، وحركته ، يعود عليه بالخير العميم ، ويحقِّق له من النَّجاح في مهمَّته فوق ما كان يتوقَّع.

ليس من شكٍّ في أنَّ معرفة أثر الكلام على السَّامعين أمرٌ يهمُّ المتحدِّث صاحب الرِّسالة ؛ لأنَّ حديثه غير الموفَّق ربما يؤدِّي إلى عكس ما يريد.

جاء في مسند أحمد ٦/ ٢١٧:

قالت عائشة لابن السَّائب قاصِّ أهل المدينة:

ـ ثلاثاً لتبايعنِّي عليهنَّ أو لأُناجِزَنَّك.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـ فقال: ما هنَّ؟ بل أنا أبايعك يا أمَّ المؤمنين!

ـ قالت: اجتنب السَّجع من الدُّعاء؛ فإنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يفعلون ذلك... وقصَّ على النَّاس في كلِّ جمعةٍ مرَّةً، فإن أبيت؛ فثنتين، فإن أبيت؛ فثلاثاً، فلا تملَّ النَّاس هذا الكتاب. ولا أُلفينَّكَ تأتي القوم وهم في حديثٍ من حديثهم، فتقطع عليهم حديثهم، ولكن اتركهم، فإذا جرَّؤوك عليه، وأمروك به؛ فحدِّثهم.

إنَّ لكثرة الكلام محاذيرَ عدَّةً، سأذكر أهمَّها فيما يأتي:

* إنَّ كثير الكلام ثقيلُ الظِّلِّ غالباً... لأنَّه يحتكر الحديث، ويحول بين كثيرٍ من الرَّاغبين في الكلام، وبين بغيتهم... ويقطع على المتأمِّل طرق التأمُّل... ويُدْخِل الضِّيق على صدور السَّامعين. والخطورة في هذا الموضوع هنا: أنَّ هذا المتكلِّم يعظ النَّاس بالقرآن، ويدعوهم إلى التزام الإسلام، فقد يستثقل هؤلاء السَّامعون مضمون دعوته، ودينه، فيكون سبباً لهلاكهم، ودخولهم جهنَّم، وهذه إساءةٌ إلى الدِّين، ومثلُه مثلُ الَّذي يسب أبا الرَّجل، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّه، فيسبُّ أمَّه، وقد جعله رسولُ الله ﷺ شاتماً لوالديه، كما جاء في الحديث.

* إنَّ كثير الكلام معرَّضٌ إلى الوقوع في الغلط غالباً... لأنَّه سيخوض في أمورٍ ليس عنده فيها كلِّها اطلاعٌ كافٍ، وقد انتبه الأقدمون إلى هذه الحقيقة، فقرَّروا في حكمهم: أنَّ من تكلم كثيراً؛ غلط كثيراً[1].

* وإنَّ كلامه سيكون فجّاً، سطحياً، سخيفاً، مكروراً مهما كان صاحبه من النَّوابغ؛ لأنَّ الكميَّة دائماً تكون على حساب الكيفيَّة. ومن مشاهداتنا في الصُّحف، والإذاعة، والتَّأليف: أن المكثرين يعوزهم العمق، والجدَّة، والأفكار القيِّمة.

* إنَّ كثرة الكلام ـ ولا سيَّما إذا حُمل النَّاس على سماعها حملاً، كما

---

(١) انظر مبحث (الثَّرثرة داءٌ وبيل) في كتابنا «توجيهاتٌ قرآنيَّة في تربية الأمَّة».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يُصنع أحياناً في المدارس ، والمساجد ـ ربما كان لها ردَّة فعلٍ تجعلهم ينحازون إلى الطَّرف المقابل ، تعبيراً عن ضيق صدورهم ، ونكاية بهذا المتحدِّث ، وعناداً.

وكثرة الكلام تجعلهم يملُّون ما يسمعون ، فإذا كان الواعظ يعظهم بالكتاب والسُّنَّة كان الخطر جسيماً ، وهـذا المعنى هـو الَّـذي نبَّه إليه ابن عباسٍ بقوله : (ولا تُمِلَّ النَّاسَ هذا القرآن) أي : ولا تجعلهم يمَلُّون هذا القرآن ، ومن فعل ذلك كان مسيئاً لنفسه ، ولدعوته ، وسامعيه ، والكلام الطَّويل ينسي آخرُه أوَّلَه ؛ لأنَّ السَّامع مهما أوتي من قوَّة الضَّبط لا يكون قادراً على المتابعة مدَّةً طويلةً . . وإذا خرج من الجلسة ؛ لم يتذكَّر إلا القليل .

والكلام الكثير المملُّ يسيءُ إلى كرامة الدَّاعية ؛ لأنَّه يُعرِّضُ نفسه إلى ألوانٍ من الحرج ، والمهانة ، أيسرها أن ينفضَّ النَّاسُ عنه ، وليس أصعب على نفس الدَّاعية الغيور على كرامته من أن يحدِّث قوماً ، فيتركوه ، ويخرجوا مُعْرِضِين . وقد يعمِد بعضهم إلى مقاطعته ، والتَّشويش عليه ، وقد يعمِد بعضهم إلى إسكاته بطريقةٍ من الطُّرق . وأذكر حادثتين شاهدتُهما ، وتركتا في نفسي أثراً كبيراً ، كانت إحداهما في حفلٍ أقيم في مسجدٍ ، حيث ارتقىٰ المنبر طالبٌ من طلبة العلم ، وتكلَّم ، وأطال ، وتململ النَّاس ، وضاقوا به ذرعاً ، فما كان من أبيه إلا أن قام ، وناداه بأعلىٰ صوته آمراً إيَّاه بالتوقُّف ، وترك المنبر .

وكانت الأخرىٰ في حفلةٍ أقيمت في ذكر محاسن الشَّاعر محمد إقبال ، أقامتها الجامعة السُّورية في دمشق ، وأطالت دكتورةٌ ، وكانت من المتكلِّمين إطالةً ضيَّقت صدور الحاضرين ، وتصاعدت الهمسات من هنا ، وهناك ، وكان وزير المعارف حاضراً ، فأمر عريف الحفل أن يطلب منها الاختصار ، فكتب إليها ورقةً ، ولكنَّها لم تستجب ، ولمَّا طال الأمر قام عريف الحفل ، وخطف الأوراق منها ، وانفرجت الأزمة ، وانفجرت القاعة بالضَّحك ، والشَّماتة بهذه المرأة ، وصفَّقوا طويلاً .

إنَّ هذا ينبغي أن يبتعد عنه الدُّعاة إلى الله .

شبكة الألوكة
www.alukah.net

جاء في كتاب «أدب الدُّنيا والدِّين»:

قال الخضر لموسىٰ عليه السَّلام:

يا طالب العلم! إنَّ القائل أقلُّ ملالةً من المُستمع، فلا تُمِلَّ جلساءَك إذا حدَّثتهم. يا موسىٰ! واعلم: أنّ قلبك وعاءٌ، فانظر ما تحشو في وعائك[1].

وقال بعض العلماء:

كلُّ علمٍ كثُر على المستمع، ولم يطاوعه الفهم؛ ازداد القلب به عمىً، وإنَّما ينفع سمع الآذان إذا قوّى فهم القلوب في الأبدان[1].

إنَّ المرء عندما يتحدَّث والقوم يشتهون حديثه؛ يكون انتفاعُ النَّاس من كلامه كبيراً، ويكون انطلاقه هو في الكلام النَّافع أغزر، وأوفر، وتوفيقه للأسلوب المؤثِّر النَّاجح أكبر. كم هناك من فرق بين مَنْ يُحَدِّث قوماً يشتهون حديثه، وبين مَنْ يُحدِّثهم وهم يتمنَّون سكوته؛ وهم له كارهون.

قال عبد الله بن مرداس: كان عبد الله بن مسعودٍ يخطبنا كلَّ خميس، فيتكلَّم بكلامٍ، فيسكت حين يسكت، ونحن نشتهي أن يزيدنا[2].

وعن أبي وائل؛ قال: كان عبد الله بن مسعودٍ يذكِّر النَّاس في كلِّ خميسٍ. فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! لوددتُ أنَّك ذكَّرتنا كلَّ يوم. قال: إنَّه ما يمنعني من ذلك إلا أنِّي أكره أن أملَّكم، وإنِّي أتخوَّلكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخوَّلنا بها مخافة السآمة علينا[3].

وعن شقيق قال: كنَّا جلوساً على باب عبد الله بن مسعودٍ ننتظره يأذن لنا. قال: فجاء يزيد بن معاوية النَّخعيُّ، فدخل عليه، فقلنا له: أعلمه بمكاننا، فدخل، فأعلمه، فلم يلبث أن خرج إلينا، فقال: إنِّي لأعلم بمكانكم،

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين ص ٧٤.

(٢) كتاب القُصَّاص والمذكِّرين لابن الجوزي ٢١٣.

(٣) صحيح البخاريِّ ١/ ٢١ برقم ٧٠، وصحيح مسلم برقم ٢٨٢١، والتِّرمذيُّ ٤/ ٣٥ برقم ٢٨٥٥ وانظر القُصَّاص والمذكِّرين لابن الجوزيِّ ص ١٨٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فأدعكم على عمدٍ ، مخافة أن أملَّكم. إنَّ رسول الله ﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام ، مخافة السَّآمة علينا[١].

هذا نهجُ محمَّدٍ ﷺ مع أصحابه ، وهذا هديه في الدَّعوة ، وهو ﷺ على ما نعلم من محبَّة أصحابه له ، ومع ما نعلم من بلاغته وعمق معانيه. . كان ﷺ يخشى أن يُدخل السَّآمة والملل على أصحابه ، فيتخوَّلهم الأيَّام بالموعظة. إنَّه ـ والله! ـ درسٌ لكلِّ من يتصدَّى لدعوة النَّاس.

وقد درج على هذا النَّهج السَّويِّ أصحابُ رسول الله ﷺ سلوكاً ووصيَّةً ، فهذا عبد الله بن مسعودٍ ـ وهو من أعظم علماء الصَّحابة ـ يمتنع من التَّحديث أكثر من مرَّةٍ في الأسبوع ، وكذلك كانت وصاياهم ـ رضي الله عنهم ـ كما رأينا في وصية ابن عباسٍ ، وعائشة رضي الله عنهما.

وسار التَّابعون لهم بإحسانٍ وَفْقَ هذه السُّنَّة الرَّشيدة ، ومن الأمثلة الَّتي تُروى عن التَّابعين ما ذكر عن مُطَرِّفِ بن عبد الله بن الشِّخِّير التَّابعيِّ ، الثِّقة ، الصَّالح ، الزَّاهد ، العالم ، كان من كبار التَّابعين ، ومن الدُّعاة المؤثِّرين الموفَّقين، وكان مجاب الدَّعوة ، ذا فضلٍ ، وورعٍ ، وأدبٍ، وله كلماتٌ رائعةٌ.

حدث غيلان بن جرير[٢] : أنَّ مُطَرِّف بن عبد الله[٣] كان يحدِّثنا ، فيقطع الحديث ؛ ونحن نشتهيه ، فنقول له في ذلك ، فيقول: إنَّه أسرع لرجعتكم إليَّ[٤].

وكان عمر بن عبد العزيز يوصي الوعَّاظ بالاقتصاد في الكلام ، والإيجاز ، فقد كان يكتب إلى عمَّاله أن يكون حديث الواعظ في كلِّ ثلاثة أيام مرَّةً[٥].

---

(١) المسند ١/ ٤٢٥ ، وانظر كتاب القُصَّاص والمذكِّرين لابن الجوزي ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) هو الإمام غيلان بن جرير أبو يزيد الأزدي المعولي بصريٌّ ثقةٌ حدث عن أنسٍ ، وغيره ، توفِّي سنة ١٢٩ هـ.

(٣) هو الإمام القدوة الحجَّة مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير أبو عبد الله لقي عليَّ بن أبي طالب وغيره ، توفي سنة ٩٥ هـ.

(٤) كتاب القُصَّاص والمذكِّرين ١٩٠.

(٥) كتاب القُصَّاص والمذكِّرين ١٩١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ الناس في الحياة مرتبطون بأعمالٍ ، وعلاقاتٍ مع الآخرين ، فقد يدخل المرء المسجد لأداء فريضة الصَّلاة ، فيأتي الواعظ ، ويمسكه ، وقد يكون مشغولاً ، وقد يكون عنده موعدٌ مهمٌّ لا بُدَّ من حضوره ، وقد يكون مضطراً للسَّفر في وقتٍ محدَّدٍ لو تأخَّر ؛ فاتته الطيَّارة ، أو القطار ، وقد يكون غدا لإحضار دواءٍ ، أو طبيب ، وقد يكون خرج لاستقبال غريبٍ ، أو لأداء واجبٍ ، أو للالتحاق بوظيفةٍ ، فلا يجوز أن نحبس النَّاس عن هذه المقاصد ؛ ليسمعوا كلاماً مرتجلاً ، وربَّما كان فيه لحنٌ ، وغلطٌ ، وأحاديث ضعيفةٌ ، وواهيةٌ ، كما هو واقع حال عدد من الوعاظ اليوم .

إنَّ الإقلال في مرَّات الوعظ ، والإيجاز في الكلام يجعل قبول الكلام سائغاً ، وبذلك يتحقَّق المطلوب . لماذا لا يعمِد الدَّاعية إلى تركيز الكلام الَّذي يريد أن يلقيه على النَّاس . . إنَّ بعض المشهورين من الدُّعاة يكرِّرون أنفسهم ؛ لأنَّهم لا ينمون ، ولا يجدون الوقت اللازم للنُّموِّ . . . لأنَّهم في كلامٍ دائمٍ . إنَّ بعض هؤلاء يحفظ أمثلةً معيَّنةً يردِّدها في كلِّ مناسبةٍ ، ولولا شهرتهم ؛ لأنكر الناس عليهم هذا التَّكرار ، وإنَّ الحديث المعاد ثقيلٌ على النفس ، وكثرة الكلام تضطر المتحدِّث إلى الإعادة . بل هناك ما هو أخطر من ذلك .

إنَّ من أسباب وضع الحديث الوعظَ ، والقصصَ ، فقد كان بعض القُصَّاص ممَّن لا يخافون الله يتحدَّثون يومياً أكثر من مرَّةٍ ، فيلجئهم ذلك إلى اختراع بعض الأحاديث[١] .

وقول ابن عباس (ولا أُلفينَّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقصَّ عليهم ، فتقطعَ عليهم حديثهم ، فتملَّهم) هذا أدبٌ عالٍ من آداب المعاشرة . . . والدَّعوة . فإذا كان الناس يتحدَّثون ؛ فاتركهم يتحدَّثون ، ولا تأخذ الحديث منهم ، وتقطع عليهم حديثهم ، ولا تلزمهم بأن يستمعوا إليك . إنَّ هذا التصرُّف يجعلهم يكرهونك ، وربَّما قادهم ذلك إلى كراهية ما تدعو إليه ، ويجعلهم يملُّون كلامك مهما كان حسناً .

---

(١) انظر كتابنا : الحديث النَّبوي ص ٢٥٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إنَّ عليك أيُّها الدَّاعية أن تنصت لهم ، وهم يتحدَّثون ، ففي ذلك احترامٌ لمن يتكلَّم ، وإتاحة الفرصة له ؛ ليتمَّ حديثه ، فإذا رجوك أن تتحدَّث ، فحدِّثهم عندئذٍ ، وهم يشتهونه .

ترك التكلُّـف :

وأخيراً فإنَّ وصيَّة ابن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ تدعو إلى ترك السَّجع ؛ لأنَّه أمارة التكلُّف ، والتكلُّف يفقد الجاذبيَّة ، ويضعف التَّأثير ، ومن هنا نستطيع أن نقرِّر أنَّ كلَّ تكلُّفٍ في الخطيب ممقوتٌ مذمومٌ ، فلا الإشارة ، ولا نبرة الصَّوت ، ولا الحركات ينبغي أن تكون متكلَّفة . . . إنَّ الإنسان إذا تكلَّم كلاماً مركزاً على طبيعته ؛ كان هذا أدعىٰ للتـأثُّر . والتَّـأثير ورسول الله بريء من المتكلِّفين .

أمَّا السَّجع إذا جاء دون تكلُّفٍ فهو جميلٌ مقبولٌ ، وقد أنكر الرَّسول ﷺ على من أتى بالسَّجع المتكلَّف ، وقال له : «أسجعٌ كسجع الأعراب ، إنَّما هو أخو الكُهَّان»[(١)] ولكنَّه ﷺ أتىٰ أحياناً بكلام مسجوع كأنَّه سلاسل الذَّهب ، لأنَّه فاض عن الفطرة ، وبرئ من التكلُّف والتَّصنُّع ، من نحو قوله ﷺ : «أيُّها النَّاس! أفشوا السَّلام ، وأطعموا الطَّعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلُّوا باللَّيل والنَّاسُ نيام ؛ تدخلوا الجنَّة بسلام»[(٢)] .

ونحو قوله : «تعوَّذوا بالله مِنْ جَهْدِ البلاء ، وَدَرْكِ الشَّقَاء ، وَسُوْءِ القَضَاء ، وشماتة الأعداء»[(٣)] .

وقوله : «اللَّهُمَّ! آت نفسي تقواها ، وزكِّها أنت خير مَنْ زكَّاها ، أنت

---

(١) صحيح البخاريّ ٥٧٥٨ ، وصحيح مسلم ١٦٨١ ، والموطَّأ ٢/ ٨٥٥ ، والدَّارميُّ ٢/ ١٩٦ ، وسنن الدَّارقطنيّ ٣/ ١٩٨ ، وأبو داود ٤٥٦٨ ، ومسند أحمد ١/ ٣٦٤ و٤/ ٧٩ ، والنَّسائيُّ ٨/ ٤٦ ـ ٥٢ .

(٢) التِّرمذيُّ ٣/ ٣١٣ ، وأحمد ٥/ ٤٥١ ، والدَّارميُّ ١/ ٣٤٠ ، وابن ماجه برقم ١٣٣٥ ، والحاكم ٣/ ١٣ عن عبد الله بن سلام .

(٣) البخاريُّ ٨/ ٦٣ برقم ٦٦١٦ ، ومسلمٌ ٢٧٠٧ ، والنَّسائيُّ ٣/ ٢٣٧ .

www.alukah.net

شبكة الألوكة

وليُّها ، ومولاها . اللَّهُمَّ! إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، ومن قلبٍ لا يخشع ، ومن نفسٍ لا تشبع ، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها»(١) .

وقوله : «إنَّ الله تعالى حرَّم عليكم عقوق الأمَّهات ، ومنعاً وهات ، ووأد البنات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السُّؤال ، وإضاعة المال»(٢) .

وبعد فإنَّ أثر ابن عباسٍ -رضي الله عنه- درسٌ من دروس الدَّعوة ، ما أحرانا أن نتدبَّره ، ونعمل به!

* * *

---

(١) مسلمٌ ٢٧٢٢ ، وأحمد ٤/ ٣٧١ ، والنَّسائيُّ ٨/ ٢٢٨ و٢٥٨ .

(٢) البخاريُّ ٩/ ٧٨ برقم ٧٢٩٢ ، ومسلمٌ ٥/ ١٣١ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الخامس

الهجرة والجهاد والنية

عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا هجرةَ بعد الفتح ، ولكن جهادٌ ، ونيَّةٌ ، وإذا استُنفرتم ؛ فانفِروا» .

رواه أحمد ، والبخاريُّ ، ومسلمٌ ، والتِّرمذيُّ ، والنَّسائيُّ ، وأبو داود ، وابن ماجه .

وقد رُوي هذا الحديث عن عددٍ من الصَّحابة ، منهم عبد الله بن عباسٍ[(١)] ، وعائشة[(٢)] ، ومجاشعُ بن مسعودٍ[(٣)] ، وعمرُ بن الخطَّاب[(٤)] ، وعبدُ الله ابن عمر[(٥)] ، وعبدُ الله بن عمرو[(٦)] ، وأبو سعيدٍ الخدريُّ[(٧)] ، وصفوانُ بن أميَّة[(٨)] .

هذا الحديث الجامع الرَّائع الصَّحيح تضمَّن أموراً ثلاثةً ، هي: الهجرة ، والجهاد ، والنِّيَّة .

---

(١) المسند ١/٢٢٦ و٢٦٦ و٣١٦ و٣٥٥ ، وصحيح البخاريِّ ١٨٣٤ ، ومسلمٌ ١٣٥٣ ، والنَّسائيُّ ٧/١٤٦ ، وأبو داود ٢٤٨٠ ، والتِّرمذيُّ ٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤ ، والدَّارمي ٢/ ٢٣٩ .

(٢) مسلمٌ برقم ١٨٦٤ ، والبخاري ٣٩٠٠ .

(٣) البخاريُّ ٣٠٧٨ ، والمسند ٣/ ٤٦٨ و٥/ ٧١ .

(٤) النَّسائيُّ ٧/ ١٤٦ رواه موقوفاً على عمر رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاريُّ موقوفاً على ابن عمر برقم ٣٨٩٩ و٤٣٠٩ .

(٦) المسند ٢/ ٢١٥ .

(٧) المسند ٣/ ٢٢ و٥/ ١٨٧ .

(٨) المسند ٣/ ٤٠١ ، والنَّسائيُّ ٧/ ١٤٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد قرَّر رسول الله ﷺ مضمونه أكثر من مرَّةٍ في مناسباتٍ ، كما ذكرت الرِّوايات الكثيرة للحديث ، ومن هذه المناسبات : أنَّه ﷺ قاله يوم فتح مكَّة ، وكذلك فقد قاله عندما جاء رجلٌ يبايعه على الهجرة بعد فتح مكَّة ، فبيَّن له الحكم الشَّرعيَّ بشأنها ، وذكر له ما يكافئها ، وهو الجهاد في سبيل الله ، والنِّيَّة الصَّالحة.

وكذلك فقد قرر عددٌ من الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ هذا المعنى عندما كانت تدعو المناسبة إلى بيان حكم الله في هذا الشَّأن.

والهجرة ، والجهاد ، والنِّيَّة أمورٌ عظيمةُ القدر في الإسلام ، وبها يمكن للدَّولة الإسلاميَّة أن تقومَ وتحقِّق مُثُلَها ، وأغراضها.

وبقيام الدَّولة الإسلاميَّة يتحقَّق للنَّاس في الدُّنيا الدَّارِ العاجلة صلاحُ الحياة الإنسانيَّة ، وتتحقَّق لهم في الدَّار الآجلة السَّعادةُ الأخرويَّة.

وسنقف وقفات تأمُّلٍ نبيِّن فيها هذه المعاني الَّتي اشتمل عليها هذا الحديث الموجز الجميل.

وقبل أن نخوض في تأمُّلاتنا حول الحديث نريد أن نجول جولةً سريعةً في مفردات الحديث :

الهجرةُ : التَّركُ. والهجرة إلى الشَّيء : الانتقال إليه عن غيره. قال ابن فارس في «مقاييس اللُّغة»: الهاء ، والجيم ، والرَّاء أصلان يدلُّ أحدهما على قطيعةٍ ، وقطعٍ ، والآخر على شدِّ شيءٍ ، وربطه[1].

وذكر الشَّوكانيُّ : أنَّ أكثر ما تُطلق على مَنْ رحل من البادية إلى القرية[2].

وهي أنواعٌ كثيرةٌ ، والهجرة موضوعٌ اجتماعيٌّ يتحدَّث عنه علم الاجتماع ، وعلم السُّكَّان[3].

---

(١) مقاييس اللغة ٦/ ٣٤.
(٢) نيل الأوطار ٨/ ٢٦.
(٣) انظر علم السُّكان للدُّكتور عبد الكريم اليافي.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال الرَّاغب في «المفردات»: [الهجر، والهجران: مفارقة الإنسان غيره إمَّا بالبدن، أو باللِّسان، أو بالقلب... والمهاجرة في الأصل مصارمة الغير، ومتاركته...] وقال بعد أن أورد الآيتين: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] و﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٨٩]: [فالظاهر منه الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان، كمن هاجر من مكَّة إلى المدينة].

وقال الجرجانيُّ في «التَّعريفات»: [هي ترك الوطن الَّذي بين الكفار والانتقال إلى دار الإسلام].

والهجرة في الشَّرع: ترك الوطن الَّذي لا يستطيع المسلم إقامة دين الله فيه، وترك ما نهىٰ اللهُ ورسولُه عنه.

والفتح: هو فتح مكَّة، وقد كان في رمضان من السَّنة الثَّامنة للهجرة، وبه أصبحت مكَّة دار إسلامٍ.

والجهاد: أصله لغةً: المشقَّة. يقال: جهدت جهاداً، أي: بلغت المشقَّة. ثمَّ أُطلق على قتال العدوِّ. وشرعاً: بذل الجهد في قتال الكفَّار، وقد يطلق على مجاهدة النَّفس، والشَّيطان، والفسَّاق. جاء في «الفتح»:

[فأمَّا مجاهدة النَّفس فعلى تعلُّم أمور الدِّين، ثمَّ على العمل بها، ثمَّ على تعليمها.

وأمَّا مجاهدة الشَّيطان؛ فعلى دفع ما يأتي به من الشُّبهات، وما يزيِّنه من الشَّهوات.

وأمَّا مجاهدة الفُسَّاق؛ فتقع باليد، ثمَّ اللِّسان، ثمَّ القلب.

وأمَّا مجاهدة الكفَّار؛ فتقع باليد، واللِّسان، والقلب][١].

قال الرَّاغب: [والجهاد، والمجاهدة: استفراغ الوُسْعِ في مدافعة العدوِّ].

---

(١) فتح الباري ٦/٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والنفير: الخروج إلى قتال الكفّار. وأصل النَّفير: مفارقة مكانٍ إلى مكانٍ لأمرٍ حرَّك ذلك[1].

ولكــنْ:

الواو: حرف عطف.

لكن: للابتداء. ولم تكن للاستدراك؛ لأنَّها لا تكون للاستدراك إلا بثلاثة شروط:

١ ـ أن يكون معطوفها مفرداً.

٢ ـ أن تكون مسبوقة بنفي أو نهي.

٣ ـ ألاَّ تقترن بالواو.

وقد اقترنت هنا بالواو، ولذا فهي حرف ابتداءٍ، والله أعلم.

* * *

الهجـرة:

إنَّ الهجرة من دار الكفر الَّتي لا يتاح فيها للمؤمن أن يقوم بشعائر دينه أمرٌ واجبٌ. إنَّ إقامة المسلم في بلدٍ من بلاد الكفر دون اضطرارٍ حالٌ من حالين:

* إمَّا أن يكون المقيم من أهل هاتيك البلاد؛ وقد دخل في الإسلام.

* وإما أن يكون أجنبيّاً عنها، وقد رحل إليها ثمَّ اختار الإقامة فيها.

أمَّا الأوَّل فالخطب فيه أهون من الثَّاني؛ لأنَّ البلد بلده، وله فيها مصالح، وأقارب، وارتباطٌ بنواحٍ عدَّةٍ، وتحميه أنظمة البلد، وقوانينه؛ لأنَّه من أهل تلك الدِّيار، ويمكن إن كان موهوباً أن يترك أثراً فيمن حوله؛ إذ يعرف لغتهم، وعاداتهم، ومواطن الضعف، والقوَّة في حياتهم، فيكون في دعوته، وتأثيره أقدر من الغريب، ولا سيَّما إن أوتي البيانَ، والعلم.

---

(١) فتح الباري ٦/ ٣٧.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

فبقاء هذا الرَّجل لأداء هذه المهمَّة أمرٌ مشروعٌ ، وعليه أن يختار لنفسه وأهله بيئةً إسلاميَّةً ، ويحاولَ أن يُقلِّل من ضغط وسائل الإعلام والتَّوجيه عليه وعلى بيته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ولا بُدَّ له ـ في نظري ـ من أن يخطِّط لتكون سكناه الدَّائمة في المستقبل في بلدٍ إسلاميٍّ .

وهناك شبهةٌ باطلةٌ يثيرها بعض النَّاس ، يقولون : إنَّ أكثر بلاد المسلمين تقع فيها مخالفاتٌ للإسلام ، سواءٌ في التَّشريع ، أو الحياة الاجتماعيَّة ، أو السِّياسيَّة ، أو الاقتصاديَّة ، كالحكم بالقوانين الوضعيَّة ؛ الَّتي فيها مصادماتٌ لما جاء به الشَّرع ، وكقيام المؤسَّسات الرِّبويَّة ، وحانات الخمر ، ومواخير الزِّنى ، وغير ذلك . ويقولون : إنَّ هاتيك البلاد تستوي ، وبلاد الكفَّار في الانحراف .

وفي هذا الكلام نظرٌ كبيرٌ لأنَّه مجانبٌ للحقِّ في النَّتيجة الَّتي انتهى إليها ، فهذه الأمور ، والمعاصي المنكرة ليست وحدها في حياة النَّاس . إنَّ هناك إلى جانبها ما نشأ النَّاس عليه من الإيمان ، ومحبَّة النَّبيِّ ، والتَّعلُّق بالدِّين . وإنَّ هناك المساجد ، والأذان ، ودروس الوعظ ، وحلقات العلم ، وألوان النَّشاط الاجتماعيِّ المصبوغ بالصِّبغة الإسلاميَّة ، وعادات النَّاس ، وتقاليدهم ؛ الَّتي ما زالت قائمةً بحكم الاستمرار ، وهي في مجموعها تستند إلى الدِّين ، ولا يخلو بلدٌ من جماعةٍ مستمسكةٍ بالدِّين تعمل به ، وتدعو له . . وإنَّ هناك الرَّأي العامَّ ؛ الَّذي يتعاطف مع الدِّين . ولو أجرينا موازنةً بين أيِّ بلدٍ إسلاميٍّ ، وبلدٍ من بلاد الكفَّار عمليَّاً ، لتبيَّن لنا تهاوي تلك الشُّبهة ، ومجانبتها للصَّواب .

إنَّ وجود عددٍ من المعاصي ، والمنكرات في بيئةٍ إسلاميَّةٍ لا تسوِّغ لأحدٍ أن يقيم في بلاد الكفَّار دون داعٍ ملحٍّ ، أو ضرورةٍ ملجئةٍ ، ذلك لأنَّ هذه المنكرات ، وأضعافها موجودةٌ هناك ، ولا يجد المرءُ ما أشرنا إلى بعضه من جوانب الخير الَّتي ما زالت في حياة المسلمين . هذا ؛ والمسألة المبحوثة متعلِّقة بالدِّين ؛ الَّذي هو عصمة أمر المسلم ، وليست مناظرةً في موضوعٍ هيِّنٍ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يلتمس المرء فيه الغلبة على صاحبه بحججٍ واهيةٍ ، ولا تصرفاً يسيراً يلتمس الإنسان لنفسه المعاذير .

ومن هنا كانت الهجرة في أوَّل الأمر واجباً على كلِّ قادرٍ حتَّى كان الفتح ، وعزَّ الإسلام ، وأصبحت الأرض دار إسلام ، فزال الدَّاعي الموجب للهجرة ، ولكن بقيت الواجبات العظمى الأخرىٰ ، والمثل العليا من الجهاد في سبيل الله ، والدَّعوة إلى دينه ، والنِّيَّة الصَّالحة ، والقصد السَّامي النَّبيل .

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ ، وأوَّل ما يواجهنا فيه حكمٌ نشأ بعد فتح مكَّة ، فقد كانت الهجرة مطلباً واجباً ، يطلبها المؤمنون الرَّاغبون في رضوان الله ، ويبايعون عليها ، وهي واجبٌ على القادر منهم .

ذلك لأنَّ الإنسان كائنٌ يتأثَّر بالوسط ؛ الَّذي يعيش فيه ما دام سويَّاً ، صحيحٌ أنَّ نسبة التأثُّر تتفاوت من إنسانٍ إلى آخر ، وكذلك جهة التأثُّر ، فقد يكون التأثُّر عكسياً ، لا طردياً ، وهو قليلٌ ، وهو على أيَّة حالٍ تأثُّرٌ . ولكن لا يمكن لإنسانٍ سويٍّ يحيا في بيئةٍ دون أن يتأثَّر بها مهما اتَّخذ من وسائل الحيطة ، والحذر ، وقليلٌ من النَّاس من يتَّخذ هذه الوسائل .

إنّ درجة التأثُّر تابعةٌ لأمورٍ عدَّةٍ من المزاج ، وقوَّة الشَّخصيَّة ، والعلوم ، والمعرفة ، والسِّنِّ ، والوضع الاجتماعيِّ ، والاختلاط ، وغير ذلك من الأمور .

إذاً لو تصوَّرنا إنساناً مسلماً يقيم في ديار الكفر ؛ وقد توافرت لديه عوامل ، وأمورٌ تجعل تأثُّره ضعيفاً ؛ فما قولنا في أولاده الَّذين سيخضعون لضغط المجتمع عليهم ، وتأثيره فيهم خضوعاً أكثر من خضوعهم لضغط البيت؟ ثمَّ علينا ألا نغفل عن سلطان الشَّهوة ، والشيطان ، والنَّفس الأمَّارة بالسُّوء ، والتَّوجيه المستمر ، والدِّعاية المركزة المبنيَّة على دراساتٍ في علم النَّفس ، والاجتماع الَّتي توجَّه إلى الناشئة هناك ، والقائمة على أسسٍ كافرةٍ تماماً .

إنَّ هذا كلَّه وغيره أيضاً يجعل ذوبان هؤلاء الأولاد ، وذراريهم في المجتمع

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكبير أمراً محتوماً ، لا مفرَّ منه . فمن يرضىٰ من المسلمين الغُيُرِ أن يقدِّم أولاده فلذات كبده لقمةً سائغةً للكفر يكثِّر بهم سواده؟

من هنا كان على هذا الإنسان الَّذي دخل في الإسلام ، وهو في ديار الكفر أن يفكِّر في الهجرة إلى بلدٍ من بلاد المسلمين يتَّخذه مقرّاً لإقامته . وأنا أعلم أنَّ هذا مطلبٌ ليس بالسَّهل ، لا من جهة المُهاجر ، ولا من جهة البلد الَّذي يعتزم الإقامة فيه ؛ إذ هناك حواجز أقامتها النُّظم الحديثة .

ولكن عليه أن يبذل جهده ، وأن يتَّخذ القرار بصدقٍ ، ثمَّ ينتظر الفرصة الَّتي تواتيه ، وتحقِّق مطلوبه ، والمرء لا يعجز غالباً إن أحسن التَّصرُّف ، وأحكم الخطَّة . ولو أنَّه حاول الهجرة ، وأخفق فإنّه يكون معذوراً عند الله ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ [التغابن: ١٥ ـ ١٦] .

أمَّا إذا كان المقيم في ديار الكفر مسلماً ، جاء من بلاد المسلمين لسببٍ من الأسباب ، ثمَّ اختار الإقامة هناك ، فأمره أشدُّ ؛ لأمورٍ ، واعتباراتٍ نذكر بعضها فيما يأتي :

* إنّ المغترب المسلم المقيم في ديار الكفَّار أجنبيٌّ ، يُنظر إليه نظرة امتهانٍ ، واحتقارٍ ، ولا سيَّما بعد استيقاظ النَّعرة العنصرية ، والإقليمية هناك . ويعامله الكفَّار معاملةً خاصَّة مزريةً ، وقد حدَّثني بعض المسلمين الَّذين يحملون جنسيات بعض تلك البلاد : أنَّهم يُحسُّون بالاضطهاد ، والانتقاص ، ويعاملون بازدراءٍ وقح ، ويكون ذلك في حدود التَّصرُّفات الشَّخصية ، والتَّعامل اليومي ، وهذا وذاك يشكِّلان حياة الإنسان ، وذلك لأنَّ القوانين تسوِّي بين الَّذين يحملون جنسية البلد ، سواء كانوا من أبناء البلد الأصليين أم من الوافدين الَّذين مُنِحُوا جنسية ذلك البلد ، ولكن ذلك يبقى نظرياً ، وحقوقيّاً ، بمنأىٰ عن الحياة الواقعيَّة العمليَّة .

بل لقد نما هذا الكُره للأجانب في بعض البلاد ، وتشكَّلت عصاباتٌ تتصدَّىٰ لأفرادٍ من هؤلاء الأجانب ، وتعتدي عليهم بصنوفٍ من العدوان ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وتطالبهم بالرَّحيل. والإسلام لا يرضىٰ لأتباعه أن يقبلوا بهذا الوضع المهين، ولا يعطوا الدَّنيَّة. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

* وقد يُفْتَنُ بعضُ هؤلاء المسلمين عندما تخدعهم المظاهر البرَّاقة؛ الَّتي يلمسونها من سيادة القانون، واحترام الإنسان من حيث هو إنسان، وسيطرة النِّظام، وقد يكون هؤلاء المقيمون محرومين من هذه المظاهر في بلادهم، فيحملهم الإعجاب بها على الفتنة، والزَّيغ، والعياذ بالله تعالى، وذلك بأن يحتقروا تاريخهم، وأمَّتهم، ويتنكَّروا لدينهم، ويحمِّلوه المسؤوليَّة عن أوضاع بلادهم السَّيِّئة، كذلك فقد يكون من عوامل الفتنة تقدُّم القوم في العلوم التَّجريبيَّة، والمخترعات.. وقد لا يتنبه المسلم المغترب إلى خواء حياة هؤلاء القوم، وتداعيها، وإفلاس حضارتهم في علاج المشكلات الإنسانيَّة الَّتي تتفاقم يوماً بعد يومٍ.

إنَّ هذا وغيره يجعل بقاء المسلم في ديار الكفر دون ضرورةٍ ملجئةٍ، أو مهمَّة إسلاميَّة يؤدِّيها؛ يجعل بقاءه أمراً غير جائزٍ شرعاً.

ومن هنا كانت نصوصٌ شرعيَّةٌ تُرَهِّبُ من الإقامة بين ظهراني المشركين، يقول ﷺ فيما يرويه جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: «أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله! ولم؟ قال ﷺ: «لا تراءى ناراهما»[1].

وإنَّها لصورةٌ رائعةٌ عبَّر بها رسول الله ﷺ عن مفاصلة المشركين، والبعد عن مساكنتهم... أي: يجب على المسلم أن يجعل منزله بعيداً عن منازل المشركين، ولا ينبغي أن ينزل بالموضع الَّذي إن أوقدت فيه ناره تلوح، وتظهر للمشرك.

وروىٰ النَّسائيُّ عن أبي نُخَيْلَة البجليِّ، عن جرير؛ قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ

---

(١) التِّرمذيُّ ٢/٣٩٧ برقم ١٦٠٤، وأبو داود ٣/٦٢ برقم ٢٦٤٥، وانظر التَّصوير الفنِّي في الحديث ص ٤٥٤.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهو يبايع ، فقلت : يا رسول الله! ابسط يدك حتَّى أبايعك ، واشترط عليَّ ، فأنت أعلم .

قال : «أبايعك على أن تعبد الله ، وتقيم الصَّلاة ، وتؤتي الزَّكاة ، وتناصح المسلمين ، وتفارق المشركين»(١) .

وروى النَّسائيُّ ، وابن ماجه عن بَهْز بن حكيمٍ ، عن أبيه ، عن جدِّه مرفوعاً : «لا يقبل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مِنْ مشركٍ بعدما أسلم عملاً أو يفارقَ المُشركين»(٢) .

تعرَّض الحديث العظيم الَّذي ندرسه أولاً إلى موضوع الهجرة إلى المدينة المنوَّرة ، فقرَّر : أنَّ الداعي الَّذي دعا إليها قد زال بعد الفتح ؛ لأنَّ مكَّة غدت دار إسلام ، فلم يعد هناك موجبٌ لتركها ، ومغادرتها إلى دار الهجرة . وقد فهم العلماء من هذا الحديث : أنَّ الهجرة الَّتي بطل وجوبها إنَّما هي الهجرة من مكَّة بعد فتحها . . . أمَّا حكم الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام ؛ فهو باقٍ على وجوبه على مَنْ دخل في الإسلام ، وكان قادراً على الهجرة ، للحديث الذي رويناه آنفاً عن بَهْز بن حكيم ، وإنَّ لافتراض الهجرة على مَنْ أسلم ؛ وهو في ديار الكفر حِكَماً تجلُّ عن الحصر ، ونورد بعضها فيما يأتي :

١ ـ في الهجرة عن البيئة الفاسدة نجاةٌ من أذىٰ الكفَّار ، وخلاصٌ من مضايقاتهم .

٢ ـ في البيئة الجديدة الفاضلة عونٌ على أن يحيا المسلم الحياة الإسلاميَّة الَّتي يتطلَّبها منه الدِّين ، ويقيم شعائره .

٣ ـ في الهجرة يحقِّق المسلم العزَّة الَّتي أرادها الله للمؤمنين ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] .

٤ ـ الهجرة وسيلةٌ لتجميع الطَّاقات الإسلاميَّة من كلِّ الجهات في منطقةٍ

(١) النَّسائيُّ ٧/ ١٤٨ ، وأحمد ٤/ ٣٦٥ ، والبيهقيُّ ٩/ ١٣ .
(٢) النَّسائيُّ ٧/ ١٤٨ ، وابن ماجه برقم ٢٥٣٦ ، وانظر زاد المعاد ٣/ ١٢٢ ـ ١٢٣ ط الأرناؤوط .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

واحدةٍ ؛ حتَّى تكون دار الهجرة منطلقاً يندفع منه المسلمون لنشر دين الله ، وإعلاء كلمته .

٥ ـ تمحِّص الهجرة جماعة المسلمين ، فتنفي عنهم الخبث ، وذلك عندما يُبتلى المسلم بمفارقة الوطن ، والمال ، والأهل ، والأحبَّة ، فإذا خرج المسلم من هذه التَّجربة ناجحاً قد رضي أن يهاجر لله ، ورسوله ؛ كان دعامة خيرٍ ، ورشادٍ للصَّفِّ الإسلاميِّ المُنتقىٰ .

٦ ـ يتعاون المؤمنون في دار الهجرة على إقامة الإسلام ؛ لتكون نموذجاً حيَّاً لعظمة الإسلام ، وصلاحه للحياة ، وقدرته على حلِّ مشكلات الإنسانيَّة حلاًّ لا نظير له على الإطلاق .

جاء في «فتح الباري»[1] :

[. . . إنَّ حكم غير مكَّة في ذلك حكمها ، فلا تجب الهجرة من بلدٍ قد فتحه المسلمون . أمَّا قبل الفتح ؛ فَمَنْ به من المسلمين أحدُ ثلاثةٍ :

* الأوَّل : قادر على الهجرة منها ، لا يمكنه إظهار دينه ، ولا أداء واجباته ، فالهجرة منه واجبةٌ .

* الثَّاني : قادرٌ ، لكنَّه يمكنه إظهار دينه ، وأداء واجباته ، فالهجرة مُستحبَّةٌ لتكثير سواد المسلمين بها ، ومعونتهم ، وجهاد الكفَّار ، والأمن من غدرهم ، والرَّاحة من رؤية المنكر بينهم .

* الثَّالث : عاجزٌ بعذرٍ : من أسرٍ ، أو مرضٍ ، أو غيره ، فتجوز له الإقامة ، فإنْ حمل على نفسه ، وتكلَّف الخروج منها ؛ أُجر] .

وهذا المعنى قرَّره حديثٌ أخرجه النَّسائيُّ[2] عن عبد الله بن واقدٍ السَّعديِّ ؛ قال : وفدت إلى رسول الله ﷺ في وفدٍ ، كلُّنا يطلب حاجةً ، وكنت آخرهم دخولاً على رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ! إنِّي تركتُ مَنْ خَلْفي ، وهم

(١) الفتح ٦/ ١٠ .
(٢) النَّسائيُّ ٧/ ١٤٦ .

شبكة الألوكة
www.alukah.net

يزعمون: أنَّ الهجرة قد انقطعت. قال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفَّار».

وروى الدَّارميُّ عن معاوية، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة؛ حتَّى تنقطع التَّوبة، ولا تنقطع التَّوبة حتَّى تطلُع الشَّمس من مغربها»[1] وأخرجه أبو داود، والبيهقيُّ، وأحمد، وقد فسَّر الطَّحاويُّ في «مشكل الآثار» الهجرة في هذا الحديث بقوله: [إنَّ هذه الهجرة المذكورة في هذا الحديث ليست الهجرة المذكورة في الأحاديث الأُوَل، إنَّما هي هجر السُّوء...][2].

قلت: وهذا التَّفسير لا يمنع أن تكون الهجرة بمعنى مبارحة مكان الكفر؛ إن خاف على نفسه الفتنة مرادةً.. ونفيُ الطَّحاويِّ غيرُ سديدٍ. والله أعلم.

إنَّ أرض الله واسعةٌ، فالمسلم لا يقيم على ضيمٍ، ولا على ذلَّةٍ... فإذا كان قادراً على ردِّ المُعتدي؛ ردَّه، وإلا؛ ارتحل... نعم إذا حورب في دينه، واضطُهِد من أجل عقيدته، ولم يقدر على ردع المحارب؛ رحل حيث يستطيع ممارسة شعائر دينه.

قال المتلمِّس الضُّبعيُّ[3]:

إنَّ الهَـوَانَ حِمَـارُ الأَهْـلِ يَعْـرِفُـهُ ... والحُـرُّ يُنْكِـرُهُ والـرَّسْلَـةُ الأُجُـدُ
ولا يُقِيْـمُ عَلَـى ضَيْـمٍ يُـرَاد بِـهِ ... إلا الأذلّانِ عَيْـرُ الأهـل والـوَتِـدُ
هَـذَا عَـلَىٰ الخَسْـفِ مَعْقُـولٌ بِرُمَّتِهِ ... وذا يُشَـجُّ فَـلَا يَبْكِـي لَـهُ أَحَـدُ
فَـإِنْ أقمْتُـم عَلَـىٰ ضَيْـمٍ يُـرَادُ بكـمْ ... فَـإِنَّ رَحْلِـي لكُـمْ وَالٍ ومُعْتَمَـدُ
وَفِـي البِـلَادِ ـ إِذَا مَـا خِفْـتُ نَـائِـرَةً ... مَكْـرُوهَـةً ـ عَـنْ وُلَاةِ السُّـوءِ مُنْتفـدُ

(١) الدَّارميُّ ٢/ ٢٤٠، وأبو داود برقم ٢٤٧٩ والبيهقيُّ ٩/ ١٧، وأحمد ٤/ ٩٩.
(٢) مشكل الآثار ٣/ ٢٥٨.
(٣) والمتلمِّس لقب جرير بن عبد العزَّى، أو عبد المسيح، وهو المعنيُّ بالمثل: أشأم من صحيفة المتلمِّس، وقد توفِّي نحو ٥٠ ق. هـ ببصرى من قرى حوران. والرسلة: النَّاقة، والأُجُد: ناقة قويَّة موثقةُ الخلق، متصلةُ فقار الظَّهر خاص بالإناث. والنَّائرة: العداوة. وانظر الحماسة للبحتريّ: ١٩، وأدب الدُّنيا والدِّين ١٩٦، ونهاية الأرب ٣/ ٦٤، وأقوال مأثورة ٢٣٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال قيس بن الخطيم الأنصاريُّ[1]:

وَلَـمْ أَرَ كَـامْـرِىءٍ يَـدْنُـو لِضَيْـمٍ ... لَـهُ فِـي الأَرْضِ سَيْـرٌ وَانْتِـوَاءُ
وَمَـا بَعْـضُ الإِقَـامَـةِ فِـي دِيَـارٍ ... يُهَـانُ بِهَـا الفَتَـى إلا عَنَـاءُ

وقال أوسُ بن حجر:

أُقِيْـمُ بِـدَارِ الحَـزْمِ مَـا كَـانَ حَـزْمُهَـا ... وَأَحْـرِ إِذَا حَـالَـتْ بِـأَنْ أَتَحَـوَّلا

وقال الشَّاعر:

إِذَا كُنْـتَ فِـي دَارٍ يَسُـوءُكَ أَهْلُهَـا ... وَلَـمْ تَـكُ مَكْبُـولاً بِهَـا فَتَحَـوَّلِ[2]

وقال آخر:

شُخُوصُ الفَتَىٰ عَنْ مَنْزِلِ الضَّيْمِ وَاجِبُ ... وَإِنْ كَـانَ فِيْـهِ أَهْلُـهُ وَالأَقَـارِبُ
وَلِلْحُـرِّ أَهْـلٌ إِنِ نَـأَىٰ عَنْـهُ أَهْلُـهُ ... وَجَـانِـبُ عِـزٍّ إِنْ نَـأَىٰ عَنْـهُ جَـانِـبُ
وَمَـنْ يَـرْضَ دَارَ الضَّيْـمِ دَاراً لِنَفْسِـهِ ... فَـذَلِكَ فِي دَعْـوَىٰ التَّـوَكُّلِ كَاذِبُ[3]

وقال ذو الإصبع العدوانيُّ:

عَـفٌّ نَـدُودٌ مَـا خِفْـتُ مِـنْ بَلَـدٍ ... هُوناً فَلَسْتُ بِوَقَّافٍ عَلَىٰ الهُونِ[4]

وقال عبد قيس بن خُفاف التَّميميُّ:

احْـذَرْ مَحَـلَّ السُّـوءِ لاَ تَحلُـلْ بِـهِ ... وَإِذَا نَبَـا بِـكَ مَنْـزِلٌ فَتَحَـوَّلِ
دَارُ الهَـوَانِ لِمَـنْ رَآهَـا دَارَه ... أَفَـرَاحِـلٌ عَنْهَـا كَمَـنْ لَـمْ يَـرْحَـلِ[5]

وقـال ربـيعـةُ بـنِ مقروم الضبي:

---

(١) حماسة البحتريّ ١٧٨.

(٢) أقوال مأثورة ص ٥٥٦.

(٣) مجلة الوعي الإسلاميّ، العدد ٣٠٥ (جمادى الأولىٰ ١٤١٠ هـ).

(٤) هذا البيت من قصيدة رائعة ذكرها المرصفي في رغبة الآمل ١/ ٩١ ـ ٩٢ ومن أبياتها الرائعة:

إِنِّـي أَبِـيٌّ أَبِـيٌّ ذو مُحَـافَظَـةٍ ... وَابْـنُ أَبِـيٍّ أَبِـيٍّ مِـنْ أَبِيِّيْـنِ
لا يُخْـرِجُ القَسْـرُ مِنِّـي غَيْـرَ مَـأْبِيَةٍ ... وَلاَ أَلِيْـنُ لِمَـنْ لاَ يَبْتَغِـي لِيْنِـي
وَاللهِ لَـوْ كَـرِهَـتْ كَفِّـي مُصَـاحَبَتِـي ... لَقُلْـتُ إِذْ كَـرِهَـتْ قُـرْبِـي لَهَـا بِيْنِـي

(٥) الحماسة للبحتريّ ١٧٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَدَارَ الهَـــوَانِ أَنِفْنَـــا المُقَـــامَ بِهَـــا فَحَلَلْنَـــا مَحَـــلاًّ كَـــرِيمـــا[1]

وقال رجلٌ من تميم:

وَفِي الأَرْضِ عَنْ دَارِ القِلَى مُتَحَوَّلٌ وَكُـــلُّ بِـــلاَدٍ أُوطِنَـــتْ كَبِـــلاَدِي[2]

وقال عبد الله بن الحرِّ الجُعْفي:

فَـإِنْ تجـفُ عَنِّـي أَوْ تُـرِدْ لِـي إِهَـانَـةً أَجِدْ عَنْكَ فِي الأَرْضِ العَرِيْضَةِ مَذْهَبا[5]

وقال سلمة بن زيد البَجَليُّ:

لاَ خَيْـرَ فِـي بَلَـدٍ يُضَـامُ عَـزِيْـزُهُ وَعَـنِ الهَـوَانِ مَـذَاهِـبٌ وَمَنَـادحُ[3]

وقال الشاعر[4]:

لاَ يَمْنَعَنَّكَ خَفْضَ العَيْشِ فِي دَعَةٍ نُـزُوعُ نَفْـسٍ إِلَـى أَهْـلٍ وَأَوْطَـانِ
تَلْقَـىٰ بِكُـلِّ بِـلاَدٍ أَنْـتَ سَـاكِنُهَـا أَهْـلاً بِـأَهْـلٍ ، وَجِيْـرَانـاً بِجِيْـرَانِ

وقال الشَّاعر:

نَقِّـلْ رِكَـابَـكَ فِـي الفَـلاَ وَدع العَـــوَالِـــيَ والقُصُـــورْ
فَمُحَـــالِفُـــو أَوْطَـــانهُـــمْ أَشْبَـــاهُ سُكَّـــانِ القُبُـــورْ
لَـــوْلاَ التَّغَـــرُّبُ مَـــا ارْتَقَـــىٰ درُّ البُحُـــورِ إِلَـــى النُّحُـــوْر[5]

وقال جرير:

وَإِنِّـي لَعَـفُّ الفَقْـرِ ، مُشْتَـرِكُ الغِنَـى سَرِيعٌ، إذَا لَمْ أَرْضَ دَارِي، احْتِمالِيَا[6]

وقال بعضهم:

أَشَـــدُّ مِـــنْ عَيْلَـــةٍ وَجُـــوعِ إِغْضَـــاءُ حُـــرٍّ عَلَـــىٰ الخُضُـــوْعِ
فَـاقْنَـعْ مِـنَ الـدَّهْـرِ قُـوتَ يَـوْمٍ وَأَنْـــتَ بِـــالْمَنْـــزِلِ الـــرَّفِيْـــعِ

---

(١) الحماسة للبحتريِّ ١٨٠ .
(٢) الحماسة للبحتريِّ ١٨٠ .
(٣) الحماسة للبحتريِّ ١٨١ .
(٤) أقوال مأثورةٌ ٧٧ ـ ٧٨ .
(٥) أقوال مأثورةٌ ٥٦٧ .
(٦) الوساطة ٢٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَلَا تُــرِدْ ثَــرْوَةً بِمَــالٍ   يُنَــالُ بِــالــذُّلِّ والخُشُــوع
وَارْحَــلْ إذَا أَجْـدَبَــتْ بِــلَادٌ   مِنْهَــا إِلَـى الخِصْـبِ وَالـرَّبِيْـعِ[1]

وقال آخر:

وَالْمَـرْءُ لَيْـسَ بِبَـالِـغٍ فِـي أَرْضِـهِ   كالصَّقْرِ لَيْسَ بِصَائِدٍ فِي وَكْرِهِ[2]

ولقد سمَّى القرآن الَّذين يرضون بالمهانة، ولا يهاجرون، سمَّاهم ظالمي أنفسهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩] هذا وقد أوردت بعضُ كتب الفقه أحكامَ الهجرة في باب الجهاد[3].

لا يمكن أن نمرَّ بأحكام الهجرة الشَّرعية دون أن نقف وقفةً يسيرةً أمام أضخم حادثٍ في العهد النَّبويِّ، ألا وهو الهجرة من مكَّة إلى المدينة. هذا الحادث الَّذي كان فيه مولد الدَّولة الإسلاميَّة العظمى، الَّتي غيَّرت بظهورها واقع الإنسانيَّة، وأنهت عهوداً، وبدأت عهداً، وأقامت حضارةً... هذا الحادث الَّذي ارتبط بشخصيتنا نحن المسلمين.. ذلك لأنَّ التَّقويم، والتَّوقيت، واللِّباس، وطراز العمران، وما إلى ذلك من أبرز مقوِّمات الهويَّة الذَّاتيَّة للأمَّة، فتاريخنا مبنيٌّ على الهجرة... إنَّنا كلَّما أردنا أن نعرف تاريخ حادثةٍ عامةٍ، أو خاصَّةٍ ذكرنا الهجرة النَّبويَّة.

واختيار هذا التَّاريخ كان نتيجةً لتقويمٍ سديدٍ ذكيٍّ لهذا الحادث من قِبَل العقبريِّ الفذ الإمام العظيم أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب، رضي الله عنه.

إنَّ تخلِّي أكثر المسلمين عن التَّاريخ الهجريِّ، والتزام بلادهم رسمياً بالتَّاريخ الميلاديِّ أمرٌ مؤسفٌ يدلُّ على انحلال شخصيَّة الأمَّة، فالتَّاريخ

---

(١) أقوال مأثورةٌ ٥٦٠.

(٢) شرح المقامات: ٢/ ٧٨.

(٣) انظر البحث القيِّم الذي جاء في كتاب «مطالب أولي النُّهى» ٢/ ٥١٠ ـ ٥١٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الهجريُّ هو تاريخنا ، أمَّا التاريخ الميلاديُّ فهو تاريخ أوروبة النَّصرانيَّة ، والتزامنا بتاريخنا يمنحنا صفة التَّميز الَّتي ينبغي أن يتَّصف بها المسلم . هذا وأحكام ديننا من صيامٍ ، وحجٍّ مرتبطةٌ بالتَّقويم القمريِّ ؛ الذي هو الأساس في التَّاريخ الهجريِّ ، وأمجادنا ، ومآسينا ، وتاريخنا كلُّه مؤرَّخٌ بهذا التَّاريخ .

اجتمع رؤساء قريش ، وقادتهم في دار النَّدوة ـ وهي دار قصيٍّ بن كلابٍ ؛ التي كانت قريشٌ لا تقضي أمراً إلا فيها ـ يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه .

فقال قائل منهم : نُخرجه من أرضنا ؛ كي نستريح منه ، فرُفض هذا الرَّأيُ ؛ لأنَّهم قالوا : إذا خرج ؛ اجتمعت حوله الجموع ؛ لما يرونه من حلاوة منطقه ، وعذوبة لفظه .

وقال آخر : نوثقه ، ونحبسه حتَّى يدركه ما أدرك الشُّعراء قبله من الموت . فرُفض هذا الرَّأيُ أيضاً ؛ لأنَّهم قالوا : إنَّ الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصارَهُ ، ونحن أدرىٰ النَّاس بمن دخل في دينه ، حيث يفضِّلونه على الآباء ، والأبناء . فإذا سمعوا ذلك ؛ جاؤوا لتخليصه ، وربما جرَّ هذا من الحرب علينا ما نحن في غنىً عنه .

وقال لهم طاغيتُهم : بل نقتُله ، ولنمنعَ بني أبيه من الأخذ بثأره ؛ نأخذ مِنْ كلِّ قبيلةٍ شاباً جَلْداً ، يجتمعون أمام داره ، فإذا خرج ضربوه ضربة رجلٍ واحدٍ ، فيتفرَّق دمُه في القبائل ، فلا يقدر بنو عبد منافٍ على حرب قريشٍ كلِّهم ، بل يرضون بالدِّية . فأقرُّوا هذا الرَّأي . . . فأعلم الله نبيَّه بما دبَّره الأعداء في سرِّهم ، وأمره باللِّحاق بدار هجرته ، فتوجَّه من ساعته إلىٰ صديقه أبي بكرٍ[١] .

ولنستمع إلى السَّيدة عائشة تقصُّ علينا الخبر ، كما أخرجه البخاريُّ[٢] .

---

(١) نور اليقين : ٧٩ ـ ٨٠ .
(٢) البخاريُّ ٥/ ٥٠ ، وانظر الفتح ١/ برقم ٤٧٦ و٤ بأرقام ٢١٣٨ و٢٢٦٣ و٢٢٦٤ و٢٢٩٧ و٧/ برقم ٣٩٠٥ و٤٠٩٣ و١٠/ برقم ٥٨٠٧ و٦٠٧٩ ومسند أحمد ٦/ ١٩٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

[قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكرٍ في نحر الظَّهيرة، قال قائل لأبي بكرٍ: هذا رسول الله متقنِّعاً في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي، وأمِّي! والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلاّ أمرٌ. قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له، فَدَخَلَ، فقال النَّبيُّ ﷺ لأبي بكرٍ: أخرِجْ مَنْ عندك. فقال أبو بكر: إنَّما هم أهلُك بأبي أنت يا رسول الله! قال: فإني قد أُذن لي في الخروج. فقال أبو بكرٍ: الصُّحْبة بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ: نعم. قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله! إحدىٰ راحلتيَّ هاتين. قال رسول الله ﷺ: بالثَّمن. قالت عائشة: فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرةً في جرابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نِطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سمِّيت ذات النِّطاق] وكَمَنا في غار ثور، وتابعا السَّير حتَّى بلغا المدينة يوم الإثنين الثَّاني عشر من شهر ربيع الأول، ونزل أولاً في قباء أيَّاماً، ثمَّ تابع السَّير حتَّى نزل المدينة، وكان من أوَّل ما عمله أن بنى المسجد.. وعزَّ الإسلام، وظهر، ولله الحمد، والمنَّة!

وكان في هجرته ﷺ معجزاتٌ عدَّةٌ، ذكرتْهَا كتبُ السُّنَّة كالبخاريِّ، وغيره، وكتب السِّيرة، منها حادثة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم، وغيرها.

وكذلك فقد كانت بطولاتٌ في هجرة أصحابه، بطولاتٌ تتطاول حتَّى تسمو فوق كلِّ ما يعرف النَّاس من بطولاتٍ، نذكر منها شيئاً يتَّسع له المقام:

* هاجر سيدنا صهيبٌ رضي الله عنه، فلمَّا كان في الطَّريق اعترضته جماعةٌ من مشركي مكَّة، وقالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الَّذي بلغت، ثمَّ تريد أن تخرج بمالك، ونفسك. والله! لا يكون ذلك. يقول أبو الحسن النَّدويُّ: [وهناك قامت المعركة بين حقيقة الإسلام، وحقيقة المال، ودارت بينهما رحىٰ الحرب، فانتصرت حقيقة الإسلام على ضدِّها، وقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي؛ أتخلُّون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإنِّي قد جعلت لكم مالي! وهكذا انطلق صهيبٌ بدينه متجرِّداً من ماله،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فرحاً مسروراً ، كأنَّه لم يفقد شيئاً ، ولم يخسر شيئاً][1] فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ فقال: «ربح صهيبٌ! ربح صهيب!». وفي رواية: «يا أبا يحيى! ربح البيع!».

* وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة ، فلمَّا رآه رجالٌ من بني المغيرة ؛ قاموا إليه ، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ ونزعوا خطام البعير[2]. جاء في تقريب سيرة ابن هشام[3] ، تقول السَّيدة أمُّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ: [فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه. وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة ، فقالوا: لا والله! لا نترك ابننا عندها ؛ إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا بُنيَّ سلمة بينهم ؛ حتَّى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة].

[هناك اصطدمت حقيقة الإسلام بحبِّ الزَّوج والولد ، فما لبث أن انتصرت عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه ، وولده في رعاية الله ، وهاجر وحيداً].

تقول أمُّ سلمة: فَفُرِّقَ بيني ، وبين زوجي ، وبين ابني ، فكنت أخرج كلَّ غداةٍ ، فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي ، حتَّى أُمسي سنةً ، أو قريباً منها.

حتَّى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي ، أحدُ بني المغيرة ، فرأىٰ ما بي ، فرحمني. فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرَّقتم بينها وبين زوجها وولدها ، فقالوا لي: الحقي بزوجك ؛ إن شئتِ.

وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني ، فارتحلت بعيري ، ثمَّ أخذت ابني ، فوضعته في حجري ، ثمَّ خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحدٌ من خلق الله.

فقلت: أتبلَّغ بمن لقيتُ ، حتَّى أَقدَمَ على زوجي.

---

(١) انظر القصَّة في سيرة ابن هشام ٢/ ١٢١ ، وطبقات ابن سعدٍ ٣/ ٢٢٧ ، وما بعدها ، وسير أعلام النُّبلاء ٢٢٦٢ ـ ٢٣. وانظر إلى الإسلام من جديدٍ لأبي الحسن النَّدويِّ ٨١.
(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٦ ـ ١٢٩.
(٣) تقريب السيرة ص ١٨٠ ـ ١٨١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حتَّى إذا كنت بالتَّنعيم ؛ لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدَّار.

ـ فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أميـة؟!

ـ فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

ـ قال: أو ما معك أحد؟!

ـ فقلت: لا والله! إلا الله وبُـنَـيَّ هذا.

ـ قال: والله مالك من مترك!.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله! ما صحبت رجلاً من العرب قطُّ أرىٰ أنَّه كان أكرم منه. كان إذا بلغ المنزل ؛ أناخ بي، ثمَّ استأخر عنِّي، حتَّى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطَّ عنه، ثمَّ قيَّده في الشَّجرة، ثمَّ تنحَّى عنِّي إلى شجرةٍ، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواح قام إلى بعيري، فقدَّمه، فرحَّله، ثمَّ استأخر عنِّي، وقال: اركبي.

فإذا ركبت، واستويت على بعيري ؛ أتى، فأخذ بخطامه، فقاده ؛ حتَّى ينزلَ بي.

فلم يزل يصنع ذلك بي حتَّى أقدمني المدينة، فلمَّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء ؛ قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركة الله، ثمَّ انصرف راجعاً إلى مكَّة.

والله! ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قطُّ كان أكرم من عثمان بن طلحة].

انتهى حديثها، ومن الجدير بالذِّكر أن نذكر أنَّ عثمان بن طلحة يوم هجرته بأمِّ سلمة كان كافراً، وإنَّما أسلم في هدنة الحديبية، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد، رضي الله عنهم.

* ومن هذه البطولات بطولة أبي بكرٍ: وما أعظمها من بطولة!.. حلقات في التَّضحية، والفداء، والنُّصح، والوفاء، والمحبَّة، والصِّدق.. وقد بدأت

شبكة الألوكة
www.alukah.net

حلقات هذه البطولة . . . بطولة الصِّدِّيق . . . منذ أن تطلَّع الناس إلى مُهاجرهم حتَّى وصل ركب الرَّسول العظيم إلى المدينة . وقد ذكرنا طرفاً منها آنفاً .

* ومن هذه البطولات بطولة عليٍّ : ففيها المغامرة ، والامتثال ، والإقدام ، والائتمان .

ذلك : أنَّ رسول الله ﷺ : أمر عليّاً ـ رضي الله عنه ـ بالمبيت مكانه كي لا يقع الشَّكُّ في وجوده في أثناء اللَّيل ، ثمَّ سجَّى علياً ببردته ، وخرج على القوم وهو يقرأ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩] وأمره أن يتخلَّف بعده بمكَّة حتَّى يؤدِّي عن رسول الله ﷺ الودائع الَّتي كانت عنده للنَّاس ، وذلك أنَّه لم يكن أحدٌ عنده شيءٌ يخشىٰ عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ ؛ لما يعلم مِنْ صدقه ، وأمانته ﷺ[1] .

* ومن هذه البطولات بطولة عمر : روي عن عليٍّ : أنَّه قال : ما علمت أنَّ أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفِّياً إلا عمر بن الخطَّاب ، فإنَّه لمَّا همَّ بالهجرة ؛ تقلَّد سيفه ، وتنكَّب قوسه ، وانتضىٰ في يده أسهماً ، واختصر عَنَزَتَهُ ، ومضىٰ قِبَلَ الكعبة ، والملأ من قريش بفِنائها ، فطاف في البيت سبعاً متمكِّناً ، ثمَّ أتىٰ المقام فصلَّى ، ثمَّ وقف على الحِلَق واحدةً واحدةً ، فقال لهم : شاهت الوجوه ، لا يُرغِمُ الله إلا هذه المعاطس . مَنْ أراد أن يُثكِل أمَّه ، أو يُوتِم ولده ، أو يُرمِل زوجه ؛ فليلقني وراء هذا الوادي . فما تبعه أحدٌ ، ثمَّ مضىٰ لوجهه[1] .

وهذه الهجرة إلى المدينة كانت المحاولة الثَّانية للخلاص من الإقامة في ديار الكفر ، وكانت الخطوة الأولىٰ في بناء دولة الإسلام .

ولمَّا جاء المهاجرون إلى المدينة لقوا من إكرام الأنصار الشَّيءَ الكثير ، فقد تنافس فيهم الأنصار ، فحكَّموا القرعة بينهم ؛ حتَّى قيل : (فما نزل مهاجريٌّ على أنصاريٍّ إلا بقرعةٍ)[2] فقد [كان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على

(١) أخبار عمر ص ٢٥ نقلاً عن «الرِّياض النَّضرة» و«أسد الغابة» .
(٢) نور اليقين ص ٨٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] وهذا أعلىٰ درجات الأخوَّة ، وكلُّ ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنِّسبة لِمَا وجب عليهم لإخوانهم ، فإنَّ رسول الله ﷺ ليمكِّن بينهم الإخاء آخىٰ بين المهاجرين والأنصار ، فكان كلُّ أنصاريٍّ ونزيله أخوين في الله. . . وكان هذا الإخاء على المواساة ، والحقِّ ، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوي الأرحام. . . ودام هذا التَّوارث إلى أن أنزل الله سبحانه قوله في سورة الأحزاب : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٦]. قال ابن كثير : [وهذه ناسخةٌ لما كان قبلها من التَّوارث بالحِلْف ، والمؤاخاة الَّتي كانت بينهم ، كما قال ابن عبَّاسٍ ، وغيره : كان المهاجريُّ يرث الأنصاريَّ دون قراباته ، وذوي رحمه ، للأخوَّة الَّتي آخىٰ بينهما رسول الله ﷺ. . . قال الزُّبير بن العوَّام : أنزل الله فينا خاصَّةً معشر قريشٍ والأنصار : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ ﴾ ، وذلك أنَّا معشر قريشٍ لمَّا قدمنا المدينة قدمنا ، ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصارَ نِعْمَ الإخوان ، فواخيناهم ، وورارثناهم ، حتَّى أنزل الله هذه الآية فينا][1].

ذكر الحصري[2] أنَّ سيدنا أبا بكرٍ تمثَّل بشعرٍ طفيل عند ذكر الأنصار ، فقال :

ما مثلُنا ، ومثلُكم إلا كما قال طُفَيْل :

جَـزَىٰ اللهُ عنَّـا جَعْفَـراً حِيْـنَ أُزْلِقَـتْ ... بِنَـا نَعْلُنَـا فِـي الـوَاطِئِيْـنَ فَـزَلَّـتِ
أَبَــوْا أن يملُّــونـا ولــو أنَّ أمَّنــا ... تُـلاقـي الَّـذي يَلْقَـوْنَ مِنَّـا لَمَلَّـتِ
هُـمُ أسكنـونـا فِـي ظِـلاَلِ بُيُـوتِهِـمْ ... ظِــلاَلِ بُيُــوتٍ أَدْفَــأَتْ وَأَظَلَّــتِ

والحديث يبيِّن أنَّ الهجرة العظيمة هذه قد زالت دواعيها ، ولكنَّ الخير

(١) تفسير ابن كثير ط الشَّعب ٦/ ٣٨٢.
(٢) زهر الآداب ١/ ٣٣ طبعة البجاوي.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الَّذي انقطع بانقطاع الهجرة يمكن تحصيله بالجهاد ، والنِّيَّة الصَّالحة ، والاستجابة للخير ؛ إن دعا إليه داعٍ .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النَّبيِّ ﷺ ، قال : «المُسلم مَنْ سلِم المسلمون من لسانه ، ويده ، والمُهاجر مَنْ هَجَر ما نهىٰ الله عنه». متَّفقٌ عليه(١) .

أقول : وإذا كان ذلك كذلك فلنتعرف إلى الجهاد والنِّيَّة الصَّالحة .

وقد ذُكِرَتِ الهجرة مقرونةً بالجهاد في مواطنَ من كتاب الله :

فمن ذلك قوله سبحانه في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

دروس الهجــرة :

دروس الهجرة النَّبويَّة دروسٌ كثيرةٌ ، لكنِّي سأقتصر على الإشارة إلى المهمِّ منها :

١ ـ الكتمان يعين على تحقيق المراد بالنِّسبة للفرد ، وللجماعة ، ولذا نرىٰ الجيوش الحديثة تُعنى بتربية أفرادها عليه ، فلقد كتم ﷺ أمر هجرته .

٢ ـ التَّخطيط ، وإحكامه من الأمور الَّتي يتوقف عليها نجاح العمل بالنِّسبة للفرد ، والجماعة ، وهذا الَّذي نراه في هجرة النَّبيِّ ﷺ .

٣ ـ إيثار ما عند الله خُلُقٌ لا بدَّ أن يتوافر في الصَّفوة . وهذا ما نجده في أحداث الهجرة ، فقد ترك المهاجرون ديارهم ، وأوطانهم ، وأموالهم ، وأهليهم ابتغاء مرضاة الله ، ونصرة دينه ، وإعلاء كلمته .

وَأُلْفَةُ الوطن ، وحبُّ الدِّيار من الغرائز الَّتي فطر الله النَّاس عليها ، وقد قرنها الله بمحبَّة الحيَّاة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ

---

(١) مسند أحمد ٢/١٦٣ ، وصحيح البخاري ١/٩ برقم ١٠ ، وصحيح مسلم رقم ٤٠ ، وأبو داود رقم ٢٤٨١ ، وصحيح النَّسائي للألباني برقم ٤٦٢٣ .
وأخرج التِّرمذيُّ ٢١١٨ ، والدَّارمي ٢/٣٠٠ القسم الأول منه .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

والهجرة إلى بلدٍ حسن الهواء، فيه كلُّ ما يريد الإنسان أمرٌ صعبٌ، فكيف وقد كانت الهجرة إلى بلدٍ فيه حمًّى، ووباء؟!

تقول السَّيدة عائشة: «قدمنا المدينة؛ وهي أوبأ أرض الله»[١] حتَّى قال ﷺ: «اللَّهُمَّ! حبّب إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكَّة، أو أشدَّ، وانقلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَة، اللَّهُمَّ! بارك لنا في مدِّنا، وصاعنا»[٢] وقد ترك الصَّحابة ديارهم الَّتي كانوا يحبُّونها، وأموالهم، وأهليهم، وهذا يدلُّ على عظيم إيمانهم.

٤ ـ قيمة المسجد في الحياة الإسلاميَّة كبيرةٌ جدًّا، فلقد سارع رسول الله ﷺ أوَّل ما نزل المدينة إلى بناء المسجد.

٥ ـ نصر الله يأتي لمن ينصره، ويجاهد في سبيله، ولا يأتي للقاعدين المتواكلين، فرسول الله، وصحبُه خطَّطوا، وتحرَّكوا، وضحَّوا، وبذلوا، فجاءهم نصر الله.

٦ ـ الأخوَّة الإسلاميَّة تعلو على كلِّ الاعتبارات، وقد عقد الرسول مؤاخاةً بين الأنصار، والمهاجرين، وقد كان الأنصار في قمَّة الكرم، وحسن الضِّيافة، وكان المهاجرون في غاية التعفُّف.

روى البخاريُّ: أنَّهم لمَّا قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرَّحمن بن عوف، وسعد بن الرَّبيع، فقال سعدٌ لعبد الرَّحمن: إنِّي أكثر الأنصار مالاً، فأقسمُ مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبَهما إليك، فسمِّها لي؛ أطلِّقْها، فإذا انقضت عدَّتها؛ تزوجتَها.

قال عبد الرَّحمٰن: بارك الله لك في أهلك، ومالك! أين سوقكم؟

فدلُّوه على سوق قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضلٌ من أقطٍ، وسمنٍ[٣].

٧ ـ لقد كانت الهجرةإلى المدينة هجرةً مباركةً ناجحةً، قامت بها دولة

---

(١) صحيح البخاريِّ برقم ١٨٨٩.
(٢) صحيح البخاريِّ برقم ٦٣٧٢.
(٣) صحيح البخاريِّ برقم ٢٠٤٨ و٢٠٤٩.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الإسلام. ولكن سبقتها هجرة الحبشة الأولىٰ، ثمَّ الثانية... فتكرار هذه الهجرات درسٌ للدُّعاة إلى الله... فأرض الله واسعةٌ... وفي الهجرة خلاصٌ من الأذى، ونشرٌ لدين الله، وقد يفيد أن نذكر إشارةً موجزة لهجرة الحبشة:

لمَّا زاد أذىٰ الكفَّار للمسلمين، وبالغوا في صدِّهم عن اتِّباع الحقِّ، حتَّى إنَّهم لم يتركوا باباً فيه إيذاءٌ وصدٌّ عن سبيل الله إلا ولجه أولئك الكفَّار. لمَّا كان ذلك أشار عليهم رسولُ الله ﷺ أن يتفرَّقوا في الأرض، وقال: إنَّ الله سيجمعهم، ففعلوا ـ رضي الله عنهم ـ وهاجروا إلى تلك الدِّيار النَّائية.. يعبدون الله، ولم يمكِّنوا الطَّواغيت من أنفسهم.

فسألوه عن الوجه فأشار إلى الحبشة، فعند ذلك تجهَّز للخروج إلى الحبشة عشرةُ رجالٍ، وخمس نسوةٍ. [وهم: عثمان بن عفَّان، وأبو سلمة، وأبو سبرة، وعامر بن ربيعة، وأبو حذيفة بن عتبة، ومع هؤلاء الخمسة زوجاتهم. وعبد الرَّحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسهل بن البيضاء، والزُّبير بن العوام].

ولم يُطيلوا الإقامة هناك، فلم يبقوا إلا ثلاثة أشهر.. وقد كانوا مستوحشين.. ولمَّا رجعوا إلى مكَّة؛ لم يتمكَّن من الدُّخول إليها إلا مَنْ وجد له مجيراً.

ثمَّ كان أن اشتدَّ إيذاء الكفَّار للمسلمين، وحصرهم في الشِّعْبِ، وعندئذٍ أمر رسول الله ﷺ الناس أن يهاجروا إلى الحبشة، فهاجر عددٌ كبيرٌ منهم، وكانوا نحو ٨٣ رجلاً و١٨ امرأةً، وبقوا حتَّى أرسل إليهم عمرو بن أبي أميَّة الضَّمري بكتابٍ إلى النَّجاشي ليُرجِع مَنْ بقي إلى المدينة.

الجهاد(١):

إنَّ الحديث عن الجهاد يحلو، ولا تبلى جدَّته، وهو ضروريٌّ في هذه

---

(١) انظر في موضوع الجهاد: كتب الفقه، وفتح الباري، وشرح النَّوويِّ لمسلم عند شرحهما أبواب الجهاد، وزاد المعاد لابن القيِّم، ومعالم في الطريق لسيِّد قطب، والحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب بتحقيقنا، والمقدمة الَّتي كتبتُها لها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأيَّام ؛ الَّتي أصبح الإسلام فيها غريباً ، وأصبحت مبادئه ، وأحكامه ـ مع بالغ الأسف والأسى ـ معطلةً في معظم بقاع العالم ، وغدت دياره هدفاً لمطامع الكفَّار ، يتسابقون إلى احتلالها ، واستعمارها ، أو إخضاعها لمناطق نفوذهم ، وذلك لتركهم الجهاد ، وكراهيتهم الموت ، وإيثارهم اللَّذات ، وحبِّهم الحياة .

والجهاد واجب على القادرين من المسلمين ، وحكمه هذا باقٍ إلى يوم القيامة .

قال تقي الدِّين أبو بكر بن محمد الحسينيُّ الدِّمشقيُّ الشَّافعيُّ في كتابه : «كفاية الأخيار في حلِّ غاية الاختصار»[(١)] :

[الجهاد فرضٌ على الكفاية ؛ لقوله تعالى : ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦] ، ولأنَّه لو كان فرض عين لتعطَّلت المعايش ، والمزروعات ، وخربت البلاد . نعم قد يعرِض ما يوجب ذلك على كلِّ أحد ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى . فإذا قام بالجهاد مَنْ فيه كفايةٌ ؛ سقط الفرض عن الباقين ؛ لأنَّه هذا شأن فروض الكفايات . ثمَّ الكفاية تحصل بشيئين :

أحدهما : شحن الثُّغور بجماعةٍ يكفون مَنْ بإزائهم من العدوِّ ؛ فإن ضعُفوا ؛ وجب على كلِّ مَنْ وراءهم من المسلمين أن يمدُّوهم بمن يتقوَّون به على قتال عدوِّهم .

والثاني : أن يدخل الإمام دار الكفار غازياً بنفسه ، أو يبعث جيشاً ، ويؤمِّر عليهم مَنْ يصلح لذلك .

فلو امتنع الكلُّ من القيام بذلك ؛ حصل الإثم[(٢)] . . . وصحَّح النَّوويُّ : أنَّه

---

(١) كفاية الأخيار ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٧ .

(٢) هذه النقط تدلُّ على حذف .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يأثم كلُّ من لا عذر له. واعلم: أنَّه يستحبُّ الإكثار من الجهاد للآيات، والأخبار الواردة في ذلك.

وأقلُّ ما يجب في السَّنة مرَّةً؛ لأنه ﷺ لم يتركه منذ أمر به في كلِّ سنةٍ. والاقتداء به واجبٌ... (١) ولأنَّه فرضٌ يتكرَّر، وأقلُّ ما يجب التكرُّر في كلِّ سنةٍ مرَّةً كالصَّوم، والزَّكاة، فإن دعت الحاجة إلى أكثر من مرَّةٍ في السَّنة؛ وجب؛ لأنَّه فرض كفايةٍ، فيقدَّر بقدر الحاجة، والله أعلم.

وشروط وجوب الجهاد سبعةٌ: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرِّيَّة، والذُّكورة، والصِّحَّة، والطَّاقة على القتال... (١)

فلا يجب إلا على مسلمٍ، بالغٍ، عاقلٍ، حرٍّ، ذكرٍ، مستطيعٍ، فمن اجتمعت فيه هذه الصِّفات فهو من أهل فرض الجهاد بالاتِّفاق.

أمَّا الكافر؛ فلا جهاد عليه؛ لأنَّ الشَّخص لا يخاطب بقتل نفسه.

وأمَّا الصَّبيُّ، فلقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩١]. قيل: المراد بالضُّعفاء: الصِّبيان؛ لضعف أبدانهم. وقيل: المجانين؛ لضعف عقولهم، وللخبر المشهور: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن الصَّبيِّ حتَّى يبلغ، وعن النَّائم حتَّى يستيقظ، وعن المجنون حتَّى يبرأ»(٢) ولأنَّه عليه الصَّلاة والسلام ردَّ زيد بن ثابت، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وابن عمر - رضي الله عنهم - يوم بدرٍ، واستصغرهم. وفي الصَّحيحين عن ابن عمر؛ قال: عُرِضْتُ على النَّبيِّ ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع

---

(١) هذه النقط تدلُّ على حذف.

(٢) وهو حديثٌ صحيحٌ، انظره في «مختصر المقاصد» برقم ٤٩٩، وقد أخرجه أبو داود ٤/١٩٧ برقم ٤٣٩٨، وابن حبَّان موارد الظمآن ٣٦٠ برقم ١٤٩٦ و١٤٩٧، والدَّارميُّ ٢/١٧١، والنَّسائيُّ ٦/١٥٦، والحاكم في المستدرك ٢/٥٩، وابن ماجه ١/٦٥٨ برقم ٢٠٤١، ورواه البخاريُّ تعليقاً موقوفاً على عليٍّ ٧/٤٠ في العنوان الَّذي سبق الحديث ٥٢٦٩، ورواه أحمد في المسند ١/١١٦، والترمذيُّ برقم ١٤٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عشرة سنةً ، فردَّني ولم يجزني في القتال ، وعُرِضْتُ عليه يوم الخندق ، وأنا ابن خمس عشرة سنةً ، فأجازني[(١)].

وأمَّا الحرِّيَّة ، فاحترازٌ عن الرِّقِّ ، فلا جهاد على رقيقٍ. . .

وأمَّا الذُّكورة ؛ فاحترازٌ عن الأنوثة ، فلا يجب الجهاد على المرأة. . . وأمَّا الاستطاعة ؛ فاحترازٌ عمَّن لا يستطيع ، كالمريض ، والأعمىٰ ، والأعرج ، لأنَّهم لا يقدرون على الجهاد ، ولهذا أنزل الله تعالى فيهم: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧] وسورة الفتح نزلت في الجهاد بالاتِّفاق ، ولا يجب على مقطوع الرِّجل ، واليد. . . ولا يجب على الفقير الَّذي لا يجد ما ينفق على نفسه ، وعياله ، أو لا يجد ما يُحمَل عليه ، وهو على مسافة القصر ، وإن قدر على المشي ، لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١]. ولو كان العدوُّ دون مسافة القصر لم يُشترط وجودُ الرَّاحلة إن قدر على المشي ، ويُشترط في هذه الحالة وجدانُ النَّفقة إلا أن يكون العدوُّ بباب بلده ، والله أعلم.

ثمَّ هذا كلُّه إذا لم يطأ الكفارُ بلد المسلمين ، فإن وطئوها ، وغَشَوا المسلمين ، وعلم كلُّ واقفٍ عليه من الكفَّار: أنَّه إن أخذه قتله ، فعليه أن يتحرَّك ، ويدفع عن نفسه بما أمكن ، يستوي في ذلك الحرُّ ، والعبد ، والرَّجل ، والمرأة ، والأعمىٰ ، والأعرج ، والمريض ، ولأنَّه قتال دفاعٍ عن الدِّين ، لا قتال غزوٍ ، فلزم كلَّ مُطيقٍ ، والله أعلم][(٢)].

وليس للجهاد ذلك الظِّلُّ البغيض ؛ الَّذي حاول أعداء الإسلام أن يجعلوه له عندما زعموا كذباً ، وزوراً: أنَّه قائمٌ على الوحشية ، وإراقة الدِّماء ، وتدمير مظاهر المدنيَّة.

---

(١) رواه البخاريُّ برقم ٢٦٦٤ و٤٠٩٧ ، ومسلمٌ برقم ١٨٦٨ ، والتِّرمذيُّ برقم ١٣٦١ ، وأبو داود ٢٩٥٧ و٤٤٠٦ ، وابنُ ماجه برقم ٢٥٤٢.

(٢) كفاية الأخيار ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

بل إنَّ الجهاد هو القتال من أجل نشر دعوة الإسلام ؛ إذا لم يستجب النَّاس لدعوة الحقِّ ، ولم ينصاعوا لدعاته ، ووقفوا في طريقهم معارضين .

ويكون الجهاد الإسلاميُّ دائماً في مستوىً إنسانيٍّ كريمٍ ، يحظر على جنده أن يقتلوا وليداً ، أو شيخاً ، أو امرأةً ، أو راهباً في صومعته ، ويمنعهم أن يقطعوا شجراً .

أخرج مسلمٌ في «صحيحه» وأبو داود عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال :

كان رسولُ الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيشٍ ، أو سريَّةٍ أوصاه في خاصَّته بتقوىٰ الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثمَّ قال :

«اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا مَنْ كفر بالله .

اغزوا ، ولا تغلُّوا ، ولا تَغْدِروا ، ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا وليداً»[(١)] .

وأخرج مالكٌ في «الموطَّأ» أنَّ أبا بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ قال يوصي يزيد بن أبي سفيان قائد الجيش الَّذي وجَّهه إلى الشَّام أيَّام خلافته :

«إنَّك ستجد قوماً زعموا : أنَّهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنَّهم حبسوا أنفسهم له .

وإنِّي موصيك بعشرٍ :

لا تقتلنَّ امرأةً ، ولا صبيّاً ، ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطعنَّ شجراً مثمراً ، ولا تخربنَّ عامراً ، ولا تعقرنَّ شاةً ، ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ ، ولا تحرقنَّ نخلاً ، ولا تُفَرِّقنَّه ، ولا تغلُلْ ، ولا تجبُن»[(٢)] .

أمر الإسلام أتباعه أن يقاتلوا المقاتلة بعد أن يكونوا قد دعوهم إلى الإسلام ، فإن أبوا خيَّروهم بين الجزية ، أو الحرب .

وتاريخ الفتوحات الإسلاميَّة مُشَرِّفٌ ناصعُ الجبين ، فلم يعرف التَّاريخ فاتحاً أرحمَ ، ولا أعدلَ من المسلمين .

---

(١) مسلمٌ برقم ١٧٣١ ، وأبو داود ٢٦١٣ .
(٢) الموطَّأ ٢/٤٤٨ .

كانت حروب المسلمين حروباً كريمةً رحيمةً ؛ لنشر دين الحقِّ ؛ الَّذي أخرج الله به البائسين مِنْ ظلمات الشِّرك إلى نور التَّوحيد ، ومن أغلال الجور إلى جنَّات العدالةِ ، وحقَّق لهم عندما عملوا به ، وطبقوه في حياتهم أسباب الكرامة ، والسَّعادة الدُّنيوية ، ولأجر الآخرة أكبر.

كانت حروب المسلمين حروباً هجوميَّة ، كما كانت حروباً دفاعيَّة ، ولم تكن كلُّها دفاعيَّة كما يزعم بعض الباحثين[1]. ولكنَّ هذه الحروب الهجوميَّة قامت لنشر دعوة الإسلام ؛ الَّتي تحمل لواء تحرير الإنسان من كلِّ المظالم ؛ الَّتي كان يرسُف بها. ولم تكن للاستكبار ، والاستعلاء ، ولا للاستغلال ، والاستعباد ، ولا للسَّيطرة على الثَّروات ، والمناطق الاستراتيجيَّة.

وإنِّي لأعجب لاحتجاج أولئك الَّذين يزعمون: أنَّ حروب الإسلام كلَّها دفاعيَّةٌ ، ويتكلَّفون في تفسير أحداث التَّاريخ تكلُّفاً كبيراً ؛ حتَّى يؤيِّدوا مقولتهم. . إنَّ أتباع هذا الدِّين انطلقوا يؤدُّون رسالتهم الَّتي كلَّفهم بها ربُّهم ، حتَّى وصلوا إلى حدود الصِّين ، وحدود فرنسا.

وواجب المسلمين اليوم أن يعرفوا: أنَّ دينهم هو الدِّين الحقُّ الخالص ؛ الَّذي يستعين بالقوَّة الخيِّرة ، الَّتي تسعىٰ لإعلاء كلمة الله ، ولإسعاد البشر في الدُّنيا ، والآخرة ، وأنَّ عليهم أن يستكملوا وسائل القوَّة ؛ ليدفعوا عن أنفسهم وديارهم هذا الجور الَّذي يعاملهم به أعداؤهم ، وليتخلَّصوا من هذا الهوان الَّذي صاروا إليه لمَّا نبذوا تعاليم الإسلام وراء ظهورهم ، وليرفعوا عن جباههم هذه الذِّلَّة ؛ الَّتي جعلتهم مطمعاً للكفَّار. فالجهاد هو السبيل إلى العزَّة ، وتركه يورث الذُّلَّ ، قال سيِّدنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ عندما بويع بالخلافة:

«لا يَدَعُ قومٌ الجهادَ في سبيلِ الله إلاَّ خذلهم الله بالذُّلِّ ، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ إلاّ عمَّهم بالبلاء»[2].

---

(١) من أمثال الشَّيخ محمد عبده ، وأحسب: أنَّهم كانوا يحاولون إبطال تهمة دمويَّة الإسلام وعدوانيَّته الَّتي كان يوردها الغربيُّون من مستشرقين ، واستعماريِّين.

(٢) البداية والنِّهاية لابن كثيرٍ ٦/ ٣٠١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال سيِّدنا عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ يخاطب قومه :

«إنَّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصَّة أوليائه ، وهو لباس التَّقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنَّتُه الوثيقة ، فَمَنْ تركه رغبةً عنه ؛ ألبسه الله ثوبَ الذُّلِّ ، وشَمِلَهُ البلاء ، وديث بالصَّغار ، والقماءة ، وضُرِب على قلبه بالأسْدَادِ ، وأُديل الحقُّ منه بتضييع الجهاد ، وسيم الخَسْفَ ، ومُنِع النَّصَفَ ، وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلاً ، ونهاراً ، وَسرَّاً وإعلاناً ، وقلتُ لكم : اغزوهم قبل أنْ يغزوكُم ، فوالَّذي نفسي بيده! ما غُزِي قومٌ قطُّ في عُقْر دارهم إلا ذلُّوا»(١) .

ولقد قرَّر العلماء ـ كما سبق أن ذكرنا ـ : أنَّ الجهاد فرض كفايةٍ عندما يكون في ديار الكفر ، ويكون فرضَ عينٍ في حالاتٍ أهمُّها :

١ ـ إذا كان المتطوِّع بالجهاد في الصَّفِّ ، وبدأ القتال ، فلا يجوز له الإدبار مطلقاً إلا مُتَحرِّفاً لقتالٍ ، أو متحيِّزاً إلى فئةٍ(٢) قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦] ويكون الجهاد في هذه الحالة فرضَ عينٍ .

٢ ـ إذا دخل الكافر بلداً مسلماً ، وهاجم أهلَه ؛ أضحىٰ القتال فرض عينٍ على أهل البلد، ويستوي في تلك الحالة الحُرُّ، والعبد، والرَّجلُ ، والمرأة .

٣ ـ إذا عيَّنه الإمام ، واستنفره ؛ فالقتال عندئذٍ واجبٌ .

وقد أمر الله سبحانه بالجهاد بالنَّفس ، والمال ، فقال سبحانه : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]. وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

---

(١) رغبة الآمل ١/ ١٠٤ والمنتخب من أدب العرب ٢/ ١٦٠ ونهج البلاغة ١/ ٦٣ .

(٢) مطالب أولي النهى ٢/ ٥١٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿الْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣] فقد جعل النَّجاة من النَّار، ومغفرةَ الذُّنوب، ودخولَ الجنَّة، والنَّصرَ على الأعداء، جعل ذلك كلَّه معلَّقاً على الجهاد بالمال، والنَّفس.

وقال ﷺ: «انتدب اللهُ لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا إيمانٌ بي وتصديق برسلي أن أُرْجِعَه بما نال من أجرٍ، أو غنيمةٍ، أو أُدْخِلَه الجنَّة. ولولا أن أشقَّ على أمَّتي ما قعدت خلف سريَّةٍ، ولوددتُ أنِّي أقتل في سبيل الله، ثمَّ أُحيا، ثمَّ أُقتل، ثمَّ أُحيا، ثمَّ أُقتل»(١).

وقال صلوات الله عليه:

«مَثَلُ المُجاهد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يجاهد في سبيله ـ كمثل الصَّائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتُر من صيامٍ، ولا صلاةٍ، حتَّى يرجع المجاهد في سبيل الله. وتوكَّل(٢) الله للمجاهد في سبيله؛ إنْ توفَّاهُ أن يدخله الجنَّة، أو يرجعَه سالماً مع أجرٍ، أو غنيمةٍ»(٣).

قرَّرنا: أنَّ الجهاد فرضُ كفاية إلا أن تدعو الحاجة إليه؛ كأن يدهم العدوُّ بلداً من بلاد المسلمين، ويتعيَّن على مَنْ عيَّنه الإمام، ويتأدَّىٰ فرضُ الكفاية بفعله في السَّنة مرَّةً على الأقلِّ.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: [والتَّحقيق: أنَّ جنس جهاد الكفار متعيِّنٌ على كلِّ مسلمٍ إمَّا بيده، وإما بلسانه، وإما بقلبه](٤).

هذا وفرض الكفاية لا يدرك أهمِّيَّته كثيرٌ من النَّاس، ذلك لأنَّ أكثر أحكامه

---

(١) رواه البخاريُّ ١/ ١٣ برقم ٣٦، ومسلم برقم ١٤٩٥ بلفظ: تضمَّن الله... إلخ، والنَّسائيُّ ٨/ ١١٩، وابن ماجه ٢٧٥٣.

(٢) في صحيح مسلم: تكفَّل.

(٣) رواه البخاريُّ ٤/ ١٣ برقم ٢٧٨٧، ومسلمٌ ١٨٧٨، والموطَّأ ٢/ ٤٤٣، والنَّسائيُّ ٦/ ١٧، وابن ماجه ٢٧٥٤.

(٤) فتح الباري ٦/ ٣٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

متعلِّقٌ بالأمَّة ، ويطالب به جميع القادرين عندما لا يتحقَّق ، ويأثمون لإهماله ، وتضييعه .

إنَّ قوَّة الدَّولة ، ونماءها ، وامتلاكها لوسائلِ الارتقاء ، وأسبابِ السَّلامة ، وصيانة مجتمعها من الضَّعف ، والتداعي ، كلُّ ذلك ممَّا يدخل في باب (فروض الكفاية) .

إنَّ التَّقصير في أداء فرض العين يجرُّ على صاحبه الإثم ، أمَّا التَّقصير في أداء فرض الكفاية فإنَّه يجرُّ على الأمَّة كلِّها ، أو على مجموعةٍ كبيرةٍ منها الإثم والمسؤوليَّة .

وفي الحديث الموجز الذي ندرسه حضٌّ على النَّفير للجهاد في قوله ﷺ: «وإذا استُنفرتم ؛ فانفِروا» فإذا استجار بنا مسلمون من اضطهادٍ أصابهم ، أو عدوٍّ غاشم حلَّ بساحتهم ؛ فعلينا نصرهم ، والنَّفيرُ للدِّفاع عنهم .

ولا بُدَّ من كلمةٍ في تقويم الفهم لفريضة الجهاد، فقد أسيء فهمُها في العصر الحاضر ، وكان ذلك نتيجة لكيدٍ من الكفَّار ، وقوبل ذلك الكيد بخطأ من بعض الباحثين الَّذين أرادوا ردَّه ، وذلك باعتمادهم نصّاً واحداً دون بقيَّة النُّصوص . وهذا غلطٌ منهجيٌّ. إنَّ على مبتغي الحقِّ في أيِّ مسألةٍ علميَّةٍ يدرسها ، ويريد الوقوف على حقيقتها أن يعتمد النُّصوص كلَّها ، وينظر فيها ، ويجمع بينها . وللأستاذ العبقريِّ سيِّد قطب فضلٌ كبيرٌ في تسديد النَّظرة المعاصرة لموضوع الجهاد ، فقد أشار إلى هدف الجهاد الإسلاميِّ ، وذكر مراحل فرضيَّته ، وردَّ على الباحثين المعاصرين الَّذين أساؤوا فهم نصوصه ، واعتمد في ذلك كلِّه على النُّصوص القرآنيَّة ، والحديثيَّة ، وعلى حقائق التَّاريخ الثابتة .

* إنَّ هدف الجهاد الإسلاميِّ هو تحقيق إخلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد ، قال الأستاذ سيِّد[1] : [إنَّ هذا الدِّين إعلانٌ عامٌّ لتحرير الإنسان في الأرض من العبوديَّة للعباد ، ومن العبوديَّة لهواه أيضاً ، وهي من

---

(١) معالم في الطَّريق ص ٥٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

العبوديَّة للعباد. وذلك بإعلان ألوهيَّة الله وحدَه سبحانه، وربوبيَّته للعالَمِين.

إنَّ إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثَّورةُ الشَّاملة على حاكميَّة البشر في كلِّ صورها، وأشكالها، وأنظمتها، وأوضاعها، والتَّمرُّدُ الكاملُ على كلِّ وضعٍ في أرجاء الأرض؛ الحكم فيه لبشرٍ بصورةٍ من الصُّور].

وأمَّا فيما يتعلَّق بمراحل فرضيَّة الجهاد؛ فقد لخَّص الأستاذ سيِّد الفصل الَّذي كتبه الإمام ابن القيِّم(١)، فقال:

[أوَّل ما أوحىٰ إليه ربُّه ـ تبارك وتعالى ـ أن يقرأ باسم ربه الَّذي خلق، وذلك أوَّل نبوَّته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثمَّ أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ فنبَّأه بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وأرسله بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ثمَّ أمره أن ينذرعشيرته الأقربين، ثمَّ أنذر قومه، ثمَّ أنذر مَنْ حولهم مِنَ العرب، ثمَّ أنذر العرب قاطبةً، ثمَّ أنذر العالَمِين. فأقام بضع عشرة سنةً بعد نبوَّته يُنذر بالدَّعوة من غير قتالٍ ولا جزيةٍ، ويؤمر بالكفِّ، والصَّبر، والصَّفح.

ثمَّ أُذِن له في الهجرة، وأُذِن له في القتال. ثمَّ أمره أن يقاتل مَنْ قاتله، ويكفَّ عمَّن اعتزله، ولم يقاتله، ثمَّ أمره بقتال المشركين حتَّى يكون الدِّين كلُّه لله.

ثمَّ كان الكفَّار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسامٍ: أهل صلحٍ، وهدنةٍ، وأهل حربٍ، وأهل ذمَّةٍ.

فأُمِر بأن يُتِمَّ لأهل العهد والصُّلح عهدهم، وأن يُوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانةً؛ نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتَّى يُعلمَهم بنقض العهد.

وأُمِرَ أن يقاتل مَنْ نقض عهدَه.

ولمَّا نزلت سورة براءة؛ نزلت ببيان حكم الأقسام كلِّها:

فأُمر أن يقاتل عدوَّه من أهل الكتاب حتَّى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في الإسلام.

---

(١) انظر زاد المعاد ٣/ ١٥٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأمره فيها بجهاد الكفار ، والمنافقين ، والغلظة عليهم ، فجاهد الكفَّار بالسَّيف ، والسِّنان ، والمنافقين بالحجَّة ، واللِّسان .

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفَّار ، ونبذ عهودهم إليهم . . وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام :

قسماً أمره بقتالهم ، وهم الَّذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم ، وظهر عليهم .

وقسماً لهم عهدٌ مؤقَّت ، لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يُتِمَّ لهم عهدهم إلى مدَّتهم .

وقسماً لم يكن لهم عهدٌ ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهدٌ مطلقٌ ، فأمره أن يؤجِّلهم أربعة أشهرٍ ، فإذا انسلخت ؛ قاتلهم . . . فقاتل النَّاقض لعهده ، وأجَّل مَنْ لا عهد له ، أو له عهدٌ مطلقٌ أربعة أشهر ، وأمره أن يُتِمَّ للموفي بعهده عهدَه إلى مدَّته ، فأسلم هؤلاء كلُّهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدَّتهم ، وضرب على أهل الذِّمَّة الجزية .

فاستقرَّ أمر الكفار معه بعد نزول سورة براءة على ثلاثة أقسام :

محاربين له ، وأهلِ عهدٍ ، وأهلِ ذمَّةٍ . . .

ثمَّ آلت حال أهل العهد ، والصُّلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهلَ ذمَّة . والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثةَ أقسامٍ : مسلمٌ مؤمنٌ به ، ومسالمٌ له آمنٌ ، وخائفٌ محاربٌ .

وأمَّا سيرته في المنافقين فإنَّه أُمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم ، والحجَّة ، وأمره أن يُعرِض عنهم ، ويَغْلُظَ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونُهي أن يصلِّي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم][1] .

---

(١) زاد المعاد ٣/ ١٥٨ ـ ١٦١ ، وانظر معالم في الطَّريق ص ٥٥ ـ ٥٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأمَّا ردُّه على القائلين بأنَّ الجهاد حروبٌ دفاعيَّةٌ فقط ، فقال سيِّد ـ رحمه الله ـ:

[إنَّ جدِّيَّة النُّصوص القرآنيَّة الواردة في الجهاد ، وجدِّيَّة الأحاديث النَّبويَّة الَّتي تحضُّ عليه ، وجدِّيَّة الوقائع الجهاديَّة في صدر الإسلام ، وعلى مدىً طويلٍ من تاريخه ، إنَّ هذه الجدِّيَّة الواضحة تمنعُ أن يجولَ في النَّفس ذلك التَّفسير الَّذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر ، وأمام الهجوم الاستشراقيِّ الماكر على الجهاد الإسلاميِّ.

ومن ذا الَّذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشَّأن ، وقول رسوله ﷺ ، ويتابع وقائع الجهاد الإسلاميِّ ، ثمَّ يظنُّه عارضاً مقيَّداً بملابساتٍ تذهب ، وتجيء ، ويقف عند حدود الدِّفاع لتأمين الحدود][1] .

وقال: [إنَّ الَّذين يلجؤون إلى تلمُّس أسبابٍ دفاعيَّةٍ بحتةٍ لحركة المدِّ الإسلاميِّ : إنَّما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقيَّة في وقتٍ لم يعد للمسلمين شوكةٌ ، فيبحثون عن مبرِّراتٍ أدبيَّةٍ للجهاد في الإسلام][2] .

وقال أيضاً: [إنَّ الباحثين الإسلاميِّين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر ، وتحت الهجوم الاستشراقيِّ الماكر ، يتحرَّجون من تقرير تلك الحقيقة ؛ لأنَّ المستشرقين صوَّروا الإسلام حركة قهرٍ بالسَّيف للإكراه على العقيدة. والمستشرقون الخُبثاء يعرفون جيداً: أنَّ هذه ليست هي الحقيقة ، ولكنَّهم يشوِّهون بواعث الجهاد الإسلاميِّ بهذه الطَّريقة ، ومن ثمَّ يقوم المنافحون المهزومون عن سمعة الإسلام بنفي هذا الاتِّهام ، فيلجؤون إلى -تلمُّس المبرِّرات الدِّفاعيَّة ، ويغفلون عن طبيعة الإسلام ، ووظيفته ، وحقِّه في تحرير الإنسان ابتداءً][3] .

* * *

---

(١) معالم في الطَّريق ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) معالم في الطَّريق ٧٣ .
(٣) معالم في الطَّريق ٨١ .

شبكة الألوكة
www.alukah.net

النِّيَّــــة :

والنِّيَّة أمرٌ جليلٌ هامٌّ عوَّل عليه الإسلام تعويلاً كبيراً ، وجعل الأعمال معلَّقةً عليها ، ومن أجل ذلك عدَّ كثيرٌ من العلماء حديث «إنَّما الأعمال بالنِّيات»(١) من الأحاديث الَّتي عليها مدار أحكام الإسلام .

فلا يجوز أن نؤخذ بمظهر العمل وصورته ، إنَّ المظهر والصُّورة أمران مهمَّان ، ولكنَّ الأهمَّ منهما النِّيَّة الَّتي دفعت إلى هذا العمل ، والَّتي تكمن وراءه . . . إنَّها هي الَّتي تعطيه قيمته الحقيقيَّة في ميزان الأعمال عند الله . ولئن خَفِيَت النِّيَّة على المخلوقين ، ولم تبد لهم ؛ إنَّها لا تخفىٰ على الَّذي يعلم السِّرَّ ، وأخفىٰ . . . على الَّذي لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ، ولا في السماء .

والنِّيَّة الخالصة لله تنهض بالعمل البسيط إلى مراتب عظيمةٍ من رِفعة الشَّأن وعلوِّ المكانة . وقد ورد في الحديث : «مَنْ همَّ بحسنةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا ؛ كَتَبَها اللهُ تبارك وتعالى حسنةً كامِلةً»(٢) ، فمجرد العزم الصَّادق على فعل الحسنة أمرٌ يستحقُّ صاحبه الثَّواب ولو لم يعملها . وإذا فقدت النِّيَّة الخالصة انخفضت قيمة العمل الجليل ، ولا يفيد صاحبه شيئاً . فالجهاد ، والعلم ، وإنفاق المال ، كلُّ هذه الأعمال لا تصنع لمن يعملها شيئاً ؛ إذا لم تكن خالصةً لوجه الله سبحانه ، ولا تُنقِذ صاحبها من عذاب الله ، كما ورد ذلك في الحديث الصَّحيح الذي رواه أبو هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إنَّ أوَّل النَّاس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشْهِد فأُتي به ، فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها؟ قال : قاتلت فيك حتى استُشْهِدتُ . قال : كذبت! ولكنَّك قاتلت ؛ لأن يقال : فلانٌ جريءٌ . فقد قيل . ثمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتَّى أُلقيَ في النَّار .

---

(١) انظر شرحنا لهذا الحديث في هذا الكتاب : الحديث التاسع عشر .
(٢) متَّفقٌ عليه من رواية ابن عباسٍ (انظر فتح الباري ١١/ ٣٢٣ برقم ٦٤٩١ ، وصحيح مسلمٍ ١٣١ ، وعن أبي هريرة ١٢٨ و١٢٩ و١٣٠) .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ورجلٌ تعلم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم، وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت! ولكنَّك تعلَّمت؛ ليقال: عالمٌ. وقرأت القرآن؛ ليقال: هو قارئٌ. فقد قيل. ثمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتَّى أُلقيَ في النَّار.

ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتيَ به، فعرَّفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟. قال: ما تركت من سبيلٍ تُحبُّ أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبت!. ولكنَّك فعلت؛ ليقال: هو جوادٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِرَ به، فسُحِب على وجهه حتَّى أُلقيَ في النَّار»[1].

وقد سئل رسولُ الله ﷺ عن الرَّجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميَّةً، ويقاتل رياءً: أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا؛ فهو في سبيل الله»[2].

ويُستنبط من الحديث ما يأتي:

* في الحديث بشارةٌ بأنَّ مكَّة تبقىٰ دار إسلامٍ أبداً.

* في الحديث ما يدلُّ على وجوب الخروج إلى الغزو على من عيَّنه الإمام.

* في الحديث ما يدلُّ على وجوب الجهاد، واستمرار هذا الحكم إلى يوم القيامة.

* في الحديث ما يدلُّ على قيمة النِّيَّة.

* * *

---

(١) رواه مسلمٌ ٦/٤٧ برقم ١٩٠٥، والنَّسائيُّ ٦/٢٣ ـ ٢٤ والتِّرمذيُّ ٤/برقم ٢٣٨٢، وانظر صحيح التِّرمذي للألبانيِّ ١٩٤٢، وابن حبَّان في صحيحه.

(٢) متَّفقٌ عليه من رواية أبي موسىٰ الأشعريِّ. صحيح البخاريِّ برقم ٢٨١٠، وصحيح مسلمٍ برقم ١٩٠٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث السادس

آداب الطريق

عن أبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «إيَّاكم والجُلوسَ بالطُّرقات». فقالوا: يا رسول الله! ما لنا مِنْ مجالسنا بُدٌّ، نتحدَّث فيها. فقال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلس؛ فأعطوا الطَّريق حقَّه» قالوا: وما حقُّ الطَّريق يا رسول الله؟! قال: «غضُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السَّلام، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر».

رواه البخاريُّ؛ ومسلمٌ، والطَّحاويُّ[١].

وروىٰ أبو داود هذا الحديث أيضاً عن أبي هريرة، وفيه زيادةٌ، وقال: «وإرشاد السَّبيل»[٢].

وأخرج ابن حبَّان عن أبي هريرة بلفظ قال: نهى رسول الله ﷺ عن أن يجلسوا بأفنية الصُّعُدات. قالوا: يا رسول الله! إنا لا نستطيع ذلك، ولا نطيقه. قال: «إمَّا لا؛ فأدُّوا حقَّها». قالوا: وما حقُّها يا رسول الله؟ قال: «ردُّ التَّحيَّة، وتشميتُ العاطس إذا حمِد الله، وغضُّ البصر، وإرشاد السَّبيل»[٣].

وأخرج أبو داود حديث أبي سعيدٍ عن عمر بن الخطَّاب[٤]، وفيه زيادة:

---

(١) البخاريُّ برقم ٢٤٦٥ و٦٢٢٩، ومسلمٌ برقم ٢١٢١، ومشكل الآثار ١/ ٥٩.

(٢) أبو داود برقم ٤٨١٦.

(٣) موارد الظمآن برقم ١٩٥٤.

(٤) أبو داود برقم ٤٨١٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«وتغيثوا الملهوف ، وتهدوا الضَّالَّ». وكذلك الطَّحاويُّ في مشكل الآثار[١] ولفظ الزِّيادة فيه: «وتهدي الضَّالَّ ، وتعين الملهوف».

وأخرج مسلمٌ ، وأحمد[٢] عن أبي طلحة حديثاً مقارباً لحديث أبي سعيد. ولفظه كما أورده مسلمٌ:

عن أبي طلحة قال: كنّا قعوداً بالأفنية نتحدَّث ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقام علينا ، فقال: «مالكم ولمجالس الصُّعُدات؟ اجتنبوا مجالس الصُّعدات» فقلنا: إنَّما قعدنا لغير ما بأسٍ ، قعدنا نتذاكر ، ونتحدَّث. قال: «إمَّا لا[٣] ؛ فأدوا حقَّها: غضُّ البصر ، وردُّ السلام ، وحسن الكلام».

إنَّ حديث أبي سعيدٍ في حقِّ الطريق سمعه من النَّبيِّ ﷺ عددٌ من الصَّحابة ، وقد ذكرت بعضهم ، ويفيد أن نورد أسماءهم ، وأن نشير إلى أنَّ في روايات بعضهم زيادةً عن روايات بعضهم الآخر.

أمَّا أسماؤهم ؛ فنذكر منها[٤] أبا سعيدٍ ، وأبا هريرة ، وأبا طلحة ، وعمر بن الخطَّاب ، والبراء[٥] ، وابن عبَّاسٍ ، وسهل بن حنيفٍ ، ووحشيَّ بن حربٍ.

وأمَّا الزيادات ؛ فقد أحصاها ابن حجر ، وضمَّ بعضها إلى بعضٍ ، فكان مجموع آداب الطَّريق كما دلَّت عليها الأحاديث أربعة عشر أدباً. قال ابن حجر:

[ومجموعُ ما في هذه الأحاديث أربعةَ عشرَ أدباً ، وقد نظَمْتُها في أربعة أبياتٍ ، وهي:

جَمَعْتُ آدَابَ مَنْ رَامَ الجُلوس عَلى الطَّـ ـريقِ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الخَلْقِ إنْسَانَا

---

(١) مشكل الآثار ١/ ٥٨.

(٢) مسلمٌ برقم ٢١٦١ ، وأحمد ٤/ ٣٠.

(٣) أي: إن لم تتركوها ؛ فأدُّوا حقَّها. الصُّعدات: الطُّرقات وزناً ، ومعنى ، والأفنية: جمع فِناء بكسر الفاء ، وهو المكان المتَّسع أمام الدَّار.

(٤) جمعها ابن حجر في الجزء الحادي عشر من فتح الباري ص ١١.

(٥) انظر ابن حبَّان برقم ١٩٥٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَفْشِ السَّلامَ، وَأَحْسِنْ في الكلام وشَمِّـ ـتْ عَاطِساً ، وَسَلاَماً رُدَّ إحْسَانَا
فِي الحَمْلِ عاوِنْ، وَمَظْلُوماً أَعِنْ وَأَغِثْ لَهْفَانَ اهْـدِ سَبِيْلاً وَاهْـدِ حَيْرَانَـا
بالعرف مُرْ ، وَانْهَ عَنْ نُكْرٍ وَكُفَّ أذىً وَغُضَّ طَرْفاً ، وَأَكْثِرْ ذِكْرَ مَوْلانا][1]

وسنخصُّ بالدِّراسة حديث أبي سعيدٍ المُتَّفق عليه. ولنبدأ بدراسة المفردات:

* إيَّاكم والجلوسَ: هذا التَّركيب معروفٌ لدى النَّحويين بالتَّحذير.

فإيَّاكم: ضمير مبني على السُّكون في محلِّ نصبٍ مفعول به لفعلٍ محذوفٍ وجوباً تقديره: (احذروا) أو (باعدوا).

والجلوس: الواو حرف عطف. الجلوس معطوفة على إيَّاكم.

* الطُّرقات: جمع الطُّرق ، والطُّرق: جمع طريق.

* بُدٌّ: أي فرقةٌ. جاء في «اللِّسان» البدُّ: الفراق. تقول: لا بُدَّ اليوم من قضاء حاجتي ؛ أي: لا فراق منه.

* المجلس: مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الجلوس. وهو قياسيٌّ يصاغ من الفعل الثُّلاثيِّ على وزن مَفْعَل بفتح العين.

إلا إذا:

١ ـ كان واوي الفاء.

٢ ـ وكان مضارعه مكسور العين.

٣ ـ وكان حرف العلَّة (الواو) محذوفاً في المضارع ، مثل: وعد ، يعد.

فإنه يكون حينئذٍ مكسور العين (مفعِل) مثل (مَوْعِد) وقد وردت ألفاظٌ مسموعةٌ عن العرب خارجة على الضَّابط المذكور آنفاً ، فبنيت شذوذاً على كسر العين كالمرجع. فلعلَّ المجلس من هذا الشَّاذِّ.

---

(١) الفتح ١١/١١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

غضُّ البصر: كفُّه عن النَّظر. تقول: غضَّ طرفه غَضّاً وغِضَاضاً بالكسر والفتح؛ أي: خفضه.

* كف الأذى: الامتناع عن الأذى.

* * *

إنَّنا نعيش في مجتمع وكثيراً ما تطغىٰ النَّزعة الفرديَّة في المرء عليه، فينسىٰ: أنَّه فردٌ من المجتمع، ينبغي أن يتنازل عن كثيرٍ من أهوائه، وملذَّاته في سبيل الآخرين.

ونسيان هذه الحقيقة يجرُّ الويل، والنَّكبات على المجتمع، والأفراد.

والإسلام العظيم أقام توازناً رائعاً بين الفرد، والمجتمع.. فلا يطغىٰ في واقعه المثاليِّ جانبٌ على جانب.. إنَّه لا يترك الفرد حرّاً يصنع ما يشاء، ويحقِّق ما يريد، ويسعىٰ وراء لذَّاته، ومنافعه غير عابئٍ بعرفٍ، أو مصلحةٍ، أو حقوقٍ، حتَّى يدمِّر بتحقيق أغراضه الذَّاتية سعادة غيره من بني الإنسان... ولا يجعل من المجتمع إلهاً موهوماً له كلُّ شيءٍ، وبيده كلُّ شيءٍ، يُذِلُّ من أجله نفوس الأفراد، يُسْلَبون الحرِّيَّة رعايةً لشأنه، وتُنتزع منهم حقوقُهم الخاصَّة، ويُقَوَّمُونَ تقويمَ الدَّوابِّ، والأشياء.

لم يقف الإسلام من هذه المعضلة الضَّخمة أحدَ الموقفين المُتطرِّفَيْنِ، بل أقام توازناً بينهما عظيماً، واستطاع بإحكامٍ دونه كلُّ إحكامٍ أن يُعمِّم هذا التَّوازن في كلِّ جزئيةٍ من جزئيات شريعته الخالدة. وبذلك أضحىٰ الفرد قادراً على أن يُحقِّق ذاته ضمن إطار المجتمع، وأن يمارس تصريف طاقاته، والاستمتاع بلذائذه في حدود الشَّرع، في الوقت الَّذي كفل للمجتمع بأن تقوم شؤونُه على الوجه الأكمل، والأفضل، ورعىٰ مصالحه رعايةً فائقةً، أبرزت المجتمع المثاليَّ الأغرَّ؛ الَّذي كان في عهد النَّبيِّ ﷺ، وخلفائه الرَّاشدين مِنْ بعده مجتمعاً متعاوناً رحيماً عادلاً... مجتمعاً إنسانيّاً من طرازٍ رفيعٍ نادرٍ... ولقد كان تحدِّياً للتَّاريخ، وللنَّظريات الفكريَّة أن تأتي بمثله، وفي الحديث

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الَّذي بين أيدينا مصداق هذه النَّظرية الصَّائبة. فالحمد لله الَّذي أكرمنا بهذا الدين، ومنَّ علينا بهدايته، فما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

موضوع حديث أبي سعيد حقوقُ الطَّريق. وهذا موضوعٌ اجتماعيٌّ مهمٌّ.. لم يتنبَّه له المفكِّرون والمصلحون إلا بعد زمنٍ طويلٍ... عندما كثرت الحوادث في الطُّرقات، وشاع استعمال السَّيارات. والرَّسول العظيم ﷺ في هذا الحديث ـ شأنه في أحاديثه كلِّها ـ يسبق عصره، وليس ذلك بغريبٍ، فهو ﷺ نبيٌّ يُوحىٰ إليه.

وهذا الحديث دليلٌ من أدلَّةٍ كثيرةٍ تدلُّ على أنَّ أحكام هذا الدِّين شاملةٌ لجوانب الحياة كلِّها، فما مِنْ ناحيةٍ من نواحي الحياة إلا وللإسلام فيها رأيٌ سديدٌ، وتوجيهٌ للنَّهج السَّليم.

ويبدو: أنَّ الرَّسول ﷺ تحدَّث في موضوع الجلوس في الطُّرقات أكثر من مرَّةٍ، كما يُستنتج ذلك من الرِّوايات المختلفة الَّتي رواها عددٌ من الصَّحابة، وفي بعضها من الآداب ما ليس في بعضها الآخر.

وآداب الطَّريق المذكورة في هذا الحديث آدابٌ مطلوبةٌ من المسلم في كلِّ حين: فغضُّ البصر، وردُّ السَّلام، وكفُّ الأذى، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر... أخلاقٌ إسلاميَّةٌ كريمةٌ، يُطلب من المسلم أن يتحلَّىٰ بها دائماً، في كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ مكانٍ، ولا تُطلب فقط من الجالس في الطَّريق.

إنَّ اجتماع النَّاس في الهواء الطَّلق ـ دون أن يثقل المجتمعون على أحدٍ ـ وتجاذُبَ أطراف الحديث بينهم، والاستمتاعَ برؤية الحياة متحرِّكةً بارزةً أمام أعينهم متمثِّلةً في اضطراب النَّاس في هذه الأرض، وغُدُوِّهم، ورواحهم؛ لتحقيق مطالبهم.. كلُّ أولئك أمورٌ ترغب النَّفس فيها، وتحرص عليها.

ولكنَّ هذه المنافع الشَّخصيَّة قد تصطدم بمصلحة المجتمع، وأفراده، وعندئذٍ يُمنع النَّاس من تحصيل هذه المنافع رعايةً للمصلحة المشتركة، ومن ذلك الموضوع الَّذي عالجه الحديث، وهو النَّهي عن الجلوس...، ذلك

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لأنَّهم يجتمعون في الطُّرقات ، والطُّرقاتُ من المرافق العامَّة الَّتي يحقُّ لكلِّ فردٍ من أفراد الأمَّة أن يستعملها ، ومن أجل رعاية التَّوازن ؛ الَّذي تحدَّثنا عنه آنفاً يحرص الإسلام على رفع الموانع ؛ الَّتي تحول بين عامَّة النَّاس ، وبين المنفعة من الطَّريق ، ويبيحُ الجلوسَ في الطريق إن لم يتعسف الجالسون في استعمال هذا الحقِّ وإن أعطوا الطَّريق حقَّه .

ما أحوجنا إلى معرفة آداب الطَّريق ، والتزامها ، والتَّذكير بها ، ولا سيما في هذا العصر ؛ الَّذي كثر عَبَثُ الشَّباب فيه . . وعظُم تأثُّر كثيرٍ منهم بما عند الكفَّار ، حتَّى كادت تضيع حقوق الطَّريق ، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .

ولو نظرنا إلى الأمور الَّتي نصَّ عليها الحديث ، وجعلها من حقوق الطَّريق ؛ لوجدنا أنَّ تضييعها يوقع في الفتنة ، وفي الإثم ، وأنَّ علَّة النَّهي عن الجلوس في الطَّريق كيلا يتعرَّض الجالس إلى الفتنة ، والإثم ، وذلك من رحمة الله بعباده ، إنَّه سبحانه رؤوفٌ بالعباد .

نهى رسول الله ﷺ النَّاس عن الجلوس في الطُّرقات ؛ لئلا يضعُف الجالس عن أداء الحقِّ ؛ الَّذي عليه ، ولئلا يضعُف أمام الشَّهوة المحرَّمة ، فيقع فيما حظره عليه . وفي الطريق من الفتنة ما ليس في البيت .

ونهاهم عن الجلوس فيها كيلا يتعرَّض الجالس إلى التَّقصير في القيام بحقوق الله ، وحقوق المسلمين ، ممَّا لا يلزمه لو كان في بيته .

ونهاهم عن الجلوس فيها ؛ كيلا يُؤذي الجالس أحداً من المسلمين بغيبةٍ ، أو انتقاصٍ ، أو تضييقٍ عليه في الطَّريق .

وأشار الحديث بغضِّ البصر إلى السَّلامة من التَّعرُّض للفتنة بِمَنْ يمرُّ من النِّساء ، وغيرهن .

وأشار بكفِّ الأذى إلى السَّلامة من احتقار أحدٍ من المسلمين ، أو شتمه .

وأشار بردِّ السَّلام إلى إكرام المارِّ .

وأشار بالأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر إلى كلِّ ما يجب ، أو يَحْسُنُ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فِعْلُه ، فيأمر به ، وإلى كلِّ ما يَحْرُم ، أو يُكره فعله ، فينهىٰ عنه .

ولننظُرْ في كلِّ أمرٍ من هذه الأمور :

١ ـ غضُّ البصر : قال الله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١] .

وعن جريرٍ ؛ قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفَجْأة قال: «اصرِفْ بصرَكَ» رواه مسلمٌ ، وأبو داود ، والتِّرمذيُّ ، وأحمد ، والدَّارميُّ[(١)] .

وعن أبي هريرة في حديثٍ يرفعه إلى النَّبيِّ ﷺ قال: «فزِنَى العينين النَّظر» رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأبو داود[(٢)] .

وعن بريدة ؛ قال: قال ﷺ: «يا عليُّ! لا تُتْبعِ النَّظْرَة النَّظْرَةَ ، فإنَّ الأولىٰ لك ، وليس لك الآخرة» رواه أبو داود ، والتِّرمذيُّ ، وهو حديثٌ حسن[(٣)] .

والنَّظرة سهمٌ من سهام الشَّرِّ مسمومٌ ، وقد تكون سُلَّماً إلى البلاء ، والشَّقاء ، وسبباً إلى مهاوٍ من الانحراف لا قرار لها . فكم من نظرةٍ محرَّمةٍ آلمت صاحبها ، وأفسدت عليه أمره ، ولم يستفد منها شيئاً محموداً ، لكنَّها نغَّصت عليه حياته الَّتي كان قانعاً بها راضياً عنها . وقد قيل :

وَكُنْتَ مَتَىٰ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً ... لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعبَتْكَ المَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلَّه أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ[(٤)]

وكم من نظرةٍ محرَّمةٍ هدَمت حياة صاحبها ، وقوَّضَتْ دعائم سعادته وهنائه ، وقد تقوده إلى الإثم الغليظ ، والجريمة المنكرة . . . وقد تقضي عليه بالمرض ، والعُقَد النَّفسية حتَّى تنتهي به إلى الموت .

---

(١) مسلمٌ ٢١٥٩ ، والتِّرمذيُّ برقم ٢٧٧٦ ، وانظر صحيح التِّرمذيِّ للألباني ٢٢٢٨ ، وأبو داود ٢١٤٨ ، والدَّارميُّ ٢/ ٢٧٨ ، وأحمد ٤/ ٣٥٨ .

(٢) البخاريُّ برقم ٦٣٤٣ ، ومسلمٌ ٨/ ٥٢ برقم ٢٦٥٧ ، وأبو داود ٢١٥٢ .

(٣) أبو داود ٢١٤٩ ، وصحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ ٢٢٢٩ .

(٤) عيون الأخبار ٤/ ٢٢ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وإنْ عمَّ ذلك؛ كانت الفوضىٰ الخُلُقيّة، والاعتداءُ على الحُرُماتِ، واختلاط الأنساب، واختلالُ حبل الأمن، وتعكير صفو المُجتمع.

إنَّ غضَّ البصر مطلوبٌ، ولو كانت المرأة محتجبةً محتشمةً؛ لأنَّ المرأة تبقىٰ فتنةً[1]، ولم يمنعها الشَّرع من المرور في الطَّريق؛ إن كانت لها حاجةٌ... فوجب على المسلم أن يغضَّ بصره.

وغضُّ البصر مطلوبٌ في كلِّ وقتٍ، وهو الآن مطلوبٌ على وجهٍ آكد لما نرىٰ في كثير من الطُّرقات من التَّبرُّج السَّاقط، وعرض المحاسن، وإغراء الشَّباب بالنَّظر، والإثم.

لقد وقع ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ في كثيرٍ من البلاد، فالنِّساء يخطرن كاسياتٍ عارياتٍ، مائلاتٍ مميلاتٍ، يتثنَّينَ في مِشيتهنَّ، ويتبختَرْنَ، رؤوسهُنَّ كأسنمة البُخت، أخرج مسلمٌ[2] عن أبي هريرة، قال ﷺ: «صنفان من أهل النَّار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها النَّاس.

ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهنَّ كأسنمة البُخت المائلة، لا يدخلن الجنَّة، ولا يجدن ريحها، وإنَّ ريحها ليوجدُ من مسيرة كذا، وكذا...».

وقد تحقَّقت هذه النُّبوءة الصَّادقة، فالمرأة تسير في بعض البلاد؛ وهي تلبَس لباساً مزركشاً، يُبرِز المفاتن، ولا يستر إلا القليل من جسمها، بل لا تكاد تستر الواحدة منهنَّ من جسمها إلا ما قبح مرآه. والعياذ بالله تعالى، فلو قال قائل: إنَّها كاسيةٌ؛ كان صادقاً، ولو قال: إنَّها عاريةٌ؛ كان صادقاً. وتتزيَّن أتمَّ زينةٍ، وتتطيَّب بأفخر أنواع العطر، وتنطلق الرَّوائح الزَّكيَّة قبل

---

(1) فقد روي مسلمٌ ٤/ ١٣٠ برقم ١٤٠٣، والتِّرمذيُّ ٢/ ٢٠٣ برقم ١١٥٨، وأبو داود ٢/ برقم ٢١٥١ عن جابر قال: قال ﷺ: «إنَّ المرأة تقبل في صورة شيطان». ورواه النَّسائيُّ في «الكبرى» في كتاب عِشْرة النِّساء ٥/ برقم ١٩٢١ (وكتاب عِشْرة النِّساء المطبوع وحده ص ١٩٣ برقم (٢٣٥).

(2) في كتاب اللباس والزِّينة ٦/ ١٦٨ برقم ٢١٢٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مرورها ، وبعده . وهذا محرَّمٌ ، وتختال تقطع الشَّوارع . . . إنَّها فتنةٌ عظمى . . . فَمِنَ الجدير بالمسلم ألا يعرِّض نفسه إلى أماكن الفتنة . . فإذا جلس في الطَّريق ؛ كان عليه أن يغضَّ بصره . . فإن لم يَقْوَ على ذلك ؛ فليبارح هذا المجلس ، وليبتعد عن مواضع الفتنة . والفتنة بالنِّساء أضرُّ الفتن . قال ﷺ : «ما تركت بعدي فتنةً أضرّ على الرِّجال من النِّساء» . رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأحمد ، والتِّرمذيُّ ، والنَّسائيُّ ، وابن ماجه[1] .

والأمر بغضِّ البصر هو من سدِّ الذَّرائع ؛ لأنَّ النَّظرة الآثمة ـ كما قلنا ـ طريقٌ للوقوع في الحرام ، والإسلام العظيم لا يمكن أن يبيح سبباً مؤدِّياً إلى منكرٍ ، ولا أن يقرَّ مقدِّمات الجريمة مع اعترافه بأنَّها تفضي إلى الجريمة المحرَّمة .

قال شوقي :

وَكُنْ فِي الطَّرِيْقِ عَفِيْفَ الخُطا شَرِيْفَ السَّمَاعِ كَرِيْمَ النَّظَر
وَكُنْ رَجُلاً إِنْ أَتَوا بَعْدَهُ يَقُولُونَ : مَرَّ ، وهذا الأَثَر

٢ ـ كفُّ الأذىٰ :

ذكر رسول الله ﷺ كفَّ الأذى على أنَّه حقٌّ من حقوق الطَّريق . . . بإيجازٍ رائعٍ . . ولا عجب في ذلك فإنَّه ﷺ قد أوتي جوامع الكَلِم .

والأذىٰ كلمةٌ عامَّةٌ تشمل : الاحتقار ، والغيبة ، والشَّتم ، وتضييق الطَّريق ، ولو نظرنا في الكبائر ؛ الَّتي حرَّمها الإسلام ؛ لوجدنا أنَّ معظمها يتعلَّق بإيذاء الآخرين . . . إنَّ إيذاء المسلمين مُورِدٌ صاحبه الهلاك ، ويدلُّ على ذلك الحديثان الصَّحيحان الآتيان ، وغيرهما كثيرٌ :

عن أبي هريرة ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «أتدرون مَنِ المُفلس؟» قالوا :

---

(١) البخاريُّ رقم ٥٠٩٦ ، ومسلمٌ ٨/ ٨٩ برقم ٢٧٤٠ ، وصحيح التِّرمذيِّ للألباني ٢٢٣١ ، وابن ماجه ٣٩٩٨ ، وأحمد ٥/ ٢٠٠ ، والنَّسائيُّ في «الكبرى» ٥/ برقم ٩١٥٣ (وانظر كتاب عِشْرة النِّساء المطبوع وحده ص ٢٢٨ برقم ٢٧١ . وقد رواه كلٌّ من أسامة ، وسعيد بن زيدٍ رضي الله عنهما) . وفي بعض الرِّوايات : «ما أَدَعُ . . . » .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المُفلس فينا مَنْ لا درهم له ، ولا متاع . فقال : «إنَّ المفلس من أمَّتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاةٍ ، وصيامٍ ، وزكاة ، ويأتي ؛ وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دمَ هذا ، وضرب هذا . فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا مِنْ حسناته ، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه ؛ أُخِذ من خطاياهم ، فطُرِحت عليه ، ثمَّ طرح في النَّار» ، رواه مسلمٌ ، والتِّرمذيُّ[1] .

أرأيت يا أخي! كيف أنَّ هذه الخصال ؛ الَّتي تؤذي الآخرين كانت سبباً في هلاكه وطرحه في النَّار؟ .

وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ ، قال: «اجتنبوا السَّبع المُوبقات» قالوا: يا رسول الله! وما هنَّ؟ قال: «الشِّرك بالله ، والسِّحر ، وقتل النَّفس الَّتي حرَّم الله إلا بالحقِّ ، وأكل الرِّبا ، وأكل مال اليتيم ، والتَّولي يوم الزَّحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» . رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ[2] .

إنَّ هذه المُهلكات كلَّها إيذاءٌ للآخرين ، وكفُّ الأذىٰ عن الآخرين صدقةٌ من المرء على نفسه ، كما في حديث أبي ذرٍّ ، قال ﷺ: «تكفُّ شرَّك عن النَّاس ؛ فإنَّها صدقةٌ منك على نفسك» . رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ[3] .

إنَّ كفَّ الأذى أمرٌ يستطيعه كلُّ إنسانٍ؛ لأنَّه أمرٌ سلبيٌّ لا جَهْدَ فيه ، فقد يكون المرء عاجزاً عن فعل الخير ؛ لضعفه الجسميِّ، والمعنويِّ ، ولقلَّة ذات يده ، ولكنَّه أبداً قادرٌ على ألا يؤذي أحداً من النَّاس .

إنَّـا لَفِـي زَمَـنٍ تَـرْكُ الْقَبِيْـحِ بِـهِ ... مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إحسانٌ وَإِجْمَالُ[4]

ضع نفسك يا أخي! موضع هؤلاء الَّذين يمرُّون أمامك ، فتؤذيهم بقولك ، أو فعلك: هل تريد أن يعاملك الآخرون هذه المعاملة؟!

إن كنت تتقوَّىٰ بأنَّك بين قومك ، وأهلك ؛ فقد تتعرَّض لغربةٍ ، وإن كنت

---

(١) مسلمٌ ٨/ ١٨ برقم ٢٥٨١ ، والتِّرمذيُّ ٣/ ٢٩١ برقم ٢٤١٨ .

(٢) البخاريُّ برقم ٢٧٦٦ ، ومسلمٌ برقم ٨٩ .

(٣) البخاريُّ برقم ٢٥١٨ ، ومسلمٌ ١/ ٦٢ برقم ٨٤ ، والأدب المفرد ٤٦ .

(٤) البيت للمتنبِّي .

شبكة الألوكة www.alukah.net

تعتزُّ بمالك ؛ فقد تفتقر ، وإن كنت تفخر بصحَّتك ، وقوَّتك ؛ فقد تمرض ، وتضعُف ، وبقاء الحال من المُحال .

كما قال القائل[(١)] :

الـدَّهْـرُ لَا يَبْقَـىٰ عَلَـىٰ حَـالَاتِـهِ ... لَا الشَّهْـدُ دَامَ وَلَا يَـدُومُ الحَنْظَـلُ

وكما قال الآخر[(٢)] :

وَهَـذِهِ الـدَّارُ لَا تُبْقِـي عَلَـىٰ أَحَـدٍ ... وَلَا يَـدُومُ عَلَـىٰ حَـالٍ لَهَـا شَـانُ

وألوان الإيذاء كثيرةٌ ، يصعب حصرُها ، وقد يحدث ما لم يكن معروفاً في الماضي ، ومِنْ ألوان الإيذاء السُّخرية من بعض المارَّة ، واغتيابهم ، والنَّظرات الفاجرة الَّتي يلاحق بها الجالسون النِّساء ، ومنها ما يفعله بعض الباعة الَّذين يبسطون بضائعهم على الرَّصيف ، ويعرضونها ، وهو المكان المعدُّ لمرور المُشاة ، فلا يبقىٰ لأولئك المُشاة مجالٌ للسَّير في المكان المأمون الَّذي أُعِدَّ لهم ، وهذا يضطرُّهم إلى المشي في وسط الطَّريق المخصَّص للسَّيارات ، وقد يُعَرِّضهم هذا إلى الخطر .

وقد يقف بعضهم بسيارته في وسط الشَّارع يتحدَّث مع صديقٍ له راجلٍ ، فيقطع الطَّريق ، ويؤذي المسلمين . إنَّ الطريق ليس لواحدٍ ، بل هو للنَّاس جميعاً . فجلوس نفرٍ من النَّاس في هذه الطُّرقات ـ إن كان فيه إيذاءٌ للمارة بأنواع من الأذى ممَّا ذكرنا ، وممَّا لم نذكر ـ لا يجوز في دين الله .

وهكذا فإنَّ من مصلحة المرء الَّذي لا يكفُّ أذاه عن النَّاس ؛ إن جلس في الطَّريق ؛ إنَّ من مصلحته أن يبقى في بيته ، وأن يجتنب الجلوس في الطُّرقات .

٣ ـ ردُّ السَّلام :

وردُّ السَّلام حقٌّ من حقوق الطَّريق ، والسَّلام موضوعٌ واسعٌ ، لن نستطيع أن نوفِّيه حقَّه في هذه الكلمة ، ولكنَّا نذكر بعض معالمه ، وقد عقد

---

(١) هو حليم دموس .

(٢) هو أبو البقاء الرَّنديُّ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المحدِّثون[1] أبواباً ، وكتباً في مصنَّفاتهم للسَّلام ، يذكرون أحكامه ، وآدابه ، وفضله ، وكذلك الفقهاء .

إنَّ لكلِّ قوم تحيَّةً ، وتحيَّة المسلمين السَّلام ، وإذا كانت التَّحية أمراً موجوداً في كل المجتمعات البشريَّة مهما كانت درجتُها من الحضارة ، فإنَّ في الإسلام آداباً لها ، وأحكاماً تجعلها متميِّزةً عن أنواع التَّحيَّة عند الآخرين .

إنَّ أمَّة الإسلام تلهج بالسَّلام ، فهو تحيَّتُها ، وهو في الصَّلاة المفروضة يتكرَّر في التشهد أكثر من مرَّةٍ ، وتُختم به الصَّلاة :

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧] وقال ﷺ: «يا أيُّها الناس! أفشوا السَّلام ، وأطعموا الطَّعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلُّوا ؛ والنَّاس نيامٌ ، تدخلوا الجنَّة بسلام» . رواه أحمد ، والتِّرمذيُّ ، وقال: حسنٌ صحيحٌ ، وابن ماجه ، والدَّارميُّ ، والحاكم[2] .

السَّلام هو التَّحيَّة الَّتي سنَّها الإسلام ؛ ليكون السِّلم ، والمسالمة من سمات المجتمع الإسلاميِّ ، السَّلام شعارٌ يكون مرفوعاً بين الأمَّة ، يحملها على رصِّ صفوفها كتلةً واحدةً ، وعلى تناسي الأحقاد ، ووأد روح الفُرقة ، لتنطلق هذه الأمَّة إلى الدُّنيا متعاونةً ، تدعو البشر أجمعين إلى الخير العظيم ؛ الَّذي شرَّفها الله بحمله ، تبشِّر به ، وتُنذر كلَّ مَنْ بلغه نداءُ الحقِّ .

سأل رجلٌ رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟

---

(١) انظر البخاريَّ كتاب الاستئذان ج٨/ ٤٣ من الطَّبعة المحقَّقة ، ومسلماً ج٧/ ٢ من طبعة إستانبول و٤/ ١٧٠٤ من طبعة عبد الباقي . والتِّرمذيَّ : كتاب الاستئذان ج٥/ ٥٢ من الطَّبعة الَّتي بدأ تحقيقها أحمد شاكر .

(٢) انظر مسند أحمد ٥/ ٤٥١ ، وابن ماجه ١٣٣٥ و٣٢٥١ ، والدَّارمي ١/ ٣٤٠ ، والحاكم ٣/ ١٣ ، والتِّرمذي ٣/ ٣١٣ برقم ٢٤٨٥ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ﷺ: «تطعم الطَّعام، وتقرأ السَّلام على مَنْ عرفت، ومَنْ لم تعرِف»[1].

وانظر يا أخي! إلى قوله ﷺ: «ومن لم تعرف» إنَّه أدبٌ كريمٌ، فقد يقيم سلامك على من لم تعرف علاقةً بينك وبينه، تفيد منها الأمة. ونفّذ المسلمون هذا الأمر الكريم.

روىٰ مالك[2] في الموطَّأ: أنَّ عبد الله بن عمر كان يخرج إلى السُّوق ليسلِّم على مَنْ يلقى، ولا سيَّما من الضَّعفة.

وتبادُلُ السَّلام سببٌ من أسباب تأكُّد المحبَّة، ورسوخ المودَّة بين المسلمين، وهو سببٌ لدخول الجنَّة، قال ﷺ: «والَّذي نفسي بيده! لا تدخلوا الجنَّة حتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أو لا أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه؛ تحاببتم؟ أفشوا السَّلام بينكم»[3].

وأخرج التِّرمذيُّ عن الزُّبير بن العوَّام، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسدُ، والبغضاء هي الحالقة. لا أقول: تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدِّين، والَّذي نفسي بيده! لا تدخلوا الجنَّة حتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أفلا أنبئكم بما يُثَبِّتُ ذلك لكم؟ أفشوا السَّلام بَيْنكُمْ»[4].

وابتداؤه سنَّةٌ؛ لأنَّه ﷺ أمر بإفشاء السَّلام، وقال العلماء: إنَّ هذا الأمر أمرُ ندب. وردُّه فريضةٌ نصَّ عليها القرآن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

أخرج البخاريُّ، ومسلمٌ: أنَّه ﷺ قال: «يسلِّم الرَّاكب على الماشي،

---

(١) رواه البخاريُّ ٦٢٣٦، ومسلمٌ ٣٩، وأبو داود ٥١٩٤.
(٢) الموطَّأ ٢/ ٩٦١ ـ ٩٦٢.
(٣) مسلمٌ ٥٤، وأبو داود ٥١٩٣، وابن ماجه ٣٦٩٢، وفي روايةٍ: لا تدخلون. والحديث عن أبي هريرة.
(٤) التِّرمذيُّ برقم ٢٥١٠، وانظر صحيح الترمذيِّ للألبانيِّ ٢٠٣٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والماشي على القاعد، والقليل على الكثير» وفي روايةٍ للبخاريِّ: «الصَّغير على الكبير»[1].

إنَّ هؤلاء الَّذين يتعالون على النَّاس، فلا يردُّون السَّلام إن حُيُّوا؛ قومٌ مرضىٰ النُّفوس بالكِبْرِ، الَّذي يدلُّ على صَغَارٍ متأصِّلٍ فيهم. وهم يُؤذون إخوانهم الذين بَدؤوهم بالتَّحيَّة؛ لأنَّ عدم ردِّهم احتقارٌ، وبحسب امرئٍ من الشَّرِّ أن يَحْقِر أخاه المُسلم. وهم يثيرون حول أنفسهم الشُّبهات؛ لأنَّهم لم يقبلوا مبدأ المُسالمة الَّذي يتضمَّنه السَّلام، ويولِّد هذا الكِبْرُ الحِقْدَ، والحزازاتِ، وقد يجرُّ إلى الجرائم، وقيام المُشكلات.

إنَّ السَّلام أُمنيَةٌ يتطلَّع إليها الأفراد، والمجتمعات؛ لأنَّه ليس هناك أغلىٰ من الأمن على الرُّوح، والمال، والعرض.

ولذا كان ردُّ السَّلام حقّاً مِنْ حقوق الطَّريق، وكانت إباحة جلوس النَّاس في الطريق مشروطةً بأمورٍ، منها ردُّ السَّلام.

٤ ـ الأمـر بالمعـروف، والنَّهـي عن المنكـر[2]:

ذكَر رسول الله ﷺ الحقَّ الرَّابع من حقوق الطَّريق، وهو الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المُنكر. والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر مطلبٌ عظيمٌ في الشَّريعة، وله شأنٌ جليلٌ، وهو الوسيلة الَّتي بها يقاوَم الانحرافُ، ويُستأصل، ويُشجَّعُ الخير، ويُستدرك.

والكلام في الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر واسعٌ متعدِّد الجوانب قابلٌ لكثيرٍ من القول. ولا نودُّ أن نعرض له الآن، وقد نتصدَّىٰ له في موضع آخر، لكنَّ الشَّيء الَّذي نريد أن نقرِّره هنا هو: أنَّ المسلم لا يجوز له أن يرىٰ الانحراف بعينه، ثمَّ يسكت عليه، ويقرَّه... إنَّ حاسَّة الخير الَّتي غرسها الإسلام في أعماق قلبه تأبى عليه روحَ اللاَّمبالاة الهدَّامة.. فإذا رأىٰ حدّاً من

---

(١) البخاريُّ ٦٢٣٢، ومسلمٌ ٢١٦٠.

(٢) انظر هذا الموضوع في كتابنا «خواطر في الدَّعوة» ص ٤١ وما بعدها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حدود الله يُنتهك بأن يَقْتَرِفَ مجرمٌ مُنكراً من المنكرات ؛ غَضِبَ لله ، وعَمِل على تغيير المنكر بما يستطيع مِنْ وسائل .

وقد ذكر رسول الله ﷺ الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر حقّاً من حقوق الطَّريق ؛ لما يحتمل أن يوجد في الأسواق ، والشَّوارع من المنكرات ، ومن العُصاة الفسقة السَّفلة ؛ الَّذين يأتون المنكرات ، ويتحرَّشون بالفتيات ، وربَّما جرَّ ذلك الوضع الشَّاذُّ الانحراف على الصَّالحين ، والصَّالحات ، وإن لم يكن ذلك ؛ فهم يتعرَّضون إلى الألم من تلك المُضايقات . فوجب على مَنْ جلس في الطَّريق أن ينهى عن المنكر ، وأن يأمر بالمعروف بما يستطيع ، وأن يبلِّغ أولي الأمر من رجالِ الحِسْبَة ؛ إنْ وُجدوا . وإن لم يفعل ؛ يكن قد ضيَّع حقَّ الطَّريق ، ووقع معهم في الإثم .

ولو أنَّ كلَّ مَنْ يجلس في الطَّريق يلتزم بهذا الأدب الكريم ؛ لقلَّت المنكرات ، أو زالت . رأيت مرَّة رجلاً من أهل العلم يسير في الطَّريق ؛ وله سمتُه ، ووقاره ، وكلَّما رأىٰ منكراً ؛ تلطَّف في إنكاره . . . كان يأتي إلى الرَّجل ، ويسلِّم عليه ، ويقول له : أنت أخي في الدِّين ، وقد رأيتُك تفعل هذا ، وأنا أخاف عليك الوقوع في الإثم ؛ الَّذي يجرُّ عليك عذاب الله ؛ الَّذي لا تحتمله . . وما يزال يخاطبه بكلام مليءٍ بهذه العاطفة حتَّى يتأثَّر .

❋ ❋ ❋

هذه حقوقٌ من حقوق الطَّريق . . وهي آدابٌ ينبغي على المسلم القيام بها في كلِّ حينٍ ، وفي كلِّ مكانٍ ، وجلوسه في الطَّريق داخلٌ فيها . . . فإن لم يجد من نفسه القدرة على أن يؤدِّي حقوق الطَّريق ؛ فليحذر مِنَ الجلوس .

قال العلماء : ولأفنية الدُّور حكمُ الطَّريق ، وحقوقها ، ولا سيَّما أنَّ بعض الرِّوايات ذكرت : أنَّ الرَّسول ﷺ قال هذا الحديث لقومٍ يجلسون في فناء الدَّار . قال ابن حجر رحمه الله :

[ويلتحق بما ذكر ما في معناه من الجلوس في الحوانيت ، وفي الشَّبابيك

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المشرفة على المارَّة حيث تكون في غير العلو][1].

قلت: ويمكن أن تكون للشبابيك العالية بعض الأحكام الَّتي تماثل ما جاء في أحكام هذا الحديث، كغضِّ البصر، وكفِّ الأذى... وغير ذلك من الأمور الَّتي ينبغي على مَنْ كان واقفاً على شبَّاكٍ عالٍ أن يتقيَّد بها.

ويدلُّ هذا الحديث على أنَّ عادة الجلوس في الطُّرقات عادةٌ مستحكمةٌ عند العرب، لم يستطيعوا تركها، فوضع الإسلام لها آداباً، ونظَّم لها حقوقاً، وهذه خاصَّةٌ عظيمةٌ من خصائص الشَّريعة؛ الَّتي لا تكلِّف نفساً فوق وُسْعِها، ولكنَّها لا تترك المسلم يمارس العادات طليقةً من حدود الشَّرع.

والجلوس في الطُّرقات ما زال موجوداً في القرى، وفي عدد من المدن، ولا سيَّما في الأسواق... وقلَّ في بعض المدن، وحلَّ محله التَّجوُّل في الطُّرقات، سواءٌ في السَّيارات، أو على الأرجل، يجب أن يطالب هؤلاء المُتجوِّلون بالتزام آداب الطَّريق؛ لأن حكمهم حكم الجالسين.

ويدخل في هذا مراعاةُ قواعد المرور الَّتي تنظِّمها الدَّولة، فمراعاتُها واجبٌ شرعيٌّ؛ لأنَّ المباح عندما يأمر به وليُّ الأمر لمصلحةٍ ظاهرةٍ يجب اتِّباعه، وتحرم مخالفتُه... ومن ذلك التقيُّد بالإشارات الضَّوئيَّة، والالتزام بالتَّعليمات المتَّصلة بالمرور.

في هذا الحديث تقريرٌ لمبدأ سدِّ الذَّرائع[2] فالجلوس في الطَّريق إن قام الجالس بأداء حقوقه مباحٌ، لكنَّه إن ضعف عن أداء تلك الحقوق؛ أصبح ممنوعاً؛ لأنَّه ذريعةٌ تُوقع في الممنوع، وهو مبدأٌ عظيمٌ مهمٌّ في الشَّريعة.

---

(١) فتح الباري ٥/ ١١٣.

(٢) عقد ابن القيِّم فصلاً في هذا الموضوع في «إغاثة اللَّهفان» ١/ ٣٦١ ـ ٣٧٠ وفصلاً آخر في إعلام الموقِّعين ٣/ ١١٩ وما بعدها، وكتب شيخنا محمد الخضر حسين بحثاً عن سدِّ الذَّرائع، اعتمد فيه على ما ذكره ابن القيِّم، تجده في كتاب «دراسات في الشَّريعة الإسلاميَّة» من جمع علي الرِّضا التُّونسيِّ. وكتب محمَّد هشام البرهاني رسالة ماجستير بعنوان: «سدُّ الذَّرائع في الشريعة الإسلاميَّة» وبلغت صفحاتها ٨٨٠ صفحة، وطبعها سنة ١٤٠٦ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ابن القيِّم: [والشَّارعُ حرَّم الذَّرائع، وإن لم يُقْصَدْ بها المحرَّم؛ لإفضائها إليه، فكيف إذا قُصد بها المُحَرَّم نفسُه؟! فنهى الله تعالى عن سبِّ آلهة المشركين[(١)]؛ لكونه ذريعةً إلى أن يسبُّوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عَدْواً، وكُفْراً على وجه المقابلة][(٢)].

وسرد أموراً كثيرةً محرَّمةً من باب سدِّ الذَّرائع.

* * *

ويدلُّ هذا الحديث على المُستوىٰ الأخلاقيِّ، والسلوكيِّ للصَّحابة، فهم إذا سمعوا أمراً من الرَّسول ﷺ؛ أدركوا: أنَّ هذا الأمر للتَّنفيذ، ولذلك فإنَّهم يعرضون واقعهم، وإمكانية تنفيذهم لهذا الأمر، فإذا علموا: أنَّه لا بدَّ من إنفاذه؛ نَفَّذُوهُ مهما كانت التَّضحيات، والمصاعب، ويبدو: أنَّ التَّربية الكريمة عوَّدتهم على ذلك.

* * *

قال ابن حجر: [يؤخذ من هذا الحديث: أنَّ دفع المضرَّة أولىٰ من جلب المصلحة؛ لندبه ﷺ أوّلاً إلى ترك الجلوس مع ما فيه من الأجر لمن عمل بحقِّ الطريق، وذلك: أنَّ الاحتياط لطلب السَّلامة آكدُ من الطَّمع في الزِّيادة][(٣)].

* * *

هذا الحديث نموذجٌ لهدي النَّبيِّ ﷺ في التَّعليم، والتَّوجيه؛ إذ كان يعتمد على الحوار[(٤)] الرَّائع. فلقد قال الرَّسول ﷺ الجملة الأولىٰ: «إيَّاكم والجلوسَ بالطُّرقات» وسكت... وقد يكون ﷺ قد توقَّع: أنَّ هذا سيثير سؤالاً عندهم،

---

(١) وذلك في سورة الأنعام، الآية ١٠٨.
(٢) إغاثة اللَّهفان ١/ ٣٦١.
(٣) فتح الباري ٥/ ١١٣.
(٤) انظر مبحث الحوار في كتابنا «الحديث النَّبوي».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يتضمَّن ذكر حاجتهم إلى هذه المجالس ، وصعوبة امتناعهم عنها. . وكان ذلك. وفي تقرير حقوق الطَّريق بَعْدَ الحوار من التَّأثير في السَّامعين ، وتمكُّن المعنىٰ في نفوسهم ما لا يكون؛ لو أنَّه قرَّرها ابتداءً دون إثارةِ هذا الحوار.

وبعد أن سمع منهم تقريرهم لاحتياجهم إلى هذه المجالس. . . وذلك بمثابة التماس منهم بالسَّماحِ قال كلمةً مشوِّقة قال: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطَّريق حقَّه» فسألوه مرَّةً أخرىٰ عن حقِّ الطَّريق ، فأجابهم. وبذلك تمكَّن المعنى فضل تمكُّنٍ.

وهذا أسلوبٌ تربويٌّ ، نجده كثيراً في أحاديث النَّبيِّ ﷺ ، فلا يفرض المعاني فرضاً ، بل يثير في نفوسهم الدَّوافع إلى معرفتها ، والوقوف عليها.

* * *

وأخيراً ففي الحديث انسجامٌ ، وتوازنٌ بين جمله ، وتراكيبه ، جعل له وقعاً موسيقياً رائعاً: «غضُّ البصر ، وكفُّ الأذى ، وردُّ السلام».

وفيه حذفٌ لأحد ركني الجملة ؛ لوقوع الكلام جواباً لسؤالٍ محقَّقٍ: «وما حقُّ الطَّريق» قال: «غضُّ البصر ، وكفُّ الأذى. . .» أي: حقُّ الطَّريق غضُّ البصر. . . إلخ.

* * *

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث السابع

الحرص على المال والوجاهة

عن كعب بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسدَ لها مِنْ حرص المرء على المال، والشَّرف لدينه». رواه أحمد، والتِّرمذيُّ، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وابن حبَّان، والدَّارميُّ[(١)].

وروىٰ هذا الحديث عن رسول الله ﷺ عددٌ من الصَّحابة غير كعبٍ.

* منهم: ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «ما ذئبان ضاريان في حظيرةٍ يأكلان، ويفسدان بأضرَّ فيها من حبِّ الشَّرف، وحبِّ المال في دين المرء المسلم». رواه البزَّار بإسنادٍ حسن. كذا قال المنذريُّ. لكنَّ التِّرمذيَّ عندما أشار إلى حديث ابن عمر هذا قال: [ولا يصحُّ إسناده][(٢)].

* ومنهم: أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان ضاريان جائعان في زريبة غنمٍ، أغفلها أهلُها، يفترسان، ويأكلان بأسرع فيها فساداً من حبِّ المال، والشَّرف في دين المرء المسلم». قال المنذريُّ: رواه الطَّبرانيُّ، واللفظ له، وأبو يعلىٰ بنحوه، وإسنادهما جيِّد[(٣)].

---

(١) المسند ٣/ ٤٥٦ و٤٦٠ والترمذي ٣/ ٣٧٧ برقم ٢٣٧٦ وموارد الظمآن برقم ٢٤٧٢ والدارمي ٢/ ٣٠٤ وانظر الترغيب والترهيب ٤/ ٤٧.

(٢) رواه البزار، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٠).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* ومنهم: جابر، ولفظ حديثه ـ كما أورده ابن رجب ـ: «ما ذئبان ضاريان يأتيان في غنمٍ غاب رِعاؤها بأفسد للنَّاس من حبِّ الشَّرف والمال لدين المؤمن».

* ومنهم: ابن عباسٍ.

* ومنهم: أسامة بن زيدٍ.

* ومنهم: أبو سعيدٍ الخدريُّ.

ومنهم: عاصم بن عديٍّ، وحديثه ـ كما أورده ابن رجب[(١)] ـ: قال عاصم: اشتريتُ مِئة سهمٍ من سهام خيبر، فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فقال: «ما ذئبان ضاريان في غنم؛ أضاعها ربُّها بأفسد من طلب المُسلم المالَ والشرف لدينه». أخرجه الطَّبرانيُّ[(٢)].

هذه الرِّوايات المختلفة لهذا الحديث الصحيح تضع بين أيدينا الصُّورة البيانيَّة الرَّائعة، الَّتي تقرِّر عن طريق التصوير الحقيقة الآتية، وهي: أنَّ الحرص على المال، والحرص على الوجاهة، وحبَّ هذين الأمرين مفسدٌ لدين المرء المسلم إفساداً كبيراً؛ حتَّى لا يكاد يسلم له مِنْ دينه إلا القليل.

وقد ورد في بعض الرِّوايات (الحرص على المال) وفي بعضها الآخر (حبُّ المال) وبينهما فرقٌ دقيقٌ، وإن كانا يدوران حول أمرٍ واحدٍ، هو التَّعلُّق بالمال، وإيثاره، وبينهما تداخلٌ، فكلٌّ منهما يؤدي إلى الآخر.

وليس من شكٍّ في أنَّ رواية (حبِّ المال) تخيف المؤمن أكثر من الرِّواية الأخرى، فهي أشدُّ، وأخطر؛ ذلك لأنَّ الناس جميعاً يحبُّون المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]. ولكن يبدو: أنَّ المراد بحبِّ المال في الحديث الحبُّ الَّذي يؤدِّي

---

(١) شرح حديث «ما ذئبان...» ص ١٦٨.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٢٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلى التَّفريط بحقوق الله ؛ لأنَّه قد يكون هناك حبٌّ من غير حرصٍ ، بل قد يكون معه البذل ، غير أنَّ التَّعبير بالحبِّ يوقظ في النَّفس حساسية مرهفةً ، وينشىء رقابةً حذِرةً ؛ لكي يحذر المسلم من نتائج حبِّ المال ، وليكون ما عند الله مقدَّماً لديه على المال. . . إنَّه لا ينبغي أن يكون المالُ أحبَّ إلى المسلم من الله ، ورسوله ، والجهاد في سبيل الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤]. . . إنَّ الإسلام لا يطلب أن ينتزع الإنسان من ذاته حبَّ المال ، ولكنَّه يطلب أن يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، فلا يفرِّط بسبب حب المال ـ هذا الأمر الغريزي ـ بحقٍّ من حقوق الله ، ولا بحكمٍ من أحكام شرعه.

إنَّنا نرىٰ في حياة كثيرٍ من المسلمين ما يفعل الحرصُ على المال ، وحبُّه : إنَّ الغشَّ ، والاختلاس ، والتَّزوير ، والاحتيال ، وشهادة الزُّور ، والسَّرقة ، وأكلَ أموال النَّاس بالباطل ، والرِّشوة ، والرِّبا ، وأكلَ مال اليتيم ، وقطع الطَّريق ، واغتصاب أراضي النَّاس ، وبيوتهم. . . وغير ذلك. . . كلُّه ناشئٌ من الحرص على المال ، وحبِّه. . بل إنَّ كثيراً من جرائم القتل هي نتيجةٌ لهذا الحرص المَقيت. . . إنَّ تنافس النَّاس في الحصول على الأموال من أيِّ وجهٍ حلَّ ، أو حَرُم ، وكيد بعضهم لبعضٍ قادهم إلى قسوة القلب ، وارتكاب عددٍ من الذُّنوب ، كالكذب ، والحلف الكاذب ، والغيبة ، والنَّميمة ، وما ذكرنا آنفاً ، ولو أنَّ امرأً زار محكمة من المحاكم ، ونظر في خصومات الناس ؛ لأذهله هذا المستوىٰ ؛ الذي انحدر إليه كثيرٌ من النَّاس.

إنَّ المال من زينة الحياة الدُّنيا. قال تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] وإنَّ على المسلم أن يقف من الدُّنيا الموقف السَّديد ؛ الَّذي رسم معالمه الإسلام ، وأن يضعها في مكانها بحجمها ؛ الَّذي حدَّده لها الإسلام ، فلا يرفضها بالكلِّيَّة ، ولا يجعلها غايته : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

* لا يرفض المسلم الدُّنيا، ولا يعزف عنها عزوفاً كلِّيّاً؛ لأنَّه لو فعل ذلك؛ لكان عالة على النّاس، يتكفَّف أيديهم، أعطَوْه، أو منعُوه.

هناك ضروراتٌ لا بد من توفيرها، وحاجاتٌ له، ولأهله لا بدَّ من سدِّها. ولذلك كان الكسب الحلال لتأمين كفايته، وأهله لوناً من ألوان العبادة.

* ولا يجعل الدُّنيا غايته؛ الَّتي يعيش لأجلها، ولا يجعلها أكبر همِّه، ولا مبلغ علمه، ولا يُحِلُّها في قلبه. بل يجعلها في يديه، وعندئذٍ يهون عليه البذل، والإنفاق، ويبتعد عن الشُّبهات، ويقف عند حدود الله.

إنَّ هذا الموقف المتوازن من الدُّنيا يصون المرء عن الهبوط؛ ليكون عبد الدِّرهم، والدِّينار، والقطيفة.

عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ؛ قال:

«تعس عبد الدِّينار، وعبد الدِّرهم، وعبد الخميصة، إنْ أُعطِيَ؛ رضيَ، وإن لم يُعْطَ؛ سخط، تعس، وانتكس، وإذا شيك؛ فلا انتقش». رواه البخاريُّ، وابن ماجه(١).

وإنَّ هذا الموقف يحفظ على المرء المسلم كرامته، وماء وجهه، ومجانبةُ هذا الموقف، والبعد عنه يوقع المرء في خللٍ في حياته.

ومن آثار الاختلال في النَّظرة إلى الدُّنيا:

أنَّ السَّواد الأعظم من النَّاس مشغولٌ في الدُّنيا، لا يفكِّر إلا فيها، ولا يهمُّه إلاَّ أمْرها.

وقد أدرك الطَّواغيتُ الظَّلمةُ ـ في البلاد التي لا تُحْكَمُ بالإسلام، أو لا تدين به ـ: أنَّ شَغْلَ النَّاسِ بأمور الدُّنيا ممَّا يُمَكِّن لهم، فعمدوا إلى تضييق

---

(١) انظر «صحيح البخاريِّ» برقم ٢٨٨٧، وابن ماجه ٢/١٣٨٦ برقم ٤١٣٦، وانظر مختصر المقاصد الحسنة بتحقيقنا رقم ٣١٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سبل العيش على العامّة ، وأتاحوا لفئةٍ قليلةٍ من محسوبيهم ، وأتباعهم الفرص الواسعة للثّراء الفاحش ؛ حتّى عظمت أموالهم ، ونما ثراؤهم ، وزاد تعلُّقهم بالدُّنيا .

أمّا العامّة ؛ فقد حلّت بهم الفاقة ، وهبطت عملةُ بلادهم ، وارتفعت أسعارُ حاجاتهم ، وشحّت الموادُّ الضّرورية في ديارهم ، حتّى عضّهم الجوع والبؤس ، فلا يفكّر أحدٌ من السّواد الأعظم منهم إلا في تأمين ضروراته ، وزاد تعلُّقهم بالدنيا .

ولم يعد أحدٌ من هؤلاء يفكّر في حمل رسالةٍ ، أو الدّعوة إلى فضيلةٍ .

ومن آثار الاختلال في النّظر إلى الدُّنيا :

وجود أفرادٍ رضُوا بالكسل ، والقعود عن العمل ، فلم يكسِبوا ، بل انصرفوا إلى العبادة . . . وزعموا : أنَّ هذا زهدٌ ! ! !

فافتقروا . . . واضطرُّوا إلى العيش على الصّدقات . . . فأورثهم وضعُهم هذا ذلّاً ، وضَعْفاً ، وخُضوعاً ، وخُنوعاً .

إنَّ كلا الموقفين لا يقرُّه الإسلام .

هناك أمران مفسدان للدّين إفساداً كبيراً ، هُمَا الحرصُ على المال ، والحصولُ عليه بأيِّ وسيلةٍ ، والتَّطلُّع إلى الوجاهة ، والمنصب ، والشّرف ، كما قرّر ذلك سيّدنا رسول الله ﷺ من خلال صورةٍ بيانيةٍ رائعةٍ مُنتزعةٍ من بيئة العرب المخاطَبين .

ولو أنّنا نظرنا إلى هذين الأمرين ؛ لوجدنا : أنّهما كليهما من متاع الدُّنيا ، وزينتها ، ولوجدنا : أنَّ أحدهما يُفضي إلى الآخر . فترى المرء يحرص على المال ؛ لأنَّ المالَ سبيلٌ من سبل بلوغ المكانة السّامية ، والشّرف الرّفيع ، وقد قيل :

فَلاَ مَجْدَ فِي الدُّنيـا لِمَـنْ قَـلَّ مَالُـهُ ... وَلاَ مَـالَ فِي الدُّنيا لِمَنْ قَـلَّ مَجْدُه[1]

---

(١) انظر ديوان المتنبي ٢/ ١٤٦ تحقيق البرقوقي .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكذلك تراه يتطلَّع إلى المنصب ، والوجاهة ؛ لأنَّهما يُسهِّلان له طرق كسب المال .

إنَّنا لنرىٰ في حياة النَّاس التَّطاحن على المناصب ، والرِّياسات ، يركب بعضهم من أجل ذلك الصَّعب ، والذَّلول ، ويبذل ماء وجهه ، ويستحلُّ كثيراً من التَّصرفات المحظورة .

إنَّ التَّحذير من الحرص على المال ، والتَّطلُّع إلى الرِّياسات ، الَّذي نواجهه في هذا الحديث البليغ الجميل أمرٌ يحتاج إليه المسلم في كلِّ حينٍ ، وهو في هذا العصر الَّذي طغت فيه المفاهيم المادِّيَّة على القيم الخُلُقِيَّة ، والدِّينيَّة هو في هذا العصر مطلوبٌ تذكُّره ، والتَّذكير به على وجهٍ أشدَّ[١] .

إنَّ التعلُّق بالدُّنيا هو سبب الآفات ؛ الَّتي يشكو منها المسلمون ، والنَّظرة الإسلاميَّة إلى الدُّنيا نظرةٌ متوازنةٌ ، لا تدعو إلى ترك الدُّنيا ، والبطالة. . . ولكنَّها تحذِّر من الحرص الشَّديد ، والتعلُّق التَّامِّ بها ، وشغل القلب ، والفكر في شؤونها .

هذا قطيعٌ من الغنم يرعىٰ في أرضٍ خِصْبةٍ ، ويأوي إلى حظيرةٍ . . غفل عنه رِعاؤه . . . وغاب حارسوه ، وحماته ، فهجم عليه فجأةً ذئبان جائعان ضاريان . . مضىٰ عليهما زمنٌ طويلٌ لم يجدا الطَّعام . . . فعاثا فساداً ، وافتراساً ، وقتلاً لأعدادٍ كثيرةٍ من هذا القطيع .

إنَّ فتك هذين الذِّئبين فتكٌ كبيرٌ ؛ لأنَّهما ضاريان قويَّان جائعان ، ولأنَّهما لم يجدا مقاومةً تصدُّهما عن التَّخريب ، والإفساد ، والفتك .

إنَّ هذا الإفساد ، والفتك تبرزه هذه الصُّورة بوضوحٍ ، وتبيِّن حجمه ، وهي صورة منتزعةٌ من الواقع ؛ الَّذي يعرفه العرب ؛ الَّذين يعتمد بعضهم على

---

(١) هذا وإنِّي لأعجب من كلام بعض الفضلاء الَّذين يحاربون فيه هذا الموقف مع أنَّ الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة تحذِّر من الانصراف إلى الدُّنيا ، والاستكثار منها ، والواقع الملموس يؤيِّد هذا التحذير ! ! !

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المرعىٰ في الكسب ، ويعرفون ضراوة الذِّئب ، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم .

يستخدم الرَّسول ﷺ هذه الصُّورة ؛ لبيان إفساد الحرص ، وطلب الوجاهة ؛ إفسادهما للدِّين .

إنَّ الحرص ، وطلب الوجاهة ذئبان من نوعٍ آخر ، يفتكان بأعزِّ ما يملك الإنسان ، وهو الدِّين .

والخطورة : أنَّ أثرهما الضَّخم لا يراه من النَّاس إلا قليلٌ ممَّن فتح الله بصيرته ، وعرَّفه الحقَّ . إنَّ كثيراً من النَّاس يتعرَّضون لفتك هذين الذِّئبين ، ولا يدرون . . يمضون لاهين فرحين ، لا يُحِسُّون بأنَّ كارثة تحُلُّ في دينهم . . . إنَّ هذه الصُّورة تبرز هذا الموضوع الخفيَّ ، وتجسِّد هذا المعنىٰ ، وتُجلِّيه على أتمِّ وجهٍ .

والحرص على المال نوعان :

أحدهما : شدَّة محبَّة المال مع شدَّة طلبه من وجوه المباحة ، والمبالغة في طلبه ، والجدُّ في تحصيله ، واكتسابه من وجهه مع الجُهْد ، والمشقَّة .

إنَّ من أخطر الأمور في حياة الفرد ، والأمَّة أن تنقلب الوسيلة إلى غايةٍ . . . إنَّ هذا يؤدِّي إلى اختلالٍ في النَّظرة والتَّصرُّف ، فالمال وسيلةٌ يحصُل الإنسان عليها لتأمين ضرورياته ، وحاجاته ، وتكميليَّاته[1] من غذاءٍ ، ودواءٍ ، وسكنىٰ ، ولباسٍ ، وزواجٍ ، وتثقيف فكره ، وتنوير ذهنه ، واستمتاعٍ بالمُتَع الَّتي أحلَّها الله .

ولتحقيق رسالةٍ ساميةٍ هي ـ بالنِّسبة للمسلم ـ الدَّعوة إلى الله ، ونشر دينه ، وإعلاء كلمته .

فإذا تحوَّلت هذه الوسيلة إلى غايةٍ لا تستخدم لغيرها ، بل يحيا المرء لتحقيقها ، كان الشَّقاء ، والبؤس ، وتحوَّلت الحياة إلى جحيمٍ .

---

(١) انظر تعريفاً للضَّروريات ، والحاجات ، والتَّكميليَّات في كتاب «المدخل الفقهي العام» للشيخ مصطفىٰ الزرقا ١/ ٩٣ ـ ٩٥ ، وفي الطبعة الجديدة ١/ ١٠٢ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فحبُّ المال غريزةٌ في الإنسان يجب على المسلم أن يوظِّفها في خدمة عقيدته ، وفي مصلحته الكبرىٰ الَّتي تتمثَّل في النَّجاة من سخط الله ، وعذابه ، والفوز برضوانه ، وجنَّته .

إنَّ رأس مال المسلم عمره . . . فهل يليق بالعاقل أن يضيِّع رأس المال هذا في جمع المال ، وتكديسه ، ولو كان من وجوهٍ مباحةٍ؟ أليس الأجدر به أن يكسب من المال ما يؤمِّن به ضروراته ، ثمَّ ينصرف بعد ذلك إلى العمل الصَّالح الباقي الَّذي يكسبه الدَّرجات العلىٰ ، والنَّعيم المقيم؟

إنَّ الرزق مقسومٌ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢ ـ ٢٣] وإنَّ أهل الأرض لا يستطيعون أن يمنعوا رجلاً من رزقٍ كتبه الله له ، ولن يموت مخلوقٌ حتى يستكمل رزقَه ، ولا يأتي المرءَ إلاّ ما قُدِّرَ له . فعلىٰ المرء أن يسعىٰ ، ويُحسن التَّخطيط لسعيه ، ويكسب ما يسدُّ حاجته ، ويفي بمتطلَّباته ، وينفق بلا إسرافٍ ، ولا تقتير . . . ثمَّ يغتنم عمره في سلوك سبيل النَّجاة بالقيام بالواجبات ، والمندوبات ، والاستكثار من الطَّاعات ، والقربات .

إنَّ الحرص على المال ، والسَّعي لتحصيله ، والإفراط في ذلك يفوِّت على العبد فُرَص الخير ، وقد يهبط به إلى مستوىٰ دون مستوىٰ الحيوان ؛ الَّذي يكتفي إذا أخذ حاجته . . . أمَّا الحريص فإنَّه يجمع ما يفوق حاجته ، ويشقىٰ في تحصيله وفي تحمُّل مسؤوليته يوم القيامة .

قيل لبعض الحكماء : إنَّ فلاناً جمع مالاً . قال : فهل جمع أياماً ينفقه فيها؟ قيل : لا . قال : ما جمع شيئاً .

إنَّ الحريص محرومٌ ؛ إذ حمله حرصه على الجمع ، والارتحال ، والسَّهر ، فحُرِم من الخير .

وقد قيل : يا بن آدم! إذا أفنيت عمرك في طلب الدُّنيا ؛ فمتىٰ تطلب الآخرة؟

وقال بعضهم :

إِذَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا عَنِ الخَيْرِ عَاجِزاً   فَمَا أَنْتَ فِي يوم القِيَامَة صَانِعُ؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ابن مسعود: اليقينُ ألا تُرضي النَّاس بسخط الله ، ولا تحمدَ أحداً على رزق الله ، ولا تلومَ أحداً على ما لم يؤتك الله ، فإنَّ الرِّزق لا يسوقه حرصُ حريصٍ ، ولا يردُّه كراهة كارهٍ. إنَّ الله بقسطه جعل الرَّوْح ، والفرح في اليقين والرِّضا ، وجعل الهمَّ ، والحزن في الشَّكِّ ، والسُّخْطِ .

وقال بعض السَّلف :

إذا كان القَدَرُ حقّاً ؛ فالحِرْصُ باطلٌ.

وإذا كان الغَدْرُ في النَّاس طبعاً ؛ فالثِّقة بكلِّ أحد عجزٌ.

وإذا كان الموت لكلِّ أحدٍ راصداً ؛ فالطُّمأنينة إلى الدُّنيا حُمْقٌ[(١)] .

إنَّ الحريص على المال مشغولٌ في اللَّيل ، والنَّهار ، دائم التَّفكير في وسائل تنمية أمواله ، والحفاظ عليها . . . اتِّصالاته متعدِّدةٌ ، فهو يستعمل الهاتف مبتدئاً ومجيباً ، ويرسل البرقيَّات ، والتِّلِكْسات ، ويستقبلها ، ويبعث بالرَّسائل ، ويجيب على ما يصل إليه منها ، ويناقش العُروض ، والمناقصات ، ويراجع الحسابات ، ويحاور كتَّابه في تفاصيلها ، ويطيل النَّظر فيها . . وهو قلقٌ على أمواله ، وبضائعه ، وعقاراته ، لا يكاد يقرُّ له قرار ، ولا تهدأ نفسه على حالٍ ، يخاف تقلُّبات الأيام ، ويخشىٰ الكوارث من حريقٍ ، ونحوه ، فيلجأ إلى شركات التَّأمين .

يَفْرَقُ من أن يخونه أعوانُه ، أو يسرقَه موظَّفوه ، وغيرُهم . يسأل دائماً عن الأسعار ، ويسوءُه كثيرٌ من الأخبار ؛ لما يتوقع من انعكاساتها على الأوضاع الاقتصاديَّة ، وقد يبالغ خياله في تلك التوقُّعات . . .

وأحسَب أنْ قد أُتيح لك أيُّها الأخ الكريم أن ترىٰ على شاشة التِّلفزيون بعض رجال البورصة ، وهم يتابعون تبدُّل الأسعار ، ويشاركون في عمليَّات البيع ، والشِّراء على الهواتف المتعدِّدة ؛ الَّتي أمام كلِّ واحدٍ منهم . . . وقد تتمُّ الصَّفقات مواجهة ، ومباشرةً . . . وأحسب أنَّك رأيت في ذلك منظراً عجيباً . .

---

(١) شرح حديث : «ما ذئبان . . .» لابن رجب ص ١٦٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وحركاتٍ أشبه ما تكون بحركات مَنْ بِهِ مسٌّ من الجنِّ ، وصخباً ، وضجيجاً ، وأصواتاً تشبه أصوات المجانين الهائجين المائجين.

إنَّ هذه الصُّورة المرئيَّة تعرض حال كثيرٍ من هؤلاء ؛ الَّذين سيطر الحرصُ على قلوبهم ، وعقولهم بشكلٍ مكبَّرٍ!!

وأحسَب : أنَّك سمعت بأنباء بعض الأثرياء الَّذين أصيب بعضهم بانهيارٍ عصبيٍّ ، وبعضُهم الآخر بأزمةٍ قلبيَّةٍ أودت بحياتهم ؛ نتيجة لهبوط عملةٍ ، أو إفلاس بنك كانوا يودعون فيه أموالهم ، وما إلى ذلك. . وقد يُقدِم بعضهم على الانتحار[1]!!

إنَّ الحريص على المال لا يجد الوقت الَّذي يرعىٰ فيه أولاده ، ويتفقَّد أحوالهم. . . بل إنَّه لا يجد الوقت الَّذي يلتفت فيه إلى نفسه ، وصحَّته ، ودينه. فلا هو في أمور الدُّنيا سعيدٌ مطمئنٌّ مسرورٌ ، ولا هو مقبلٌ على ما ينفعه في آخرته ؛ ليكون من النَّاجين الفائزين. . . إنَّه سادرٌ في غفلته ، قد زيَّن له الشَّيطانُ عملَه ، فصدَّه عن السَّبيل ، فهو لا يهتدي. . . شغَل نفسه فيما يزول ، ويفنىٰ ، وغفَل عمَّا يدوم ، ويبقىٰ. وقد قيل:

إنَّ الحَـرِيْـصَ لَمَشْغُـولٌ بِثَـرْوَتِـهِ   عَنِ السُّرورِ بِمَا يَحْوِي مِنَ المَالِ

وقال آخر:

جَمَعْتَ مَالاً ، فَفَكِّرْ: هَلْ جَمَعْتَ لَهُ   ـ يَـا جَـامِـعَ المَـالِ ـ أيَّـامَـاً تُفَـرِّقُـهُ
المَـالُ عِنْـدَكَ مَخْـزُونٌ لِـوَارِثِـهِ   مَـا المَـالُ مَـالُـكَ إلا يَـوْمَ تُنْفِقُـهُ

وكتب بعض الحكماء إلى أخٍ له كان حريصاً على الدُّنيا:

(أمَّا بعد : فإنك أصبحت حريصاً على الدُّنيا تخدُمها ، وهي تخرجُكَ عن نفسها بالأعراض ، والأمراض ، والآفات ، والعلل ، كأنَّك لم تر حريصاً محروماً ، وزاهداً مرزوقاً ، ولا ميِّتاً عن كثيرٍ ، ولا متبلِّغاً من الدُّنيا باليسير).

---

(١) حصلت بعض هذه الحوادث في عمَّان في سنة ١٤٠٨ هـ ، وذكرت الصُّحف هناك أنباء عددٍ من هؤلاء. وكذلك فقد حصل مثل هذا وأكثر منه في الولايات المتحدة ؛ نتيجة تدهور أسعار السَّندات ، والأسهم ، وقد أطلق بعضهم على يوم تلك الأزمة : «يوم الإثنين الأسود».

شبكة الألوكة
www.alukah.net

إنَّ الحرص على الدُّنيا يذلُّ أعناق الرِّجال ، ولله درُّ أبي العتاهية ؛ الَّذي يقول:

تَعَالَىٰ اللهُ يَا سَلْمُ بنَ عَمْرٍو ... أذلَّ الحِرْصُ أعْنَاقَ الرِّجَالِ

فقد يرضىٰ هذا الحريص بالإهانة ، والمذلَّة؛ لأنَّه يخشىٰ إذا كان منه إباءٌ ، أو أنفةٌ أن يُعرِّض مصالحه إلى ضياعٍ ، وتجارتَه إلى كسادٍ ، وأموالَه إلى نقصٍ ، وقد قيل:

الحِرْصُ دَاءٌ قَدْ أَضَرَّ ... بِمَنْ تَرَىٰ إلا قَلِيلا

كَمْ مِنْ حَرِيصٍ طَامِعٍ ... والحِرْصُ صَيَّرَهُ ذَلِيلا

هذا وقد يكون الحريص محروماً . . أدبرت عنه الدُّنيا على سعيه الدَّائب وراءها ، فكان ذلك سبباً لأن يمتلئ حِقْداً على الآخرين ، تُمزِّقه العُقَدُ النَّفسيَّة ، وتَحرِق صدرَه الحَسَراتُ والزَّفرات .

النَّوع الثَّاني من الحرص على المال: أن يحرص عليه حرصاً يحمله على طلب المال من الوجوه المُحرَّمة ـ والعياذ بالله ـ يحمله على الامتناع عن أداء الحقوق الواجبة حتَّى يبلغ به منزلة الشُّحِّ ؛ الَّذي يُهلك الأفراد، والأُسَر، والأمم.

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«اتَّقوا الظُّلم ؛ فإنَّ الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتَّقوا الشُّحَّ ، فإنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كان قبلكم، حَمَلهم على أن سَفَكُوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم». رواه مسلمٌ ، وأحمد ، والبخاريُّ في الأدب المفرد[(١)] .

وعن عبد الله بن عمرٍو ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«إيَّاكم والشُّحَّ ، فإنَّما هلك من كان قبلكم بالشُّحِّ ، أمرَهم بالبُخل ، فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة ، فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ، ففجروا». رواه أبو داود في باب الشُّحِّ من كتاب الزَّكاة[(٢)] .

---

(١) مسلمٌ برقم ٢٥٧٨ ، والمسند ٣/ ٣٢٣ ، والأدب المفرد ٧٠ .

(٢) أبو داود برقم ١٦٩٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ما أبشع أن تتشوَّف النَّفس إلى ما حرّم الله! وما أقبح ألا يقنع العبد بما أحلَّه الله له من مالٍ، أو متاع! إنَّ رحمة الله بعباده واسعةٌ. . . ومن هذه الرَّحمة الرَّحيمة: أنَّه سبحانه أحلَّ لهم الطَّيبات من المطاعم، والمشارب، والملابس، والمناكح في مقابل ما حرَّم عليهم من الخبائث ممَّا ذكرنا.

فَمَنْ تعدَّى حدود الله؛ فقد ظلم نفسه، وما زاد في إمتاع نفسه بشيءٍ جديد.

إنَّ الشُّحَّ ـ الَّذي أشار إليه الحديث ـ من الظُّلم، ومن هنا قُرِنَ في حديث جابرٍ به: «اتَّقوا الظُّلم؛ فإنَّ الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ. . .» وكيف لا يكون ظلماً؛ وهو يدمِّر حياة الفرد، والأسرة، ويقوّض سعادة المجتمع والأمَّة، ويأمر بالقطيعة؛ والفجور، وسفك الدِّماء، واستحلال المحارم؟

إنَّ المؤمن الصَّادق لا يقع في الحرام من أجل تحصيل المال. . . فإنْ حدَّثته النَّفس الأمَّارة بالسُّوء؛ زجرها بتذكيرها بما أعدَّ الله للعصاة من العذاب الأليم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

. . . وإن زيَّنت له نفسه الهوىٰ؛ نهاها عنه، وذكَّرها بما أعدّ الله لمن يتغلَّب على هواه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

. . . وإن وسوس إليه الشَّيطان بارتكاب ما حرَّم الله؛ استعاذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١].

الحرص على المكانة:

إنَّ حرص المرء على المكانة، والمنصب، والشَّرف أشدُّ إهلاكاً لصاحبه من الحرص على المال، نعم؛ إنَّ ضرر طلب الرِّياسة علىٰ النَّاس، وابتغاء

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شرف الدُّنيا ، ورفعتها أعظم من ضرر طلب المال ؛ لأنَّ نتائجه الوخيمة أكبرُ. والزُّهد فيها أصعبُ. قال سفيان الثَّوريُّ : (احذر المنزلة ، وحبَّها ، فإنَّ الزُّهد فيها أشدُّ من الزُّهد في الدُّنيا)(١) .

وقد يُطلب الشَّرف ، والمكانة بالمناصب ؛ الَّتي فيها السُّلطان ، والاستعلاء ، وهذا طلبٌ مذمومٌ شرعاً؛ لأنَّ طالب الولاية لا يولَّى ، وقلَّ أن يحرص امرؤٌ على رياسة الدُّنيا ، ثمَّ يُوَفَّق ، بل يُوكَلُ إلى نفسه ، كما قال النَّبيُّ ﷺ لعبد الرَّحمن بن سَمُرة :

«يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة : فإنَّك إنْ أُعطيتها عن غير مسألةٍ ؛ أُعِنْتَ عليها ، وإن أُعطيتها عن مسألةٍ ؛ وُكلتَ إليها . وإذا حلفت على يمينٍ ، فرأيت غيرها خيراً منها ؛ فائتِ الَّذي هو خيرٌ ، وكفِّر عن يمينك»(٢) .

وعن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال :

«إنَّكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامةً يوم القيامة ، فنعم المُرضعة ، وبئست الفاطمةُ»(٣) .

وجاء في «الفتح» : [قال الدَّاودي : نعم المرضعة ؛ أي : في الدنيا . وبئست الفاطمة ؛ أي : بعد الموت ، لأنَّه يصير إلى المحاسبة على ذلك ، فهو كالَّذي يُفطم قبل أن يستغني ، فيكون في ذلك هلاكُه .

وقال غيره : نعم المرضعة لما فيها من حصول الجاه ، والمال ، ونفاذ الكلمة ، وتحصيل اللَّذات الحسِّيَّة ، والوهميَّة حال حصولها . وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموتٍ ، أو غيره ، وما يترتَّب عليها من التَّبعات في الآخرة] .

---

(١) الجرح والتَّعديل ١/ ٨٧ .

(٢) رواه البخاريُّ برقم ٦٦٢٢ ، ومسلمٌ برقم ١٦٥٢ ، والتِّرمذيُّ برقم ١٥٢٩ وانظر صحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ برقم ١٢٣٥ ، وأبو داود برقم ٢٩٢٩ ، والنَّسائيُّ ٨/ ٢٢٥ ولم يذكرا إلَّا الجزء الأوَّل ، وأحمد (٥/ ٦٢) .

(٣) رواه البخاريُّ برقم ٧١٤٨ ، والنسائي ٨/ ٢٢٥ ، وأحمد ٢/ ٤٤٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أقول: وهي صورةٌ بيانيَّةٌ رائعةٌ تقفنا على معانٍ كثيرةٍ: كم يكون تعلُّق الرَّضيع بالمُرضعة؟ وكم تكون لذَّته عندما يتناول الثَّدي؟ وكم يكون ألمه، وغمُّهُ عندما يفطم، ويحال بينه، وبين بُغيته؟ إنَّ هذا كلَّه في الإمارة... فليحذر العبد أشدَّ الحَذَر.

ويوضِّح ذلك ما أخرج البزَّار، والطَّبرانيُّ بسندٍ صحيحٍ عن عوف بن مالكٍ بلفظ: «أوَّلُها ملامةٌ، وثانيها ندامةٌ، وثالثها عذابٌ يوم القيامة، إلا مَنْ عَدَلَ».

وفي الأوسط للطَّبرانيِّ من رواية شريك بن عبد الله بن عيسى، عن أبي صالح عن أبي هريرة ـ قال شريك: لا أدري رَفَعَهُ، أم لا ـ قال: «الإمارة أوَّلها ندامةٌ، وأوسطها غرامةٌ، وآخرها عذابٌ يوم القيامة»[1].

.. وعند الطَّبرانيِّ من حديث زيد بن ثابتٍ رفعه:

«نعم الشَّيء الإمارة لمن أخذها بحقِّها، وحِلِّها، وبئس الشَّيء الإمارة لمن أخذها بغير حقِّها، تكون عليه حسرةً يوم القيامة»[2].

وأخرج مسلمٌ عن أبي ذرٍّ، قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ فضرب بيده على مَنْكِبي، ثمَّ قال: «يا أبا ذر! إنَّك ضعيفٌ، وإنَّها أمانةٌ، وإنَّها يوم القيامة خزيٌ، وندامةٌ، إلاّ مَنْ أخذها بحقِّها، وأدَّى الَّذي عليه فيها»[3].

وأخرجه مسلمٌ عن أبي ذرٍّ أيضاً، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر! إنِّي أراك ضعيفاً، وإنِّي أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمَّرنَّ على اثنين، ولا تولَّينَّ على مال يتيمٍ»[4].

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٠١: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات.

(٢) الفتح ١٣/ ١٢٦، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٠.

(٣) مسلمٌ برقم ١٨٢٥.

(٤) مسلمٌ برقم ١٨٢٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال النَّوويُّ: [هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، ولا سيَّما لمن كان فيه ضعفٌ عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأمَّا الخزي، والنَّدامة؛ فهو في حقِّ من لم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً لها، ولم يعدل فيها، فيخزيه الله تعالى يوم القيامة، ويفضحه، ويندم على ما فرط. وأمَّا من كان أهلاً للولاية، وعدل فيها، فله فضلٌ عظيم، تظاهرت به الأحاديث الصَّحيحة كحديث «سبعة يظلُّهم الله....» والحديث... «إنَّ المقسطين على منابر من نورٍ...» وغير ذلك. وإجماع المسلمين منعقدٌ عليه، ومع هذا فلكثرة الخطر فيها حذَّره ﷺ منها، وكذا حذَّر العلماء، وامتنع منها خلائقُ من السلف، وصبروا على الأذى حين امتنعوا][(١)].

وروىٰ البخاريُّ، ومسلمٌ في صحيحيهما[(٢)] عن أبي موسىٰ الأشعري، قال:

دخلتُ على النَّبيِّ ﷺ أنا، ورجلان من قومي، فقال أحد الرَّجلين: أمِّرنا يا رسول الله! وقال الآخر مثله. فقال ﷺ: «إنَّا لا نولِّي هذا مَنْ سأله، ولا من حرَص عليه». هذا لفظ البخاريِّ. ولفظ مسلمٍ: «إنَّا والله! لا نولِّي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرَص عليه». وجاء في «الفتح»:

[إنَّ الذي ناله المتولِّي من النَّعماء، والسَّرَّاء دون ما يناله من البأساء والضَّرَّاء؛ إمَّا بالعزل في الدُّنيا فيصير خاملاً، وإمَّا بالمؤاخذة في الآخرة، وذلك أشدُّ... قال القاضي البيضاويُّ: فلا ينبغي لعاقل أن يفرح بلذةٍ تعقُبها حسراتٌ. قال المهلَّب: الحرص على الولاية هو السَّبب في اقتتال النَّاس عليها، حتَّى سفكت الدِّماء، واستبيحت الأموال، والفروج، وعظم الفساد في الأرض بذلك.

ووجه النَّدم: أنَّه قد يُقتل، أو يُعزل، أو يموت، فيندم على الدُّخول

---

(١) شرح النووي ١٢/ ٢١٠.
(٢) البخاريُّ برقم ٧١٤٩، وانظر «الفتح» ١٣/ ١٢٥، ومسلمٌ برقم ١٧٣٣، وانظر شرح مسلمٍ للنَّوويِّ ١٢/ ٢٠٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فيها؛ لأنّه يُطالب بالتَّبعات؛ الَّتي ارتكبها، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته. قال: ويستثنىٰ من ذلك مَنْ تعيَّن عليه][1].

ولقد رأينا في واقعنا المعاصر مآسيَ مؤلمةً، أوقعها في الأمَّة حرص بعض النَّاس على الزَّعامة، والقيادة، وتنافسهم في ذلك، فأُزهقت أرواحٌ، وأُهرقت دماءٌ، وخُرِّبت بيوتٌ.. وأُهدرت كراماتٌ.

ويحصل هذا على مستوياتٍ متفاوتةٍ بدءاً من الولاية الكبرىٰ إلى الوزارة، ثمَّ النِّيابة، ثمَّ الإدارة.

ولو التزم النَّاسُ هَدْيَ الإسلام؛ لما كان شيءٌ من ذلك. ولكن الغزو الأجنبيَّ أحلَّ ببلادنا كثيراً من نُظُمِهِ... فأخذناها دون تفكيرٍ، ولا نظرٍ.

إنَّه لا تكاد تمرُّ مناسبةٌ فيها منافسةٌ على المناصب في بلدٍ من بلاد الدُّنيا، حتَّى يقع فيه عددٌ من القتلىٰ غالباً، وتقوم العداوات، وتنقطع الأواصر.

إنَّ المنصب ـ في نظر الإسلام ـ مسؤوليَّةٌ عظيمةٌ، مَنْ قصَّر في أدائها؛ خاب، وخسر، ومَنْ قام بحقِّها؛ فاز، ونجا، فلا ينبغي أن يقبل بها مَنْ عرف في نفسه ضعفاً، أو عجزاً، والمنصب أمانةٌ، وتكليفٌ، وخدمةٌ للمسلمين، وسهَرٌ على مصالحهم، ونصحٌ لهم.

إنَّ صاحب المنصب مكلَّفٌ بتنفيذ أمر الله، وإقامة شرعه، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

إنَّ صاحب المنزلة ـ في المجتمع الإسلاميِّ ـ مكلَّفٌ بدعوة النَّاس إلى عبادة الله وحدَه، وطاعته بالوسائل المُجدية الجذّابة المدروسة، ولا يريد منهم جزاءً، ولا شُكوراً، بل يرجو ثواب عمله من الله، والأنبياء، والرُّسل جميعاً كانوا يَدْعون إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له. ويقول قائلهم: ﴿يَـٰقَوْمِ لَآ

---

(١) (الفتح) ١٣/ ١٢٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِيٓ﴾ [هود: ٥١].

ويأبَوْن أن يكون لهم شيءٌ من صفات الألوهيَّة أو أن تكون لهم منافع مادِّيَّةٌ أو معنويَّة. قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، والعلماء الَّذين هم ورثة الأنبياء جديرون أن يكونوا مقتدين بهؤلاء الرُّسل الكرام في ذلك.

إنَّ الرَّجل الصَّالح عندما يتولَّى منصباً يَشْرُف المنصبُ به، وعندما يقوم بعملٍ فيه خدمةٌ لعباد الله، وإحسانٌ إليهم يرىٰ: أنَّ الفضلَ لله إذ أجرىٰ الخيرَ على يديه، ولذا فهو لا يحبُّ أن يُمدحَ مِنْ قِبَل الَّذين تلقَّوا الإحسانَ منه، بل يرىٰ أنَّ عليه أن يَحْمَدَ اللهَ أن وفَّقه إلى هذا الخير، ويثني عليه بما يستطيعُ من الثَّناء.

كتب عمر بن عبد العزيز مرَّةً إلى أهل الموسم كتاباً يقرأ عليهم، وفيه يأمر ولاته بأن يُحسنوا إلى الناس، ويُزيلوا المظالم الَّتي كانت عليهم، ثمَّ خاطبَ الناس قائلاً: «ولا تحمدوا على ذلك كلِّه إلا الله، فإنَّه لو وَكَلَني إلى نفسي؛ كنتُ كغيري»(١).

* * *

وقد يطلب بعضُهم المنزلة الشَّريفة، والمكانة السَّامية، والزَّعامة، والرِّياسة بالأمور الدِّينيَّة، وإظهار الزُّهد، والعمل الصالح، والعلم الشَّرعيِّ.

قال ابن رجب: [فهذا أفحش من الأوَّل، وأشدُّ فساداً، وخطراً، فإنَّ العلم، والعمل، والزُّهد إنَّما يطلب بها ما عند الله من الدَّرجات العُلى، والنَّعيم المقيم، ويُطلب بها ما عند الله، والقُرب منه، والزُّلفىٰ لديه](٢).

وهذا الأسلوب الحقير ـ وهو استخدام الدِّين، واستغلاله لبلوغ المنزلة الشَّريفة السَّامية ـ نستطيع أن نتبيَّن فيه نوعين:

١ ـ فقد يطلب بهذه الأمور الدِّينيَّة المنزلة السَّامية الشَّريفة؛ ليحصل على المال.

---

(١) شرح حديث «ما ذئبان...» لابن رجب.

(٢) شرح حديث «ما ذئبان...» لابن رجب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٢ ـ وقد يطلب بهذه الأمور الدِّينيَّة المنزلة السَّامية الشَّريفة ؛ ليحصل على الرِّياسة التي تُمكِّنه من التعاظم على الخلق.

وكلاهما مذمومٌ في نظر الشَّرع ، مُزدرىً هو وصاحبه عند أهل التَّحقيق من العارفين.

١ ـ إنَّ للحصول على المال طرقاً مشروعةً ، والجدير بالمسلم أن يقيم توازناً في حياته ، فيؤتي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ، ولا ينصرف انصرافاً كلِّيّاً لتحصيل المال حتَّى يُفَرِّطَ في حقِّ نفسه ، وآخرته ، وفي حقِّ أهله ، وأولاده ، ولو كان طلبه المال من طريقٍ مشروعٍ.

أمَّا أن يتَّخذ الدِّين سُلَّماً ، ومطيَّةً يبلغ بها المنزلة الشَّريفة ، الَّتي تُسهِّل له الحصول على المال فهذا خداعٌ ، وخسَّةٌ.

إنَّ استغلال الدِّين ، واتِّخاذه وسيلةً لكسب المال من أخلاق الدَّجالين من أهل الكتاب الَّذين حكى ربُّنا عزَّ وجلَّ حالهم ، فقال:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [التوبة: ٣٤].

وجاء في الحديث الصَّحيح: أنَّ الَّذي يستغلُّ العلم الشَّرعيَّ لمصالحه الدُّنيويَّة ، ولا يتعلَّمه إلاَّ ليصيب به عَرَضاً من أعراض الدُّنيا لا يدخل الجنَّة:

عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ ، قال:

«مَنْ تعلَّمَ علماً مِمَّا يُبتغى به وجهُ الله ، لا يتعلَّمهُ إلا ليصيب به عَرَضاً من الدُّنيا ؛ لم يجدْ عَرْفَ الجنة يوم القيامة»[١] وعَرْفُ الجنَّة: ريحُها. وهو حديثٌ صحيحٌ.

---

(١) رواه أحمد ٢/٣٣٨ ، وأبو داود برقم ٣٦٦٤ ، وابن ماجه برقم ٢٥٢ ، وابن حبَّان ، وانظر موارد الظمآن برقم ٨٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ابن رجب[1]:

[ولهذا كان أشدّ الناس عذاباً في الآخرة عالمٌ لم ينفعْهُ اللهُ بعلمه ، وهو أشدُّ النَّاس حَسْرةً يوم القيامة ، حيث كان معه آلةٌ يُتَوَصَّلُ بها إلى أعلىٰ الدَّرجات ، وأرفع المقامات ، فلم يستعملها إلاَّ في التَّوصُّل إلى أخسِّ الأمور ، وأدناها وأحقرها ، فهو كمن كان معه جواهر نفيسةٌ لها قيمةٌ ، فباعها ببعرةٍ ، أو شيءٍ مستقذرٍ، لا يُنتفع به ، فهذا حال مَنْ يطلب الدُّنيا بعلمه .

وأقبحُ من ذلك مَنْ يطلبُها بإظهار الزُّهد فيها ، فإنَّ ذلك خداعٌ قبيحٌ جدّاً] .

وإنَّنا لنرىٰ في حياتنا الواقعيَّة ناساً من هذا القبيل . . . تعلَّم أحدُهم العلم الشَّرعيَّ حتى عُرِف في مجتمعه بأنَّه عالم ، وقد يكون بلغ منزلةً جيِّدةً في معرفة مسائل الفقه ، وتفسير الآيات ، والأحاديث ، ولكنَّه من أجل الحصول على المال يقول باطلاً ؛ ليؤيِّد ذا مالٍ ، أو سلطةٍ ، أو جاهٍ!!

وقد يكون المال الَّذي باع به كرامته ، ودينه ، وأمانة العلم الَّذي تعلَّمه . . . قد يكون ذلك المال زهيداً . . . قد يكون دراهم معدودةً . . . وقد يكون ضيافةً في فندقٍ . . . أو إركاباً في طائرةٍ . . . أو ما إلى ذلك .

إنَّه مسكينٌ حقّاً . . .

أقبل ربيعةُ ذات يومٍ على الإمام مالكٍ ، فقال :

ـ مَنِ السَّفَلَةُ؟

قال مالكٌ : الذي يأكل بدينه . (أي : يبيع دينه ؛ ليأكل ، فيُفتي بالباطل ، ويؤيِّد الفاسدين الفاسقين مقابل مصلحةٍ ، أو منفعةٍ) .

ـ قال ربيعة : فَمَنْ سَفَلَةُ السَّفلة؟

ـ قال مالكٌ : الَّذي يأكل غيرُه بدينه[2] .

---

(١) رسالة ابن رجب ١/ ١٧٥ وهي منشورةٌ في هامش جامع بيان فضل العلم لابن عبد البرِّ . من ١٦٧ ـ ١٨٣ ومنشورةٌ أيضاً في مجموعة الرَّسائل المنيرية ج٣/ ١ ـ ١٧ .

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ١/ ١٢٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٢ ـ أمَّا النَّوع الثَّاني من الحرص على المنزلة السَّامية الشَّريفة ، وطلبها بالأمور الدِّينيَّة فهو الحصول على تلك المنزلة ؛ ليصبح زعيماً مسموع الكلمة ، رئيساً يسود النَّاس ، ويقودهم ، فإذا بلغ مرادَه ؛ ارتفع في نفسه ، وتعاظم عليهم ، فيهلَك.

العلـــم:

ومن الأمور الدِّينيَّة الَّتي تتخذ سُلَّماً للوصول إلى المنزلة السَّامية الشَّريفة العلم الشَّرعيُّ ، والعلمُ هو الدِّين كما يقول الإمام مالك: (إنَّ هذا العلم دينٌ فانظروا عمَّن تأخذون دينكم)[١].

والأصل في تعلُّم العلم الشَّرعيِّ أن يتعلَّمه المرء للعمل به ، ولتعليمه النَّاس ؛ ليستقيموا على نهج الله ، لا يريد من ذلك إلا ثواب الله. وقد جاءت الأحاديث الكثيرةُ تحذِّر من الانحراف عن هذا المستوىٰ الرَّفيع الكريم. وللشَّيطان مداخل خطيرةٌ في هذا الموضوع. فقد يتعلم بعض النَّاس العلم ؛ ليصرف وجوه النَّاس إليه ، وإذا أحرز تقدُّماً في ذلك تكبَّر على النَّاس ، واستصغرهم ، وأظهر: أنَّه يعلم ما لا يعلمه كثيرٌ من العلماء ، يريد بذلك أن يكون مقدَّماً عند الخلق ، وأن يجلَّ في أعينهم ، وهذا أمرٌ منكرٌ مذمومٌ. قال ابن رجب:

[لأنَّ قصد التَّكبُّر على الخلق محرَّمٌ في نفسه ، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة ؛ كان أقبح ، وأفحش من أن يستعمل فيه آلاتِ الدُّنيا من المال ، والسُّلطان].

* وعن ابن عمر عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«مَنْ طلب العلم ليماريَ به السُّفهاء ، أو ليباهيَ به العلماء ، أو ليصرفَ وجوه النَّاس إليه ؛ فهو في النَّار». وهو حديثٌ حسنٌ ، رواه ابن ماجه[٢].

* ورواه أيضاً عن حذيفة بلفظ: «لا تعلَّموا العلم ؛ لتباهوا به العلماء ، أو

---

(١) التمهيد لابن عبد البرِّ ١/ ٦٧ وانظر كتابنا: الحديث النَّبويّ ١٩٣.

(٢) ابن ماجه برقم ٢٥٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لتماروا به السُّفهاء، أو لتصرفوا وجوه النَّاس إليكم. فمن فعل ذلك؛ فهو في النَّار». رواه ابن ماجه[١].

* وعن كعب بن مالكٍ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ طلب العلم؛ ليجاريَ به العلماء، أو ليماريَ به السُّفهاء، ويصرف به وجوه النَّاس إليه؛ أدخله الله النَّار». وهو حديثٌ حسنٌ، أخرجه أحمد في مسنده، والتِّرمذيُّ في باب: مَنْ يطلب بعلمه الدُّنيا[٢].

* وعن جابرٍ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال:

«لا تعلَّموا العلم؛ لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السُّفهاء، ولا تخيَّروا[٢] به المجالس، فمن فعل ذلك؛ فالنَّار، النَّار!» وهو حديثٌ صحيحٌ رواه ابن ماجه، وابن حبَّان[٣].

* وثبت في «صحيح مسلمٍ» عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ:

«إنَّ أوَّل النَّاس يُقضى عليه يوم القيامة رجلٌ... ورجلٌ تعلَّم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبت! ولكنَّك تعلّمت العلم؛ ليقال: عالمٌ، وقرأت القرآن؛ ليقال: قارئٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِر به، فسُحِبَ على وجهه حتَّى أُلقي في النَّار... ورجلٌ...»[٤].

* وعن ابن مسعودٍ، قال:

---

(١) ابن ماجه برقم ٢٥٩.

(٢) صحيح التِّرمذي للألبانيِّ برقم ٢١٣٨، وابن أبي الدنيا في: الصمت (١٤١) والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧٢) والحاكم (١/ ٨٥).

(٣) كذا جاء في سنن ابن ماجه برقم ٢٥٤، وقال المحقِّق محمَّد فؤاد عبد الباقي: [أي: لا تختاروا به خيار المجالس، وصدورها] وجاء في صحيح ابن حبَّان برقم ٩٠: «ولا تجيزوا» وقال المحقِّق محمد عبد الرزاق حمزة: [كذا. وفي «النهاية»: أجاز الأمر يجيزه: إذا أمضاه، وجعله جائزاً].

(٤) صحيح مسلمٍ ٦/ ٤٧ برقم ١٩٠٥ وانظر تتمَّة الحديث هناك، والرَّجلان هما الكريم، والشَّهيد. وقد تقدَّم هذا الحديث في هذا الكتاب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

(لا تعلَّموا العلم لثلاثٍ: لتماروا به السُّفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا به وجوه النَّاس إليكم، وابتغوا بقولكم، وفعلكم ما عند الله، فإنَّه يبقى، ويفنى ما سواه)[1].

* وعن عليٍّ، قال:

(يا حملةَ العلم! اعملوا به، فإنَّما العالم مَنْ عمل بما علم، فوافق عملُه علمه، وسيكونُ أقوامٌ يحملون العلم لا يجاوز تراقيَهم، يخالف علمَهم عملُهم، وتخالف سريرتُهم علانيتهم، يجلسون حِلَقاً حِلَقاً، فيباهي بعضهم بعضاً، حتَّى إنَّ الرَّجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره، ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عزَّ وجلَّ)[1].

* روى التِّرمذيُّ عن أبي هريرة[2] قال: قال رسول الله ﷺ:

«يخرج في آخر الزَّمان رجالٌ يختلون الدُّنيا بالدِّين، يلبسون للنَّاس جلود الضَّأن من اللِّين، ألسنتُهم أحلىٰ من السُّكر، وقلوبُهم قلوب الذِّئاب، يقول الله تعالى: أبي يغترُّون؟ أم عَلَيَّ يجترئون؟ فبي حلفتُ: لأبعثنَّ على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيران».

إنَّ الله أكرم هذه الأمَّة على امتداد عصورها بعلماء عاملين صادقين، صدَّاعين بالحقِّ، لا يخافون في الله لومة لائمٍ... وهؤلاء هم ورثة الأنبياء، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

وهناك إلى جانبهم علماءُ سوءٍ، حصَّلوا العلم، ولم يعملوا به، وجانبوا التَّقوىٰ في تصرُّفاتهم وإن كانوا يتظاهرون بالورع، يبتغون بعملهم الدُّنيا وعرضها الزَّائل، ويخادعون أنفسهم وما يشعرون. إنَّ علينا أن نحذِّر علماء

---

(١) أورده ابن رجبٍ في رسالته في شرح هذا الحديث.

(٢) أورد القرطبيُّ في تفسيره حديثاً مشابهاً، عزاه للتِّرمذيِّ عن أبي الدَّرداء يرفعه: قل للذين يتفقَّهون لغير الدِّين، ويتعلَّمون لغير العمل، ويطلبون الدُّنيا بعمل الآخرة، يلبسون للنَّاس مسوك الكباش، وقلوبهم... أمَّا الحديث المذكور عن أبي هريرة، فانظره في التِّرمذيِّ ٣/ ٢٨٧ برقم ٢٤٠٤، وسنده ضعيفٌ.

السُّوء هؤلاء ، وأن نحذِّر منهم ، لأنَّ العلم كما رَوَيْنا قبل قليل عن الإمام مالكٍ هو دينٌ ، فلا ينبغي أن نتلقَّى دين الله مِنْ فاسقٍ .

يقول ابن تيميَّة : [كان السَّلف يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإنَّ فتنتهما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ](١) .

قال الإمام أبو حامدٍ الغزاليُّ : [. . . فإن عجز عن الاجتهاد ، والفكر بنفسه ، فيستضيءُ بنور علماء الدِّين ، وليفرَّ من العلماء المضلِّين المقبلين على الدُّنيا فراره من الشَّيطان بل أشدَّ ، فقد أوحىٰ الله إلى داود عليه السَّلام : لا تسأل عنِّي عالماً أسكره حبُّ الدُّنيا ، فيقطعك عن محبَّتي ، أولئك قطَّاع الطَّريق على عبادي . فالقلوب المُظلمة بحبِّ الدُّنيا ، وشدَّة الشَّره ، والتَّكالب عليها محجوبةٌ عن نور الله تعالى ، فإنَّ مستضاء أنوار القلوب حضرة الرُّبوبية ، فكيف يستضيءُ بها من استدبرها ، وأقبل على عدوِّها؟ وعشق بغيضها ، ومقيتها؟ وهي شهواتُ الدُّنيا](٢) .

وقال ابن القيِّم :

[علماء السُّوء جلسوا على باب الجنَّة ، يدعون إليها النَّاس بأقوالهم ، ويدعونهم إلى النَّار بأفعالهم ، فكلَّما قالت أقوالهم للنَّاس : هلمُّوا! قالت أفعالهم : لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقّاً ؛ كانوا أوَّل المستجيبين له ، فهم في الصُّورة أدلاء ، وفي الحقيقة : قطَّاعُ الطُّرق](٣) .

وقال مصطفىٰ صادق الرَّافعي :

[لو نافق العالِم الدِّيني ؛ لكان كلُّ منافق أشرفَ منه ، فلطخةٌ في الثَّوب الأبيض ليست كلطخةٍ في الثَّوب الأسود](٤) .

وقال مصطفىٰ صادق الرَّافعيُّ :

---

(١) فتاوى ابن تيميَّة : ١١/ ٢٧ .

(٢) الإحياء : ٤/ ٣٨٨ .

(٣) الفوائد : ٨٠ ط أحمد راتب عرموش .

(٤) وحي القلم : ٣/ ٥٩ من مقالة «أمراء للبيع» .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

[أتدري يا ولدي! ما الفرق بين علماء الحقِّ وعلماء السُّوء ، وكلُّهم آخذٌ من نورٍ واحدٍ لا يختلف؟

أولئك في أخلاقهم كاللوح من البِلَّور: يُظهر النُّورُ نَفْسَه فيه ، ويظهر حقيقته البِلَّوريَّة.

وهؤلاء بأخلاقهم كاللَّوح مِنَ الخشب: يُظهر النُّورُ حقيقته الخشبيَّة لا غير][1].

إنَّ الحرص على أن يكون المرء مقدَّماً ، معظَّماً ، شريفاً ، مكرَّماً ، يتبوَّأ المنصب السَّامي ، والزَّعامة المستعلية ، أمرٌ ذمَّه الشَّرع أعظم الذَّمِّ ، وعدَّه مفسداً للدِّين أيَّ إفسادٍ ، فإذا اتَّخذ لهذا الأمر المذموم العلم ، والزُّهد وسيلةً ؛ كان ذلك أقبح ؛ لما فيه من التَّدليس ، والتَّدجيل ، والخداع ، والرِّياء.

وقد ذكرت: أنَّ طلب العلم الشَّرعيِّ ، وتحصيله لهذا الغرض الدُّنيويِّ أمرٌ شنيعٌ قبيحٌ ، وأشنع منه ، وأقبح أن يلبس المرء لبوس العلماء ؛ وهو جاهلٌ ، يُفتي في دين الله من غير علمٍ[2] ، فيحلُّ ، ويحرِّم ، وهو لا يعرف مِنْ أمور الدِّين شيئاً ، وقد ينطلي أمره على الجهلة من العوامِّ ، ولا سيَّما إنْ زُوِّدَ بلقبٍ من الألقاب الَّتي تغرُّ النَّاس اليوم ، ويُؤسفني أنْ أقرِّرَ: أنَّ هذا قائمٌ في واقعنا ، وسيكثر في آخر الزَّمان كما أخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ.

وكلمةٌ أقولها لطلبة العلم: أيُّها الإخوة ، والأبناء! إنَّ عليكم إن أردتم النَّجاة لأنفسكم يوم القيامة ، والعزَّة لأمتكم في الحياة الدُّنيا ، والخلاص من هذا الواقع المؤلم الَّذي تحياه ، إنَّ عليكم إن أردتم ذلك أن تُخلِصوا نياتِكم لله ، وأن تترفَّعوا عن طلب المال ، والتَّنافس على أعراض الدُّنيا ، وعن طلب المنزلة بالعلم ، وإظهار التَّقوىٰ ، والورع ، فإنَّ ذلك من الرِّياء المحبط للعمل ، ومن مخادعة الله عزَّ وجلَّ ، قال الله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩]. ومِنْ صدِّ النَّاس عن سبيل الله.

---

(١) وحي القلم: ٣/ ٦٠.

(٢) انظر في هذا الموضوع كتاب «تحذير الخواص» بتحقيقنا.

إنَّ عليكم يا أيُّها الإخوة، والأبناء من طلبة العلم الشَّرعي! أن تحذروا من وساوس الشَّيطان، فإنَّ له مداخل خفيَّةً، ومسالك خطيرةً، وإنَّه ليجري من ابن آدم مجرىٰ الدَّم. وأن تحذروا أيضاً من هوى النَّفس، فإنَّ النَّفس لأمارةٌ بالسُّوء... وإنَّ عليكم أن تؤثروا ما عند الله، فإنَّ مَنْ أخلص لله، وصدَق معه، ونصح لعباده؛ أعانه، وسدَّد خطاه، ولم يضيِّعه أبداً.

أيها الإخوة، والأبناء! إنَّ في المسلمين خيراً كبيراً... وقد ابتُلوا بعددٍ من علماء السُّوء أفقدوا سوادهم[1] الثِّقة بِمَنْ يظهر بمظهر العلماء. فاتَّقوا الله، واجتهدوا، وأخلِصوا عملكم لله، والله يمدُّكم، ويحفظكم، ويرعاكم.

الزُّهد والعبادة:

ومن الأمور الدِّينيَّة؛ الَّتي قد تُتَّخَذُ سلَّماً للوصول إلى المنزلة السَّامية الزُّهد، والعبادة، وقد رغَّبنا رسول الله ﷺ في الزُّهد في الدُّنيا، وندبنا إلى الاستكثار من النَّوافل، والطَّاعات، إنَّ الزُّهد في الدُّنيا وسيلةُ النَّجاح، وهو طريق الجنَّة، وبه يبلغ المرء رضوان الله، وقد ألَّف العلماء فيه كتباً خاصَّةً[2]، وهو كذلك يجعل صاحبه محبوباً من قِبَلِ النَّاس.

عن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ؛ قال:

جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! دُلَّني على عملٍ إذا عملتُه؛ أحبَّني اللهُ، وأحبَّني النَّاس. فقال ﷺ: «ازهد في الدُّنيا؛ يحبَّك الله، وازهد فيما عند النَّاس؛ يحبَّك النَّاس»[3].

ورغَّبنا رسول الله ﷺ أعظم التَّرغيب في الاستكثار من النَّوافل.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) «سوادهم»: سوادُ الناس: عامَّتُهم.
(٢) مثل الزُّهد لأحمد، وابن المبارك، وغيرهما، وانظر الرِّسالة المستطرفة.
(٣) ابن ماجه ٢/ ١٣٧٤ برقم ٤١٠٢، والحاكم ٤/ ٣١٣، وانظر الدُّرر برقم ٧٨، ومختصر المقاصد ٨٩، وكلاهما بتحقيقنا، والحلية لأبي نعيم ٣/ ٢٥٣.

«إنَّ الله تعالى قال: «مَنْ عادى لي ولياً ؛ فقد آذنتُه بالحرب ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُه عليه ، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أحبَّه ، فإذا أحببتُه ؛ كنتُ سمعه الَّذي يسمع به ، وبصرَه الَّذي يبصر به. . . » رواه البخاريُّ[1].

وبما أنَّ المجتمعات الإسلاميَّة قائمةٌ على أساس الدِّين في قيمها ، وتصوُّراتها ، وعادات أهلها ؛ الَّذين يحبُّون الصَّالحين ، والزُّهاد ، ويثنون عليهم ، ويثقون بهم.

ولذلك فقد يتظاهر دجَّالٌ بالزُّهد ، وبكثرة العبادة ، ويُظهر الفقر ، والتعفُّف ، ويلبسُ الثِّياب المرقَّعة ، ويعلن أنَّه صائم ، ويلازم المسجد ، وإذا كلَّمه أحدٌ تشاغل عنه بالتَّسبيح ، والذِّكر. . . وما يزال يفعل ذلك حتى يتمكَّن حبُّه من قلوب النَّاس ، فيتخذ منهم أتباعاً يطيعونه ، ويلتزمون نَهْجَهُ ، ولا يعصونه في أمرٍ ، ويضعون تحت تصرُّفه أموالهم ، وأولادهم ، وجهودهم. . وعندئذٍ يكون قد وصل إلى الزَّعامة ؛ الَّتي يطلب ، وقد تنمو هذه الزَّعامة ، وتمتدُّ.

ونقرأ في كتب التَّاريخ في سير عددٍ من زعماء الضَّلالة : أنَّهم كانوا على درجة عاليةٍ من الزُّهد ، والعبادة ، والتَّعفُّف. نذكر منهم قرمط صاحب الدَّعوة الهدَّامة:

* قال ابن الجوزيِّ: [قال أهل السِّير: كان ذلك الرَّجل الدَّاعي ـ وهو قرمط ـ من ناحية خوزستان ، وكان يُظهر الزُّهد ، والتَّقشُّف ، ويسفُّ الخوص ، ويأكل من كسبه ، ويحفظ للقوم ما صرموا من نخلهم في حظيرةٍ ، ويصلِّي أكثر نهاره ، ويصوم ، ويأخذ عند إفطاره من البقَّال رطلاً من التَّمر ، فيفطر عليه ، ويجمع نواه ، فيدفعه إلى البقَّال ثُمَّ يحاسبه على ما أخذ منه ، ويحطُّ من ذلك ثمن النَّوى ، فسمع التُّجار الَّذين صرموا نخلهم ، فوثبوا عليه ،

---

(١) البخاريُّ ٦٥٠٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وضربوه ، وقالوا: لم ترض بأن أكلت التَّمر ؛ حتى بعت النَّوى ، فأخبرهم البقَّال في الحال ، فندموا على ضربه ، وسألوه الإحلال (أي: أن يجعلهم في حل) فازداد بذلك نبلاً عند أهل القرية ، وكان إذا قعد إليه إنسانٌ ذاكره أمر الدِّين ، وزهده في الدُّنيا . . .][(١)] .

ثم وضع عنهم الصَّلاة ، وألحد في الدِّين ، وقام بحركته التَّخريبيَّة المعروفة .

ونذكر منهم الحلاَّج ، وهو الحسين بن منصور الَّذي كان يدعو إلى الحلول ، والكفر ، والعياذ بالله تعالى ، فقد ذكر ابن كثيرٍ[(٢)] : [أنَّه جاور بمكَّة في وسط المسجد في البرد ، والحرِّ ، مكث على ذلك سنواتٍ ، وكان يصابر نفسه ، ويجاهدها ، ولا يجلس إلا تحت السَّماء في وسط المسجد الحرام ، ولا يأكل إلا بعض قرصٍ ، ويشرب قليلاً من الماء معه وقت الفطور مدَّة سنةٍ كاملةٍ ، وكان يجلس على صخرةٍ في شدَّة الحرِّ في جبل أبي قبيس ، ثمَّ دعا إلى الحلول ، والكفر .

وروى الخطيب البغداديُّ : أنَّ الحلاَّج بعث رجلاً من خاصَّة أصحابه ، وأمره أن يذهب بين يديه إلى بلدٍ من بلاد الجبل ، وأن يظهر لهم العبادة ، والصَّلاح ، والزُّهد ، فإذا رآهم قد أقبلوا عليه ، وأحبُّوه ، واعتقدوه ؛ أظهر لهم أنَّه عمي ، ثمَّ يُظهر لهم بعد أيَّام أنَّه قد تكسَّح ، فإذا سعوا في مداواته ؛ قال لهم: إنه لا ينفعني شيءٌ ممَّا تفعلون ، ثمَّ يُظهر لهم بعد أيَّامٍ أنَّه قد رأى رسول الله ﷺ في المنام ؛ وهو يقول: إنَّ شفاءك لا يكون إلا على يد القطب الَّذي سيقدَم عليك في اليوم الفلانيِّ ، وصفته كذا ، وكذا . وقال الحلاَّج : إنِّي سأقدَم عليك في ذلك الوقت ، وجرى الأمر كما رتَّب ، وقام معافى ، فاغترَّ أهل البلد بالحلاَّج ، وتلميذه][(٣)] .

وفي العصر الحاضر عددٌ من القصص عن أفرادٍ من اليهود ، والنَّصارى ،

---

(١) انظر القرامطة لابن الجوزيِّ بتحقيقنا ٣٩ .
(٢) انظر البداية والنِّهاية ١١/ ١٣٢ .
(٣) البداية والنِّهاية ١١/ ١٣٥ ـ ١٣٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وملاحدة المسلمين ، وفسقتهم ، ودجّاليهم تظاهروا بالإسلام ، والتّقوىٰ ، والزُّهد ، والورع ، وبالغوا في العبادة من صلاةٍ ، وصيامٍ ، وتسبيحٍ ، وتهليلٍ ، حتَّى وثق النَّاس بهم ، وائتمنوهم على أموالهم ، وأولادهم ، واتَّبعوهم ، فكان بعضهم دعاة سوءٍ ، يدعون النَّاس ، ويضلُّونهم بالانحراف والكفر ، وكان بعضهم عملاء للاستعمار ، وأعواناً للكفَّار ، وكان بعضهم سارقين مجرمين .

* أذكر منهم مستشرقاً هولانديّاً ، قرأت قصَّة حياته ، فقد جاء إلى مكَّة ، وأقام فيها في سوق اللَّيل سنين متعدِّدةً ، متظاهراً بالإسلام ، ثمَّ رجع بعد حينٍ إلى بلاده بعد أن عرف من أحوال المسلمين ، وعاداتهم ، ومستواهم ما لم يكن يعرفه كثيرٌ من المسلمين ، والكفَّار ، وكتب في ذلك كتاباً أعلن فيه إِحْكامه لتلك الحيلة ، وكيف استطاع أن يخدع من اتَّصل بهم من المسلمين .

* وسمعت أيضاً : أنَّ رجلاً من الكفَّار وفَد على مدينةٍ من بلاد المسلمين ، وكان يتقن العربيَّة ، وتظاهر بأنَّه يطلب العلم الشَّرعيَّ ، واستطاع أن يأخذ عدداً من الإجازات من عددٍ من علماء تلك المدينة ، وكان يقرأ القرآن ، ويكثر من الصَّلاة ، ويمتنع من الطَّعام ، والشَّراب في النَّهار مدَّعياً : أنَّه صائم ، فإذا أفطر أكل شيئاً يسيراً ، ولا يقبل عطايا النَّاس إلا نادراً ، حتَّى وثِق النَّاس به ، وأحبُّوه ، وتفانوا في خدمته ، ثمَّ تبيَّن بعد حين : أنَّه نصرانيٌّ ضابطٌ في جيش دولته المستعمرة .

* وأذكر منهم على سبيل المثال الشَّيخ أحمد التِّيجاني ؛ الَّذي كتب قصَّته محبُّ الدِّين الخطيب ، وكشف عن دوره في خدمة أغراض فرنسا في الغرب .

وكان ذلك في مقالةٍ كتبها محبُّ الدِّين افتتاحيةً لمجلَّة الأزهر جزء المحرَّم ١٣٧٧ وقد أفردها ابنه قصي الخطيب ، ونشرها رسالةً مستقلَّةً بعنوان :

«من الإسلام إلى الإيمان ـ حقائق تاريخيَّة بمناسبة الصِّراع مع الاستعمار في العالم الإسلاميِّ ـ عبرة وذكرىٰ من تاريخ الطَّريقة التِّيجانيَّة» .

* وأذكر قصَّة مشوِّقة حافلةً بالمفاجآت ، بطلها شابٌ يتظاهر أنَّ أذىً كبيراً

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لحق به بسبب دينه ، وهو شعلةٌ من الذَّكاء ، والمكر ، إذا تحدَّث أمام إنسانٍ متديِّنٍ ، أبدىٰ حماسةً ملتهبةً لحال الدَّعوةِ الإسلاميَّة ، وأعلن حُرْقةً بالغةً ، وألماً بسبب تقصير الدُّعاة . . وذكر صفحة ماضيه المُترعة بالمضايقة من أجل اتِّجاهه ، وما يزال يدور ، ويحور حتَّى يستحوذ على إعجاب سامعه ، وامتلاك ثقته ، وقد يتفانىٰ في خدمة مَنْ يلقىٰ . . . حتَّى إذا اطمأنَّ إلى تمكُّنه من قلب صاحبه ؛ شرع يزيِّن له الدُّخول في مشروعٍ اقتصاديٍّ مضمون الرِّبح . . . فيسارع المخدوع إلى الموافقة ، ويعطيه كلَّ ما جمع . . . وبعد ذلك يتبيَّن له : أنَّه كاذبٌ محتالٌ . . . وأنَّه يتَّخذ الدِّين فخّاً ؛ ليوقع فيه السُّذَّج المُغفَّلين .

* وأذكر منهم قصَّة دجالٍ جاء إلى بلدٍ أوربيٍّ يَكثُر فيه العمَّال المسلمون ، جاء بمظهر إسلاميٍّ ، يلبَس ثوباً قصيراً ، وله لحيةٌ طويلةٌ ، وكان يتظاهر بالإكثار من النَّوافل من الصَّلاة ، والصِّيام . . حتى إذا وثق به العمَّال هناك ؛ زيَّن لهم أن يشاركوه في تجارةٍ زعم لهم أنَّهم سيربحون فيها الأموال الطَّائلة . . وأخذ منهم الأموال . . . ثمَّ اختفىٰ ، وذهبت الأموال .

وأذكر منهم قصَّة صديقٍ يعمل موظَّفاً كبيراً في إحدىٰ الوزارات ، لفت نظره منظرُ حارسٍ كان يحرس مستودعاً قريباً من مركز عمله . . . لا ينفكُّ هذا الحارس عن صلاةٍ ، وذكرٍ ، وتلاوةٍ ، وعبادةٍ . . فاستدعاه ، وكلَّمه ، فأعجب بمنطقه ، وأسلوبه ، وتوثَّقت الصِّلات بينهما . . حتَّى عرض الحارس عليه المشاركة في مشروعٍ ، فوافق ، وحضَّ أصدقاءه ، وأقرباءه على المساهمة فيه . . . وأخذ الحارسُ الأموال ، وأكلَها . . . ثمَّ تكشَّف عن رجلٍ أبعد ما يكون عن الدِّين .

إنَّ هؤلاء الَّذين يسعون إلى الحصول على المال عن طريق إظهار التديُّن ، والزُّهد ، وهم كاذبون محتالون . . . إنَّهم من أشدِّ النَّاس إساءةً للدِّين .

إنَّهم ينفِّرون من الدِّين ، والاستقامة . وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون !

* * *

شبكة الألوكة - قسم الكتب

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحديث الثامن

من الكبائر

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«مِنَ الكبائر شَتْمُ الرَّجُلِ والدَيْهِ» قالوا: يا رسول الله! وهل يشتم الرَّجلُ والِدَيْهِ؟ قال: «نعم! يَسُبُّ أبا الرَّجل، فيسبُّ أباه. ويَسُبُّ أُمَّهُ، فيسبُّ أمَّه»(١).

رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، وأحمد، وهذا لفظ مسلم. وأمَّا رواية البخاريِّ؛ فبلفظ: «إنَّ من أكبر الكبائر أن يلعن الرَّجل والِدَيْه» قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرَّجل والِدَيْهِ؟ قال: «يسبُّ أبا الرَّجل، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّه، فيسبُّ أمَّه». ولفظ أبي داود مقاربٌ لرواية البخاريِّ، ولفظ أحمدَ، والتِّرمذيِّ مقاربٌ لرواية مسلمٍ.

يدخل هذا الحديث في الموضوعات الاجتماعيَّة من بابين: من باب مخالقة الآخرين بالخُلُق الحَسَنِ، والكفِّ عن سبِّهم، ومن باب برِّ الوالدين، واجتناب عقوقهما، والبُعد عن الإساءة إليهما. ويبدو: أنَّ الرَّغبة في تنفير المسلم من شتم النَّاس، وسبِّهم هي الَّتي قادت إلى الحديث عن الوالدين...

فموضوع الحديث هو تحريم سبِّ الوَالِدَيْنِ، وسبِّ الآخرين.

وبمقارنة الرِّوايات المختلفة للحديث يتبيَّن: أن التَّسبُّب في إلحاق الأذى

---

(١) البخاريُّ برقم ٥٩٧٣، ومسلمٌ برقم ٩٠، وأبو داود برقم ٥١٤١، والتِّرمذيُّ برقم ١٩٠٢، وأحمد ٢/ ١٦٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بالوالدين من أكبر الكبائر ، ولو كان ذلك بصورةٍ غير مباشرةٍ ، كما دلَّت على ذلك الرِّوايات المتعدِّدة للحديث .

وقبل أن نشرَع في شرح الحديث ينبغي أن نقف وقفةً متأنِّيةً عند كلمة (الكبائر). فما تعريف الكبيرة[1]؟ وما الفرق بينها وبين الصَّغيرة؟ وما عدد الكبائر؟

الكبيـرة ، والصَّغيـرة :

اختلف العلماء في حدِّ الكبيرة ، وتمييزها من الصَّغيرة ، وقرَّروا أنَّ الكبائر لا تنحصر في عددٍ معيَّنٍ. جاء في «شرح مسلم للنَّوويِّ»[2] ما ملخَّصه :

لا شكَّ في كون المخالفة قبيحةً جدّاً بالنسبة إلى جلال الله تعالى ، ولكن بعضها أعظمُ من بعض .

وتنقسم المعاصي إلى :

* معاصٍ تكفِّرها الصَّلوات ، أو صوم رمضان ، أو الحجُّ ، أو العمرةُ ، أو الوُضوء ، أو غيرُ ذلك ممَّا جاء في الحديث الصَّحيح .

* ومعاصٍ لا يكفِّرها ذلك ، كما ثبت في الصَّحيح عن أبي هريرة ـ رضي

---

(١) انظر في هذا الموضوع :
* مقدمة كتاب الكبائر للذَّهبي .
* فتح الباري ١٠/ ٤٠٩ و١٢/ ١٨٢ .
* شرح النَّوويِّ ٢/ ٨٥ .
* الإحياء للغزاليِّ ٤/ ٢١ .
* إغانة الطَّالبين ٤/ ٢٨٠ .
* الفروق للقرافي ٤/ ٦٥ .
* تفسير القرطبيِّ ٥/ ١٥٨ .
* تفسير ابن كثير ط الشَّعب ٢/ ٢٣٦ ـ ٢٤٩ .
* العدة للصَّنعانيِّ على إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ٤/ ٤٣٨ .
* تنوير البصيرة ببيان علامات الكبيرة لعبد الله الصِّدِّيق الغماري .

(٢) شرح صحيح مسلمٍ للإمام النَّوويِّ ٢/ ٨٥ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الصَّلوات الخمس، والجُمعة إلى الجُمعة، ورمضانُ إلى رمضانَ مكفِّراتٌ لما بينهنَّ ما لم تُغْشَ الكبائر». رواه مسلمٌ، وأحمد، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه[1].

فسمَّى الشَّرعُ ما تكفِّره الصَّلوات، ونحوها: صغائرَ، وما لا تكفِّره: كبائرَ. ولا يُخرج هذا التَّكفيرُ الصَّغائرَ عن كونها قبيحةً بالنِّسبة إلى جلال الله تعالى، ولكنْ بعضُها أعظمُ من بعضٍ، فإنَّها صغيرةٌ بالنِّسبة إلى ما فوقها؛ لكونها أقلَّ قُبحاً، ولكونها متيسِّرة التَّكفير.

ونقل النَّوويُّ عن ابن الصَّلاح في «فتاويه الكبيرة» قوله: الكبيرة كلُّ ذنبٍ كبُرَ، وعظُم عظماً يصلح معه أن يطلق عليه اسم الكبير، ووصف بكونه عظيماً على الإطلاق. ثمَّ لها أماراتٌ: منها: إيجاب الحدِّ، ومنها: الإيعاد عليها بالعذاب بالنَّار، ونحوها في الكتاب، والسُّنَّة، ومنها: وصف فاعلها بالفِسْق، ومنها اللَّعن.

ونقل النَّوويُّ عن العزِّ بن عبد السَّلام في كتابه «القواعد» قوله: إذا أردت معرفة الفرق بين الصَّغيرة والكبيرة؛ فاعْرِض مفسدة الذَّنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقلِّ مفاسد الكبائر؛ فهي من الصَّغائر، وإن ساوت أدنىٰ مفاسد الكبائر، أو رَبَتْ عليه؛ فهي من الكبائر (وذكر أمثلةً). ثمَّ قال:

والأولىٰ أن تُضبط الكبيرة بما يُشْعِر بتهاون مُرتكبها في دينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها.

ثمَّ نقل عن الواحديِّ المفسِّر قوله: ورد الشَّرع بوصف أنواعٍ من المعاصي بأنَّها كبائر، وأنواعٍ بأنَّها صغائر، وأنواعٍ لم توصف: فهي مشتملةٌ على صغائر، وكبائر. والحكمةُ في عدم بيانها: أنْ يكون العبد ممتنعاً من جميعها؛ مخافة أن تكون من الكبائر، وهذا شبيهٌ بإخفاء ليلة القدر، وساعة يوم الجُمعة...

(١) مسلمٌ برقم ٢٣٣، وأحمد ٢/ ٤٨٤، والترمذي برقم ٢١٤، وابن ماجه برقم ١٠٨٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال ابن حجر في «الفتح»[(١)]: [ومن أحسن التَّعاريف قول القرطبيِّ في «المفهم»[(٢)]: كلُّ ذنبٍ أُطلِق عليه بنصِّ الكتاب، أو السُّنَّة، أو الإجماع: أنَّه كبيرةٌ، أو عظيمٌ، أو أُخبر فيه بشدَّة العقاب، أو علِّق عليه الحدُّ، أو شدِّد النَّكير عليه فهو كبيرةٌ].

وقال النَّوويُّ[(٣)]: [والإصرار على الصَّغيرة يجعلها كبيرةً. وروي عن عُمَر وابنِ عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: لا كبيرة مع استغفارٍ، ولا صغيرة مع إصرارٍ][(٤)].

وروىٰ أبو حيَّان في «البصائر»[(٥)] عن ابن عباسٍ، قال: لا كبيرة مع توبةٍ واستغفارٍ، ولا صغيرة مع لجاجةٍ، وإصرارٍ.

وقال العزُّ بن عبد السَّلام ـ كما ينقل ذلك عنه النَّوويُّ ـ في حدِّ الإصرار: هو أن تتكرَّر منه الصَّغيرة تكراراً يشعر بقلَّة مبالاته بدينه إشعار ارتكاب الكبيرة بذلك. وكذلك إذا اجتمعت صغائرُ مختلفة الأنواع، بحيث يُشعِر مجموعها بما يُشعِر به أصغر الكبائر.

قوله ﷺ «أكبر الكبائر» يدلُّ على أنَّ الكبائر نفسَها درجاتٌ، فبعضها أكبر من بعضٍ.

ومن تمام البحث أن نورد نصوصاً أخرىٰ تدلُّ على أنَّ الشَّرع ذكر: أنَّ من الذُّنوب كبائر.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

---

(١) «الفتح» ١٢/ ١٨٤.

(٢) انظر «المفهم» ١/ ٢٨٤.

(٣) شرح صحيح مسلمٍ ٢/ ٨٦ ـ ٨٧.

(٤) جاء في «تنوير البصيرة» للغماري ص ٧١: [... الحديث لا يثبت عن النبي ﷺ، ولا تقوم به حجَّة، ولهذا اختار الشَّوكانيُّ في «إرشاد الفحول»: أنَّ الإصرار على الصَّغيرة صغيرةٌ، كما أنَّ الإصرار على الكبير كبيرةٌ، وهو الصَّواب]. والله أعلم.

(٥) البصائر لأبي حيَّان ٢٣٢.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣١ ـ ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦ ـ ٣٧].

وقوله سبحانه: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله سبحانه: ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

ومن ذلك قوله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة: «اجتنبوا السَّبع الموبقات!».

قالوا: يا رسول الله! وما هي؟

قال: «الشِّركُ بالله، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفس الَّتي حرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مال اليتيم، والتَّولي يوم الزَّحف، وقذفُ المُحصنات المؤمناتِ الغافلات». متَّفقٌ عليه[1].

بِـرُّ الوالديــن:

إنَّ من أهمِّ ما يميِّز صاحب المروءة الاعترافَ بالفضل، وردَّ الجميل، والشُّكْر للمحسن، وليس هناك مَنْ يساوي الأبوين في الفضل، والإحسان الكبير.

إنَّهما سبب وجود الإنسان.. وهما اللَّذان تعهَّداه بالرِّعاية، والعناية لحظةً فلحظةً من لحظات ضعفه، وتحمَّلا من أجله المتاعب، وقاسيا المصاعب، وضحَّيا بالمال، والنَّوم، والرَّاحة، والسَّعادة، حتَّى يوفِّرا له أسباب الحياة الطَّيِّبة.

فجديرٌ بصاحب المروءة أن يحرص على رضاهُما، ويبذلَ جُهْدَه في تحقيق مطالبهما، وأن يقدِّم لهما كلَّ مظاهر الاحترام، والتَّوقير، ويراعي

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٨٥٧ «الفتح» ١٢/ ١٨١، ومسلمٌ برقم ٨٩.

شعورهما ، فلا يقول لهما كلمةً تؤذيهما ، ولا يتصرَّف نحوهما تصرُّفاً مسيئاً .

هذا ما تقتضيه المروءة ، والفطرة السَّليمة ، وهذا ما جاء به الإسلام العظيم معلناً: أنَّ لهما من الاحترام ، والطَّاعة ، والإحسان النَّصيبَ الأوفر ، وأنَّ الإساءة إليهما معصيةٌ ، وكبيرةٌ. قال تعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤].

ومهما أنفق المرء من الجُهْدِ ، والوقت ، والمال فلن يقدر على أن يقوم بحقوقهما حقَّ القيام ، ولا أن يجزيَهما على قديم إحسانهما ، فالوالدان مبتدئان بالإحسان ، ولقد كانا يخدُمان الولد ، ويتعبان مِنْ أجله ، وهما مسروران غاية السُّرور ، ويتمنَّيان بقاءه ، ويفديانه بكلِّ ما يملكان ، وليس كذلك الولد ؛ هذا إن وفق إلى البرِّ .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجزي ولدٌ والداً إلا أن يجده مملوكاً ، فيشتريَه ، فيعتقَه»[1] .

والحديث الَّذي ندرسه يحرِّمُ ما كان مؤدِّياً إلى إهانتهما، أو الإساءة إليهما .

وهو مع النُّصوص الأخرى الثَّابتة في الكتاب ، والسُّنَّة الواردة في هذا الموضوع يُسهم في تحديد العلاقة بين الوالد ، والولد ، ويرشد إلى الطَّريقة السَّليمة الفاضلة ؛ الَّتي يجب على المسلم سلوكها مع الوالدين من برٍّ ، وإحسانٍ ، ومصاحبةٍ بالمعروف ، وطاعةٍ فيما لا معصية فيه. قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥] وفي ذلك رعايةٌ لقيمٍ إنسانيَّةٍ كريمةٍ ، جاء

---

(١) رواه مسلمٌ (برقم ١٥١٠) وأبو داود (برقم ٥١٣٧) والتِّرمذيُّ (١٥٥٦ صحيح التِّرمذيِّ للألباني).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإسلام، فوطّدها، وعمّق جذورها في النّفس البشريّة، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

الأسرة هي اللَّبِنَةُ؛ التي يتكوّن من أمثالها بناء المجتمع، فكلُّ ضعفٍ، أو نقصٍ في خصائص اللَّبنة يعود بالآثار السّيئة على البناء كلّه. والمجتمع القويُّ هو الّذي يضمُّ أُسَراً قويّةً. وعندما يكون الحبُّ متبادلاً بين الأصل والفرع في النّواة الأساسيّة للمجتمع يكون ذلك عاملاً من عوامل التّماسك في الأسرة، وينتج عن ذلك تماسكٌ في المجتمع.

ومن هنا نجد: أنَّ الإسلام خصَّ الأسرة بعنايةٍ كبيرةٍ جدّاً، وحرَص على أن يتوافر فيها التّحابُّ، والتّعاون، والصّلاح، والعفّة، والإحسان، والإيثار.

وبرُّ الوالدين، واحترامهما، واجتناب الإساءة إليهما يجعل الأسرة متماسكةً برباطٍ من الوُدِّ عظيم، ويحقّق كثيراً من الأهداف الخيِّرة، الّتي يدعو إليها الإسلام، وقد ذكرنا بعضها آنفاً. ويُعِدُّ الأسرة للقيام بدورها في التّمهيد لإعداد رجالٍ أقوياء، يقومون بالواجب العظيم؛ الّذي يُطلب منهم، ولن تقوىٰ الأسرة على القيام بهذا الدّور الخطير؛ إن كانت متفكّكةً متداعية.

والمسلمون ـ اليوم ـ مغزوُّون بحضارةٍ لا ترعىٰ القيم الإنسانيّة كلّها، الّتي أيّدها الإسلام، فلا تنظر إلى الوالدين النّظرة الإسلاميّة الرّفيعة. وليست الأسرة عندها على النّمط؛ الّذي يرضاه الإسلام، فليس للأب الأوربيِّ التّوجيهُ الأساسيُّ، وليس له التّدخُّلُ في شؤون أولاده، ولا يكاد الكبار من هؤلاء الأولاد يذكرون والديهم إلا في الأعياد.

إنَّ على دعاة الإصلاح واجبَ التّحذير من أن يتسرّب إلينا شيءٌ من ذلك.

إنَّ عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، وقد قرنه الرّسول ﷺ في أحاديث أخرىٰ بالشّرك بالله، وقول الزُّور، وقتل النفس.

* عن أبي بكرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً. قلنا: بلىٰ يا رسول الله! قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان

شبكة الألوكة - قسم الكتب

متكئاً، فجلس، فقال: «ألا وقولُ الزُّور، وشهادةُ الزُّور» متَّفقٌ عليه[1].

وعن عبد الله بن عمرٍو بن العاص؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكبائر: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النَّفس، واليمينُ الغَمُوس». رواه البخاريُّ[2].

ونحن نجد في هذا الحديث النَّهي عن التَّعرُّض للنَّاس بالشَّتم؛ حتَّى لا يكون ذلك سبباً في أن يردوا الشَّتيمة، إنَّه عندئذ ذريعةٌ إلى الإساءة إلى الوالدين.

إنَّ الذين يسيئون إلى والديهم أنذالٌ عصاةٌ، صغارُ النُّفوس لؤماءُ، وهم مخفقون في الحياة الدُّنيا لا يكادون يوفَّقون في عملٍ، ولعذاب الآخرة أشدُّ.

* الاستفهام في الحديث: (وهل يشتم الرَّجل والديه؟) استفهامٌ خرج عن معناه إلى استبعاد أن يصدر ذلك مِنْ رجلٍ ذي عقلٍ، ولبٍّ. وهذا يدلُّ على مكانة الوالدين عند الصَّحابة.

* وشتم الرَّجل والديه: مجازٌ عقليٌّ، علاقتُه السَّببيَّة، فالإسناد فيه مجازيٌّ، لأنَّه أسند شتم الأبوين للرَّجل، مع أنَّه ليس هو الشَّاتم.

وهذا يدلُّ على تحريم الوسائل، والذَّرائع المؤدِّية إلى الحرام.

* وفي الحديث إثارةٌ لاهتمام السَّامعين عندما ذكر: أنَّ من الكبائر شتمَ الرَّجل والديه. وكذلك فيه هذا الحوارُ الموجز المركَّز.

وبرُّ الوالدين مقدَّمٌ على الجهاد في سبيل الله، وهو من أحبِّ الأعمال إلى الله.

عن ابن مسعودٍ: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟

فقال: «الصَّلاة على وقتها» قيل: ثمَّ أيٌّ؟ فقال: «برُّ الوالدين» قيل: ثم أيٌّ؟

---

(١) البخاريُّ ٣/ ١٥٠ برقم ٢٦٥٤، ومسلم ١/ ٦٤ برقم ٨٧، والتِّرمذيُّ ٣/ ٢٥٥ برقم ١٩٠١.

(٢) البخاريُّ برقم ٦٦٧٥ و٦٨٧٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: «الجهاد في سبيل الله». متَّفقٌ عليه(١).

وعن عبد الله بن عمرِو بن العاص جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فاستأذنه في الجهاد فقال: «أَحَيٌّ والداك؟» قال: نعم. فقال: «ارجع إلى والديك، فأحسنْ صحبتهما». متَّفق عليه(٢).

فقد أسقط ﷺ الجهاد عمَّن جاء يبايعه على الهجرة والجهاد، تقديماً لحقِّ أبويه.

* * *

---

(١) صحيح البخاريّ (الفتح) ٢/ برقم ٥٢٧، وصحيح مسلم برقم ٨٥.
(٢) صحيح البخاري (الفتح) ٦/ برقم ٣٠٠٤، وصحيح مسلم برقم ٢٥٤٩، وأبو داود برقم ٢٥٢٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث التاسع

التنطع

* **عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المُتَنَطِّعون» قالها ثلاثاً. رواه مسلمٌ، وأبو داود، وأحمد**[1].

* وأخرج الدَّارميُّ بسنده إلى مِسْعَر قال: أخرج إليَّ مَعْنُ بن عبد الرَّحمٰن كتاباً، فحلف لي بالله أنَّه خطُّ أبيه، فإذا فيه:

قال عبد الله: والله الَّذي لا إله إلا الله! **ما رأيت أحداً كان أشدَّ على المُتَنَطِّعين من رسول الله ﷺ**، وما رأيت أحداً كان أشدَّ عليهم من أبي بكرٍ.

وإنِّي لأرى عمر كان أشدَّ خوفاً عليهم، أو لهم[2].

* وأخرج الدَّارميُّ عن عبد الله بن مسعود؛ قال: تعلَّموا العلم قبل أن يُقْبَضَ، وقبضُه: أن يذهب أهلُه. **ألا وإيَّاكم والتَّنَطُّعَ**، والتَّعَمُّقَ، والبدعَ! وعليكم بالعتيق[3].

* وعن ابن عبَّاسٍ، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ غداة العقبة وهو على راحلته: «هاتِ الْقُطْ لي».

فلقطت له حصياتٍ هنَّ حَصَىٰ الخَذْفِ، فلمَّا وضعتُهنَّ في يده؛ قال:

«بأمثال هؤلاء، وإيَّاكم والغلوّ في الدِّين، فإنَّما أهلك مَنْ كان قبلكم الغلوُّ

---

(١) مسلمٌ برقم ٢٦٧٠، وأبو داود برقم ٤٦٠٨، وأحمد ١/ ٣٦٨.
(٢) سنن الدَّارميّ ١/ ٥٣.
(٣) سنن الدَّارميّ ١/ ٥٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

في الدِّين». رواه النَّسائيُّ، وابن ماجه، وأحمد، وابن خزيمة، وابن حبَّان، والحاكم[1].

* وأخرج الدَّارميُّ بسنده إلى عثمان بن حاضرٍ الأزديِّ؛ قال:

دخلت على ابن عباسٍ، فقلت: أوصني.

فقال: نعم. عليك بتقوىٰ الله، والاستقامة. اتَّبعْ، ولا تَبْتَدِعْ[2].

* وقد عقد الإمام البخاريُّ باباً في صحيحه[3] عنوانه: [باب ما يكره من التَّعمُّق، والتَّنازع في العلم، والغُلوِّ في الدِّين، والبدع؛ لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١] وأورد البخاريُّ في هذا الباب حديث أبي هريرة، وفيه قصَّة الَّذين أرادوا مواصلة الصِّيام؛ استكثاراً للثَّواب، فنهاهم ﷺ، فلم ينتهوا، فأدَّبهم بطريقةٍ تربويَّةٍ رائعةٍ. وإليكم الحديث:

عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا!» قالوا: إنَّك تواصل.

قال: «إنِّي لستُ مثلَكم. إنِّي أبيتُ يطعمني ربِّي، ويسقيني». فلم ينتهوا عن الوصال. قال: فواصَلَ بهم النَّبيُّ ﷺ يومين، أو ليلتين، ثمَّ رأوا الهلال. فقال النَّبيُّ ﷺ: «لو تأخَّر الهلال؛ لزدتكم» كالمُنكِّل بهم[4].

قال ابن حجرٍ: [وقع في حديث أنسٍ الماضي في كتاب التَّمنِّي: «ولو مُدَّ لي في الشَّهر؛ لواصلتُ وصالاً يَدَعُ المتعمِّقون تَعَمُّقَهُم»[5].

(١) انظر النَّسائي ٥/ ٢٦٨، وابن ماجه برقم ٣٠٢٩، والمسند ١/ ٢١٥ و٣٤٧، وابن خزيمة ٤/ ٢٧٤ برقم ٢٨٦٧، والإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان ٩/ ١٨٣ والمستدرك ١/ ٤٦٦، وفتح الباري ١٣/ ٢٧٨.
(٢) سنن الدَّارميِّ ١/ ٥٣.
(٣) صحيح البخاريِّ ٩/ ٧٩.
(٤) البخاريُّ برقم ٧٢٩٩، وكان أورده في كتاب الصِّيام برقم ١٩٦٥.
(٥) فتح الباري ١٣/ ٢٧٨.

وأورد البخاريُّ في هذا الباب أيضاً حديث عائشة. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: صنع النَّبيُّ ﷺ شيئاً ترخَّص فيه، وتنزَّه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فحمِد الله، ثمَّ قال: «ما بالُ أقوام يتنزَّهون عن الشَّيء أصنعُه؟ فوالله! إنِّي أعلمُهم بالله، وأشدُّهم له خشيةً»[(١)] وأورد البخاريُّ هذا الحديث أيضاً في كتاب الأدب من صحيحه، باب من لم يواجه النَّاس بالعتاب[(٢)]، وروىٰ مسلمٌ هذا الحديث أيضاً[(٣)]، وفيه: قالت: صنع رسولُ الله ﷺ أمراً فترخَّص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنَّهم كرهوه، وتنزَّهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً، فقال:

«ما بالُ رجالٍ بلغَهم عنِّي أمرٌ ترخَّصت فيه، فكرهوه، وتنزَّهوا عنه؟ فوالله! لأنا أعلمُهم بالله، وأشدُّهم له خشيةً». وفي روايةٍ لمسلمٍ أيضاً: فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فغضب حتَّى بان الغضب في وجهه.

* وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدِّين يُسْرٌ، ولن يشادَّ هذا الدِّينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة، والرَّوحة، وشيءٍ من الدُّلجة» رواه البخاريُّ، وأحمد[(٤)].

* وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«سدِّدوا، وقاربوا، واغدُوا، وروحوا، وشيءٌ من الدُّلْجة، والقَصْدَ القَصْدَ؛ تبلغوا»[(٥)].

هذه الأحاديث الصَّحيحة؛ الَّتي رواها عن رسول الله ﷺ صحابةٌ أجلاَّء، هم ابن مسعودٍ، وابن عبَّاسٍ، وعائشة، وأبو هريرة، وأنس... وهذان

---

(١) البخاريُّ برقم ٧٣٠١.
(٢) صحيح البخاريِّ ٨/ ٢٢ برقم ٦١٠١.
(٣) مسلمٌ برقم ٢٣٥٦.
(٤) البخاريُّ برقم ٣٩ والمسند ٥/ ٦٩.
(٥) البخاريُّ برقم ٦٤٦٣.

الأثران المرويَّان عن ابن مسعودٍ ، وابن عبَّاسٍ كلُّها تقرِّر أمراً مهمّاً في الإسلام ، وهو :

أنَّ التَّشَدُّد في الدِّين ، والغلوّ فيه أمرٌ مذمومٌ ، مردودٌ على قائله .

وقد دلَّت آيات الكتاب الكريم على ذلك أيضاً. وأيّد هذا التَّاريخُ الثابتُ المنقول إلينا عمَّن كان قبلنا من الأمم السَّابقة ومن أمَّتنا . ورائعٌ صنيع الإمام البخاريِّ ؛ الَّذي جمع التَّعمُّق ، والتَّنازع في العلم ، والغلوَّ في الدِّين ، والبدع في إطارٍ واحدٍ . . . إنَّ ذلك يدلُّ على عظيم فقهه ، رحمه الله ! فَبَيْن هذه الأمور رابطٌ قويٌّ ، وصلةٌ وثيقة .

ولنشرح الكلمات الَّتي تحتاج إلى شرحٍ في هذه الأحاديث :

قال النَّوويُّ في «شرح مسلمٍ» :

[هلك المتنطِّعون: أي : المتعمِّقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم ، وأفعالهم][(١)] .

وجاء في «لسان العرب»[(٢)] :

[التنطُّع في الكلام : التَّعمُّق فيه . وفي الحديث : هلك المُتنطِّعون . هم المُتعمِّقون في الكلام ؛ الَّذين يتكلَّمون بأقصىٰ حلوقهم تكبُّراً ، كما قال النَّبيُّ ﷺ : «إنَّ أبغضكم إليَّ الثَّرثارون المُتفيهقُون»[(٣)] .

قال ابن الأثير : هو مأخوذٌ من النِّطع . وهو الغار الأعلىٰ في الفم . . . ثمَّ استُعمل في كلِّ تعمُّقٍ قولاً ، وفعلاً . ومنه حديث ابن مسعود : إيَّاكم والتَّنطُّع ، والاختلاف ، فإنَّما هو كقول أحدكم : (هلمَّ ، وتعال) أراد النَّهي عن الملاحاة

---

(١) شرح مسلم ١٦/ ٢٢٠ .

(٢) لسان العرب ٨/ ٣٥٧ .

(٣) مسند أحمد ٤/ ١٩٣ و١٩٤ ، والتِّرمذيُّ ٣/ ١٥٠ ، وموارد الظمآن ٤٧٤ ، ومكارم الأخلاق ص ٥ .

شبكة الألوكة
www.alukah.net

في القراءات المُختلفة ، وأنَّ مرجعها كلَّها إلى وجهٍ واحدٍ من الصَّواب ، كما أنَّ (هلم) بمعنى : (تعال)].

وجاء في «الفائق»[1] :

[. . . هو التعمُّق ، والغلوُّ . وأصله : التقعُّر في الكلام من النِّطع ، وهو الغار الأعلىٰ ، ثم استعمل في كلِّ تعمُّقٍ . . . ومنه الحديث : «هلك المتنطِّعون» أي : الغالون].

وقال ابن حجر :

[الغلوُّ : هو المبالغة في الشَّيء ، والتَّشديد فيه بتجاوز الحدِّ . يقال : غلا في الشَّيء ، يغلو ، غلوّاً ، وغلا السِّعر ، يغلو ، غلاءً إذا جاوز العادة . والسَّهم يغلو غَلْواً (بفتح ثمَّ سكون) : إذا بلغ غاية ما يرمىٰ][2] .

ولنشرع بشرح الأحاديث . . . ثمَّ نتكلم عن الموضوع :

عن ابن عباسٍ ، قال : قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة ، وهو على راحلته : «هات الْقُطْ لي» فلقطت له حصياتٍ هن حصى الخَذْف ، فلمَّا وضعتهنَّ في يده ؛ قال :

«بأمثال هؤلاء ، وإيَّاكم والغلوَّ في الدِّين ، فإنَّما أهلك مَنْ كان قبلكم الغُلُوُّ في الدِّين» .

حديث ابن عباس ؛ الَّذي رويناه جاء في سياق قصَّة حجِّه ﷺ . وروده هذا المورد منحه حيويَّةً ، وجاذبيَّةً ، وقد تجلَّى فيه الرَّبط بين الأوامر ، وتطبيقاتها العمليَّة .

ففي هذا الحديث تعليمٌ عمليٌّ من النَّبيِّ ﷺ لأصحابه ، وهذا شأنه في أكثر تعليمه ، وتوجيهه ، وتبليغه ، وتربيته ﷺ ، كقوله : «صلُّوا ، كما رأيتموني أصلِّي» و: «خذوا عنِّي مناسككم» . . . وهذا ما نجده في هذه القصَّة ، فلمَّا

---

(١) الفائق ٣/ ٤٤٤ .
(٢) الفتح ١٣/ ٢٧٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جاءه ابن عباسٍ بحصيات مناسباتٍ يصفهنَّ بأنَّهنَّ حصىٰ الخَذْف ، والخَذْفُ: رميُ الحصىٰ بالأصابع ، قال: «بأمثال هؤلاء». ثمَّ انتقل ﷺ إلىٰ ضرورة البُعد عن الغُلُوِّ ، والزِّيادة ، وفي ذلك استغلال المناسبات لتقرير الحقِّ ؛ الَّذي ينفع النَّاس ، فعندما التزم ابن عباسٍ بالإتيان بالحصى على الوجه المطلوب ؛ قرَّر الرَّسول ﷺ: أنَّ البعد عن الغُلوِّ ينبغي أن يكون في كلِّ أمرٍ من أمور الدِّين.

وفي هذا الحديث أيضاً الثَّناء مِنْ وليِّ الأمر ، أو الرَّجل الكبير على مَنْ يُحْسِنُ القيام بالمهمَّة من الأتباع ، والأبناء.

وفيه أيضاً الاستفادة من التَّاريخ ، وأخذ الموعظة منه ؛ لأنَّ السَّعيد من اتَّعظ بغيره ، فقد أهلك الأمم قبلنا غُلُوُّها في الدِّين.

وفيه: أنَّ للمرء أن يستعين بمن يكون معه من الأولاد ، ففي ذلك تعليمٌ له ، وتدريبٌ ، فابن عباسٍ كان صغير السِّنِّ ، وكان مرافقاً للنَّبيِّ ، فأمره ﷺ أن يلتقط له الحصىٰ ، وهذا قد أدخل عليه السُّرور ، وأشعره بأنَّه أهلٌ للقيام بالمهمَّات ، وقد أثنىٰ الرَّسول ﷺ على عمله.

وفيه: أنَّ الغُلُوَّ في الدِّين مذمومٌ ، وهو مثل النَّقص منه ، فلا يستطيع شيطانٌ من شياطين الإنس ، والجنِّ أن يلبِّسَ علينا ديننا ، فيزيِّنَ لنا الغُلُوَّ في الدِّين بأيِّ حجَّةٍ من الحجج.

وقد كان ابن عباسٍ يوصي مَنْ يستوصيه بأن يتجنَّب البدع ، والغُلُوَّ ، فقد دخل عليه عثمان بن حاضرٍ الأزديُّ ، وسأله الوصيَّة ، فقال له ابن عباس: عليك بتقوىٰ الله ، والاستقامة. اتَّبع ، ولا تَبْتَدِعْ.

عن عبد الله بن مسعودٍ ، قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطِّعون». قالها ثلاثاً.

في هذا الحديث على إيجازه نُكَتٌ بيانيَّة ، وفوائد شرعيَّةٌ ، وقواعد تربويَّةٌ متعدِّدة:

* في هذا الحديث التَّكرار المؤكَّد، وهو ظاهرةٌ بيانيَّةٌ، له دواع تدعو إليه ، ويحقِّق أغراضاً مهمَّةً، وفي كتاب الله، والحديث الشريف أمثلةٌ رائعةٌ على التَّكرار

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحلو ؛ الَّذي يؤدِّي مهمَّةً بلاغيَّـةً محدَّدةً ، ومن أهم الأغراض الَّتي يحقِّقها : التَّأكيد ، والتَّوضيح ، ولفت أنظار السَّامعين إلى أهمِّيَّة الموضوع المبحوث .

* وفي هذا الحديث الموسيقا المنبعثةُ من كلمة (المُتنطِّعون) ، وهي توحي للسَّامع بصفةٍ غير محمودةٍ ، يصل السَّامع إلى إدراكها من وقع هذه الكلمة على أذنه . . . إنَّها توحي بأنَّ من كان متَّصفاً بها لا خير فيه . . هذا هو الانطباع الَّذي تُحِسُّ به النَّفس عندما يُلقىٰ عليها هذا الحديث .

* وفي هذا الحديث الإيجاز ؛ الَّذي بلغ قمَّة الجودة ، والإبداع .

* وفي هذا الحديث التَّعبير بالماضي عن أمرٍ سيكون في المستقبل للدَّلالة على تحقُّقه فقال : «هلك المُتنطِّعون» . . . إنَّها صورةٌ فيها ترهيبٌ من التَّنطُّع . . . إنَّ المتنطِّعين هالكون . . وهذا تصوير صادقٌ للواقع . . . إنَّ المُتنطِّعين هالكون حقّاً ؛ لأنَّ التنطُّع ابتداعٌ ، والمبتدع في الدِّين يؤْثِر في أحيانٍ كثيرةٍ هواه على ما شرع الله ، فهو يزيد على ما أمر الله ، فيَضلَّ ، ويُضلُّ .

إنَّ هؤلاء المغالين المُتعمِّقين في الكلام ، والأفعال هالكون ، وهلاكُهم أمرٌ محقَّقٌ لا شكَّ فيه ، وقد رأينا النَّصارىٰ كيف انتهىٰ بهم تنطُّعهم ، وغلوُّهم في حبِّ المسيح عليه السَّلام إلى الشِّرك ، وكذلك رأينا بعض الفرق الضَّالَّة ؛ الَّتي خرجت على المسلمين كيف ضلَّت عندما أحبُّوا رجلاً من الصَّحابة ، فرفعوه فوق رتبة البشر ، فضلُّوا ، وأضلُّوا .

وقريبٌ منهم حال بعض الجهلة الَّذين يرفعون نبيَّنا ﷺ فوق درجة النُّبوَّة بدعوى محبَّته ﷺ إلى درجةٍ لا يرضاها :

روىٰ البخاريُّ ، وأحمد عن عمر رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ قال : «لا تُطروني كما أطرت النَّصارى عيسى ابن مريم ، فإنَّما أنا عبدُ الله ، ورسولُه»[1] .

إنَّ ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ وعىٰ هذا المعنىٰ ؛ الَّذي سمعه من

---

(١) البخاري برقم ٦٨٣٠ والمسند ١ / ٢٣ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

رسول الله ﷺ فكان ينهى النَّاس عن التَّنطُّع ، والغلوِّ ، ويوصيهم بالاعتدال ، والاتِّباع . كان يقول: تعلَّموا العلم قبل أن يُقبض ، وقَبْضُه أن يذهب أهلُه. ألا وإيَّاكم والتَّنَطُّعَ ، والتَّعمُّقَ ، والبدع ، وعليكم بالعتيق.

إنَّه يدعو النَّاس إلى أن يغتنموا وجود العلماء ، فيتعلَّموا. . . إنَّ العلماء نعمةٌ عظمىٰ من الله ، فلنُقبِل على حلقاتِهم ، ولنتردَّد على مجالسهم ، ولْنَسْألهم. . . إنَّهم ذاهبون ، وهذا المعنى جاء في حديثٍ مرفوع إلى النَّبيِّ ﷺ يبيِّن فيه رسولُ الله ﷺ: أنَّ الله لا ينتزع العلم من صدور العلماء ، بل يقبض العلماء ، فيذهبُ بذهابهم العلمُ[1].

إنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء ، وهم بركة الدُّنيا ، ووجودُهم نعمةٌ جليلةٌ ، يدلُّون النَّاس على طريق الجنَّـة ، ويفقِّهونهم في دين الله ، وقد يسَّر الله لنا في هذا العصر وسائلَ الاتِّصال بهم. . . فالهواتف مبذولةٌ ميسورةٌ في البيوت ، والطُّرقات. . . ألا فتعلَّموا العلم يا عباد الله! والعلمُ خزائنُ ، ومفاتيحها السُّؤال.

ثمَّ حذَّرهم ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ بعد ذلك من التَّنطُّع ؛ الَّذي يقع فيه بعض النَّاس ، ولا سيما بعض الشَّباب ؛ الَّذين بدؤوا في طلب العلم ، ويحكي لنا ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ موقف رسول الله ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر من المتنطِّعين ، فيقسم ، ويقول:

والله الذي لا إله إلا هو! ما رأيت أحداً أشدَّ على المُتنطِّعين من رسول الله ﷺ.

وما رأيت أحداً كان أشدَّ عليهم من أبي بكر!

وإنِّي لأرى عمر كان أشدَّ خوفاً عليهم ، أو لَهُمْ.

---

(١) روى البخاريُّ ، ومسلمٌ عن عبد الله بن عمرٍو ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتَّى إذا لم يبق عالماً اتَّخذ النَّاس رؤوساً جُهَّالاً ، فسُئِلوا ، فأفتوا بغير علمٍ فضلُّوا ، وأضلوا» [البخاريُّ (الفتح ١/ ١٩٤ برقم ١٠٠) ومسلمٌ برقم (٢٦٧٣)].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويبدو: أنَّ كلمة ابن مسعودٍ كانت في أيام خلافة عمر.

ولا غَرْوَ أن يكون موقف هؤلاء الصَّحب الكرام هذا الموقف لأنَّهم ـ رضوان الله عليهم ـ تمثَّلوا المعانيَ الإسلاميَّة؛ الَّتي تلقَّوها من مُعلِّم الأعظم ﷺ، ثمَّ انطلقوا يقرِّرونها على النَّاس، يواجهونهم بها، لا يخافون في الله لومة لائم.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُواصِلوا». قالوا: إنَّك تواصل.

قال: «إنِّي لستُ مثلَكم. إنِّي أبيتُ يطعمني ربِّي، ويسقيني». فلم ينتهوا عن الوصال.

قال: فواصل بهم النَّبيُّ ﷺ يومين، أو ليلتين، ثمَّ رأوا الهلال، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لو تأخر الهلال؛ لزدتكم» كالمُنكِّل بهم. وفي روايةٍ: «ولو مُدَّ لي في الشَّهر؛ لواصلتُ وصالاً يَدَعُ المُتعَمِّقون تعمُّقَهم». رواه البخاريُّ.

التعمُّق، والتَّنطُّع، والغُلُو كلماتٌ مقاربة الدَّلالة لمعنىً مذموم شرعاً. وحديث أبي هريرة يحكي لنا قصَّة نفرٍ من هؤلاء المتعمِّقين، وتأديب النَّبيِّ ﷺ لهم.

الوصال في الصيام: أن يواصل الصَّائم الامتناع عن الطَّعام، والشَّراب، وسائر المفطرات، ويصلُ ليله بنهارِه. وقالوا في تعريفه: [هو التَّرك في ليالي الصِّيام لما يفطر بالنَّهار بالقصد. فيخرُج مَنْ أمسك اتِّفاقاً...][1] وهذا مِنْ خصوصيَّات النَّبيِّ ﷺ، فقد كان يواصل... فأراد بعض الصَّحابة أن يقتدي به ﷺ رغبةً في الثواب، فنهاهم قائلاً: «لا تواصلوا» فقالوا: يا رسول الله! إنَّك تواصل. فبيّن لهم: أنَّ ذلك خصوصيَّةٌ له، ليس لهم أن يقلِّدوه فيها؛ لأنَّه ليس مثلَهم، وذكر لهم: أنَّ الله يطعمه، ويسقيه. ونهيُه إيَّاهم عن الوصال يقتضي بأن يُفطروا عند غروب الشَّمس، ويمارسوا ما أحلَّ الله لهم من المُفطرات إلى الفجر؛ لأنَّهم لا يُطيقون ما يطيق، ولا يكون لهم من العناية الرَّبَّانيَّة ما يكون له.

---

(١) فتح الباري ٤/٢٠٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولكنَّهم ـ رغبةً في الاستزادة من الخير، والاستكثار من الطَّاعة ـ واصلوا. وهذا خطأٌ منهم عن اجتهادٍ، وتأويل، فأمْرُهُ ﷺ، ونهيُه واجبُ الاتِّباع، والامتثال. فلمَّا علم ﷺ بإصرارهم على الوصال؛ عمَد إلى تأديبهم بطريقةٍ تربويَّةٍ رائعةٍ، وهي أن يأمرهم بالمواصلة، فواصلوا يومين، ولكنَّ ذلك كان في آخر شهر رمضان، ورأىٰ النَّاسُ هلال شوَّال، وقد تمنَّى ﷺ أنْ لو تأخَّر الهلالُ حتَّى يواصل بهم وصالاً يجعل هؤلاء المُتَعمِّقين يَدَعُون تعمُّقهم، وذلك كالتَّنكيل بهم. وهذه طريقةٌ تربويةٌ رشيدةٌ، تقنع المخطئ بفساد رأيه عندما يعضُّه الجوع، ويبرح به العطش، ويحلُّ به الإعياء، ويقول: يا ليتني قبلتُ الحكم الشَّرعيَّ في أول مرَّة لأنه أرحم بي! يا ليتني لم أغلُ، ولم أتعمَّق!

إنَّ الزيادة على ما رسم الشَّرع غلوٌّ، وتنطُّعٌ، وابتداعٌ، ويقول ﷺ: «مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ»(١)... إنَّه سبحانه أعلم بما يصلُح لعباده... فالزِّيادة مردودةٌ مرفوضةٌ، والإسلام دينٌ ليس فيه حرجٌ على الخَلْق ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: صنع رسولُ الله ﷺ أمراً، فترخَّص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنَّهم كرهوه، وتنزَّهوا عنه. فبلغه ذلك، فغضب؛ حتَّى بان الغضب في وجهه، فقام خطيباً، فحمِد الله، ثمَّ قال:

«ما بال رجالٍ بلغهم عنِّي أمرٌ ترخَّصت فيه، فكرهوه، وتنزَّهوا عنه؟ فوالله! لأنا أعلمهم بالله، وأشدُّهم له خشيةً».

هذا الحديث نصٌّ صريحٌ رائعٌ في موضوعنا، فالعلم بالله، وخشيته لا تقتضي الغُلُوَّ والتَّنَطُّع، بل إنَّ التَّنزُّه عن أمرٍ رخَّص فيه الشَّرع كان سبباً لغضب رسول الله ﷺ، وبيانِه حقيقة الأمر.

قال ابن حجر: [والمراد منه هنا: أنَّ الخير في الاتِّباع، سواءٌ كان ذلك في العزيمة، أو الرُّخصة، وأنَّ استعمال الرُّخصة بقصد الاتِّباع في المحلِّ الذي

(١) البخاريُّ برقم ٢٦٩٧، ومسلمٌ برقم ١٧١٨، وأحمد ٦/ ٧٣، وأبو داود برقم ٤٦٠٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وردت أولىٰ من استعمال العزيمة ، بل ربُما كان استعمال العزيمة مرجوحاً ، كما في إتمام الصَّلاة في السَّفر ، وربما كان مذموماً ، إذا كان رغبة عن السُّنَّة ، كترك المسح على الخفيَّن. وأومأ ابن بطَّالٍ إلى أنَّ الَّذي تنزَّهوا عنه القُبْلة للصَّائم ، وقال غيره: لعلَّه الفطر في السَّفر.

ونقل ابن التِّين عن الدَّاوديِّ : أنَّ التَّنزُّه عمَّا ترخَّص فيه النَّبيُّ ﷺ من أعظم الذُّنوب؛ لأنَّه يرى نفسه أتقىٰ لله مِنْ رسوله ، وهذا إلحادٌ.

قلت [والقائل ابن حجر]: لا شكَّ في إلحاد مَنِ اعتقد ذلك ، ولكنَّ الَّذي اعتلَّ به من أشير إليهم في الحديث: أنَّه غُفِر له ما تقدَّم ، وما تأخر ، فإذا ترخَّص في شيءٍ لم يكن مثلَ غيره ممَّن لم يغفر له ذلك. فيحتاج الَّذي لم يُغفر له إلىٰ الأخذ بالعزيمة ، والشدَّة ؛ لينجو ، فأعلمهم النَّبيُّ ﷺ: أنَّه وإن كان غفر الله له ؛ لكنَّه مع ذلك أخشىٰ النَّاس لله ، وأتقاهم ، فمهما فعله ﷺ من عزيمةٍ ، ورخصةٍ ؛ فهو منه في غاية التَّقوى ، والخشية ، لم يحمله التفضُّل بالمغفرة على ترك الجدِّ في العمل قياماً بالشُّكر ، ومهما ترخَّص فيه ؛ فإنما هو للإعانة على العزيمة ؛ لعملها بنشاطٍ][1].

* ولو نظرنا في هذا الحديث ؛ لوجدنا كأنَّه يُصَحِّحُ للمغالين في العبادة ، والمتشدِّدين ، ويقول لهم: ليس التشدُّد ، ونَبْذ الرُّخص أكثر خشيةً وتقوى ، ولا يدلُّ على مزيد علمٍ ، فرسول الله الَّذي هو أعلمُ الخلق بالله ، وأشدُّهم خشيةً له يأخذ بالرُّخص.

* إنَّ الله تبارك وتعالى غنيٌّ عن أن يُعذِّبَ النَّاسُ أنفسَهم ، ولم يجعل عليهم حرجاً في دينهم ، ولم يكلِّفهم شيئاً فوق وُسْعِهم.

* وفي هذا الحديث دليلٌ على كظم غيظ النَّبيِّ ﷺ ، وعلى حلمه ، وأسلوبه الرَّقيق اللَّطيف في معالجة الأغلاط ، فهو لم يُسمِّ هؤلاء المُخطئين ، بل قال على عادته: (ما بال أقوامٍ؟) أو (ما بالُ رجالٍ؟). وهذا درسٌ بليغٌ

(١) الفتح ١٣/ ٢٧٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لبعض الدُّعاة الَّذين يُواجهون النَّاس بما لا يحبُّون ، فعليهم أن يصبروا وأن تتَّسع صدورهم لأخطاء الَّذين يدعونهم. . . إنَّ معالجة الخطأ بهذا الأسلوب أدعى للوصول إلى الموقف السَّليم.

* هذا وقد يدخل الشَّيطان ، فيوسوس للإنسان بأن يقف مثل هذا الموقف ؛ ليبدو أمام الناس أكثر تقوى ، وأشدَّ خشيةً. ولكن ليحذر المسلم من ذلك ، وليعص الشَّيطان ، وليطع الرَّحمٰن ، وَلْيَتَّهم نفسه ، فإنَّ النَّفس لأمارةٌ بالسُّوء. وليتَّقِ الله ربَّه ؛ الَّذي يَعْلَمُ خائنة الأعين ، وما تخفي الصُّدور.

عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدِّين يسرٌ ، ولن يشادَّ هذا الدِّين أحدٌ إلا غلبه ، فسدِّدُوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة ، والرَّوحة ، وشيءٍ من الدُّلْجَة». وفي روايةٍ: «القصدَ القصدَ تبلغوا» رواه البخاريُّ.

المشادَّة: المغالبة ، يقال: شادَّه ، يشادُّه مشادَّةً: إذا قاواه.

لا بدَّ لنا من الوقوف قليلاً عند هذه الصُّورة الجميلة الَّتي نقف عليها في هذا الحديث. . . إنَّها معركةٌ تقوم بين الدِّين اليُسْر ، وبين متنطِّع متشدِّدٍ ، يحاول أن يشدَّ الدِّين إلى التَّعسير ، والتَّضييق على الخَلْقِ ، ولكنَّ هذه المشادَّة تنتهي بانتصار الدِّين ، وغلب المتنطِّع. . . إنَّ تصوَّر هذه المعركة يبرز لنا يُسْرَ هذا الدِّين ؛ الَّذي يغلب كلَّ محاولةٍ لحَرْفِه عن مسارِه.

وقوله: «سدِّدوا» أي: الزموا السَّداد. وهو الصَّواب من غير إفراطٍ ، ولا تفريطٍ. قال أهل اللغة: السَّداد: التوسُّط في العمل[1].

وقوله: «قاربوا» أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه.

وقوله: «أبشروا» أي: بالثَّواب على العمل الدَّائم ؛ وإن قلَّ. قال ابن حجر: [والمراد تبشير مَنْ عجز عن العمل بالأكمل بأنَّ العجز إذا لم يكن من صنيعه ؛ لا يستلزم نقص أجره ، وأبهم المبشَّر به تعظيماً له ، وتفخيماً][1].

ولا بُـدَّ كذلك أن نقف وقفةً أخرىٰ أمام هذه الصُّورة الرَّائعة الَّتي تُجَسِّد

(١) فتح الباري ١/ ٩٥.

معنىً يريد الرَّسول ﷺ تقريره ، فعبَّر عنه بصورةٍ منتزعةٍ من واقعهم ، وحياتهم العمليَّة ، . . . وذلك أدعى لتذوُّقها ، واستيعاب معناها : إنَّ المسافر إذا سافر باللَّيل ، والنَّهار جميعاً ، ولم يسترح ، ولم ينم ، ولم يُرِحْ دابَّته ؛ أهلك نفسه ، ومركوبه ، وعجَز ، وانقطع ، وبقي في بعض الطَّريق ، لا يتحوَّل عن المكان الَّذي انتهى إليه . . أما إذا تحرَّى السَّير في الأوقات ؛ الَّتي تساعده على قطع الطَّريق ، واستراح في الأوقات الأخرىٰ ؛ وصل إلى بُغيته سالماً ، وسلِمت له دابَّتهُ التي يركبها .

فلتستعن أيُّها المسافر بالغَدْوةِ ، وهي ما بين صلاة الفجر وطلوع الشَّمس ، وهذا الوقت المبكِّر وقتٌ مبارك ، يستطيع المرء أن يُنْجِز فيه أموراً كثيرةً ، والسَّير فيه جميلٌ ، فليس هناك حرٌّ يزعج ، ولا شعاعُ شمسٍ يضايق . . . الطَّريق مكشوفٌ بالضَّوء الصَّباحيِّ ، والمرء نفسه يكون نشيطاً قادراً على قطع هذا الطَّريق ، والتنبُّه لكلِّ ما يمكن أن يتعرَّض له المسافر .

وهناك وقت آخر ، وهو الرَّوحة ، وهو السَّير بعد الزَّوال ، حيث يكون المرء ودابَّتُه قد أخذا حظَّهما من الرَّاحة ، وتكون حدَّة الشَّمس قد خفَّت قليلاً .

ووقتٌ ثالثٌ يوصي الرَّسول ﷺ باستغلاله ، والإفادة منه ، وهو وقت الدُّلجة ، وهو السَّير آخر اللَّيل ، وهذا السير يحمد المرء عاقبته ؛ إذا طلع الصَّباح ، ومن هنا قالت العرب : عند الصَّباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَىٰ .

قال ابن حجر : [وهذه الأوقات أطيب أوقات المسافر ، وكأنَّه ﷺ خاطب مسافراً إلى مقصدٍ ، فنبَّهه على أوقات نشاطه ، لأنَّ المسافر إذا سافر اللَّيل والنَّهار جميعاً ؛ عجَز وانقطع ، وإذا تحرَّى السَّير في هذه الأوقات المُنشِّطة ؛ أمكنته المداومة من غير مشقَّة . وحسن هذه الاستعارة : أنَّ الدنيا في الحقيقة دارُ نقلةٍ إلى الآخرة ، وأنَّ هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة][(١)] .

---

(١) فتح الباري ١/ ٩٥ .

والرِّواية الأخرى: «القَصْدَ القَصْدَ تبلغوا»(١) تؤدِّي المعنى نفسه ؛ الَّذي في الرِّواية السَّابقة ، فهو يقول: عليك بالاقتصاد. . . لا تسرع ، ولا تبطئ. . فإنَّك إن فعلت ذلك ؛ بلغت مُرادك ، ووصلت إلى بُغيتك. والقصد: الأخذ بالأمر الأوسط. . . إنَّ العمل بالتلطُّف ، والتَّدريج ، والاعتدال يمكن أن يستمرَّ ، ويدومَ ، ولا ينقطع.

يُسْرُ هذا الدِّين حقيقةٌ ملموسةٌ ، لا يُنكرها إلا مُكابرٌ ، نطقت بذلك نصوص الكتاب والسُّنَّة ، ودلَّ على ذلك النَّظر في أحكام الشَّريعة كلِّها. يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ويقول سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ويقول جلَّ جلاله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

قال ابن المنير: [في هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام النُّبوة ، قد رأينا ورأىٰ النَّاس قبلنا أنَّ كلَّ متنطِّعٍ في الدِّين ينقطع ، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة ، فإنَّه من الأمورِ المحمودة ، بل منع الإفراط المؤدِّي إلى المَلال ، أو المُبالغة في التَّطوُّع المُفضي إلى ترك الأفضل ، أو إخراج الفرض عن وقته ، كمن بات يصلِّي اللَّيل كلَّه ، ويغالب النَّوم إلى أن غلبته عيناه في آخر اللَّيل ، فنام عن صلاة الصُّبح في الجماعة ، إلى أن خرج الوقت المُختار أو إلى أن طلعت الشَّمس ، فخرج وقت الفريضة](٢).

إنَّ طبيعة هذا الدِّين هي اليسر ، ولم يكلِّف نفساً إلا وُسْعَها. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقال في آية الرَّضاعة: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال في سورة الأعراف: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) البخاريُّ ١١/ ٦٤٦٣.

(٢) فتح الباري ١/ ٩٤.

www.alukah.net

شبكة الألوكة

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢] وهذا المعنى كان متجسِّداً في سيرة الرَّسول الأعظم ﷺ فما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرَهُما، ما لم يكن إثماً.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً؛ كان أبعد النَّاس منه، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حرمة الله عزَّ وجلَّ. متَّفقٌ عليه، وهذا لفظ مسلمٍ، ورواه أحمد، وأبو داود، ومالكٌ في الموطأ[(١)].

ولقد ثبت في الصَّحيح: أنَّه ﷺ وقف في حجَّة الوداع بمنى يسألونه، فجاءه رجلٌ، فقال: يا رسول الله! إنِّي لم أشعرْ، فحلقت قبل أن أذبح. فقال ﷺ: «اذبح، ولا حرج» وجاء رجلٌ آخر فقال: يا رسول الله! لم أشعرْ فنَحرت قبل أن أرميَ. قال: «ارمِ، ولا حرج» قال: فما سئل يومئذٍ عن شيءٍ قدِّم، أو أخِّر إلا قال: «اصنع، ولا حرج» رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، وأبو داود، وهذه روايته[(٢)].

ولقد زوَّج النَّبيَّ ذلك الرَّجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره، ولم يقدر على خاتمٍ من حديدٍ، وجعل صداق الزَّوجة أن يعلِّمها ما معه من القرآن، والحديث في صحيح البخاريِّ، وصحيح مسلمٍ، والتِّرمذيِّ[(٣)].

ومن قواعد هذا الدِّين؛ الَّتي تَلْتَمِسُ فيها اليسر بأجلىٰ مظاهره قاعدة: «الضَّرورات تبيح المحظورات» وأنَّ الواجبات تسقط عن المكلَّف إن لم يكن قادراً على أدائها. فدائرة الشَّرع إذا ضاقت على إنسانٍ؛ اتَّسعت.

فكلُّ من أراد أن يُخرِج هذا الدِّين عن وصف اليُسْرِ غُلب، ورُدَّ.

---

(١) البخاريُّ ٦/٥٦٦ برقم ٣٥٦٠، ومسلمٌ ٢٣٢٧، وأبو داود رقم ٤٧٨٥، والموطأ ٢/٩٠٢ـ ٩٠٣ والمسند ٦/١١٤ و١١٦.

(٢) البخاريُّ ٣/١٧٣٦ و١٧٣٧، ومسلمٌ ٢/رقم ١٣٠٦، والتِّرمذيُّ ٣/ برقم ٩١٦، والنَّسائيُّ في الكبرىٰ ٢/٤٤٦ـ٤٤٧، وابن ماجه ٢/ برقم ٣٠٥١، وأبو داود ٢/ برقم ٢٠١٤.

(٣) البخاريُّ برقم ٥١٣٥، ومسلمٌ برقم ١٤٢٥، والترمذيُّ ٢/١٨٣ برقم ١١١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وممَّا يدلُّ على سماحة هذه الشَّريعة ، ورفع الحرج عن متَّبعيها ، وعلى أنَّ صفة التَّيسير على الخلق صفةٌ أصيلةٌ فيها حديث جابر بن عبد الله ؛ الَّذي ذكر فيه : أنَّ رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكَّة في رمضان ، فصام ؛ حتَّى بلغ كُراع الغميم (وهو مكان) فصام النَّاس. فقيل له: إنَّ النَّاس قد شقَّ عليهم الصِّيام ، وإنما ينظرون فيما فعلت. فدعا بقدحٍ من ماءٍ بعد العصر ، فرفعه ؛ حتَّى نظر النَّاس إليه ، ثمَّ شرب ، فقيل له بعد ذلك : إنَّ بعض النَّاس قد صام ، فقال ﷺ: «أولئك العُصاة! أولئك العصاة!». رواه مسلمٌ[١].

وحديث عائشة ، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ وفيه: أنَّ رجلاً أتىٰ إلى رسول الله ﷺ في المسجد في رمضان ، فقال: يا رسول الله! احترقت! احترقت! فسأله رسولُ الله ﷺ: «ما شأنُه»؟

فقال: أصبت أهلي. قال: تصدَّق. قال: والله يا نبيَّ الله ما لي شيءٌ ، وما أقدِر عليه.

قال: «اجلس». فجلس ، فبينا هو على ذلك أقبل رجلٌ يسوق حماراً عليه طعامٌ. فقال رسول الله ﷺ: «أين المُحترق آنفاً»؟ فقام الرَّجل ، فقال رسول الله ﷺ: «تصدَّق بهذا».

فقال: يا رسول الله! أغيرنا؟ فوالله إنَّا لجياعٌ مالنا شيءٌ. فقال ﷺ: «فكلُوه». رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأبو داود ، والنَّسائيُّ[٢].

وفي روايةٍ للبُخاريِّ: [قال: «أتجد ما تحرِّر رقبةً؟» قال: لا. قال: «فتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟» قال: لا. قال: «أفتجد ما تطعم به ستين مسكيناً؟» قال: لا].

فلمَّا أعطاه الطعام [قال: «أطعم هذا عنك». قال: على أحوج منَّا؟ ما بين

---

(١) مسلمٌ برقم ١١١٤ بروايتين.

(٢) البخاريُّ بالأرقام ١٩٣٥ و١٩٣٦ و١٩٣٧ ، ومسلمٌ برقم ١١١٢ ، وأبو داود برقم ٢٣٩٤ والنَّسائي في الكبرىٰ ٢/ ٢١٠ برقم ٣١١٠ و٣١١١.

www.alukah.net

شبكة الألوكة

لابتيها أحوجُ منّا. قال: «فأطعِمْه أهلك»].

أيّ يُسْرٍ نلمحه في هذه القصّة؟ وأيّة سماحةٍ؟ رجل تجب عليه الكفّارة، فيعتذر بالعدم، فلمّا وجد الطّعام الّذي يصلح للكفارة، قال: على من أتصدّق؟ فيأذن له النّبيُّ ﷺ أن يطعم أهلَه منها.

* وأخرج الإمام أحمد عن أبي قتادة، عن الأعرابيِّ؛ الّذي سمع النّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ خير دينكم أيسَره. إنَّ خير دينكم أيسَره»(١).

* وأخرج أحمد أيضاً عن أبي عروة، قال:

كنّا ننتظر النّبيَّ ﷺ، فخرج رَجِلاً يقطر رأسُه من وضوءٍ، أو غسلٍ، فصلّى، فلمّا قضى الصّلاة؛ جعل النّاس يسألونه: علينا حرجٌ في كذا؟

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ دين الله في يُسْرٍ» يقولها ثلاثاً(٢).

*.. وعن أنس بن مالكٍ؛ قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «يسِّروا، ولا تعسِّروا، وسكِّنوا، ولا تنفِّروا». أخرجاه في الصّحيحين(٣).

* وفي الصّحيحين أيضاً: أنَّ رسول الله ﷺ قال لمعاذٍ، وأبي موسىٰ حين بعثهما إلى اليمن: «بشِّرا، ولا تنفِّرا، ويسِّرا، ولا تعسِّرا، وتطاوعا، ولا تختلفا»(٤).

* وفي السُّنن، والمسانيد: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمحة»(٥).

الغُلوُّ في الدِّين مذمومٌ.. وهو يقطع المسلم في الطَّريق... ولا يمكِّنه من

---

(١) المسند ٣/ ٤٧٩.
(٢) المسند ٥/ ٦٩.
(٣) البخاريُّ ١/ رقم ٧٩ و١٠/ رقم ٦١٢٥، مسلمٌ ٣/ ١٧٣٤.
(٤) صحيح البخاريِّ ٨/ رقم ٤٣٤٤، صحيح مسلمٍ ٣/ رقم ١٧٣٣.
(٥) ذكره السُّيوطي في الجامع الصغير، وعزاه إلى الخطيب البغداديِّ عن جابرٍ، وانظر ضعيف الجامع الصَّغ[illegible] ٢٣٣٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بلوغ الغاية. يقول ﷺ: «القصدَ، القصدَ؛ تبلغوا» رواه البخاريُّ[1].. إنَّ القصد في العمل مع المداومة عليه يوصل المرء إلى مقصده، ويبلغ به إلى غايته؛ التي يسعى إليها. أمَّا المبالغة، والغلوُّ، فإنَّهما لا يوصلان، ويذكِّرني هذا بقولهم: «إنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقىٰ» وقد رُوي حديثاً، وهو بتمامه:

«إنَّ هذا الدِّين متينٌ، فأوغِلْ فيه برفقٍ، فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى». قال السُّيوطي في «الجامع الصَّغير»: رواه البزَّار عن جابرٍ. ورمز إلى درجته بالضَّعف. قال المناويُّ في «فيض القدير»[2]: [قال الهيثميُّ في مجمع الزَّوائد ١/ ٦٢: وفيه يحيى بن المتوكِّل أبو عقيل، وهو كذَّابٌ. انتهى. ورواه البيهقيُّ في «السُّنن» من طرقٍ، وفيه اضطرابٌ. ورُوي موصولاً، ومرسلاً، ومرفوعاً، وموقوفاً. واضْطُرِبَ في الصَّحابي: أهو جابرٌ، أو عائشة، أو عمر. ورجَّح البخاريُّ في «التَّاريخ» إرساله][3].

وقال ابن حجر في «الفتح»[4]: [جاء في «كتاب الزُّهد» لابن المبارك حديثُ عبد الله بن عمرو موقوفاً: «إنَّ هذا الدِّين متينٌ، فأوغلوا فيه برفقٍ، ولا تُبَغِّضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقىٰ»].

وهو مثلٌ مذكورٌ في الأمثال، ذكره الميدانيُّ في «مجمعه»[5].

ومعناه صحيحٌ، وهو صورةٌ رائعةٌ، صورة الرَّجل المنقطع في أوائل الطَّريق، وقد هلكت دابَّتُه؛ لأنَّه أوغل في الإسراع.

---

(١) البخاريُّ ١١/ برقم ٦٤٦٣، وانظر تخريجه قبل صفحات.

(٢) فيض القدير ٢/ ٥٤٤.

(٣) وانظر صحيح الجامع الصغير للألبانيِّ رقم ٢٢٤٦ فقد أورد الشَّطر الأوَّل: «إنَّ هذا الدِّين متينٌ، فأوغلوا فيه برفقٍ» وقال: حسنٌ. وأورد الحديث بتمامه في ضعيف الجامع الصَّغير برقم ٢٠٢٢، وقال: ضعيفٌ.

(٤) الفتح ١١ ص ٢٩٧.

(٥) مجمع الأمثال ١/ ٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والغلوُّ ينفِّر النَّاس من دين الله ؛ لأنَّهم يرون الدِّين بهذا الغلوّ تكليفاً بما لا يُطيقون ، وشرعُ الله لا يكلِّف نفساً إلا وسعها ، ولا يوجب عليها ما لا تطيق .

والغلوُّ طريقٌ إلى الضَّلال ، هلك بسببه مَنْ هلك من الأمم المتقدِّمة من يهودٍ ، ونصارىٰ. قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ [النساء : ١٧١] .

قال ابن كثير : [ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغُلُوّ ، والإطراء ، وهذا كثيرٌ في النَّصارى ، فإنَّهم تجاوزوا الحدَّ في عيسى ؛ حتَّى رفعوه فوق المنزلة ؛ الَّتي أعطاه الله إيَّاها ، فنقلوه من حيز النُّبوَّة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله ، يعبدونه ، كما يعبدونه. بل قد غلوا في أتباعه ، وأشياعه ، فمن زعم : أنَّه على دينه ، فادَّعوا فيهم العصمة ، واتَّبعوهم في كلِّ ما قالوه سواءٌ كان حقَّاً ، أو باطلاً ، ضلالاً أو رشاداً ، صحيحاً أو كذباً][1] .

وقال تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

[المائدة : ٧٧] .

قال ابن كثير : [أي : لا تجاوزوا الحدَّ في اتِّباع الحقِّ ، ولا تُطروا مَنْ أُمِرْتُمْ بتعظيمه ، فتبالغوا فيه ؛ حتى تخرجوه عن حيِّز النُّبوَّة إلى مقام الإلهيَّة ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبيٌّ من الأنبياء ، فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضَّلالة ؛ الَّذين هم سلفكم ممَّن ضلَّ قديماً][2] .

وكان هذا الغلوُّ في بعض فرق هذه الأمَّة ، فقادهم ذلك إلى الانحراف ،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٨٢ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والابتداع في الدِّين، والضَّلال في العقيدة.. تذكر كتب التَّاريخ، والأدب أمثلةً كثيرةً على ذلك. فمن ذلك أنَّ قوماً من هؤلاء المغالين يبالغون في العبادة من صلاةٍ، وصيامٍ، وذكرٍ يحقِر المرء عمله أمام عملهم، ولكنَّهم مع ذلك قد ضلُّوا ضلالاً بعيداً، ومرقوا من الدِّين كما يمرق السَّهم من الرَّمِيَّة.

إن الإسلام دينٌ أكملَه اللهُ، فلا زيادة لمستزيدٍ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

إنَّ الغلوَّ في أمرٍ ما لا يمكن أن يستمرَّ، فلا بدَّ أن يعقبه انقطاعٌ، وهو أمرٌ مشاهدٌ في الحياة... إنَّ الإسلام يريد من أتباعه أن يعملوا بجدٍّ، ونشاطٍ في ميادين متعدِّدةٍ، ولكن مع الاقتصاد، والبعد عن الغلوِّ.

أخرج البخاريُّ في كتاب الرِّقاق في باب القَصْد والمُداومة على العمل حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان أحبّ العمل إلى رسول الله ﷺ الَّذي يدومُ عليه صاحِبُه[(١)].

وأخرج عنها ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قالت: سئل النَّبيُّ ﷺ: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «أدومُها؛ وإنْ قلَّ» وقال: «اكْلَفُوا من الأعمال ما تُطِيقون»[(٢)]. إنَّ المبالغة في أمرٍ طيِّب تقلبه إلى ضدِّه، وتجعله أمراً سيِّئاً، ومن هنا نرىٰ أنَّ الفضيلة وسطٌ بين رذيلتين، فالكرم وسطٌ بين البُخل والإسراف، والشَّجاعة وسطٌ بين الجبن والتَّهوُّر، وهكذا.

وما أروع قوله ﷺ: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومُها؛ وإن قلَّ».

وهذا بيِّنٌ في كلِّ أمرٍ مهمٍّ، فالقليل الدَّائم خيرٌ من الكثير المُنقطع، إنَّ رغيفاً يصل إلى أسرةٍ فقيرةٍ كلَّ يوم على الدَّوام خيرٌ من خروفٍ محشيٍّ بالرُّزِّ وأنواع المكسَّرات يُقَدَّم لها يوماً واحداً في العمر. وكذلك فإنَّ الَّذي يقرأ كلَّ يوم جزءاً على مدى العمر خيرٌ ممَّن قرأ في يوم واحدٍ ختمتين، ولم يعد يقرأ

---

(١) البخاريُّ / برقم ٦٤٦٢.

(٢) البخاريُّ / برقم ٦٤٦٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بعد ذلك حرفاً من القرآن ، وهناك مثلٌ عاميٌّ جميلٌ يقول: (ساقيةٌ جاريةٌ خيرٌ مِنْ نهرٍ مقطوع).

ولقد كان من الأثر السَّيئ للتَّنطُّع أنْ لبَّس على النَّاس وجه الحقِّ ، وأدخل في أذهان كثيرٍ من النَّاس مفاهيم مغلوطةً عن المتديِّنين ، والتديُّن بسبب بعض هؤلاء الغُلاة المتشدِّدين.

سألني شابٌّ طيِّبٌ متفتِّحٌ: هل صحيحٌ ما يقال: إنَّ كثيراً من الشَّباب المتديِّنين معقَّدون؟ وما دعاهم إلى التديُّن إلا إخفاقُهم في الحياة ، وعقدُهم الَّتي سدَّت في وجوههم منافذ الشُّهرة؟ وتابع كلامه قائلاً: إنَّ هذا قيل لي ، وردَدته ، ولكنِّي تذكرت نماذج ينطبق عليها كلامهم ، وأنا غير مطمئنٍ لصحَّة هذه المقولة ، وأودُّ أن أعرف كيف أردُّها مع وجود هذه النَّماذج؟

فقلت له: إنَّ هذا غيرُ صحيحٍ على إطلاقه ، وأنت محقٌّ في ردِّك هذه المقولة؛ لأنَّ التديُّن يا ولدي! هو ما تدعو إليه الفطرة السَّويَّة.. فالإنسان بطبيعته الَّتي فطره الله عليها متديِّنٌ. وهل نستطيع أن نعُدَّ أكثر النَّاس في بلادنا معقَّدين؟ وإذا صحَّت هذه المقولة بالنسبة إلى عددٍ من الغُلاة المتشدِّدين المتنطِّعين ، الَّذين يذهبون إلى التَّشديد على أنفسهم وعلى النَّاس ، فإنَّها لا تصحُّ بالنِّسبة إلى عامَّة المتديِّنين ، بل ولا بالنسبة إلى كلِّ الغُلاة؛ لأنَّهم أنواعٌ ، وليسوا نوعاً واحداً. وقلت له: قد تصدُق هذه الكلمة على بعض هؤلاء المُتنطِّعين من مثل ما تقصُّه أنباء التاريخ ، وما تقرِّره أحداث الحياة ، والمثل هنا مفيدٌ؛ لأنَّه يوضِّح الأمر ، فقد ذكروا: أنَّ رجلاً مصاباً بعاهةٍ ظاهرة جعلته معقَّداً حاقداً على النَّاس ، عمل في نطاق فرقةٍ ضالَّةٍ منحرفةٍ ، فما برز؛ لضعف إمكاناته ، ولظروفٍ أخرىٰ ، فنظر ، فرأىٰ: أنَّ المجتمع يقدِّر المتديِّن ، فتظاهر بالتديُّن ، والتَّظاهر بالتديُّن أمرٌ يسيرٌ ، وأضحىٰ يعمل في الوعظ ، وصادف عملُه فراغاً كبيراً ، فبرز ، وأعانه على البروز ناسٌ مغفَّلون ، وبدأ هذا الإنسان المريض يغلو ، ويتنطَّع ، ويتظاهر بالغيرة ، والحرص على الخير ، ويتحرَّق على العمل للإسلام ، وجعل يهاجم أكثر العلماء ، والدُّعاة ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وينعتهم بالتَّقصير المَشِين ، وقد يتَّهمهم بما ليس فيهم. . . وجرَّ عليه موقفه هذا نفعاً دنيويَّاً كبيراً. . . وبعد حينٍ تغيَّرت الأحوال ، فإذا الدُّنيا عند أولئك الَّذين كان يهاجمهم ، فلم يلبث أن تنكَّر لِلَّذين رفعوه ، ووقف في صفِّ الَّذين كان يذمُّهم ، ذلك هو المثل الَّذي ذكرته لذلك الشَّابِّ السَّائل ، فاقتنع ، وانصرف شاكراً.

هؤلاء المعقَّدون من المتنطِّعين يأتون أموراً غريبةً ، ويَظْهَرون بمظاهر متفردةٍ شاذَّةٍ ، فيشدُّون اهتمام الناس إليهم.

وخطورة هؤلاء تكمُن في أن يتبوَّأ واحدٌ منهم مكان التَّوجيه ، والإرشاد.

أجل ؛ إنَّ من أكبر المصائب في أمَّةٍ ما من الأمم أنْ يتولَّىٰ التَّوجيه ، والنُّصح ، والقيادة ، والتَّقويم ، والإدارة ، والوَجاهة ناسٌ مرضىٰ ، معقَّدون ، متنطِّعون.

ولو نظرنا في حال هؤلاء المُتنطِّعين المُتشدِّدين ؛ لوجدنا أنَّهم أنواعٌ:

* فمنهم ناسٌ معقَّدون ، وقد فصَّلنا القول فيهم آنفاً. وهؤلاء يصعب علاجهم.

* ومنهم ناسٌ طيِّبون صادقون ، لم يُتَحْ لهم أن يتعلَّموا. . وقُذِف في قلوبهم التَّديُّن ، فذهبوا إلى التَّشديد بل إلى التَّكفير أحياناً. . وسبب تنطُّعهم الجهل ، وعلاج هؤلاء أن يُعلَّموا مِنْ قِبَلِ مَنْ يثِقون به ؛ وهذا أمرٌ غير يسيرٍ ؛ لأنَّهم فقدوا الثِّقة بكثيرٍ ممَّن يُسَمَّون علماء.

* ومنهم ناسٌ ذوو مزاجٍ قاسٍ ، يميلون إلى التشدُّد سَجِيَّةً ، وعلاجهم العلمُ ، وغرسُ الخوف من الله في قلوبهم.

* ومنهم ناسٌ نشؤوا في بيئةٍ تقوم فيها عاداتٌ وتقاليد ، فأضفوا على هذه العادات ، والتَّقاليد صفةً كبيرةً من الإجلال ، والاحترام ، وأحلُّوها محلَّ الدِّين ، وحكموا على كلِّ ما يخالفها بالحرمة. وعلاج هؤلاء أيضاً التَّعليم ، والتَّرهيب من عذاب الله وغضبه ، عندما يحرمون ما أحلَّ الله.

* ومنهم ناسٌ كانوا عصاةً مسرفين على أنفسهم ، فعندما تابوا ؛ رغبوا في

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن يأخذوا أنفسهم بالعزيمة ، وزادوا ؛ حتَّى انتهوا إلى الغُلُوِّ ، وأرادوا أن يَحْمِلوا النَّاس على ذلك .

* ومنهم ناسٌ مغفَّلون ، مخدوعون ، سمعوا كلاماً من رجلٍ من الأنواع السَّابقة ، فأخذوا به ، وردَّدوه ، ودعوا إليه .

إنَّه لأمرٌ خطيرٌ جداً أن يُلبِس المرءُ هواه لَبُوس الدِّين. إنَّ المسلم الحقَّ هو الَّذي يقف عند حدود الله ، سواءٌ وافقت هواه ، أم خالفته .

* إنَّ هذا التَّشدُّد بأنواعه المختلفة له أسبابٌ متعدِّدةٌ ، وكلُّ ظاهرةٍ اجتماعيَّةٍ لا يمكن أن تكون نتيجةً لسببٍ واحدٍ ، ومن الصَّعب حصرُها في مثل هذه الكلمة ، ويكفينا أن نشير إلى أهمِّها .

عرف الناس في مطلع هذا العصر نخبةً من الرِّجال المثقَّفين ، عاطفتُهم الإسلاميَّة متوقِّدةٌ ، وغَيرتُهم مُلتهبةٌ ، ورَغْبَتُهم في أن يعود النَّاس إلى الإسلام عظيمةٌ . . . فتنادوا ، والتقوا . . وشرعوا يدعون إلى الإسلام ، ويكتبون عنه في الصُّحف ، والمجلاَّت . . وألَّف بعضهم عدداً من الرَّسائل في الدَّعوة إليه ، وزُيِّنَ لهم أن يتساهلوا حتَّى لا ينفر النَّاس منهم ، فمالوا إلى الأخذ بالقول الأهون ، وقالوا بتتبُّع الرُّخص ، يزعمون أنَّهم يُيَسِّرون الأمر على النَّاس ، وقد يقعون في المخالفات الشَّرعية ، ويلتمسون لأنفسهم المعاذير ، ويحقِرون تلك الذُّنوب ، ويدَّعون : أنَّها يسيرةٌ هيِّنةٌ .

وجاء الطُّغاة فنكَّلوا بأولئك الرِّجال ، وسجنوهم ، وعذَّبوهم ، وقتلوا من قتلوا منهم ، وشرَّدوا من شرَّدوا .

ونشأ جيلٌ جديدٌ رأوا تساهل آبائهم ، وتعذيب الطُّغاة لهم ، فاتَّجهوا إلى الإسلام ، لأنَّهم لمسوا سوء الواقع الَّذي آل إليه مجتمعهم المتنكِّب لطريق الإسلام ، واعتقدوا: أنَّه لا خلاص لهم إلا بالإسلام الحقِّ ؛ الذي بلغهم ، ونقله إليهم الدُّعاة ، ورأوا أنَّ تساهل آبائهم لم يُغن عنهم شيئاً ، ولم يدفع عنهم كيد الأعداء ، وتنكيلهم ، فلماذا يتساهلون ، ولماذا يعطون الدَّنِيَّة؟ فشكَّل هذا الواقع حساسيةً عند هؤلاء النَّاشئة ، فأخذوا أنفسهم بالعزيمة . . . ثمَّ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أصبحوا يميلون إلى التَّشدُّد في كلِّ شيءٍ ، ينظرون في أقوال العلماء في المسألة الواحدة ، وليسوا أهلاً للنَّظر ، فيذهبون إلى أشدِّها ، وأصعبها ، ولو كان هذا القول لا يستند إلى دليلٍ قويٍّ.

إنَّك لتلقى هؤلاء يحرِّمون كثيراً من الأمور. . . إنَّهم في كلِّ أمرٍ دقَّ ، أو جلَّ يقولون: إنَّه حرام. ويسعدون عندما يقفون على رأيٍ لعالمٍ متقدِّم ، أو معاصرٍ يقول بقولهم. . . إنَّ كلمة: (حرام) تتردَّد كثيراً على ألسنتهم ، يقولون: استعمال الصَّابون الفلانيِّ حرامٌ ، وأكل الدَّجاج المستورد حرامٌ ، ومسّ المُصحف بغير وضوءٍ حرامٌ. . . إلى غير ذلك من المسائل. وقد يكون بعض ما يقوله هؤلاء صحيحاً ، ولكن التَّحليل والتَّحريم له أهلُه ، ومنهجُه ، ووسائله العلميَّة.

ذكرنا: أنَّ من أسباب اتِّجاه بعض النَّاشئين إلى الغُلوِّ ما رأوه من الجيل السَّابق لهم؛ ممَّن كان يدعو إلى الإسلام.

كان ذلك الجيل مجاملاً مترفِّقاً ، يتنازل عن عددٍ من القيم الإسلاميَّة ، ويسهِّل على النَّاس سبيل التَّديُّن بتتبُّع الرُّخص ، والتَّقليل من شأن بعض المعاصي الَّتي ألفها النَّاس ، وكانوا يسوِّغون ذلك بالمصلحة. وهذا خطأٌ. ومع ذلك فلم ينج ذاك الجيل من التَّنكيل ، والسَّحق ، وتلقِّي أشدَّ العذاب مِنْ قِبَل الكفَّار ، وأعداء الدِّين ، فدفع ذلك الشَّباب النَّاشئين إلى الأخذ بالعزيمة ، وجاوزوا ذلك إلى التَّشدُّد والغلُوِّ ، وتحريم ما أحلَّ الله ، والحكم على النَّاس بالكفر ، والفسُوق ، وما إلى ذلك.

والحقُّ: أنَّ هذا الموقف من هؤلاء النَّاشئة لا يقلُّ انحرافاً عن موقف سلفهم السَّابق. وربما اندفع المرء للوهلة الأولىٰ لأنْ يحترم أصحاب هذا الموقف لصلابتهم ، ولمواجهتهم المجتمع بقوَّةٍ ، والخروج عليه بجرأة. . ولكنَّ النَّاظر المتأمِّل في حقيقة هذا الموقف يخشىٰ أن يكون هناك دافعٌ شيطانيٌّ ، للنَّفس فيه سلطانٌ.

فصاحب هذا الموقف يُخشىٰ أن يُريدَ بقوله، وفتواه أن يلفتَ الأنظار إليه ،

شبكة الألوكة
www.alukah.net

أو أن يريدَ باتِّهامه المخالفين له بالتَّساهل في الدِّين أن يبيِّن : أنَّه هو القائم بأمر الدِّين ، والفاهِمُ له .

إنَّ الشَّيطان قد يركب بعض هؤلاء بالغُلُوِّ ، والرِّياء ، وحبِّ الظُّهور بمظهر الزُّهَّاد الورعين .

ذكر ابنُ الجوزيِّ في كتابه الجميل : «القُصَّاص والمذكِّرين» أنَّ من الوعَّاظ من يتخاشع زيادةً على ما في قلبه ، ومنهم مَنْ يتباكى . . . بل ذكر : أنَّ منهم من يصفرُّ وجهه ؛ ليبدو زاهداً ، قال :

[وَمِنْ ذاك تخاشعُ الواعظ زيادةً على مافي قلبه ، وفيهم مَنْ يرتعد ، ويتباكىٰ تصنُّعاً][(١)] قلت : وما أكثر ما رأينا هؤلاء الَّذين يتصنَّعون التَّباكي من الوعَّاظ ! وقد يؤثِّرون في بادئ الأمر[(٢)] ، ولا سيَّما على البُسطاء .

قال ابن الجوزيِّ : [ورأيت في كتابٍ صنَّفه عزيزي : أنَّ في القُصَّاص مَنْ يتبخَّر بالزَّيت ، والكمُّون ، ليصفرَّ وجهه . وبلغني : أنَّ منهم من يُمْسِك معه ما إذا شمَّه سال دمعُه ، وفيهم مَنْ يَخْرِق أثوابه . . .][(٢)] وربما قادهم إلى النِّفاق أيضاً .

وهناك أمرٌ آخر في غاية الخُطورة ، وهو : أنَّ المبالغة ، والغُلُوَّ في الدِّين ، وما شابه ذلك لا يمكن أن يستمرَّ ذلك طويلاً ، لا بالنِّسبة للفرد الواحد . . . على المدى الطويل ، ولا بالنسبة للجماعة ، فانقلابُهم ـ إذا حدث ـ يزعزع كثيراً من النَّاس ، وقد يخرجُهم من الدِّين ، والعياذ بالله تعالى !

صحيحٌ ما قلناه عن انحراف الغالين المُتنطِّعين ؛ الذين يحرِّمون ما أحلَّ الله ، ويبتدعون ، ويزيدون في الدِّين ما لم يُشَرِّعه الله ، ولكن هذا شيءٌ ، وما يُلصِقُه الكفَّار ، وأعداء الدِّين من تهمة الغُلُوِّ ، والتَّطرُّف بالنَّاس شيءٌ آخر .

إنَّ هؤلاء المعادين للدِّين يُطلقون هذه التُّهم على كلِّ مَنْ يصلِّي ، ويصوم ،

---

(١) كتاب : القُصَّاص والمُذَكِّرين ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .
(٢) كتاب : القُصَّاص والمُذَكِّرين ٢٩٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويلتزم بما أمر الله به ، وينتهي عمَّا نهىٰ الله عنه .

وقد يُحرِّض الكفار على هؤلاء النَّاس الأفاضل أتباعهم ، وعملاءَهم ، فَيُغْرون بهم مَنْ يغرون ، فيوقع بهم الأذى ، وينتهرهم ، ويسخر منهم .

وهذا حِقْدٌ على المتديِّنين ، وإساءةٌ إلى المسلمين ، وكيدٌ للدِّين .

إنَّهم شعروا : أنَّ هذه الصَّحوة الإسلاميَّة خطرٌ عليهم ، فرصدوا الأموال ، ورسموا الخُطط ؛ لتحجيم هذه الصَّحوة ، واحتوائها ، وتفريغها من مضمونها ، وضربها . هذا من جهةٍ .

وعملوا ـ من جهةٍ أخرىٰ ـ على الكيد للشَّباب الأبرياء الصَّالحين ، الصَّادقين ، فكالوا لهم التُّهم ، وأغرَوا بهم مَنْ يزدريهم ، ويحتقرُهم ، ويسومُهم سوء العذاب . ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦] .

إنَّ الإسلام الحقَّ ـ كما أنزله الله ـ لا يضرُّ أحداً ، ولا يؤذي أحداً . . إنَّه يحقِّق السَّعادة التامَّة للنَّاس جميعاً في الدُّنيا ، والآخرة ، ويقيم العدالة في المجتمع ، ويقضي على الفقر ، والبؤس ، والظُّلم .

لقد تعدَّدت الألقاب الَّتي تُلصق بهؤلاء المتديِّنين الصَّادقين : فتارةً يدعونهم مُتطرِّفين ، وتارةً أخرىٰ يدعونهم أصوليِّين ، وتارةً ثالثة يدعونهم راديكاليِّين ، وتارةً رابعةً يدعونهم مُتشدِّدين ، . . .

يجب أن نقول كلمة حقٍّ بالنِّسبة إلى عددٍ من هؤلاء المُغالين المُنحرفين :

إنَّ بعض هؤلاء ما وقع في الانحراف إلا نتيجةً لما عاناه من ظلم الظَّالمين ، وعدوان المعتدين ، وجبروت الطُّغاة السَّفاكين .

ألقوهم في غياهب السُّجون ، ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] ، وشرَّدوا آباءهم ، وإخوانهم ، وأقرباءهم ، ونشروا في صفوفهم الذُّعر القاتل ، والرُّعب المُميت ، وضيَّقوا عليهم ، وحاربوهم في أَرْزَاقهم ،

شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصادروا حرِّيَّاتهم ، فلا يُسمح للطَّليق منهم أن يكتب ، ولا أن يتكلَّم ، ولا أن يقول ما يعتقد ناصحاً ، وداعياً إلى دين الله ، واغتصبوا كرامتهُم ، وأهانوهم أعظمَ الإهانة . . . فلم يجدوا أمامهم إلا هذا المسلك الشَّاذَّ ، فسلكوه .

ومهما يكن من أمر العوامل الَّتي حملت هؤلاء على هذا المنهج المُنحرف ، فإنَّ حكمنا عليهم: أنَّهم مُخطئون ، وأنَّ منهجهم منحرفٌ مرفوضٌ ، وأنَّ واقعهم قد يخرج بهم عن دائرة الشَّرع بالكلِّيَّة .

❊ ❊ ❊

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث العاشر

يسر الإسلام

عن أبي مسعودٍ عقبة بن عمرٍو البدريِّ الأنصاريِّ[(١)] ـ رضي الله عنه ـ قال:

جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: إنِّي لأتأخر عن صلاة الصُّبح من أجل فلانٍ[(٢)]، ممَّا يُطيل بنا[(٣)]. فما رأيت النَّبيَّ ﷺ غضب في موعظةٍ قطُّ[(٤)] أشدَّ[(٥)] مما غضب يومئذٍ. فقال: «يا أيها[(٦)] النّاس! إنَّ منكم منفِّرين، فأيُّكم أمَّ فليوجز، فإنَّ من ورائه الكبير، والصَّغير، وذا الحاجة». رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلمٌ، وابن ماجه، والدَّارميُّ[(٧)].

---

(١) جاء في نسبه: أنَّه أنصاريٌّ بدريٌّ، وهو نسبةٌ إلى بدرٍ لنزوله فيها، وسكناه إيَّاها، وإلا فلم يشهد عقبةُ وقعة بدر مع النَّبيِّ ﷺ.

(٢) فلان: كناية عن ذي العلم العاقل المذكر. ويقال في غير النَّاس: الفلان بالألف واللام.

(٣) أي: في الصَّلاة.

(٤) قطُّ: ظرف مبني على الضمّ لاستغراق الزَّمان الماضي، وتختصُّ بالنفي، ولا يجوز دخولها على المستقبل، وفيها لغاتٌ أشهرها: قطُّ. وهي مشتقَّةٌ من قطَّ بمعنى: قطع. فمعنى: ما فعلته قطُّ؛ أي: فيما انقطع من عمري، وانظر المغني ١/ ١٥٧، وجامع الدُّروس ٣/ ٥٣.

(٥) أشدَّ: نائب مفعول مطلق (ناب عنه صفته) لأنَّه نعت مصدرٍ محذوف، أي: غضباً أشدَّ، وقوله ممَّا غضب: ما مصدرية، أي: من غضبه.

(٦) القاعدة تنصُّ على أنَّ الألف تحذف من (يا أيها) انظر المطالع النَّصرية ١٨٦ وأدب المملي ٧٥، والغلاييني يذكر: أن الكتَّاب قد يثبتون الألف ٢/ ١٤٢. وقد أثبتناها إيثاراً للوضوح.

(٧) البخاريُّ برقم ٩٠، ومسلمٌ برقم ٤٦٦، وابن ماجه برقم ٩٨٤، وأحمد ٤/ ١١٨ و١١٩ و٥/ ٢٧٣، والدَّارميُّ ١/ ٢٨٨، وانظر فتح الباري ١/ ١٨٦، وشرح مسلمٍ للنَّوويِّ ٤/ ١٨٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد عقد الإمام البخاريُّ في صحيحه في كتاب الإيمان باباً بعنوان: «الدِّين يُسْرٌ» عقد هذا الباب بعد أبوابٍ تقدَّمته؛ تتضمَّن التَّرغيب في القيام، والصِّيام، والجهاد، فكأنَّه يريد أن يقول: إنَّ هذه الأمور مطلوبةٌ، ولكن بشرط ألا يُجْهِد المرء نفسَه، وألا يحمِّلها ما لا تطيق، فتعجِز، وتنقطع.

إنَّ طاقة الإنسان محدودةٌ، وقد تكون رغبتُه في الخير كبيرةً، فيحمِّل نفسه ما لا تطيق، فيمشي أولاً، ثمَّ يعتريه الضَّعف، والانقطاع، ولا شكَّ: أنَّ هذا المعنى من خصائص هذا الدِّين العظيم، ولله الحمد، والمنَّة.

هذا الحديث العظيم؛ الَّذي يبيِّن يُسرَ الإسلام، ورَفْعَهُ الحرج عن أمَّته، ينهى عن تطويل الإمام في الصَّلاة، ويعدُّه تنفيراً من الدِّين، وقد وردت أحاديثُ عديدةٌ في هذا الموضوع، رواها عددٌ من الصَّحابة عن رسول الله ﷺ يحذِّر الأئمَّة من الوقوع في هذا الأمر، نذكر بعضاً منها هاهنا:

* فمن هذه الأحاديث حديثُ جابرٍ؛ الَّذي يروي لنا قصَّة معاذٍ في ذلك، وهو حديثٌ متَّفقٌ عليه، نورده برواية مسلمٍ:

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: كان معاذ يصلِّي مع النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ يأتي قومه فأمَّهم. فافتتح بسورة البقرة، فانحرف رجلٌ، فسلَّم، ثمَّ صلَّى وحده، وانصرف. فقال له: أَنَافَقْتَ يا فلان؟! قال: لا والله! ولآتِيَنَّ رسول الله ﷺ، فلأخبرنَّه.

فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنا أصحاب نواضح، نعمل بالنَّهار، وإنَّ معاذاً صلَّى معك العشاء، ثمَّ أتىٰ، فافتتح بسورة البقرة. فأقبل رسولُ الله ﷺ على معاذٍ، فقال:

«يا معاذ! أفتانٌ أنت؟ اقرأ بكذا، واقرأ بكذا» قال سفيان: فقلت لعمرو: إنَّ أبا الزُّبير حدَّثنا عن جابرٍ: أنَّه قال: «اقرأ: والشَّمس وضحاها، والضُّحىٰ، واللَّيل إذا يغشىٰ، وسبِّح اسم ربك الأعلى» فقال عمرٌو: نحو هذا[1].

---

(١) البخاريُّ برقم ٧٠١، ومسلمٌ برقم ٤٦٥، والنَّسائيُّ في الكبرىٰ ١/ ٢٩٢، وانظر فتح الباري ٢/ ١٩٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي روايةٍ للبُخاريِّ[1] فقال ﷺ: «فتانٌ ! فتانٌ! فتانٌ!» ثلاث مرارٍ ، أو قال: «فاتناً! فاتناً! فاتناً».

والنَّواضح: جمع ناضح ، وهو ما استعمل من الإبل في سقي النَّخل ، والزَّرع.

* ومن هذه الأحاديث حديث أبي هريرة ؛ الَّذي رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وهو يقرِّر: أنَّ الأمر بالتَّخفيف مختصٌّ بالأئمَّة ، أمَّا المنفرد ؛ فلا حجر عليه في ذلك ، لانتفاء العلَّة ؛ التي هي سبب الأمر. والحديث هو:

عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«إذا صلَّى أحدكم للنَّاس ؛ فليخفِّف ؛ فإنَّ فيهم الضَّعيفَ ، والسَّقيمَ ، والكبيرَ ، وإذا صلَّى أحدُكم لنفسه ؛ فليطوِّل ما شاء». رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ[2].

وزاد مسلمٌ من وجهٍ آخر: «والصَّغيرَ». وفي روايةٍ له: «فليصلِّ كيف شاء» أي: مخفِّفاً ، ومطوِّلاً.

* ومتن هذا الحديث أخرجه الطَّبرانيُّ من حديث عثمان بن أبي العاص ، وفيه زيادة: «والحاملَ ، والمُرضعَ».

* وأخرجه أيضاً من حديث عديٍّ بن حاتم ، وفيه: «والعابرَ السَّبيل».

* ومن هذه الأحاديث حديثُ عمر ؛ الَّذي رواه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» بإسنادٍ صحيح: عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: لا تبغِّضوا الله إلى عباده ، يكون أحدُكم إماماً ، فيطوِّل على القوم الصَّلاة ؛ حتَّى يبغِّض إليهم ما هم فيه[3].

* ومنها حديث أنسٍ ؛ الَّذي رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ وهو:

عن أنسٍ ، قال: كان النَّبيُّ ﷺ يوجز الصَّلاة ، ويُكمِلُها.

---

(١) البخاريُّ برقم ٧٠١.

(٢) البخاريُّ برقم ٧٠٣ ، ومسلمٌ برقم ٤٦٧ ، والنَّسائيُّ في الكبرى ١/ ٢٩٠.

(٣) انظر فتح الباري ٢/ ١٩٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولفظ مسلم: (ويتمُّ). وفي روايةٍ لمسلم: أنَّ رسول الله ﷺ كان أخفَّ النَّاس صلاةً في تمام. وفي روايةٍ لمسلم، قال: ما صلَّيت وراء إمامٍ قطُّ أخفَّ صلاة، ولا أتمَّ صلاةً من رسول الله ﷺ[1].

* ومنها حديث أنسٍ؛ الَّذي رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، وهو:

عن أنسٍ، قال: كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصَّبيِّ مع أمِّه؛ وهو في الصَّلاة، فيقرأ بالسُّورة الخفيفة، أو بالسُّورة القصيرة.

وفي روايةٍ لهما عنه ـ وهذا لفظ البُخاريِّ ـ يقول ﷺ: «إنِّي لأدخل الصَّلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصَّبيِّ، فأتجوَّز في صلاتي، ممَّا أعلم من شدَّة وَجْدِ أمِّه مِنْ بكائه»[2].

* ومنها حديث عثمان بن أبي العاص الثَّقفيِّ؛ الذي أخرجه مسلمٌ، وغيره، وهو عن عثمان بن أبي العاص الثَّقفيِّ: أن رسول الله ﷺ قال له: «أُمَّ قومك، فَمَنْ أمَّ قوماً؛ فليخفِّف، فإنَّ فيهم الكبير، وإنَّ فيهم المريض، وإنَّ فيهم الضَّعيف، وإنَّ فيهم ذا الحاجة، وإذا صلَّى وحده؛ فليصلِّ كيف شاء»[3].

* * *

روى معنى حديث أبي مسعودٍ عقبةُ؛ الَّذي هو موضوع دراستنا ـ كما رأينا من النُّقول السَّابقة ـ عددٌ من الصَّحابة، منهم: جابر، وعثمان بن أبي العاص، وأبو هريرة، وعديُّ بن حاتمٍ، وعمر، وأنس، رضي الله عنهم، وكلُّ هؤلاء رَوَوا ذاك المعنى حديثاً مرفوعاً إلا عمر، وقد أوردنا قوله الموقوف عليه، وليس هو من قبيل الاجتهاد، ولذلك فله حكم المرفوع، كما قرَّرَ ذلك العلماء.

ويبدو: أنَّ حادثة تطويل الإمام قد تكرَّرت، كما حقَّق ذلك أهل العلم.

---

(١) البخاريُّ برقم ٧٠٦، ومسلمٌ برقم ٤٦٩.
(٢) البخاريُّ برقم ٧١٠، ومسلمٌ برقم ٤٧٠.
(٣) صحيح مسلمٍ برقم ٤٦٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فحادثة معاذٍ كانت في صلاة العشاء ، وفي مسجد بني سَلَمة ، والحادثة التي يرويها أبو مسعود كانت في صلاة الصُّبح ، وفي مسجد قُباء ، كما حقَّق ذلك ابن حجرٍ ، رحمه الله! الَّذي استطاع أن يحدِّد الإمام في هذه الحادثة ، فقد ذكر ـ رحمه الله[1]! ـ أنَّه أُبيُّ بن كعبٍ مستدلاً على ذلك بحديثٍ أخرجه أبو يعلىٰ بإسنادٍ حسن :

عن جابرٍ ، قال :

كان أبيُّ بن كعبٍ يصلِّي بأهل قُباء ، فاستفتح سورةً طويلةً ، فدخل معه غلامٌ من الأنصار في الصَّلاة ، فلمَّا سمعه استفتحها ، انفتل من صلاته ، فغضب أبيٌّ ، فأتى النَّبيَّ ﷺ يشكو الغُلامَ ، وأتى الغُلامُ يشكو أبيّاً ، فغضب النَّبيُّ ﷺ ؛ حتى عُرِفَ الغضبُ في وجهه ، ثمَّ قال :

«إنَّ منكم منفِّرين ، فإذا صليتم فأوجزوا ، فإنَّ خلفكم الضَّعيفَ ، والكبيرَ ، والمريضَ ، وذا الحاجة»[2] .

إنَّ الشَّرع يطالب الإمام بالتَّخفيف في صلاته : في قيامه ، وركوعه ، وسجوده ، حتَّى لا يكون في الصَّلاة على النَّاس حرجٌ ، ولا مشقَّةٌ ، ولكنَّ هذا التَّخفيف ينبغي ألَّا يجرَّ الإمام إلى الإخلال بواجبات الصَّلاة ؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى إفساد الصَّلاة ، فالطُّمأنينة مطلوبةٌ ، وإتمام الصَّلاة بركوعها ، وسجودها أمرٌ مطلوبٌ . ولنذكر حديث المسيئ صلاته ، فقد قال له ﷺ بعد أن انتهى من صلاته : «ارجع ، فصلِّ ، فإنَّك لَمْ تُصَلِّ»[3] .

إذاً فالتَّخفيف لا بدَّ أن يكون مقروناً بالإتمام ، والإكمال ، وهذا هو وصف أنس لصلاته ﷺ ، فقد قال : كان النَّبيُّ ﷺ يوجز الصَّلاة ، ويُكمِلها[4] . وقال : ما صلَّيت وراء إمامٍ قطُّ أخفَّ صلاةً ، ولا أتمَّ مِنْ رسول الله ﷺ[4] .

---

(١) الفتح ٢/١٩٨ .
(٢) الفتح ٢/١٩٨ .
(٣) البخاريُّ برقم ٧٥٧ ، ومسلمٌ برقم ٣٩٧ ، وأبو داود برقم ٨٥٦ .
(٤) سبق تخريجه .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والتَّخفيف مطلوبٌ في الأركان كلِّها ، ولكنَّ أكثر ما يحصل في التَّطويل إنَّما هو في القيام ، فلينتبه لذلك الأئمَّة.

والتَّخفيف أمرٌ يتفاوت النَّاس في تقديره ، فقد يكون الشَّيء خفيفاً بالنِّسبة إلى عادة قومٍ ، ويكون طويلاً بالنِّسبة لعادة قومٍ آخرين. وقد بحث العلماء في مقداره ، وفرَّقوا بين أن تكون الصَّلاة في مسجدٍ مطروقٍ ، وبين أن تكون لقومٍ محصورين راضين.

أمَّا في الحالة الأولىٰ عندما يكون المسجد مطروقاً ، ويؤمُّه النَّاس عامَّةً ؛ فقد ذكروا: أنَّ على الإمام أن يخفِّف ، ويراعي النَّاس ، ويضع في تقديره أضعف القوم ؛ عملاً بالحديث الَّذي أخرجه أبو داود ، والنَّسائيُّ عن عثمان بن أبي العاص ، قال: يا رسول الله! اجعلني إمام قومي. قال: «أنت إمامهم ، واقتدِ بأضعفهم ، واتَّخذ مؤذِّناً لا يأخذ على أذانه أجراً»[1].

قال ابن حجر[2]: [إسناده حسن] وأصله في مسلمٍ[3].

وروىٰ ابن حجر حديث أبي داود بلفظ: «أنت إمام قومك ، واقدِر القوم بأضعفهم».

وقدَّر العلماء التَّخفيف ألاَّ يزيد في الرُّكوع ، والسُّجود على ثلاث تسبيحاتٍ.

قال ابن دقيق العيد[4]:

[وقول الفقهاء: لا يزيد الإمام في الرُّكوع والسُّجود على ثلاث تسبيحاتٍ لا يخالف ما ورد عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه كان يزيد على ذلك ؛ لأنَّ رغبة الصَّحابة في الخير تقتضي ألا يكون ذلك تطويلاً]. انتهى كلام ابن دقيق العيد.

---

(١) أبو داود برقم ٥٣١ ، والنَّسائي (صحيح النَّسائي للألبانيِّ برقم ٦٤٨).
(٢) فتح الباري ٢/ ١٩٩.
(٣) انظر صحيح مسلم ، الحديث رقم ٤٦٨.
(٤) فتح الباري ٢/ ١٩٩.

هذا بالنِّسبة إلى الرُّكوع ، والسُّجود ، أمَّا القيام ؛ فقد وردت الأحاديث الصَّحيحة تحدِّدُ قراءة النَّبيِّ ﷺ في الظُّهر ، والعصر ، يقرأ الإمام : بالليل إذا يغشى[1] ، وبسبِّح اسم ربك الأعلى[2] .

وفي المغرب : بالمرسلات عرفاً[3] ، وبالطُّور[4] .

وفي العشاء بنحو : والتِّين والزَّيتون[5] .

وفي الفجر : بـ ق[6] ، والتَّكوير[7] .

وهذا يدلُّ على مراعاة الحاضرين ، ولا شكَّ في أنَّ هذا يختلف باختلاف العصور ، والبلدان ، ومستوىٰ المصلِّين .

قال النَّوويُّ في شرح مسلمٍ[8] :

[قال العلماء : كانت صلاة رسول الله ﷺ تختلف في الإطالة ، والتخفيف باختلاف الأحوال :

* فإذا كان المأمومون يؤثرون التَّطويل ، ولا شغل هناك له ، ولا لهم ؛ طوَّل .

* وإذا لم يكن كذلك خفَّف .

* وقد يريد الإطالة ، ثمَّ يعرِض ما يقتضي التَّخفيف ، كبكاء الصَّبيِّ ، ونحوه .

---

(١) مسلمٌ برقم ٤٥٩ .
(٢) مسلمٌ برقم ٤٦٠ .
(٣) مسلمٌ برقم ٤٦٢ .
(٤) مسلمٌ برقم ٤٦٣ .
(٥) مسلمٌ برقم ٤٦٤ .
(٦) مسلمٌ برقم ٤٥٧ .
(٧) مسلمٌ برقم ٤٥٦ .
(٨) شرح صحيح مسلمٍ للنَّووي ٤/ ١٧٤ .

* وينضمُّ إلى هذا: أنَّه قد يدخل في الصَّلاة في أثناء[1] الوقت، فيخفِّف.

* وقيل: إنَّما طوَّل في بعض الأوقات، وهو الأقلُّ، وخفَّف في معظمها. فالإطالة لبيان جوازها، والتَّخفيف؛ لأنَّه أفضل. وقد أمر ﷺ بالتَّخفيف، وقال: «إنَّ منكم منفِّرين، فأيُّكم صلَّى بالنَّاس فليخفِّف، فإنَّ فيهم السَّقيم، والضَّعيف، وذا الحاجة».

* وقيل: طوَّل في وقتٍ، وخفَّف في وقتٍ؛ ليبيِّنَ: أنَّ القراءة فيما زاد على الفاتحة لا تقدير فيها من حيث الاشتراط، بل يجوز قليلُها وكثيرُها، وإنَّما المشترط الفاتحة]. انتهى كلام النَّوويِّ.

قلت: ولعلَّ الأرجح ما ذكره أوَّلاً من مراعاة حال المُصلِّين، وكونهم محصورين، يعلم رضاهم، والله أعلم.

ولا بُدَّ من التَّفريق بين صلاةٍ يكون الإمامُ فيها سيِّدَنا رسولَ الله يقرأ ما تنزل عليه من القرآن، وبين صلاةٍ يكون الإمام فيها رجلاً عاديَّاً، إنَّ الصلاة وراء الرَّسول بالنِّسبة إلى الصَّحابة قربةٌ، وشرفٌ، ومتعةٌ لا يمكن أن يُحِسُّوا فيها تطويلاً. ولا سبيل إلى المقارنة بين الصَّلاتين، ومع ذلك فقد كانت صلاته كما يذكر أنس موجزةً في تمامٍ.

إنَّ الأحاديث الَّتي رويناها سابقاً في موضوع الأمر بالتَّخفيف، والَّتي نجد أنَّ الرسول الكريم ﷺ يعلِّل أمره بذلك... إنَّ هذه الأحاديث تذكر احتمال أن يكون وراء الإمام بعض النَّماذج الآتية:

١ ـ أن يكون في المأمومين ذو حاجة، باله مشغولٌ في قضاء هذه الحاجة، وقد تكون دواءً لمريض ينتظره، أو طبيباً ذهب يستقدِمُه، وقد يكون موعداً مهمَّاً يتوقف عليه مستقبلُه، أو يكون موعداً لمساعدة قادمٍ غريبٍ قد يضيع،

---

(١) كذا في الأصل. ولعلَّ الصواب أن تكون العبارة هكذا: قد يدخل الوقت في أثناء الصَّلاة، فيخفِّف. والله أعلم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أو يهلك ، أو لاستقبال امرأةٍ ضعيفةٍ تصل إلى المطار يُخشى عليها ، أو ما إلى ذلك .

٢ ـ أو أن يكون في المأمومين مريضٌ لا يقوى على الوقوف، أو السُّجود طويلاً .

٣ ـ أو أن يكون فيهم كبيرٌ مسنٌّ ، لا يحتمل الإطالة ؛ لهرمه ، أو لاضطراره إلى دخول بيت الخلاء ، أو ما إلى ذلك .

٤ ـ أو أن يكون فيهم ضعيفٌ من هزالٍ ، أو خروجٍ من مرضٍ ، فهو لا يقوىٰ على تحمُّل ما يتحمَّله الآخرون .

٥ ـ أو أن يكون فيهم صغيرٌ يُرغِّبه أهله في الصَّلاة ، ولا يقوى على الوقوف والرُّكوع ، والسُّجود طويلاً .

٦ ـ أو أن تكون فيهم أمٌّ يبكي ولدها ، ولذا فهي لا تستطيع الخشوع ، ولا يحضر قلبها .

٧ ـ أو أن يكون فيهم حاملٌ ، أو مرضعٌ .

٨ ـ أو أن يكون فيهم عابر سبيلٍ مرَّ ، فدخل المسجد ليصلِّي ، وقد يكون في رُفقةٍ يخشى أن تتركه ، ويؤذيه تركُها .

٩ ـ أو أن يكون فيهم إنسانٌ متعبٌ من العمل ، أضناه السَّعي على الرِّزق ، ورجع من عمله ، فدخل المسجد ليصلِّي ، ثمَّ يأوي إلى بيته ، يلتمس الرَّاحة .

إنَّ هذه النَّماذج ، وأمثالها لا تستطيع الوقوف طويلاً ، وهم مأمورون بصلاة الجماعة ، فلماذا ننفرهم من الخير ، والفضيلة ، واتِّباع أحكام الدين .

إنَّ هذه النَّماذج موجودةٌ ، وعلينا أن نراعيَهم ، وألا نتصرفَ أيَّ تصرُّفٍ ينفِّرهم ، ويصدُّهم عن سبيل الله .

هذا هو الإسلام العظيم ؛ الَّذي يأبى أن يُكلِّف الإنسان ما لا يطيق .

إنَّ ما حدث لهذا الرَّجل الذي جاء يشتكي إلى رسول الله حالَه يقع في كثيرٍ من النَّاس ، ولذا كان التَّذكير به أمراً فيه فائدةٌ ، وموعظةٌ ، وخير .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وما يقال في الإمام يقال في خطيب الجمعة. إنَّ الطَّابع الَّذي يميز خطبة الجمعة هو طابع الموعظة، وطولُها يضعفها، إنَّ الواحد من النَّاس كتلةٌ من العلاقات، والارتباطات، فلا يجوز أن نحمِّله ما لا يطيق، إطالة الخطبة ساعة أو أكثر فيها من إدخال الحرج على النَّاس الشَّيء الكثير، إنَّ في السَّامعين من لا يستطيع أن يحفظ وضوءه هذه المدَّة[١]، وهو عندئذٍ لن يقوى على متابعة المتكلِّم، ولا على فهم كلامه.

ومن جوامع كلمه ﷺ اعتباره الإطالة في الصَّلاة تنفيراً، فقد ذكر لي صديقٌ: أنَّ شاباً صالحاً استطاع إقناع زميلٍ له بأهمِّية الصَّلاة، وأنها هي الفرق بين المسلم والكافر، وذكر له فضل صلاة الجماعة.. وما زال به حتَّى اصطحبه إلى مسجدٍ ليؤدِّيا صلاة الظُّهر، فصادف أنَّ الإمام يطيل الصَّلاة جدَّاً... يطيل في القيام، وفي الرُّكوع، والسُّجود[٢] واستغرق وقت الصَّلاة أضعاف ما كان يقدر... فضاعت عليه محاضرةٌ في الجامعة... وضجر، وكان ذلك سبباً لنُفْرَتِه من الواجبات الشَّرعية.. وكان ذلك صدَّاً عن سبيل الله.

إنَّ الَّذي يرغب في أن يطيل الصَّلاة يستطيع أن يطوِّل ما شاء عندما يكون منفرداً إذا أوى إلى داره، وصلَّى من اللَّيل.

إنَّ الشَّيطان قد يزيِّن للمرء أن يبدو أمام النَّاس حافظاً للقرآن، راغباً في الاستكثار من الخير... وهذا رياءٌ محبطٌ للعمل، والعياذ بالله! فلنتَّق الله، ولنحذر من خطوات الشَّيطان.

وقد يطيل بعض الأئمة جهلاً منهم بهذا الحكم، ويحسبون: أنَّهم بذلك يُحسنون صنعاً، ولكنَّهم لا يُعذَرون، يبقىٰ فعلُهم تنفيراً من الدِّين، بل لقد دعاه الرَّسول ﷺ فتنةً، وذلك في قوله لمعاذ: «أفتانٌ أنت؟!».

إنَّ للدُّعاة الوعَّاظ، والأئمة، والخطباء تأثيراً لا ينكر، وإن كان متفاوتاً

---

(١) حدَّثني بعضهم: أن رجلاً مسنَّاً كان في جامعٍ، فأطال خطيبه، فلم يستطع أن يضبط نفسه؛ حتى اضطر أن يبول في ثيابه.

(٢) قال: لقد عددت خمسَ عشرةَ تسبيحةً في كلِّ ركوعٍ وسجودٍ، وما كان الإمام يرفع رأسه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يختلف باختلاف الأشخاص، والبيئات... إنَّ الكلمة، والتَّصرُّف من هؤلاء قد تكون عوناً للسير بهم في طريق الحقِّ، وقد تصدُّهم عن سبيل الله. فلْيَزِنْ هؤلاء الَّذين أقامهم الله هذا المقام تصرُّفاتهم، وليفكِّروا في كلماتهم، وليذكروا: أنَّ رسول الله ﷺ يقول: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمر النَّعم»[1].

إنَّ إطالة الإمام صلاته لونٌ من ألوان التَّنفير من الدِّين، وهناك ألوانٌ أخرىٰ ينبغي أن يحذر منها العلماء، والوعَّاظ، والدُّعاة إلى الله. ويحسن أن نذكر بعض هذه الألوان:

* فمن ذلك أن نجد ناساً يُبرزون الإسلام بصورة المعارض للأخذ بثمرات الحضارة المباحة، كالآلات، والأدوات المنزليَّة.

* وهناك ناس يبرزون الإسلام بصورة فيها الغلاظة، والقسوة، والبعد عن الأناقة زاعمين: أنَّهم زهَّادٌ في الدُّنيا. ترىٰ الواحد منهم يطيل شعره، ويلبس اللِّباس المُزري الوسخ.

* وهناك ناس يميلون إلى التشدُّد، والتَّحريم.. فما أكثر ما تسمع منهم كلمة (حرام)، يطلقونها على أمورٍ لا دليل على تحريمها، وهذا سببه الجهل. إنَّهم يضيِّقون على عباد الله سبيل الحياة، فينفِّرونهم من الدِّين. ترى بعضهم يحرِّم على المرأة أن تتزيَّن لزوجها، وتقصَّ شعرها...

* وهناك من يُلصِق بالدِّين الخرافات المُعارضة للعقل، والأساطير الباطلة، ويدَّعي أنَّها منه. وهذا ينفِّر من الدِّين، ويقود عدداً من النَّاس ـ والعياذ بالله ـ إلى ترك الدِّين، ومهاجمته.

* وهناك مَنْ يطرد الأولاد، والفتيان من المساجد[2]، ويُظهر كلَّ غلظةٍ عليهم، إلى غير ذلك.

---

(١) البخاري برقم ٢٩٤٢ ومسلم برقم ٢٤٠٦.

(٢) بينما تقوم المؤسَّسات الكنسية في بعض بلاد المسلمين بالتحبُّب إلى أولاد المسلمين، وإعطائهم السَّكاكر، والألعاب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لقد غضب رسولُ الله ﷺ من تنفير ذاك الإمام غضباً شديداً ، ووصفه الصَّحابيُّ أبو مسعودٍ بقوله : فما رأيت النَّبيَّ ﷺ غضب في موعظةٍ قطُّ أشدَّ ممَّا غضب يومئذٍ .

والدَّاعية الغيور يتأثَّر ، ويتألَّم إذا رأىٰ ما يكره ، ويقوده هذا إلى الغضب ، ولكن عليه أن يملك نفسه ، ولا يجوز أن يُخرجه غضبه عن دائرة الحقِّ .

ينبغي أن تكون له أسوةٌ بموقف النَّبيِّ ﷺ ، فهو ﷺ لم يذكر هذا المسيئ المنفِّر ، بل اكتفىٰ بأن يشير إلى أنَّ من السَّامعين منفِّرين ، وقد يكون هؤلاء المنفِّرون أئمَّةً في المساجد ، ودعاةً . ونهاهم عن الوقوع في هذا الغلط ، وبيَّن لهم الطريق الأمثل ، وظهور الغضب على الدَّاعية يدلُّ على الاهتمام بما يلقيه على النَّاس ، ليكونوا من سماعه على بالٍ ، ولئلا يعود مَنْ فعل ذلك إلى مثله .

وقد غضب الرَّسول ﷺ من فعل الإمام ؛ لأنَّ مَنْ يتصدى للإمامة ينبغي أن يتنبَّه لتصرُّفاته ، ووَقْعها بالنِّسبة للآخرين ، ويجب عليه أن يتعلَّم أحكام الإمامة ، وآدابها ، والأمور الَّتي ينبغي أن يراعيها .

لقد حوىٰ الإسلام من عناصر الخلود ما يجعل أتباعه مطمئنِّين إلى أنَّ دينهم أقوىٰ من أن تتعرَّض له تياراتٌ فكريَّةٌ معاديةٌ ، فتهزمه في ميدان الفكر . . . فلا خوف على الإسلام العظيم من كلِّ النَّظريات الاجتماعيَّة ؛ الَّتي تجدُّ في الحياة .

إنَّها جميعاً لا تقوىٰ على الوقوف أمامه في معركة الصِّراع ؛ لأنَّها خاليةٌ من المقوِّمات الَّتي جاء بها الإسلام دون غيره ، ولأنَّ فيها من التَّناقض ، ومن مخالفة الفطرة البشريَّة الشَّيء الكثير ، والزَّمان كفيلٌ بكشف عُوَارها . . . وهذه النَّظريات مقضيٌّ عليها بالفناء إنْ عاجلاً ، وإنْ آجلاً . ولكنَّ الشَّيء الَّذي يحتاجه الإسلام هو الدُّعاة الصَّادقون ، والأئمَّة العالمون ، والمبشِّرون العاملون .

إنَّ كثيراً من المعذَّبين في الأرض الحائرين لو عرفوا الإسلام على حقيقته ، لانضووا تحت لوائه ، ولدخلوا في دين الله أفواجاً .

ولا شكَّ في أنَّ لشخصيَّة الدَّاعية ، وأخلاقه أثراً كبيراً جدَّاً في النَّاس ،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والإسلام رعى هذه النَّاحية حقَّ الرِّعاية ، فندب أتباعَهُ إلى دعوة النَّاس بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، ومجادلتهم بالَّتي هي أحسن. قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] وأرشد القرآن إلى أنَّ المعاملة اللَّينة الحسنة تجعل عدوك منقاداً إليك. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وإنَّنا لنقرأ في سيرة الرَّسول ﷺ أثر أخلاقه ، ومعاملته ، وحُسْن تأتِّيه للأمور في استجابة النَّاس له ، وها هو ذا القرآن يقرِّر ذلك بوضوحٍ. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولذلك فإنَّ من صفات الدَّاعية أن يكون خفيف الرُّوح ، ليِّن المعاملة ، داعياً بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وعندئذٍ ستنقاد له القلوب ، وتستجيب له ، فيكسبها للحقِّ ، والخير.

لقد أوصى الله رسوليه موسىٰ ، وهارون ـ عليهما السَّلام ـ عندما أرسلهما إلى شرِّ النَّاس يومئذٍ ، فقال: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

من أجل ذلك كلِّه كان غَضَبُ رسول الله ﷺ شديداً من تصرُّف ذلك الإمام ، الَّذي كاد أن يفتن النَّاس ، فيجعلهم ينفرون من الخير الكبير في صلاة الجماعة. . كان غَضَبُه شديداً ؛ لأنَّ عمل هذا الإمام كان منفِّراً من الخير ، والدِّين.

إنَّ من واجب الدُّعاة إلى الله أن يتسلَّحوا بالعلم ، والمعرفة ، وأن يعاملوا النَّاس المعاملة الَّتي تجعل القلوب تنقاد إليهم ، وتستجيب لدعوتهم. وإنَّ هذا الواجب ليتأكَّد في عصرنا الَّذي تقوم الدَّعوات فيه على أساليب علميَّةٍ مدروسةٍ متعدِّدةٍ ، فما أجدر هؤلاء الدُّعاة ، والآمرين بالمعروف من علماء المسلمين أن يتعرَّفوا الأساليب ؛ الَّتي تكفل لدعوتهم سعة الانتشار ، وحسن القَبول بين النَّاس ، وأن يجتنبوا السُّلوك المنفِّر ؛ الذي يُزهِّد النَّاس في اتباع الشَّرع.

إنَّ على مَنْ يمارس دعوة النَّاس إلى الإسلام أن يتحلَّى بالخُلُق الكريم ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأن يتنبَّه إلى مراعاة مصالح النَّاس ، ثمَّ يجتهد في سلوك أفضل الطُّرق المؤدِّية إلى أن يقتنع النَّاس بدعوته ، ويستجيبوا له. فلا يجوز للإمام أن يُطيل الصَّلاة متناسياً: أنَّ مِنْ ورائه الصَّغير ؛ الَّذي لا يمكن أن يطول حبسه عن الحركة ، والكبير الضَّعيف ؛ الَّذي لا يقوىٰ على الوقوف مدَّة طويلةً ، وذا الحاجة الَّذي تمنعه إطالة الإمام من درك حاجته ، فيشتغل خاطره ، ويسلبه خشوعه الَّذي هو لبُّ العبادة.

إنَّ أحكام الإسلام تقرِّر يُسْرَ هذا الدِّين. قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] والنَّظر في الأحكام الجزئيَّة يؤيِّد هذا المبدأ... فالميتة يحلُّ أكلها للمضطر. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]. والصِّيام يسقُط عن المريض. قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة: ١٨٤] وقال في الآية الَّتي بعدها بعد أن قرر حُكْم المريض والمسافر: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] والجهاد يُعفىٰ منه العاجز. قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧].

وأمثال ذلك كثيرٌ ، والضَّرورات تبيح المحظورات.

ولذا فكلُّ إظهارٍ لهذا الدِّين بأنَّه أمرٌ شاقٌّ صعبٌ افتراءٌ عليه ، وإساءةٌ له ، وإنكارُ الرَّسول ﷺ على الإمام إطالته الصَّلاة دليلٌ من أدلَّة اليُسْرِ في هذا الدِّين العظيم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إن الدِّين يُسْرٌ ، ولن يُشَادَّ الدِّين أحدٌ إلا غلبه». رواه البخاريُّ[1].

وعن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «يسِّروا ، ولا تعسِّروا ، وبشِّروا ، ولا تنفِّروا». متَّفقٌ عليه[2].

---

(١) البخاريُّ برقم ٣٩.

(٢) البخاريُّ برقم ٦٩ ، ومسلمٌ برقم ١٧٣٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في هذا الحديث ما يدلُّ على أنَّ الغضب محمودٌ عند مخالفة الشَّرع ، وفيه قصَّة غضب الرَّسول من تنفير ذاك الإمام.

وفي الحديث دليلٌ على قيمة صلاة الجماعة ، يفهم هذا من غضبه ﷺ لتصرُّف الإمام ؛ الَّذي حال بإطالته بين رجلٍ من المسلمين وبين صلاة الجماعة.

وفي الحديث بيان: أنَّ رعاية مصالح النَّاس ، والتَّخفيف عنهم مقصدٌ هامٌّ يرعاه الإسلام ، ولا يتجاهله.

وفي الحديث إرشادٌ إلى الأسلوب الكريم في تنبيه المُخطئ ، وذلك عندما عمّم الرَّسول ﷺ الكلام ، وستر عن الإمام ، ولم يذكره.

* * *

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الحادي عشر

التوازن بين الدنيا والآخرة

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال:

أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكبي، فقال: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ، أو عابر سبيل». وكان ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا أمسيت؛ فلا تنتظر الصَّباح، وإذا أصبحت؛ فلا تنتظر المساء. وخذ من صحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك».

رواه البخاريُّ في كتاب الرِّقاق في صحيحه[١].

ورواه أحمد بلفظ: أخذ رسول الله ﷺ بثوبي، أو ببعض جسدي، وقال: «يا عبد الله! كن كأنَّك غريب، أو عابر سبيل، واعدد [وفي رواية وَعُدَّ] نفسك من أهل القبُور». رواه أحمد في الزُّهد باللَّفظ نفسه[٢].

ورواه التِّرمذيُّ بلفظ: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي، وقال: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ، أو عابر سبيلٍ، وعُدَّ نفسك من أهل القُبور» فقال[٣] لي ابن عمر: إذا أصبحت؛ فلا تحدِّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت؛ فلا تحدِّث نفسك بالصَّباح، وخذ من صحَّتك قبل سُقمك، ومن حياتك قبل موتك،

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٤١٦.
(٢) المسند ٢/ ٢٤ و٤١.
(٣) القائل هو مجاهد الرَّاوي عن ابن عمر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فإنَّك لا تدري يا عبد الله! ما اسمك غداً[1].

قال ابن حجرٍ[2]، ونقل ذلك عنه المباركفوري[3]:

[أي: هل يقال له شقيٌّ، أو سعيدٌ، ولم يُرِد اسمه الخاصَّ به، فإنَّه لا يتغيرَّ. وقيل: المراد: هل يقال: هو حيٌّ، أو ميِّتٌ. انتهى] ثمَّ قال المباركفوري: [قلت: والظَّاهر عندي هو المعنى الثَّاني، والله أعلم][4].

ورواه ابن ماجه في كتاب الزُّهد من سننه[5] واقتصر على المرفوع كما رواه التِّرمذيُّ، ولم يذكر كلام ابن عمر، رضي الله عنه. ورواه ابن حبَّان في صحيحه، وفي «روضة العقلاء»[6].

شرح المفردات:

- أخذ بالشَّيء، وأخذ الشَّيء: بمعنىً واحدٍ.

- المَنْكِبُ: مجتمع رأس الكتف، ورأس العضد، ويكون المَنْكِبُ للإنسان وغيره. والأخذ بالمنكب يدلُّ على مزيد اهتمامٍ من المتكلِّم حتَّى يُصغي المخاطب إلى النُّصح الموجَّه له.

- الدُّنيا: وصفٌ لموصوفٍ يُذكرُ أحياناً، ويُحْذَفُ أحياناً أخرىٰ، وهو (الحياة) ووصفت الحياة بالدُّنيا؛ لدنوِّها، وحقارتها.

وجمع الدُّنيا: دُنَا، ومذكَّرها: الأدنى.

- كأنَّ: حرف تشبيه، وهي حرفٌ مركَّبٌ عند بعض العلماء، وبسيط عند بعض.

---

(١) التِّرمذيُّ برقم ٢٣٣٣، وتحفة الأحوذي ٣/ ٢٦٥ وانظر صحيح الترمذي للألباني ٢/ برقم ١٩٠٢.

(٢) فتح الباري ١١/ ٢٣٥.

(٣) تحفة الأحوذيّ ٣/ ٢٦٥.

(٤) تحفة الأحوذيّ ٣/ ٢٦٥.

(٥) ابن ماجه برقم ٤١١٤.

(٦) صحيح ابن حبان (الإحسان) ٢/ ٤٧١ و«روضة العقلاء» صفحة ١٢٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأمَّا القائلون بتركيبها ؛ فيقولون : أصل (كأنَّ زيداً أسد) : إنَّ زيداً كأسدٍ ، قدم حرف التَّشبيه اهتماماً به ، ففتحت همزة إنَّ لدُخول الجارِّ .

وأمَّا القائلون بأنَّها بسيطةٌ فقد قالوا : إنَّ القول بتركيبها فيه تعسُّفٌ ، وهي تدلُّ على التَّشبيه غالباً ، وعلى التَّقريب والشَّكِّ أحياناً ، ولا سيما إذا كان خبرها مشتقّاً ، نحو قولهم : كأنَّك فاهمٌ .

ـ أمسيت : دخلت في المساء ، وهي تامَّةٌ ؛ لأنَّ النَّاقصة معناها اتِّصاف المسند إليه بالمسند في المساء .

ـ أصبحت : دخلت في الصَّباح ، وهي تامَّة .

ـ خذ من صحَّتك لمرضك : أي : اغتنم وقت صحَّتك ، واجتهد فيه ؛ لينفعك عند حلول مرضٍ يمنعُك من العمل .

ـ خذ من حياتك لموتك : أي : اغتنم مدَّة حياتك في عظيم الأمور ؛ لتكون ذخراً لك عند موتك ؛ حيث ينقطع العمل بالموت .

* * *

كلمةٌ موجزةٌ بليغةٌ من جوامع كلمه ﷺ ، وهي نصيحةٌ غاليةٌ من المعلِّم الأعظم ﷺ ، وقد اجتمع في هذه الكلمة صحَّةُ الفكرة ، وعمقُ المعنى ، وروعةُ الأسلوب ، وجمالُ الصُّورة : «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ ، أو عابرُ سبيلٍ» .

إنَّها موعظةٌ ما أشدَّ حاجة الإنسان إليها في كلِّ عصرٍ ، وفي كلِّ مكانٍ . . . ولا سيَّما في هذا العصر المادِّي ؛ الَّذي طغت فيه النَّزعة المادِّيَّة على كثيرٍ من القيم ، والمُثل . . . إنَّ سبب ما يعانيه البشر من الشَّقاء هو التَّكالبُ على الدُّنيا ، ونسيانُ الآخرة ، وإنَّ سبب تخلُّف العمل الإسلاميِّ هو التعلُّق بالدُّنيا ، وملذَّاتها ، وإيثارُها على الآخرة .

هذا والحياة الدُّنيا تمرُّ بسرعةٍ هائلةٍ . . توضِّحها الصُّورةُ الرَّائعةُ الَّتي نجدها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

في هذا المثل القرآنيِّ الرَّفيع ، قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥] واسألوا ـ إن شئتم ـ المعمَّرين كيف رأوا الحياة ؛ يحدِّثوكم : أنَّ الثَّمانين سنةً مرَّت مروراً سريعاً ، ما كانوا يتصوَّرونه ؛ وهم في عهد الصِّبا ، والشَّباب .

وبعد أن يغادر المرء هذه الحياة الدُّنيا إلى الآخرة ؛ حيث يجد ما قدَّم من عمل محضراً . . وهناك السَّعادة ، أو الشَّقاء . . . من أجل ذلك بيَّن القرآن قيمة الحياة الدُّنيا في آياتٍ كثيرةٍ ، وكذلك فإنَّ رسول الله ﷺ بيَّن لأمَّته قيمة هذه الدُّنيا(١) .

والحديث الَّذي نودُّ دراسته يحذِّر من الرُّكون إلى الدُّنيا ، ويدعو إلى الإفادة منها ، فهي مزرعة الآخرة .

إنَّ طول الأمل صفةٌ تجدها عند أكثر النَّاس . . . فإذا استكانوا لها ، وسعوا في إطارها ، ونسوا حقيقة الحياة الدُّنيا ، انحرفوا انحرافاً خطيراً يُودي بهم ، ويوردهم المهالك .

هذا الحديث يعالج موضوع الخضوع للآمال العريضة ؛ الَّتي لا نهاية لها ، وذلك بتوضيح الحال الَّتي ينبغي أن يكون عليها المسلم بالنِّسبة إلى الدُّنيا ، فلا يجوز أن يتعلَّق بها ولا أن يجعلها أكبر همِّه ، ولا مبلغ علمه ، ولا أن يقصِر نفسه عليها . . . بل عليه أن يكون فيها كالغريب ، أو كعابر السَّبيل .

إنَّ الإسلام أقام توازناً بين الدُّنيا ، والآخرة ، وأنشأ ترابطاً وثيقاً بينهما ، بحيث تكون الدُّنيا مزرعةَ الآخرة ، فلا يجوز للمسلم أن ينصرف إلى الحياة الدُّنيا انصرافاً كلِّيّاً . . ولاأن تستغرقه مشكلاتُها ، وتُرَّهاتُها .

ولا يجوز له أن يُعرض عنها إعراضاً تامّاً يوقعه في الفاقة ، والعوز ، وحاجة النَّاس . وهذا التَّوازن جليٌّ في الآية الكريمة الَّتي وردت في أثناء قصَّة قارون

---

(١) انظر رسالتنا «من أسباب تخلُّف العمل الإسلاميِّ» وانظر كتب الزُّهد .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧].

[ذمَّ رجلٌ الدُّنيا عند عليِّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ فقال سيِّدنا عليٌّ: «الدُّنيا دار صدقٍ لمن صدقها، ودار نجاةٍ لمن فهم عنها، ودار غنىً لمن تزوَّد منها»][(١)].

أوصى رسولُ الله ﷺ عبد الله بن عمر، فقال له: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابر سبيلٍ».

وتمثَّل ابن عمر هذا القول الحكيم، وكان يوصي من لقي قائلاً: إذا أمسيت؛ فلا تنتظر الصَّباح، وإذا أصبحت؛ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. وقد بينَّا: أنَّ القرآن الكريم حدَّد علاقة الإنسان بالدُّنيا، ووضَّح قيمتها.

إنَّ هدف المسلم في هذه الحياة أن يصل إلى رضوان الله.. فعليه أن يستفيد من حياته في الدُّنيا ليضمن لنفسه النَّجاة في الآخرة: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾... نعم لا تنس نصيبك من الدُّنيا بحيث يُبْلِغُك مقصودَك من الحياة، وهو: رضوانُ الله سبحانه وتعالى. وليكن شأنُك فيها شأن الغريب في بلدٍ ليست بلدَه.

فالإسلام دينٌ، ودنيا.. يرعى روح المرء، وجسمه.. ويدعه يحقِّق أشواقه، ورغباته بتوازنٍ رائعٍ منسجمٍ تمام الانسجام.

لقد اهتمَّ الإسلام بركني الحياة: المادَّة، والرُّوح.. ولم يَجُرْ على واحدٍ منهما لحساب الآخر، ونظرتُه إلى الدُّنيا، والآخرة تسير في هذا السَّبيل السَّويِّ.

ونحن نرى أنَّ المبادئ والعقائد؛ الَّتي تقوم على جانبٍ واحدٍ منهما، وتتجاهل الرُّكن الآخر، وتهمله مبادئ مُخْفِقَةٌ، لا تقوى على التَّلاؤم مع

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين للماورديِّ ١١٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحياة ، وتنهزم في وجدان الإنسان ، ثمَّ تُعْلِنُ إخفاقها في واقع الحياة الملموس.

فالنَّصرانيَّة المُحرَّفة عجَزت عن السَّيطرة على حياة أبنائها؛ لأنَّها لم تأخذ بعين الاعتبار جانبَي الحياة... ولم تستطعْ أن تتقدَّم لحلِّ مشكلات البشر المتجدِّدة ، المعقَّدة ، المتَّصلة بالمادَّة ، والرُّوح معاً... كانت عوراء لا تبصر إلا بعينٍ واحدةٍ ، ولا ترعىٰ إلا جانباً واحداً هو ـ في زعمها ـ جانب الرُّوح.

من أجل ذلك نرى حياة المجتمعات النَّصرانية ـ ولا سيَّما الأوربيَّة ـ أبعد ما تكون عن الرُّوحانيَّات الَّتي تدَّعيها ديانتُهم ، ولقد شهدت النَّهضة الحديثة في أوربة حملةً عنيفةً على الكنيسة ، قلَّصت نفوذها ، واضطرتها أن تلزم زوايا المعابد ، والهياكل... ونأتْ بالحكم ، والعلم عن ميدانها... وبذلك وقعت تلك الجفوة الهائلة بين الحياة ، والدِّين.

وكذلك فإنَّ الشُّيوعيَّة والمبادئ المادِّيَّة الهدَّامة الَّتي لا تؤمن إلا بالمادَّة ، وتهمل جانب الرُّوح ، والمشاعر محكومٌ عليها بالدَّمار ، ومن هنا نستطيع أن نعلِّل تناقض هؤلاء الشُّيوعيِّين والمادِّيِّين عندما اضطروا أن يتنازلوا عن قسطٍ كبيرٍ من معتقداتهم ، كما نشهد ذلك في الآونة الأخيرة في عددٍ من البلدان الاشتراكيَّة ، ثمَّ أعلنت هذه المبادئ عن إفلاسها ، وتساقطت البلدان الَّتي تخضع لها واحدةً في إثر أخرىٰ.

إذاً فالحياة الإنسانيَّة قائمةٌ على شعبتين ، هما: الرُّوح ، والمادَّة ، وهي بمجموعها مقدِّمة إلى حياةٍ أخرىٰ أعظمَ ، وأهمَّ ، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧] وقال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] وقد عرض القرآن الكريم كثيراً

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من حقائق تلك الحياة الآخرة. . . عرضها من خلال تقريراتٍ ربَّانيَّةٍ ، ومشاهد وصفيَّةٍ تأخذ بالألباب[1] .

وكثير من الغافلين الضَّالِّين كانوا يحسَبون : أنَّ الحياة عبثٌ ، ولم يستطيعوا أن يرتقوا إلى معرفة: أنَّ بعد هذه الحياة حياةً أخرىٰ ؛ بسبب الانحراف عن دعوة الله ، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وقال سبحانه: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨]. وقال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

إنَّ هؤلاء المنكرين للحياة الآخرة كانوا يُعانون من خيبة الأمل المريرة لضيق حياتهم عن أن تتَّسع لآمالهم الكبيرة. . . بينما دعوة الرُّسل الكرام ـ صلَّىٰ الله عليهم وسلم ـ تهيب بهم: أنَّ بعد هذه الحياة حياةً أكبر ، فيها الخلود الأبديُّ ، وأنَّ عليهم أن يجعلوا هذه الحياة الدَّنيَّة منهم مزرعةً لتلك. . . وأنَّ عليهم أن يستغلُّوا كلَّ لحظةٍ من أوقاتهم ، فيصرفوها في طاعة الله عزَّ وجلَّ ؛ ليجنوا الثَّمرات الطَّيِّبة الشَّهيَّة يوم القيامة ، ولا يكون ذلك إلا عندما يتحرَّرون مِن العبودية للدُّنيا .

ولا يعني ذلك أن ينقطعوا عن الحياة الدُّنيا ، وأن يستغنُوا عنها. . . بل ينبغي أن يكون شأنُهم فيها شأنَ الغريب ، وعابر السَّبيل ؛ الذي يُنفق كلَّ ساعةٍ ، أو دقيقة من وقته من أجل غده ، ولا يكون واقعه المؤقَّت مستولياً على فكره كلِّه شاغلاً إيَّاه عن التَّفكير في مستقرِّه في دار إقامته ، وعن مستقبله هنا. . . إنَّه يهتمُّ بشؤونه الآنيَّة بقدر ما يُبلغه هذا الاهتمامُ غايتَه .

إنَّ تصوُّر اليوم الآخر ، والعمل على تسخير الحياة الدُّنيا للفوز في ذاك اليوم العصيب ؛ سببٌ لقيام الحياة الفاضلة الخيِّرة .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب القرطبيِّ «التَّذكرة» وكتاب ابن كثير «النِّهاية» وكتاب سيِّد قطب «مشاهد القيامة» .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفي الحديث تقريرٌ لحقيقةٍ هامَّةٍ كشف عنها ابن عمر ، رضي الله عنه ، وهي: أنَّ رأس مال المسلم وقتُه. فلا يجوز أن يهدُرَه ، ولا أن يسوِّف حتَّى لا يكون المُفلس في تجارته ، الخاسر في حياته. . . إنَّ عليه أن يستغلَّ وقته في الحياة الدُّنيا في طاعة الله ، وعبادته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. . وأن يكون مستعدَّاً للقاء الله ، مستفيداً من صحَّته ، لا يرجئ عمل الخير ، ولا يضيِّع فرصة أتيحت له للعمل ، فالصِّحَّة والفراغ نعمتان من أجَلِّ نِعَم الله على عباده ، يجب أن يسخِّرَهما المسلم العاقل فيما يُرضي الله تعالى . فكن يا عبد الله! على حذرٍ من أن يسبقك الموتُ ، قبل أن تضمن لنفسك المستقبل الآمن الرَّغيد في الحياة الأبديَّة في الآخرة ، أو يقعُد بك المرض ، فيحول بينك وبين ما كنت قادراً عليه من العمل الصَّالح في أيام صحَّتك ، ولا تؤجِّل العمل ، فما تدري متى يكون الأجل؟

يقول عبد الله بن المعتزِّ: تناولِ الفرصة المُمكنة ، ولا تنتظر غداً ، فَمَنْ لغدٍ مِنْ حادثٍ بكفيل[1] .

ويقول عبدُ الله بن المُبارك:

اغْتَنِمْ رَكْعَتَيْنِ زُلْفَىٰ إِلَىٰ اللّـ ـهِ إِذَا كُنْتَ رِيْحاً مُسْتَرِيحَا
وَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِالنُّطْقِ فِي البا طِلِ فَاجْعَلْ مَكَانَه تَسْبِيْحَا[2]

وقيل لرجل عبد القيس: أَوْصِ. قال: احذروا (سوف)[1].

وعن الحسن ، قال: إيَّاك والتَّسويف ، فإنَّك بيومك ، ولست بغدك ، فإنْ يكنْ غَدٌ لك؛ فكن في غدٍ كما كنت في اليوم ، وإنْ لم يكن لك غدٌ؛ لم تندم على ما فرَّطت في اليوم[3] .

لا بُدَّ أن نقف أمام هذا التَّشبيه الرَّائع الموفَّق لنتأمَّل مطابقته لمقتضىٰ الحال:

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ١٠٨ .

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ١٠٦ ، وفي سير أعلام النُّبلاء ٨/ ٣٦٨ وفيه: إذا كنت فارغاً.

(٣) اقتضاء العلم العمل ص ١١٤ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ هذا التَّشبيه المُحكم الَّذي يُطالعنا في هذا الحديث يُعَبِّرُ عن المقصود صريحاً ، فقد قال ﷺ: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ ، أو عابرُ سبيلٍ» .

فإنَّ الغريب قليلُ الانبساط إلى النَّاس ، شديدُ الاستيحاش منهم ، يواجه مَنْ لا يعرفُهم ، ولا يعرفونه ، وَمَنْ يتكلَّمون بلغةٍ ، أو لهجةٍ لا يعرف دقائقها ، فلا يقدِّرونه قدره ، ولا يستطيع هو أن يختار مَنْ يكون أهلاً لوصاله ، ووِدِّه ، فهو أبداً خائفٌ يترقَّب ، شديد الاكتئاب ، لا يرىٰ الحسن حسناً ، ويشعر بنقصٍ في نفسه عنهم ، كما قالت أعرابية : إذا كنت في غير أهلك فلا تنس نصيبك من الذُّلِّ[1] . ولله درُّ الزِّركليِّ ، الَّذي يقول :

العَيْنُ بَعْدَ فِرَاقِهَا الوَطَنَا ... لَا سَاكِنَاً أَلِفَتْ وَلَا سَكَنَا
رَيَّانَةٌ بِالدَّمْعِ أَقْلَقَهَا ... أَلَّا تُحِسَّ كَرَىً وَلَا وَسَنَا
كَانَتْ تَرَىٰ فِي كُلِّ سَانِحَةٍ ... حُسْنَاً ، وَبَاتَتْ لَا تَرَىٰ حَسَنَا
إِنَّ الغَرِيْبَ مُعَذَّبٌ أَبَداً ... إِنْ حَلَّ لَمْ يَنْعَمْ وَإِنْ ظَعَنَا

إنَّ الإنسان في وطنه يستكثر من المتاع ، والأثاث من أسرَّةٍ ، وأرائك ، وسُجَّادٍ ، وتُحَفٍ ، ويبني البيوت ، ويقتني العقارات ، والبساتين ، ويشتري الأنعام ، والخيل المسوَّمة ، والسَّيارات ، ويستكثر من الملابس ، وأدوات المنزل .

أمَّا الغريب عندما يحلُّ في بلدٍ غير بلده ؛ فإنَّه لا يفعل من ذلك شيئاً . . . إنَّ كلَّ همِّه أن يُنهي عملَه ؛ ليعود إلى بلده . وأمَّا عابر السَّبيل ؛ فإنَّ همَّه الأوَّل هو قطع الطَّريق ، ومجاوزتُه للوصول إلى بلدته ، ولا يستطيع أن يتمَّ رحلته إلا بالجدِّ ، والاهتمام ، والصَّبر على المصاعب ، والمتاعب ، وبالتَّخفيف من الأثقال ، لا يحمل معه إلا ما لا بُدَّ له منه ، معه زادُه وراحلتُه .

وربَّما نام في ظلِّ شجرةٍ في الطريق ؛ إن أعياه التَّعب ، ثمَّ يواصل سعيه حتَّى يبلغ بُغيته مِنْ قَصْدِهِ ، لا يتعلَّق بشيءٍ غير ما هو فيه .

طلب النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديث أن يكون المؤمن في الدُّنيا كالغريب ، أو

---

(١) ديوان المعاني ٢/ ١٨٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عابر السَّبيل ، وذلك إشارةٌ منه إلى أنَّ الأكمل في حقِّ المؤمن إيثارُ الزُّهد في الدُّنيا وأخذ البُلغة منها ، والكفاف.

فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر ممَّا يبلغه غاية سفره ؛ فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدُّنيا إلى أكثر من سدِّ حاجاته ، وقضاء ضروراته ، فهو لا يركَن إلى الدُّنيا ، ولا يتَّخذها وطناً ، ولا يحدِّث نفسه بالبقاء فيها ، ولا يتعلَّق منها إلا بما يتعلَّق به الغريب في غير وطنه.

إنَّ على المؤمن أن يجعل إقامته في الدُّنيا ليتزوَّد منها بالطَّاعات ، الَّتي تحقِّق له السَّعادة في دار المقامة في الآخرة.

و«أو» في قوله: (كأنَّك غريبٌ ، أو عابر سبيلٍ) ليست للشَّكِّ ، ولا للتَّخيير ، ولا للإباحة ، وإنَّما هي بمعنى: (بل) ، ففي الكلام نوعٌ من التَّرقِّي؛ لأنَّ تعلُّقات عابر السَّبيل أقلُّ من تعلُّقات الغريب المقيم. فقد شبَّه النَّاسك السَّالك بالغريب ؛ الَّذي ليس له مسكنٌ يسكنُه ، ويؤويه ، ثمَّ ترقَّى ، وأضرب عنه إلى عابر السَّبيل ؛ لأنَّ الغريب قد يسكن في بلد الغربة ، بخلاف عابر السَّبيل القاصد لبلدٍ شاسعٍ وبينهما أوديةٌ مرديةٌ ، ومفاوز مهلكةٌ ، ووحوشٌ مفترسةٌ ، وقطَّاع طرقٍ مجرمون. . . ومن كان كذلك فإنَّ من شأنه ألا يقيم لحظةً ، ولا يستقرَّ لمحةً في مكانٍ بعينه. . بل هو دائم السَّير إلى بلد الإقامة ، ومن ثمَّ عقَّب بقوله في رواية من روايات الحديث: «وعُدَّ نفسك في أهل القبور».

وأمَّا قول ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ فيعني: أن الإنسان في هذه الحياة لا يبقىٰ على حالٍ واحدةٍ ، وأنَّه في عمره لا يخلو عن صحَّةٍ ؛ ومرضٍ ، فإذا كنت صحيحاً ؛ فسر سير القَصْد ، وزدْ عليه بقدر قوَّتك ما دامت فيك قوَّةٌ ، بحيث يكون ما بك من تلك الزِّيادة قائماً مقام ما لعلَّه يفوت حالة المرض ، والضَّعف. . إذاً فاشتغل في صحَّتك بالطَّاعة بحيث لو حصل تقصيرٌ في المرض لانْجَبَر بذلك. . أي: فاعمل ما تلقىٰ نفعه بعد موتك ، وبادرْ أيَّام صحَّتك بالعمل الصَّالح ، فإنَّ المرض قد يطرأ ، فيمنعك من العمل . وهذا المعنى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الَّذي قرره ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ ورد في حديثٍ مرفوعٍ أخرجه الحاكم[١] عن ابن عباسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لرجلٍ ؛ وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابَك قبل هَرَمِكَ، وصحَّتك قبل سَقَمِك، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفراغَك قبل شُغْلِكَ، وحياتَك قبل موتك».

إنَّ الاغترار بالدُّنيا غفلةٌ بالغةٌ، يدلُّنا على هذا النَّظرُ المتأمِّلُ في واقعها، ومعرفةُ حال الَّذين ركنوا إليها، واغترُّوا بزينتها، ومباهجها، والاعتبار بحال هؤلاء الَّذين نعاصرهم ممَّن جعلوا الدُّنيا أكبر همِّهم ومبلغ عِلْمِهم.

وهذا موضوعٌ نبَّه عليه الحكماء شعراً، ونثراً.. ولن أستطيع أنْ أوردَ كلَّ ما وصل إليه علمي في ذلك، وما فاتني أكثر، ويكفيني أن أشير إلى أنَّ شاعراً مُفْلِقاً وهو أبو العتاهية عالج هذا الموضوع، واستغرقت معالجتُه معظمَ ديوانه، يذكِّر بقيمة الدُّنيا، ويبيِّن حقيقتها، ويذكر حال السَّابقين الَّذين كانوا ساعين وراءها، ويُبرز أهمِّيَّة الآخرة.

يقول أبو العتاهية[٢]:

هَلْ تَرَى الدُّنْيَا بِعَيْنَيْ بَصِيرٍ ... إنَّمَا الدُّنْيَا تُحَاكِي السَّرَابَا
إنَّمَا الدُّنْيَا كَفَيْءٍ تَوَلَّىٰ ... أوْ كَمَا عَايَنْتَ مِنْهُ الضَّبَابَا
إنَّمَا الدُّنْيَا بَلَاءٌ وَكَدٌّ ... وَاكْتِئَابٌ قَدْ يَسُوقُ اكْتِئَابَا
مَا اسْتَطَابَ العَيْشَ فِيهَا حَلِيمٌ ... لَا وَلَا دَامَ لَهُ مَا اسْتَطَابَا
أَبَتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ كُلِّ حيٍّ ... آخِرَ الأيَّام إلَّا ذَهَابَا
مَا أرَىٰ الدُّنْيَا عَلَىٰ كُلِّ حيٍّ ... نَالَهَا إلَّا أَذىً وَعَذَابَا

ويقول[٣]:

أَصْبَحْتِ يَا دَارَ الأَذَىٰ ... وَصَفَاكِ مُمْتَلِئٌ قَذَى
أَيْنَ الَّذِيْنَ عَهِدْتُهُمْ ... قَطَعُوا الحَيَاةَ تَلَذُّذَا

---

(١) انظر المستدرك ٤/٣٠٦ في الفتح ١١/٢٣٢.
(٢) ديوان أبي العتاهيَة: ٣٩ـ ٤٠.
(٣) ديوان أبي العتاهيَة: ١٣٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

دَرَجُــــوا غَـــدَاةَ رَمَـــاهُـــمْ ... رَيْــبُ الــزَّمَــانِ فَــأَنْفَــذَا
سَنَصِيْـــرُ أَيْضَـــاً مِثْلَهُـــمْ ... عَمَّـــا قَلِيْـــلٍ هَكَـــذَا

ويقول أبو البقاء الرَّنديُّ[1]:

وَهَـذِهِ الـدَّارُ لاَ تُبْقِـي علـى أحـدٍ ... وَلاَ يَـدُومُ عَلَـىٰ حَـالٍ لَهَـا شَـانُ
أَيْنَ المُلوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيْـنَ مِنْهُـم أَكَـالِيـلٌ وَتِيْجَـانُ
وَأَيْـنَ مَـا شَـادَهُ شَـدَّادُ فِـي إِرَمٍ ... وَأَيْنَ مَا سَاسَه فِي الفُرْسِ سَاسَانُ
وَأَيْنَ مَا حَـازَهُ قَـارُون مِـنْ ذَهَـبٍ ... وَأَيْـنَ عَـادٌ وَشَـدَّادٌ وَقَحْطَـانُ
أَتَـىٰ عَلَـىٰ الكُـلِّ أمـرٌ لاَ مَـرَدَّ لَـهُ ... حَتَّى قَضَـوا فَكَـأَنَّ القَـوْمَ مَـا كَـانُـوا

ويقول المقريُّ[2]:

سُبْحَـــانَ مَـــنْ قَسَـــمَ الحُظُـــو ... ظَ فَـــلاَ عِتَـــابَ وَلاَ مَـــلاَمَـــهْ
أَعْمَـــىٰ وَأَعْشَـــى ثُـــمَّ ذُو ... بَصَـــرٍ وَزَرْقَـــاءُ اليَمَـــامَـــهْ
فَـالْعَيْـشُ فِـي الـدُّنْيَـا الـدَّنِيَّـة ... غَيْـــرُ مَـــرْجُـــوٍّ الإِدَامَـــهْ
مَـــنْ أَرْضَعَتْـــهُ ثُـــدِيَّهـــا ... فِـي سُـرْعَـةٍ تُبْـدِي فِطَـامَـهْ
وَإِذَا نَظَـــرْتَ فَـــأَيْـــنَ مَـــنْ ... مَنَعَتْـــه أَوْ مَنَحَـــتْ مَـــرَامَـــهْ
وَمَـــنِ الَّـــذِي وَهَبْتَـــهُ وَصْـــلاً ... ثُـــمَّ لَـــمْ يَخْـــشَ انْصِـــرَامَـــهْ
وَمَـــنْ الَّـــذِي مَـــدَّتْ لَـــهُ ... حَبْـلاً فَلَـمْ يَخَـفِ انْفِصَـامَـهْ
أَيْـــنَ الَّـــذِيْـــنَ تَفَيَّـــؤوا ... ظِـــلَّ السِّيَـــادَةِ والـــزَّعَـــامَـــهْ
أَيْـنَ المُلُـوك ذَوُو الـرِّيَـاسَـةِ ... وَالسِّيَـــاسَـــةِ وَالصَّـــرَامَـــهْ
أَيْـنَ الأَكَـاسِـرُ وَالقَيَـاصِـرَةُ ... المُجَلُّـــونَ الغَمَـــامَـــهْ
أَيْـنَ الَّـذِي الهَـرَمَـان مِـنْ ... بنيَـانِـه الحَـاكِـي اعْتِـزَامَـهْ
بَـلْ أَيْـنَ أَرْبَـابُ العُلُـوم ... أُولُـــو التَّصَـــدُّرِ وَالإِمَـــامَـــهْ
وَذَوُو الـــوَزَارَةِ والحِجَـــا ... بَـــةِ وَالْكِتَـــابَـــةِ وَالْعَـــلاَمَـــهْ

---

(١) نفح الطِّيب ٦/ ٢٣٢ ، وانظر ترجمة الرَّنديّ في «نهاية الأندلس» لمحمد عبد الله عنان ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .
(٢) نفح الطيب: ١/ ٢٣ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَالعُمْــــرُ مِثْــــلُ الضَّيْــــفِ أَوْ كَــالطَّيْــفِ لَيْـسَ لَــهُ إِقَــامَــهْ
وَالْمَــوْتُ حَتْــمٌ ثُــمَّ بَعْــدَ الْمَــوْتِ أَهْــوَالُ القِيَــامَــهْ
وَالنَّــاسُ مَجْــزِيُّــونَ عَــنْ أَعْمَــالِ مَيْــلٍ وَاسْتِقَــامَــهْ
فَــذَوُو السَّعَــادَةِ يَضْحَكُــونَ وَغَيْــرُهُــمْ يَبْكِــي نَــدَامَــهْ

ويقول عبد المجيد بن عبدون من قصيدة يرثي فيها دولة بني الأفطس[١]:

الـدَّهْـرُ يَفْجَـعُ بَعْـدَ العَيْـنِ بـالأثـرِ فَمَـا البُكـاءُ عَلَـىٰ الأَشْبَـاحِ والصُّـوَرِ
أَنْهَـاكَ أَنْهَـاكَ لَا آلـوكَ مَـوْعِظَـةً عَنْ نَوْمَـةٍ بَـيْنَ نَـابِ اللَّيْـثِ والظُّفُرِ
فَـلَا تغـرَّنْـك مِـنْ دُنْيَـاكَ نَـوْمَتُـهَـا فَمَـا صَنْعَـةُ عَيْنَيْـهَـا سِـوَى السَّهَـرِ

ويقول الشاعر[٢]:

إِنَّ للهِ عِبَــــــاداً فُطَنَــــا طَلَّقُــوا الــدُّنْيَــا وَخَــافُــوا الفِتَنَــا
نَظَــرُوا فِيْهَــا فَلَمَّــا عَلِمُــوا أَنَّهــا لَيْسَــتْ لِحَــيٍّ وَطَنَــا
جَعَلُــوهَــا لُجَّــةً وَاتَّخَــذُوا صَــالِــحَ الأَعْمَــالِ فِيْهَــا سُفُنَــا

وبعد، فإنَّ في الحديث تربيةً روحيَّةً موفَّقةً، فإنَّ ذكر الموت يحمل المرء على مراجعة نفسه، والتَّوبةِ إلى الله مِن ذنوبه، ويرقِّق قلبه، ويحمله على الازدياد من الطَّاعات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقد وردت أحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

* فَمِنْ ذلك: حديث أبي هريرةَ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أكثِروا ذِكْرَ هاذمِ اللَّذات». أي الموت. رواه ابن ماجه، والتِّرمذيُّ وحسَّنه، ورواه الطَّبرانيُّ في «الأوسط» بإسنادٍ حسن[٣].

* ومن ذلك: حديث ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثْروا ذِكْرَ

---

(١) دول الطَّوائف لمحمَّد عبد الله عنان ص ٣٥٧.
(٢) مقدِّمة رياض الصَّالحين.
(٣) التِّرمذيُّ برقم ٢٣٠٧، وابن ماجه برقم ٤٢٥٨، وانظر «التَّرغيب والتَّرهيب» ٤/ ٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هاذِم اللَّذات ـ يعني: الموت ـ فإنَّه ما كان في كثيرٍ إلاَّ قلَّله، ولا قليلٍ إلا جَزَّأه». رواه الطَّبرانيُّ بإسنادٍ حسن[1].

إنَّ ذكر الموت من صاحب القلب الحاضر؛ يحمله على مراجعة حساباته، ووزنِ أعماله، والرُّجوع إلى الحقِّ.

إنَّ ذكر الموت، وما بعده من حسابٍ، وجنَّةٍ، ونارٍ يزجر المرء عن مقارفة الحرام، والإثم، ويحثُّه على الاستكثار من الخير.

كتب رجلٌ إلى صالح بن عبد القدُّوس يسأله:

المَوْتُ بَابٌ وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ ... فَلَيْتَ شِعْرِي! بَعْدَ البَابِ ما الدَّارُ؟

فأجابه بقوله:

الدَّارُ جَنَّةُ عَدْنٍ إنْ عَمِلْتَ بِمَا ... يُرْضِي الإلٰهَ وَإنْ فَرَّطْتَ فالنَّارُ
فَهُمَا مَحَلاَّنِ، مَا لِلنَّاسِ غَيْرُهُمَا ... فانْظُر لِنَفْسِكَ مَاذَا أَنْتَ مُخْتَارُ[2]

ويُروىٰ عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياء».

قال: قُلنا: يا نبيَّ الله! إنَّا لنستحيي؛ والحمد لله!

قال: «ليس ذلك، ولكنَّ الاستحياءَ مِنَ الله حقَّ الحياء أَنْ تَحفظ الرَّأس وما وعىٰ، وتَحفظ البَطْنَ وما حَوَىٰ، ولْتَذْكُرِ الموت والبِلىٰ، وَمَنْ أراد الآخرة؛ ترك زينة الدُّنيا، فَمَنْ فَعَلَ ذلك؛ فقد اسْتَحْيَا من الله حقَّ الحياء».

---

(١) التَّرغيب والتَّرهيب ٤/ ٧٠ وورد هذا الحديث في بعض كتب الفقه كما يأتي: «فما ذُكِر في كثيرٍ إلا قلَّله، ولا في قليلٍ إلا كثَّره». وقال ابن عقيلٍ في شرحه: [معناه: متى ذُكر في قليلِ الرِّزق استكثره الإنسان، لاستقلال ما بقي من عمره، ومتى ذُكِرَ في كثيرٍ قلَّله لأنَّ كثير الدُّنيا إذا علم انقطاعه بالموت قلَّ عنده] انظر «مطالب أولي النُّهى» ١/ ٨٢٨.

(٢) أدب الدُّنيا والدين ص ١١٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رواه التِّرمذيُّ ، وقال : حديثٌ غريبٌ. إنَّما نعرفه من حديث أبان بن إسحاق عن الصَّباح بن محمَّد[1] .

أقول : إنَّ مَنْ يذكر الموت ، والبِلى ، ويعلم ما بعدهما ليستحيي مِنَ الله أن يراه مقترفاً للمحرَّمات ، أو مضيِّعاً للواجبات .

وإحساس المرء برحيله عن هذه الدُّنيا يجعل حياته إيجابيةً منتجةً ، ولا سيَّما إنْ كان مؤمناً : أنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرة .

* ومن ذلك : حديث عبد الله بن مسعودٍ عن النَّبيِّ ﷺ قال :

«الجنَّة أقرب إلى أحدكم مِنْ شراك نَعْلِه ، والنَّار مثلُ ذلك» . رواه البخاريُّ[2] . ما أقرب المصيرَ الكريم ، والمصيرَ الذَّميمَ ، فليكن العاقلُ على حذرٍ .

* ومن ذلك : حديث سعد بن أبي وقَّاصٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال :

ـ يا رسول الله ! أوصني .

ـ قال : «عليك بالإياس ممَّا في أيدي النَّـاس ، وإيَّـاك والطَّمعَ ، فإنَّه الفقرُ الحاضرُ ، وصلِّ صلاتك ؛ وأنت مودِّعٌ ، وإيَّـاك وما يُعْتَـذَرُ منه» .

رواه الحاكم ، والبيهقيُّ في «الزُّهد» وقال الحاكم ـ واللَّفظ له ـ : صحيحُ الإسناد . ورواه الطَّبرانيُّ من حديث ابن عمر بلفظٍ مقاربٍ[3] .

ولكن لا ينبغي أن يتمنَّى المرء الموت .

فعن أبي هريـرة : أنَّ رسول الله ﷺ قال : «لا يتمنَّى أحدُكـم المـوتَ : إمَّـا مُحسناً ، فلعلَّه يزداد ، وإمَّا مسيئاً ؛ فلعلَّه يستعتب» . رواه البخاريُّ ، واللَّفظ

---

(١) الترمذي برقم ٢٤٥٨ . وانظر صحيح التِّرمذي للألبانيِّ ٢/ برقم ٢٠٠٠ ، وقال : حسنٌ ، وانظر «التَّرغيب والترهيب» ٤/ ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) البخاريُّ برقم ٦٤٨٨ .

(٣) المستدرك ٤/ ٣٢٦ وانظر «التَّرغيب والتَّرهيب» ٤/ ٧٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

له. ورواه مسلمٌ بلفظ: «لا يتمنَّـيَنَّ أحدكم الموتَ، ولا يَدْعُ به؛ إنَّه إذا مات؛ انقطع عمله، وإنَّه لا يزيد المؤمنَ عمرُه إلا خيراً»[1].

وعن أمِّ الفضل ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل على العبَّاس وهو يشتكي، فتمنَّى الموت، فقال: «يا عباسُ عم رسول الله ﷺ! لا تتمنَّ الموت: إنْ كنت مُحسناً؛ تزداد إحساناً إلى إحسانك خيرٌ لك. وإن كنت مسيئاً؛ فإن تُؤَخَّر؛ تستعتب من إساءتك خيرٌ لك. لا تتمنَّ الموت». رواه أحمد[2]، والحاكم، وقال: صحيحٌ على شرطهما.

* * *

---

(١) البخاريُّ برقم ٧٢٣٥، ومسلمٌ برقم ٢٦٨٢ وفي طبعة إستانبول ٨/ ٦٥، وانظر فتح الباري ١٣/ ٢٢٠.

(٢) أحمد ٦/ ٣٣٩ والمستدرك ١/ ٣٣٩.

www.alukah.net

شبكة الألوكة

الحديث الثاني عشر

الإمارة

عن أبي سعيدٍ ، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا : قال رسول الله ﷺ : «إذا خرج ثلاثة في سفرٍ ؛ فليؤمِّروا أحدهم» .

رواه أبو داود في كتاب الجهاد من سننه ، والبيهقيُّ في «السُّنن الكبرى» وأبو يعلى في «مسنده»[(١)] .

ورواه أحمد عن عبد الله بن عمر : أنَّ رسول الله ﷺ قال : «لا يحلُّ لثلاثة نفرٍ يكونون بأرض فلاة إلا أمَّروا عليهم أحدَهم»[(٢)] .

ورواه الطَّبرانيُّ عن عبد الله ـ أي : ابن مسعود ـ بلفظ : «إذا كنتم ثلاثةً في سفرٍ ؛ فأمِّروا عليكم أحدَكم» . قال الهيثميُّ : رجالُه رجالُ الصَّحيح[(٣)] .

وقال النَّوويُّ في «رياض الصَّالحين» : رواه أبو داود بإسنادٍ حسن[(٤)] .

إنَّ كلمة (ثلاثة) الواردة في قوله ﷺ «إذا خرج ثلاثة» تعني : إذا كان القوم الَّذين خرجوا جماعة ، وأقلُّها ثلاثةٌ ، فعليهم أن يؤمِّروا واحداً منهم .

---

(١) أبو داود برقم ٢٦٠٨ ، ورقم ٢٦٠٩ ، وأبو يعلىٰ برقم ١٠٥٤ ، ورقم ١٣٥٩ ، والسنن الكبرىٰ للبيهقيِّ ٥/ ٢٥٧ .

(٢) أحمد ٢/ ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٣) مجمع الزَّوائد ٥/ ٢٤٩ .

(٤) رياض الصَّالحين : باب استحباب طلب الرُّفقة ، وتأميرهم على أنفسهم واحداً يُطيعونه .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقوله ﷺ: فليؤمِّروا أحدَهم ؛ أي: فليجعلوا أحدَهم أميراً عليهم.

قال أبو حيَّان[1]: [وقرأ ابن عباس، وأبو عثمان النَّهديُّ، والسُّدِّيُّ، وزيد بن عليٍّ وأبو العالية: ﴿أمَّرنا مترفيها﴾ بتشديد الميم، وروي ذلك عن عليٍّ، والحسن، والباقر، وعاصم، وأبي عمر، وعديٍّ: ﴿أمَّرنا﴾ بالتضعيف] يريد قوله تعالى في سورة الإسراء: [١٦]: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

الإنسان حيوانٌ اجتماعيٌّ بالطبع، ولا يمكن له أن يعيش منعزلاً عن النَّاس؛ بل لا بُدَّ من أن يعاشرهم، ويعايشهم، وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنَّ عليه مراعاة الحدود؛ الَّتي تحقِّق المصلحة العامَّة، وأن يخضع للضَّوابط؛ التي تنظِّم المجتمع.

ولا بُدَّ في كلِّ أمرٍ اجتماعيٍّ، وتجمُّع بشريٍّ ـ جلَّ، أو صغر ـ من أن يكون له أميرٌ ينظِّم أموره، ويراقب سيره، ويحميه من الخَلَلِ، والعُدوان، والتوقُّف، وسواءٌ أكان هذا الأمر، أو التَّجمُّع مؤسَّسةً صغيرةً كإدارة مدرسةٍ، وأسرةٍ، أم كان شيئاً كبيراً، كقيادة جيشٍ، أو رياسة دولةٍ.

ودور الأمير دورٌ عظيمٌ، فبوجوده يشعر كلُّ فردٍ بروح الجماعة، وتسير قافلة الحياة مطمئنةَ القلب هادئةَ الأعصاب، وبقيامه بإدارة الأمور تتَّسم حياة النَّاس بسمة النِّظام، وتُحمَىٰ الأموالُ، والأنفس، والأعراض.

وتتمثَّل في الأمير المختار سلطة الأمَّة، وإرادتُها، ولذلك ينبغي أن يُختار ممَّن يكونون أهلاً لحمل مسؤولية الإمارة ديناً، وخُلُقاً، ورأياً، وعِلْماً، وشخصيَّة.

وترغيبُ الرَّسول ﷺ المسافرين بتأمير واحدٍ منهم عليهم، وأَمْرُهم بهذا إشارةٌ إلى قيمة النِّظام، والتَّعاون، والتَّرابط الوثيق بين المسلمين.

قال الخطَّابي، رحمه الله:

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

[إنَّما أمر بذلك ؛ ليكون أمرُهم جميعاً ، ولا يتفرَّق بهم الرَّأي ، ولا يقع بينهم الاختلاف][1] .

وكذلك فإنَّ هذا الأمر الكريم : «فليؤمِّروا» يقرِّر لنا قيمة الإمارة العامَّة في الإسلام ، فلئن ندبنا ﷺ إلى تأمير أميرٍ إذا كنا ثلاثةً في سفرٍ لمرحلةٍ معيَّنةٍ ، ولشؤونٍ محدودةٍ ؛ إنَّ الولاية العامَّة في الأمَّة تكون من باب أولىٰ ؛ لأنَّها أجلُّ خطراً ، وأكبر أثراً .

والحديث الموجز الجميل يُبيِّن : أنَّ التَّأمير ينبغي أن يكون من المسافرين ؛ فهم الَّذين يختارون الكفؤ منهم أميراً عليهم . ويبدو أنَّ هذا كان نهجَ الجيل المثاليِّ من الصَّحابة ، رضي الله عنهم! ساروا عليه في دقيق الأمور ، وجليلها ، وما البيعة الَّتي كانت عبر العصور إلا إعلانُ الموافقة من النَّاس على أن يتولَّىٰ الخليفة الجديد إدارة شؤون النَّاس . وإن اختيارَهم له ، ومبايعتَهم إيَّاه ؛ لتلزمهم بطاعته فيما لا معصية فيه ؛ إذ لا قيمة لتأميره ، ولا فائدة إن لم يُطَعْ ، ورضي الله عن عليٍّ ؛ الذي يقول : «ولكن لا رأي لمن لا يطاع»[2] .

وإنَّ اختيارهم له ليوجب عليه ـ إن قبل الإمارة ـ أن يجتهد في خدمتهم ، وقضاء مصالحهم ، وحمايتهم ، واختيار الأفضل ، والأحسن لهم .

وفد إلى عمر رضي الله عنه الرَّبيع بن زياد الحارثيُّ ، فشكا عمرُ طعاماً غليظاً يأكلُه .

فقال الرَّبيع : يا أمير المؤمنين! إنَّ أحق الناس بمطعمٍ طيِّبٍ ، وملبسٍ ليِّنٍ ، ومركبٍ وطيءٍ لأنت . فضرب رأسه بجريدةٍ ، وقال : والله! ما أردت بهذا إلا مقاربتي ، وإنَّني كنت أحسب أنَّ فيك خيراً . ألا أخبرك بمثلي ، ومثل هؤلاء؟ إنَّما مثلنا كمثل قوم سافروا ، فدفعوا نفقاتهم إلى رجلٍ منهم ، وقالوا : أنفقها علينا ، فهل له أن يستأثر دونهم بشيءٍ؟ قال الرَّبيع : لا[3]!

---

(١) عون المعبود ٢/ ٣٤٠ .
(٢) نهج البلاغة ١/ ٦٦ .
(٣) عيون الأخبار ١/ ٥٢ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفي روايةٍ للحديث: أنَّ أحد رواة الحديث عندما سمع أمر رسول الله ﷺ قال لصاحبه: فأنت أميرُنا. ويبدو أنَّهم كانوا في سفرٍ.

إنَّ هذه الرِّواية لتمثل مدى الانصياع، والاتِّباع لأمر الشَّرع، والمسارعة إلى امتثاله، والعمل به، وتطبيقه، وهذه مزيَّةٌ نلمَسُها في سواد النَّاس في تلك القرون الفاضلة.

إنَّ المُشكلة العظمى الَّتي يئنُّ منها واقعنا في العالم الإسلاميِّ هي ذاك الانفصام بين ما نَعْلَمُ، وما نَعْمَلُ، والازدواج المقيت بين ما نقول، وما نفعل. والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ـ٣].

وفي الحديث فوائد تنبَّه لها العلماء، نورد ما وقفنا عليه منها هاهنا:

* قال الخطَّابيُّ(١): فيه دليلٌ على أنَّ الرَّجلين إذا حكَّما رجلاً بينهما في قضيةٍ بينهما، فقضىٰ بالحقِّ؛ نفذ حكمه.

* وأورد النَّوويُّ هذا الحديث في «رياض الصالحين» في باب استحباب طلب الرُّفقة، وتأميرهم على أنفسهم واحداً يطيعونه. وهذا العنوان شرحٌ للحديث، وهذه خاصَّةٌ مهمَّةٌ تؤدِّيها العناوين في هذا الكتاب القيِّم.

* وفي الحديث دليلٌ على أهمِّيَّة النِّظام الَّذي يحرص الإسلام على أن يتوافر في حياة المسلمين؛ حتَّى يعود عليهم بالنَّفع، والخير، والسَّلام، ويُسعدهم.

وما أجدر مجتمعاتنا أن تنتفع بهذا، ذلك: أنَّ الفرد، والمجتمع في واقعنا يشكو من الفوضىٰ القاتلة.

* وفي الحديث دليلٌ على أهمِّيَّة التَّعاون؛ الَّذي يتحقَّق في اختيار واحدٍ منهم، لِيُصَرِّف شؤونهم. والتَّعاون قوَّةٌ تستطيع الجماعة أن تتغلَّب به على الصِّعاب؛ الَّتي يتعذَّر على الفرد وحده اجتيازها.

* * *

---

(١) عون المعبود ٢/ ٣٤٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الثالث عشر

البر والإثم

عن النَّوَّاس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: سألتُ النَّبيَّ ﷺ عن البرِّ، والإثم، فقال: «البرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثمُ ما حَاكَ في صدرِكَ، وكرهتَ أنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ». رواه مسلمٌ، وأحمد، والتِّرمذيُّ، والطَّحاوي[1]. وأورده النَّوويُّ في «الأربعين»[2] وقد أشار في المقدِّمة إلى أنَّ كلَّ حديثٍ منها قاعدةٌ عظيمةٌ من قواعد الدِّين، قد وصفه العلماء بأنَّ مدار الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام، أو ثلثُه، أو نحو ذلك.

إنَّ تحديد كثير من الكلمات الشَّائعة المتداولة أمرٌ له فائدتُه البالغة؛ لأنَّ تحديد الكلمة، والمصطلح، ووضوحه في الذِّهن خطوةٌ لا بُدَّ منها للاقتناع بمدلول الكلمة، والمصطلح، ثمَّ الصُّدور عنه في تصرُّفات المرء في الحياة.

فالنَّواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ جاء إلى المدينة، وبقي فيها مدَّةً، كما تدلُّ على ذلك روايةٌ للحديث أخرجها مسلمٌ؛ ليستزيد من المعرفة بأحكام هذا الدِّين، وقيمه، وها هو ذا يسأل عن البرِّ، والإثم، فيجيبه الرَّسول ﷺ محدِّداً مدلول هاتين الكلمتين تحديداً شاملاً دقيقاً.

---

(١) مسلمٌ برقم ٢٥٥٣، وفي الطَّبعة القديمة ٨/ ٧، وأحمد ٤/ ١٨٢، والتِّرمذيُّ برقم ٢٣٨٩، ومشكلُ الآثار ٣/ ٣٤، والأدب المفرد للبخاريِّ برقم ٢٩٥، وانظر صحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ برقم ١٩٤٧.

(٢) الأربعون النَّوويَّة: الحديث السَّابع والعشرون.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ونصوص الدِّين كلُّها توضيحٌ للبرِّ ، والإثم . . للطَّاعة ، والمعصية . . . للحلال ، والحرام ، ومِنْ أجل ذلك عدَّ بعض العلماء هذا الحديث من الأحاديث الَّتي عليها مدارُ الإسلام .

والبرُّ : اسمٌ للخير ، ولكلِّ فعلٍ مَرْضيٍّ ، وهذا يشمل كثيراً من معاني هذه الكلمة ؛ الَّتي وردت لها في معجمات اللُّغة ، كالصِّلة ، والمعروف ، والاتِّساع في الإحسان ، والصِّدق ، والطَّاعة ، والعفو ، والثَّواب .

قال النَّوويُّ :

[قال العلماء : البرُّ يكون بمعنى الصِّلة ، وبمعنى اللُّطف ، والمبرَّة ، وحُسْن الصُّحبة ، والعِشْرة ، وبمعنى الطَّاعة ، وهذه الأمور هي مجامعُ حُسْنِ الخُلُق](1) .

وقد وردت في القرآن ثماني مرَّاتٍ ، خمسٌ منها في البقرة ، والباقي : في آل عمران ، والمائدة ، والمجادلة ، بمعانٍ متقاربةٍ .

قال ابن رجب : [البِرُّ يطلق باعتبارين مُعَيَّنين :

أحدهما : باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم ، وربَّما خصَّ الإحسان إلى الوالدين ، ويُطلق كثيراً على الإحسان إلى الخَلْق عموماً . . .(2) .

وإذا قُرِن البرُّ بالتقوىٰ كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٢] .

فقد يكون المراد بالبرِّ معاملة الخَلْق بالإحسان ، وبالتَّقوىٰ معاملة الحقِّ (سبحانه) بفعل طاعته ، واجتناب محرَّماته .

وقد يكون أُريد بالبرِّ فعلُ الواجبات ، وبالتَّقوىٰ اجتنابُ المُحرَّمات .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة : ٢] .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنَّوويِّ ١٦/ ١١١ .
(٢) تشير النقط إلى كلامٍ محذوفٍ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قد يراد بالإثم المعاصي ، وبالعدوان ظُلْمُ الخَلْق .

وقد يراد بالإثم ما هو محرَّمٌ في نفسه كالزِّنى ، والسَّرقة ، وشرب الخمر . وبالعدوان تجاوزُ ما أُذن فيه إلى ما نُهي عنه ممّا جِنْسُه مأذونٌ فيه ، كقتل ما أبيح قتله بقصاصٍ . ومن لا يُباح قتلُه .

والمعنى الثَّاني من معاني البرّ : أن يراد به فعلُ جميع الطَّاعات الظَّاهرة ، والباطنة ، كقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] . . . فالبرُّ بهذا المعنى يدخل فيه جميع الطَّاعات الباطنة ، كالإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والطَّاعات الظَّاهرة ، كإنفاق الأموال فيما يحبُّه الله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، والوفاء بالعهد ، والصَّبر على الأقدار ، كالمرض ، والفقر ، وعلى الطَّاعات ، كالصَّبر على لقاء العدوّ .

وقد يكون جواب النَّبيِّ ﷺ في حديث النَّواس شاملاً لهذه الخصال كلِّها ؛ لأنَّ حسن الخلق قد يراد به التَّخلُّق بأخلاق الشَّريعة ، والتأدُّب بآداب الله الَّتي أدَّب بها عباده في كتابه][1] .

وقال ابن عمر : «البِرُّ أمرٌ هيِّن ، وَجْهٌ طَلْقٌ ، وَلِسَانٌ لَيِّن» .

والإثم : المعصية ، والذَّنب ، وقد تُسمَّى الخمر : إثماً ، قال الشَّاعر :

شَرِبْتُ الإثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذَاكَ الإثْمُ تَذْهَبُ بالعقولِ

وقال ابن رجب :

[وصحَّ عن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ : أنَّه قال : الإثمُ حوّازُ القلوب .

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ٩٧ ـ ٩٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وروىٰ الإمام أحمد عن عبد الله : أنَّه قال : إيَّاكم وحزائز القلوب ، وما حزَّ في قلبك ؛ فدعه .

قال أبو الدَّرداء : الخير في طمأنينةٍ ، والشَّرُّ في ريبةٍ . . .

وقيل لابن مسعود : أرأيت شيئاً يحيك في صدورنا : لا ندري : حلالٌ هو أم حرامٌ؟ فقال : إيَّاكم والحكاكات فإنَّهن الإثم ، والحكُّ ، والحزُّ متقاربان في المعنى ، والمراد ما أثَّر في القلب ضيقاً ، وحرجاً ، ونفوراً ، وكراهيةً][1] .

يقول رسول الله ﷺ : «البرُّ حسنُ الخُلق» .

لقد أعار الإسلام حسن الخُلُقِ النَّصيب الأوفر من عنايته ، واهتمامه ، ودعا النَّاس إلى بلوغ مستوى راقٍ في معاملة بعضهم لبعضٍ ، ومعاشرة بعضهم لبعضٍ ، بل إنَّ إتمام مكارم الأخلاق هدفٌ سامٍ جليلٌ لبعثة النَّبيِّ ﷺ يقول ﷺ : «إنَّما بُعثت ؛ لأتمِّم مكارم الأخلاق»[2] .

ورعاية الإسلام للأخلاق كانت في إطارٍ من مراعاة الفطرة البشريَّة؛ فالأخلاق المأمور بها في الشَّرع ، كلُّها ممَّا يستطيع الإنسان إتيانه ، ويقوىٰ عليه ، وليست أوامر مثاليَّةً بعيدةً عن الواقعيَّة ، والإمكان .

إنَّ تحلِّي أفراد الأسرة بحسن الخلق سببٌ لسعادة هؤلاء الأفراد ، ووسيلةٌ لإنشاء جيلٍ سويِّ النَّفس ، خالٍ من العقد النَّفسيَّة ، يَقْوَىٰ على تحمُّل الصِّعاب ، والنُّهوض بالواجبات ، ويُسهم في إسعاد مجتمعه .

واتِّصاف أبناء الأمَّة بحسن الخُلق أمارةٌ على رقيِّ ذلك المُجتمع ، وسببٌ لسعادة أبنائه ، وأمنهم ، وتمتُّعهم بما أحلَّ الله للناس ، إذ إن الجرائم تمَّحي ،

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ٩٦ .

(٢) انظر مسند أحمد ٢/ ٣١٨ ، والمستدرك ٢/ ٦١٣ ، والأدب المفرد رقم ٢٧٣ ، وأورده مالكٌ في «الموطأ» بلاغاً بلفظ : «بُعثت لأتمم حسن الأخلاق» ، ٢/ ٩٠٤ . قال ابن عبد البرِّ : هو متَّصلٌ من وجوهٍ صحاحٍ عن أبي هريرة ، وغيره مرفوعاً . وانظر تعليقنا على الحديث في «مختصر المقاصد» ، رقم ١٨٤ وانظر «أسنىٰ المطالب» ٧٠ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والأمن على النَّفس ، والعرض ، والمال ينشر ظلاله الوارفة على النَّاس في ذلك المجتمع .

وإنَّمَـا الأمَـمُ الأخـلاقُ مَـا بَقِيَـتْ فَـإِنْ هُـمُ ذَهَبَـتْ أَخْـلاَقُهُـمْ ذَهَبُـوا

إنَّ حُسْنَ الخُلق أمرٌ دعا إليه الشَّرْعُ المطهَّرُ في آياتٍ ، وأحاديثَ كثيرةٍ جدًّا ، ومنه ما هو واجبٌ ، ومنه ما هو مندوبٌ ، ولكنَّه في كلِّ أحواله وسيلةٌ يبلغ بها المرء رضوان الله ، والسَّعادة التَّامَّة في الدُّنيا ، والآخرة ، ويكون بها سبباً في إسعاد مَنْ حوله من النَّاس .

فليحرص المسلم العاقل على محاسن الأفعال ، وليتخلَّص من مساوئ الأخلاق ، ففي ذلك امتثالٌ لأمر رسول الله ﷺ القائل : «اتَّق الله حيثما كنت ، وَأَتْبِع السَّيِّئة الحسنةَ تَمْحُها ، وخالق النَّاسَ بخلقٍ حسن»[1] ، واستزادةٌ من الخير ، وتمتينٌ لأواصر المودَّة بين المسلمين . وإنَّ لنا في تاريخنا الأغرِّ لعبرة بالغة فعندما كان الإسلام يحكمُ حياة المسلمين الفرديَّة ، والاجتماعيَّة ، والسِّياسيَّة ، والاقتصادية كان مجتمعهم المجتمع المثاليَّ ؛ الَّذي يسود فيه الخُلُق الحسن ، ويحقِّق العدالة ، ويُقيم القسط بين النَّاس ، ويُؤمر فيه بالمعروف ، ويُنهىٰ فيه عن المنكر .

والمسلمون أُتوا يوم أُتوا من ناحية التَّساهل في التزام أحكام الإسلام، وأخلاقه، حتَّى أصبحنا نرىٰ كثيراً منهم يعيشون في مجتمعاتٍ مريضةٍ ، تكثر فيها المظالمُ والمآسي ، وقد تسود الرَّذيلةُ قطاعاتٍ من تلك المجتمعات مستعلنةً ، ينشط أصحابها في نشرها ، والدَّعوة إليها ، وقد ترفعُ بعضَهم الظروفُ إلى أن يشغلوا بعض الجوانب الهامَّة المؤثِّرة في الحياة العامَّة ، وقد يتسلَّل بعضهم إلى السَّيطرة على وسائل تكوين الرَّأي العامِّ في الأمَّة ، كالصَّحافة ، والإذاعة ، وأجهزة التَّعليم ، ودور السِّينما ، ومؤسَّسات النَّشر ، يحاولون القضاء على كلِّ مظهرٍ حيٍّ من مظاهر الأخلاق الفاضلة ، ويعملون تحت شعاراتٍ برَّاقةٍ خدَّاعةٍ ، من نحو خدمة الفنِّ ، وإشاعة الثَّقافة الجديدة ، ويدَّعون : أنَّ التَّحرُّر من العادات (ويريدون الأخلاق) هو سمَة المثقَّفين التَّقدُّميِّين .

(١) رواه الترمذي برقم ١٩٨٧ والدارمي ٢/ ٣٢٣ وأحمد ٥/ ١٥٣ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إنَّ الأمَّة عندما تَفْسُد أخلاقها ، وتتخلَّى عن دينها ـ وهو أهم مقوِّمات وجودها ـ تكون قد انتهت ، وقضي عليها قضاءً تامَّاً.

أذكر أنِّي قرأت أيام كانت فرنسا في الجزائر تقريراً للمستعمرين ، يقولون فيه: إنَّ فتك مومسٍ ، وزجاجة خمرٍ أشدُّ من فتك كتيبةٍ من الجيش الفرنسيِّ بكامل عدَّتها.

ويعجبني قول محمَّد قطب:

[وقد يدرك الفلاسفة ، والمشتغلون بالقضايا الفكريَّة: أنَّ التَّحلُّل الخُلُقيَّ شرٌّ على الإنسانيَّة يعود عليها بالبوار ، ويبدِّد طاقتها في محيطٍ حيوانيٍّ هابط ، فلا تتطلَّع إلى الارتفاع ، ولا تجد الطَّاقة اللاَّزمة له لو اتَّجهت إليه ، ولكنَّ غمار الناس لن يدركوا ذلك؛ لأنَّه قد لا يقع في جيلهم ، فقد تظلُّ الأمَّة سليمةً من الظَّاهر جيلاً ، أو جيلين ، أوثلاثة ، بينما التَّحلُّل الخُلُقيُّ يسري في كيانها خفياً كالسُّوس ، فيتعذَّر على الشَّخص العاديِّ ، أو الشَّخص المنجرف بطبعه وراء اللَّذات أن يصدِّق أنَّ تحلُّله هو ـ وهو فردٌ واحد ـ أو أنَّ الجريمة العابرة التي يرتكبها خلسةً في الظلام يمكن أن تؤثِّر في خطِّ سير المجتمع ، وتؤدِّي إلى انهياره. وحتى إذا صدق بذهنه ؛ فإنَّه بغير تهذيبٍ دينيٍّ لا يستطيع أن يمتنع عن اللَّذة العارمة ؛ الَّتي يُحِسُّها من أجل خطرٍ لا يرىٰ: أنَّه سيقع عليه مباشرةً ، حتَّى إذا وقع في نفس الجيل.

فإذا فرضنا أنَّ الدَّولة من عندها ـ أي بالقوانين الأرضيَّة وحدها ـ تعاقب على الجرائم الخُلقيَّة حين تضبطها، فهي لن تستطيع أن ترى كلَّ جريمةٍ، ولا أن تتعقَّب كلَّ مجرم ، وسيفلت منها كثير من الجرائم بلا إثباتٍ ، ولا عقابٍ ، ومع ذلك فهذا فرضٌ نظريٌّ في الوقت الحاضر ، فدول الغرب (المتحضِّرة) كلُّها لا تـكاد تعاقب على هذه الجرائم إلا حين تقع كُرْهاً ، أو على القاصرين.

وإنَّما يحتاج الامتناع عن الجريمة الخُلُقيَّة إلى الارتباط بالله ، وذلك وحده هو الضَّمان. الارتباط بالله هو الَّذي يهذِّب النَّفس ، فلا تندفع وراء الجريمة ، وهو الَّذي يقيم أهدافاً أعلىٰ من أهداف الأرض ، تستنفد الطَّاقة الجسديَّة ،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والنَّفسيَّة الفائضة، فتصرفها عن عالم الشَّهوات. وهو الَّذي يقيم في داخل النَّفس حسيباً يراقب كلَّ عملٍ لا تصل إليه يد القانون، ولا تبصره عين الدَّولة، وهو الذي يعوِّض الإنسان عن لذائذه الموقوتة؛ الَّتي يتركها في الأرض أملاً في النَّعيم الدَّائم في السَّماء.

وهو الَّذي يُحدث في نهاية الأمر رهبةً من الجريمة أقوى من رهبة الدَّولة والقانون، وبهذه العوامل كلِّها مجتمعةً، وممتزجةً في العقيدة يمتنع النَّاس عن ارتكاب الجريمة، فإذا أضيف إلى ذلك أن تكون القيود الَّتي تفرضها العقيدة معقولةً في ذاتها، لا تحرم إلا المتاع الزَّائد عن الحدِّ، ولا تكبت الشَّهوات من منبتها؛ فقد استوت لها العدالة مع القدرة على التَّهذيب، وذلك ما يتحقَّق في العقيدة الإسلاميَّة الَّتي تعترف بالشَّهوات على أنَّها الأمر الواقع بالنِّسبة للبشر: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]، ولكنَّها فقط تهذِّب التَّنفيذ العمليَّ لهذه الشَّهوات، فتقف بها عند الحدِّ الَّذي لا يؤذي الفرد، ولا المجتمع، ويتيح في الوقت ذاته قسطاً معقولاً من المتاع][١].

إنَّ الخُلُقَ الكريم اليوم في أزمةٍ قاسيةٍ، إذ انتكست المقاييس، واختلَّت عند كثيرٍ من النَّاس، فأصبح الذَّكاء والدَّهاء عند هؤلاء أن يداهن المرء، ويكذب، ويغشَّ، وأضحت الشَّهوة، والمصلحة عندهم فوق أيِّ قيمةٍ، وصار الرَّجل المحترم في نظرهم هو الَّذي يملك المال الوفير.

وكان عاقبة أمرهم اضطراباً في الأمن، ووهناً أمام الأعداء، واستسلاماً، وانحلالاً في الخُلُق، وضنكاً في المعيشة.

والطَّريق الوحيد للإصلاح، والإنقاذ هو العودة إلى الدِّين «لا يصلح آخر هذه الأمَّة إلا بما صلُح به أوَّلُها ألا وهو الدِّين»[٢] وأن تستيقظ العاطفة الدِّينيَّة،

---

(١) في النَّفس والمجتمع لمحمَّد قطب ٢٠ ـ ٢١.

(٢) هذه الكلمة الرَّائعة للإمام مالك رحمه الله! انظر إغاثة اللَّهفان لابن القيِّم تحقيق محمَّد حامد الفقي ١/ ٢٠٠. وفي طبعة صحَّحها محمد عفيفي ١/ ٣١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وتزداد معرفتهم بالكتاب ، والسُّنَّة ؛ ليعلموا ذاك المعنى النَّبويَّ الكريم ؛ الذي يقرِّره هذا الحديث من أنَّ طاعة الله في حسن الخُلُقِ ، «البرُّ حُسْنُ الخُلُق».

إنَّ الخُلُقَ الحَسَنَ يُساعد على تحقيق مقاصد الشَّريعة ؛ الَّتي يقرِّرها علماء الإسلام مِنْ حفظ الدِّين ، والنَّفس ، والمال ، والعقل ، والنَّسل[1] ، وهذه المساعدة على تحقيق تلك المقاصد تفسِّر تحديد الرَّسول الكريم ﷺ للبرِّ بأنَّه حُسْنُ الخُلُق.

لو كان الخُلُق الحَسَنُ قائماً في دنيانا ـ نحن المسلمين ـ لما وجدت سوقاً للنِّفاق رائجةً ، ولما ألفيت خائناً لأمَّته ، ولا غاشَّاً لإخوانه ، ولا لِصَّاً معتدياً ، ولا مفسداً في الأرض يقطع الطَّريق ، ويسفك الدَّم ، ويروِّع الآمنين ، ولامَّحت كثيرٌ من الظُّلمات الَّتي تخيِّم على كثيرٍ من البيوت ، فتملؤها غمَّاً ، وهمَّاً ، وحسراتٍ ، وفجائع.

ويوم يُخالق المسلمون إخوانهم بالخُلُق الحسن ، ويُمَكِّنُ لِلقِيَم والمُثُل في الحياة الواقعيَّة في مجتمعاتهم ، نتخلَّص من معظم مشكلاتنا الَّتي تشدُّنا إلى أرض التَّخلُّف ، وتقعُد بنا عن اللِّحاق بالأمم المتقدِّمة ، وتنحِّينا عن مكان القيادة ؛ الَّذي أحلَّنا الله إيَّاه عندما جعلَنا شهداء على النَّاس ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ويومئذٍ نتخلَّص من مُعظم أمراضنا ؛ الَّتي تقضُّ مضجعنا ، وتَحرِمُنا السَّعادة ، وتُلهينا عن الانطلاق في أرجاء الدُّنيا ندعو إلى الإسلام: دينِ الحقِّ ، والعدالة ، والخير ، والقوَّة ، والسُّموِّ ، والسَّلام.

وأجدر النَّاس بالاتِّصاف بالخُلُق الحسن الآباء ، والمعلِّمون ، والحكَّام ، والمربُّون ، والدُّعاة المصلحون ؛ لأنَّ الخُلُقَ الكريم أنجعُ وسيلةٍ في التَّربيةِ ، والتَّعليم ، والدَّعوة ، والإصلاح. والمعاملةُ الحسنة تجعل النَّاس أكثرَ استجابةً للدَّعوة.

---

(١) انظر كتاب أستاذنا الزَّرقا ١ / ٩٢ ، وكتاب «الموافقات» للشَّاطبي.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ الَّذين ساءت أخلاقُهم ، ومعاملتُهم يسيئون إلى أنفسهم ؛ إذ تسوء سُمْعتهم في الدُّنيا ، ويتعرَّضون للعذاب الشَّديد في الآخرة ، ويسيئون إلى ذويهم ، وأهليهم ، وجيرانهم ، وكلِّ مَنْ يتَّصل بهم ؛ إذ يعتدون عليهم ، ويؤذونهم أنواعاً من الإيذاء . . . ويغرسون روح الشَّرِّ في أولادهم ، ويُعِدُّونهم ؛ ليكونوا مجرمين ، وقد دلَّت الإحصاءات على أن عدد المجرمين الَّذين ينحدرون من آباءٍ فاسدين يشكِّل النِّسبة الكبرىٰ في عدد المجرمين(١) .

والطَّامة الكبرى عندما يدَّعي بعض هؤلاء الفاسدين في أخلاقهم ، وسلوكهم : أنَّهم دعاةٌ إلى الأفكار الصَّالحة السَّليمة . . . إنَّهم بذلك يُسيئون إلى هذه الأفكار وينفِّرون النَّاس منها . . وما أسهل الدَّعوى!!! وما أكثر المُدَّعين!!

وقوله ﷺ : «والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطَّلع عليه النَّاس» .

قال النَّوويُّ في «شرح مسلمٍ» : [ومعنى : (حاك في صدرك) أي : تحرَّك فيه ، وتردَّد ، ولم ينشرح له الصَّدر ، وحصل في القلب منه الشَّكُّ ، وخوف كونه ذنباً](٢) .

ويوضِّح المقصود من هذه الفقرة العظيمة الحديثُ ؛ الَّذي أورده الإمام النَّوويُّ في «أربعينه» بعد أن روىٰ حديث النَّواس ؛ الَّذي نشرحه الآن ، والحديث عن وابصة بن معبدٍ ، قال : أتيت رسول الله ﷺ ، فقال : «جئتَ تسألُ عن البرِّ؟» قلت : نعم . قال : «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ . البِرُّ ما اطمأنَّت إليه النَّفس ، واطمأنَّ إليه القلب ، والإثم ما حاك في النَّفس ، وتردَّد في الصَّدر ، وإن أفتاك النَّاس ، وَأَفتَوْك» .

قال النَّوويُّ : حديثٌ حسنٌ ، رويناه في مسنديْ الإمامين أحمد بن حنبل ،

---

(١) ذكر د. عبد الوهاب حومد بعض هذه الإحصائيات في كتابه : «الحقوق الجزائيَّة» .
(٢) شرح مسلمٍ ١٦/ ١١١ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والدَّارميِّ بإسنادٍ حسنٍ[1].

إنَّ البرَّ حُسْنُ الخُلُق ، والاستقامةُ على الخير ، وهذا ما تطمئنُّ إليه نفس المسلم ، وقوله ﷺ: «واطمأنَّ إليه القلب» بعد قوله «ما اطمأنَّت إليه النَّفس» من تأكيد المعنى ، ولا يراد من الكلام التَّفريق بين النَّفس والقلب ، الَّذي يمكن أن يكون وارداً في نصوصٍ أخرىٰ.

أمَّا الإثم ؛ فإنَّ النَّفس المسلمة ؛ الَّتي لم تُدَنَّسْ فطرتُها ، لا تطمئنُّ له ، ويتردَّد في صدر صاحبها ، ويحوك.

إنَّ انتفاء الطُّمأنينة عند المسلم الواعي ذي الفطرة النَّقيَّة ملازمٌ للإثم ، وفتوىٰ النَّاس لا تغيِّر من هذا الحكم. فقد يسمع المرء كلاماً يُرضيه ، ويسوِّغ عملَه أمام النَّاس ، ولكنَّه فيما بينه وبين نفسه لا يخلُص من الحرج ، ويبقىٰ في قلقٍ ، واضطرابٍ ، وبعدٍ عن الطُّمأنينة.

ووجْدانُ المسلمِ الحيُّ هو الَّذي يحكم على الحوادث ، والأشخاص ، والتُّصرفات حكماً صحيحاً.

والمسلم الحقُّ ذو وجدانٍ حيٍّ يقظ ، وذو فطرةٍ سليمةٍ من الشَّوائب ، والانحرافات ، ولديه حسٌّ مرهفٌ نقيٌّ ، وشعورٌ بالمسؤولية بين يدي الله تعالى.

ولا يكون المسلم ذا وجهين: يكون أمام النَّاس على حالٍ ، ويكون بينه وبين نفسه على حالٍ أخرىٰ. . . ولا يختلف رأيه في المسألة الواحدة بين السِّرِّ والعلن. الحرام حرامٌ في الحالين كليهما. . وهكذا. . .

إنَّ القِيَم لدىٰ المسلم الصَّادق ثابتةٌ ثبوتاً راسخاً ، لا تبدِّلها مصلحةٌ ، ولا يغيِّرها وضعٌ ، ولا ظرفٌ . وليس هناك أشدُّ غفلةً من الَّذين يظنُّون: أنَّهم يقدرون أن يتعدَّوا حدود الله ؛ إذا ما احتالوا على شكليَّات الأحكام الشَّرعيَّة.

---

(١) ذكر ذلك في الأربعين النَّووية الحديث ٢٧. وهذا وقد أورد ابن رجب في: «جامع العلوم والحكم» نقداً لسند الحديث ، انظره في ٢/ ٩٤ من كتابه.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن هنا كانت الحيل الفقهيَّة ،الَّتي قد نعثرُ عليها عند بعض أدعياء الفقه غَيْرَ واردةٍ في ميزان الشَّرع ، ولا تتَّفق والنُّصوص الدِّينية الثَّابتة والصَّريحة ؛الَّتي تقرِّر : أنَّ الله تبارك وتعالىٰ يعلم السِّرَّ ،وأخفىٰ ، وأنَّه سبحانه يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصُّدور : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ [إبراهيم : ٣٨] ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] وأنَّه تعالى مطَّلعٌ على أعمالنا لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران : ٥] ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ١٦] ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وبعد : أفليس الَّذي يظنُّ : أنَّه يحتال على العليم الخبير من كبار المغفَّلين المساكين؟ نعوذ بالله من الخِذلان ، ومن الضَّلال بعد الهُدى .

إنَّ الإثم ما حاك في النَّفس ، وتردَّد في الصَّدر ، وإن أفتاك النَّاس وأفتوْك .

إنَّ الَّذي يحتال على الرِّبا بتصرُّفاتٍ لا تخفىٰ على النَّاس فضلاً عن الله قد وقع في الإثم ؛ وإن أفتاه النَّاس ؛ لأنَّه يكره أن يطَّلع النَّاس على ما في نفسه .

إنَّ الَّذي يتهرَّب من وجوب الزَّكاة بالحيلة الَّتي يظنُّها تنجيه من عذاب الله ، وهي لا تخفىٰ على الله وقع في الإثم ؛ وإن أفتاه النَّاس ، لأنَّه يسوءُه أن ينكشف أمره أمام الآخرين ، قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤] .

إنَّ الحيل الشَّرعيَّة الَّتي تُحِلُّ ما حرَّم الله مردودةٌ ؛ لأنَّ رسول الله ﷺ يقول : «إنَّما الأعمال بالنِّيات ، وإنَّما لكلِّ امرىءٍ ما نوىٰ»(١) والحديث الَّذي نحن بصدد شرحه يشير إلى أمرٍ يقع كثيراً ، ففي كتب الفقه أقوالٌ عدَّةٌ للمسألة

---

(١) انظر تخريجه عند الحديث التَّاسع عشر من هذا الكتاب .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الواحدة ، وبعضها ضعيفٌ مرجوحٌ ، وربما أشار مَنْ أوردها في كتابه إلى ضعفها. . . ولكنَّها موجودةٌ. . . فيعمد بعض أنصاف المتعلِّمين إلى الإفتاء بها ، وهم ليسوا أهلاً للفتوى. وقد يأتي إنسانٌ واقع في المخالفة ، يلتمس فتوى تخلِّصه من الحرج بينه وبين نفسه ، فيجد واحداً ممَّن ذكرنا ، فيقدِّم إليه الرَّأي المرجوح ، والقول الضَّعيف. . . فالرَّسول الكريم ﷺ يقرِّر : أنَّ فتوىٰ النَّاس لا تغيِّر من حقيقة الموقف شيئاً ، ولا تُخلِّصه من الحرج ، فلْيسألِ المرءُ نفسَه ، وليَسْتَفْتِ قلبَه ، ولا يعوِّلْ على الأقوال الواهية الضَّعيفة.

إنَّ هذا التَّحديد للإثم في قوله ﷺ: «والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطَّلع عليه النَّاس» يضع الإنسان وجهاً لوجه أمام مسؤوليته عن تصرُّفاته الخفيَّة ؛ الَّتي قد تخفىٰ على النَّاس ، ولكنَّها لا تخفىٰ على الله.

إذاً فمعرفة الإثم أمرٌ هيِّنٌ على كلِّ ذي ضميرٍ حيٍّ من المسلمين الصَّادقين ، والأمر واضحٌ أتمَّ الوضوح.

إنَّ على الَّذين يريدون النَّجاة من عذاب الله أن يجتنبوا الوقوع في الإثم ، وليستفتوا قلوبهم المؤمنة اليقظة.

والحديث يدلُّ على أنَّ الله فطر عباده على معرفة الحقِّ ، والسُّكون إليه ، وقبوله ، وركَّز في الطِّباع محبَّة ذلك ، والنُّفور عن ضدِّه.

وهذا المعنى قرَّرته أحاديثُ صحيحةٌ عدَّةٌ:

منها حديث عياض بن حمارٍ المُجاشعيِّ الذي أخرجه مسلمٌ[(١)] في كتاب الجنَّة ، وهو حديثٌ جميلٌ طويلٌ. . . جاء فيه قوله ﷺ عن ربِّه تبارك ، وتعالى: «. . . وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كُلَّهم ، وإنَّهم أتتهم الشَّياطين فاجتالتهم[(٢)] عن دينهم ، وحرَّمت عليهم ما أحْلَلْت لهم ، وأَمَرَتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سُلطاناً. . .».

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٨٦٥.

(٢) أي: ذهبوا بهم ، وأزالوهم عمَّا كانوا عليه ، وجالوا معهم في الباطل. يقال: اجتال الرَّجل الشَّيء: إذا ذهب به.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنها حديث أبي هريرة الَّذي أخرجه البخاريُّ ، ومسلمٌ قال ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه ، وينصِّرانه ، ويمجِّسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمةُ جمعاء ، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعَاء؟»(١) ثمَّ يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ. . .﴾ [الروم: ٣٠].

ولهذا سمَّى الله ما أمر به: معروفاً ، وما نهى عنه: منكراً. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] وقال تعالى في صفة الرَّسول ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأخبر سبحانه: أنَّ قلوب المؤمنين تطمئنُّ بذكره ، ذلك: أنَّ القلب إذا حلَّ فيه نور الإيمان ، وانشرح به ، سكن للحقِّ ، وتقبَّله ، واطمأنَّ به ، ونفر عن الباطل ، وكرهه ، ولم يقبله. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد دلَّ حديث وابصة ـ رضي الله عنه ـ على أنَّ ممَّا يُنصح به المسلمُ أن يرجع إلى قلبه المؤمن النَّيِّر عند الاشتباه ، فما سكن إليه قلبُه ، وانشرح له صدرُه ؛ فهو البرُّ ، والحلال ، وما كان خلاف ذلك ، فهو الإثمُ ، والحرامُ ، وفي ذلك تنميةٌ للحسِّ الإسلاميِّ الواعي ، وتعهُّدٌ للوِجْدان الحيِّ. . . وهذا على المدى الطَّويل يحقِّق الشَّخصيَّة الإسلاميَّة ؛ الَّتي تفكِّر بعقليةٍ إسلاميَّةٍ ومنهجٍ إسلاميٍّ ، وتَزِنُ الأمورَ كلَّها بميزان الشَّرع. وإذا تردَّد القلب في الحكم على أمرٍ ما من الأمور ؛ فعلى المسلم أن يتوقَّف حتَّى يتبيَّن حقيقةَ هذا الأمر ، وموقفَ الشَّرع منه ، وفي الغالب: أنَّ القلب لا يتوقَّف إلا في المُشتبهات ؛

---

(١) انظر مسلم برقم ٢٦٥٨ ، واللَّفظ له ، والبخاريَّ برقم ١٣٥٨ ، وأحمد ٢/ ٢٧٥ و٣٣٣ و٣٩٣ و٤١٠ و٤٨١ ، والتِّرمذيَّ برقم ٢١٣٨ ، وانظر صحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ برقم ١٧٣٧ ، وأبو داود برقم ٤٧١٤ ، ومالكٌ ١/ ٢٤١.
وقد رواه عن النَّبي ﷺ الأسود بن سريع ، انظر ابن حبان موارد الظمآن ١٦٥٨ ، وأحمد ٣/ ٤٣٥ والبيهقيَّ ٩/ ١٣٠.
ورواه عن النَّبي ﷺ جابر ، انظر أحمد ٣/ ٣٥٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لأنَّ الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن . . فإذا توقف ؛ أتاح لنفسه فرصة الدِّراسة ، والمعرفة ، ونجا من الوقوع في الحرام .

والإثمُ مستنكرٌ في المجتمع الإسلاميِّ بحيث ينكره النَّاس عند اطِّلاعهم عليه ، فإذا كره المرء أن يطَّلع النَّاس على أمرٍ تردَّد هو فيه ، وكان قد صدر منه ؛ فليعلم : أنَّه ليس في دائرة الحلال ، وأنَّه هو الإثم ، وليرجع إلى الحقِّ . . إنَّ أعلىٰ مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه أن يستنكره فاعلُه فيما بينه وبين نفسه ، وأن يستنكره المسلمون الآخرون .

إنَّ معرفة الإثم لا تتحقَّق إلا إذا كان المرءُ ممَّن شرح اللهُ صدرَه للإيمان . . .

ولا يَتْرُكْ قولَ المُفتي لمجرّد : أنَّه لم يسترح لفتواه . . بل لا بُدَّ من أن يكون متأثِّماً مِنْ فعل ما سأل عنه ، مرتاباً في علم ذاك ؛ الَّذي يُفتيه ، أو في تديُّنه ، وورعه ، كأن يفتي بالقول الضَّعيف المرجوح ، أو بالهوى ، أو بمجرَّد الظنِّ من غير دليلٍ شرعيٍّ .

أمَّا إذا كان مع المفتي دليلٌ شرعيٌّ ، وعرف حقيقة الأمر الَّذي يسأل عنه ، فالواجب الرُّجوع إليه ، وإن لم ينشرح صدرُه ، وهذا كمعرفة المرء بعض الأحكام الَّتي تخالف ما نشأ عليه واعتادَه ، فإنَّه ربما لا يستريح لها ، ويضيق صدرُه عند سماعها ، وهذا يقع فيه كثيرٌ من الجهَّال المتديِّنين ، فهذا لا عبرة به .

والخلاصةُ : أنَّ ما ورد به النَّصُّ فليس للمؤمن فيه إلا طاعةُ الله ، ورسولِه .

* * *

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الرابع عشر

ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثةٌ لا يكلِّمهم الله يومَ القيامة، ولا يزكِّيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذابٌ أليم: شيخٌ زانٍ، وملكٌ كذابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ».

رواه مسلمٌ في كتابه الإيمان من صحيحه[1]، والنَّسائيُّ[2] بلفظ: «ثلاثةٌ لا يكلِّمهم الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: الشَّيخ الزَّاني، والعائل المزهوُّ، والإمام الكذَّاب».

وأورد النَّسائيُّ روايةً أخرى[3] عن أبي هريرة فيها زيادةٌ، ولفظ هذه الرِّواية: «أربعةٌ يبغضهم الله عزَّ وجلَّ: البيَّاع الحلاَّف، والفقير المُختال، والشَّيخ الزَّاني، والإمامُ الجائر».

وقبل أن ندرس هذا الحديث العظيم، البليغ؛ أود أن أشير إلى أنَّ مسلماً ـ رحمه الله ـ أورده في كتاب الإيمان من «صحيحه» وهذه مزيةٌ رائعةٌ من مزايا دراسة العقيدة في كتب السُّنَّة؛ إذ تربط السُّلوك بالعقيدة. وقد جمع مسلمٌ أحاديث عدَّةً متشابهةً في هذا الموضوع، وقد وضع لها النَّوويُّ العنوان الآتي:

---

(١) صحيح مسلمٍ (طبعة إستانبول ١/٧٢ وطبعة عبد الباقي برقم ١٠٧ وفي شرح النَّوويِّ ٢/١١٥).

(٢) النَّسائيُّ ٥/٨٦.

(٣) النَّسائيُّ ٥/٨٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

[باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمنِّ بالعطيَّة، وتنفيق السِّلعة بالحلف، وبيان الثَّلاثة الَّذين لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم].

وأورد حديث أبي ذرٍّ، وقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يكلِّمهم يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكِّيهم، ولهم عذاب أليم» فقرأها ثلاث مرارٍ، قال أبو ذرٍّ: خابوا، وخسروا. مَنْ هم يا رسول الله؟! قال: «المسبل، والمنَّان، والمُنَفِّق سلعته بالحَلِف الكاذب»[1].

وأورد مسلم في هذا الباب[2] حديثاً آخر عن أبي هريرة وذكر الثلاثة على النحو الآتي: «... رجلٌ على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السَّبيل، ورجلٌ بايع رجلاً بسلعةٍ بعد العصر، فحلف له بالله لأخذها بكذا، وكذا، فصدَّقه؛ وهو على غير ذلك، ورجلٌ بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفىٰ، وإن لم يعطه منها لم يَفِ».

وكلُّها خصالٌ مُهْلِكةٌ، لا يتَّصف بها المؤمن الصَّادق. ولننظر في حديث أبي هريرة، وقد بدأه ﷺ بقوله: «ثلاثةٌ لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا يزكِّيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذابٌ أليم».

و(ثلاثة) مبتدأ، وقد ساغ الابتداء بالنَّكرة؛ لأنَّها وصفت[3].

وقوله: «لا يكلِّمهمُ الله...» فيه اقتباسٌ من القرآن.

ومعنى «لا يكلِّمهم الله» أي: لا يكلِّمهم بما يسرُّهم، وينفعهم، ولا يكلِّمهم تكليم أهل الخير، وذلك كنايةٌ عن غضبه عليهم. وقيل: المراد: الإعراض عنهم.

---

(١) رواه مسلمٌ (١٠٦)، وأبو داود (٤٠٨٧)، والتِّرمذيُّ (١٢١١)، والنَّسائيُّ (٨/ ٢٠٨)، وابن ماجه (٢٢٠٨).

(٢) صحيح مسلم ١/ ٧٢.

(٣) ويجوز أن تعرب خبراً مقدماً والمبتدأ عندئذٍ: شيخٌ زانٍ، وقدِّم الخبر للتَّشويق والاهتمام به تحذيراً. والأوَّل أصحُّ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومعنى قوله: «ولا يزكِّيهم» أي: لا يطهِّرهم من دنس الذُّنوب، ولا يتقبَّل أعمالهم، ولا يثني عليهم.

ومعنى قوله: «ولا ينظر إليهم» أي: لا ينظر إليهم نظر رحمةٍ، أي: يعرض عنهم، ونظرُه سبحانه وتعالى لعباده رحمتُه لهم، ولُطْفه بهم.

والعذاب الأليم: العذاب المؤلم. قال الواحديُّ: هو العذاب الَّذي يخلص إلى قلوبهم وجعه. جاء في «شرح النَّوويِّ»: [وأصل العذاب في كلام العرب من العذب، وهو المنع. يقال: عَذَبْتُه عَذْباً: إذا منعته، وعَذَبَ عذوباً؛ أي: امتنع، وسمِّي الماء عذباً؛ لأنَّه يمنع العطش، وسمِّي العذاب عذاباً؛ لأنه يمنع المُعَاقَبَ من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من فعله][1].

والشَّيخ: مَنْ تقدَّم في السِّنِّ، وذلك من الخمسين فما فوق[2]. والعائل: الفقير، مشتقٌّ من العَيْلة، والعَيْلة: الفقر. وجمع عائل: عالة.

خصالٌ مهلكةٌ يتحدَّث عنها هذا النَّص الكريم هي: الزِّنى[3]، والكذب، والتَّكبُّر. وهي كلُّها قبيحةٌ مذمومةٌ، يُهدَّد صاحبها بشرِّ العواقب وسوء المصير، ولكنَّها في نفرٍ ثلاثةٍ أشدُّ قبحاً. ولذلك فقد شدَّد عليهم؛ إن هم ارتكبوها؛ لأنَّهم يقترفون ما يقترفون من هذه القبائح؛ وهم غير واقعين تحت ضغط الشَّهوة، ولا هم مسوقون إليها بضرورةٍ ملحةٍ، ولا خوفٍ ملجئٍ.

فالزِّنى فاحشةٌ منكرةٌ، يمقت الله صاحبها، وجريمةٌ بشعةٌ تُقوِّض نظام المجتمع، وبهيميَّةٌ متوحِّشةٌ، ينحدر مقترفها عن المستوىٰ الرَّفيع؛ الذي أراده الله للإنسان، وينحطُّ إلى دركة الحيوانيَّة، ليشارك الحيوان الأعجم، وبالاستجابة لداعي الغريزة العمياء الطَّائشة؛ الَّتي لا تلتزم قاعدةً، ولا تقف

---

(١) شرح مسلم للنَّوويِّ ٢/١١٦.
(٢) انظر القاموس. والمصباح المنير.
(٣) ويجوز أن تكتب بالألف، لأنها تمدُّ فتقول: زناء، والقاعدة تجيز كتابة الممدود بالألف إذا قُصِرَ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عند حدٍّ ، وفي ذلك إخلال بالأمن ، وتضييعٌ للأنساب ، وعدوانٌ على الحرمات.

عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «لا يزني الزَّاني حين يزني ؛ وهو مؤمنٌ». أخرجه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأبو داود ، والنَّسائيُّ ، وابن ماجه(١).

اعترف الإسلام بالغريزة الجنسيَّة ، ونظَّمها بأحكم نظامٍ ، ووظَّفها لتسير في الإطار النَّافع للفرد والأمَّة... ولم يشجع الرَّهبانيَّة ، بلْ نفاها ، وذمَّها ، فلا رهبانية في الإسلام ، وجعل ممارسة الغريزة في طريق الحلال أمراً يثاب فاعله. يقول رسول الله ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقةٌ» قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ؛ يكون له فيها أجرٌ؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أما يكون عليه فيها وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال ؛ كان له عليها أجرٌ»(٢).

نعم لم يَدْعُ الإسلام أتباعه إلى الانصراف عن هذه الغريزة ، كما فعلت النَّصرانيَّة المُحَرَّفة... بل جعل الزَّواج من سنَّته ، وندب إليه بكلِّ وضوحٍ ، وقوَّةٍ.

يقول ﷺ: «يا معشر الشَّباب! من استطاع منكم الباءة ؛ فليتزوَّج ، فإنَّه أغضُّ للبصر ، وأحصن للفرج ، وَمَنْ لم يستطع ؛ فعليه بالصَّوم فإنَّه له وِجَاء»(٣).

وقال تعليقاً على مَنْ قال من أصحابه: (أنا لا أتزوَّج النِّساء) قال ﷺ: «... وأتزوَّج النِّساء ، فمن رغب عن سُنَّتي ؛ فليس منِّي»(٤).

وغلَّظ عقوبة مَنْ يبتغي هذه اللَّذة عن غير طريق الزَّواج زجراً لِلْعَادِيْنَ ، وتحذيراً لمن تحدِّثه نفسه بذلك من الآخرين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥

---

(١) البخاريُّ ٧/ ٩١ برقم ٥٥٧٨ ، ومسلم ١/ ٥٤ برقم ٥٧ ، وابن ماجه برقم ٣٩٣٦ ، وأبو داود ٤٦٨٩ ، والنَّسائي ٨/ ٦٤ و٦٥.

(٢) صحيح مسلم برقم ١٠٠٦.

(٣) صحيح البخاريِّ برقم ١٩٠٥ ، ومسلمٌ برقم ١٤٠٠ ، وأبو داود برقم ٢٠٤٦ ، والتِّرمذيُّ ٢/ ١٦٧ برقم ١٠٨١ والنَّسائيُّ ٤/ ١٦٩ ـ ١٧١ و٦/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٤) البخاريُّ ٥٠٦٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

غلَّظ عقوبة الزَّاني، فجعلها الجَلْدَ مئة جلدةٍ، والنَّفيَ لغير المُحْصَنِ، والرَّجم حتَّى الموت للمُحصن، وهو أشدُّ العقوبات الَّتي جاء بها الإسلام؛ لأنَّ الزِّنى في نظره من أكبر الكبائر، ولذلك نجده في كتاب الله مقروناً بالقتل، والشِّرك، والسَّرقة:

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

* وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ . . .﴾ [الممتحنة: ١٢].

* وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ﴾ [الإسراء: ٣١ ـ ٣٣].

أرأيت كيف قرن الزِّنى في هذه الآيات بأعظم الكبائر.. بالشِّرك، والقتل، والسَّرقة.. إنَّ ذلك يدلُّ على ضخامة هذه المعصية، وكونها من الكبائر الموبقات.

قال القاضي عياض: سبب تخصيصه ﷺ الشَّيخ الزَّاني، والملك الكذَّاب، والعائل المُستكبر، بالوعيد المذكور: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم التزم المعصية المذكورة مع بُعْدِها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يُعذر أحدٌ بذنبٍ، لكنْ لمَّا لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورةٌ مزعجةٌ، ولا دواعٍ... أشبه إقدامُهم عليها المعاندة، والاستخفاف بحقِّ الله تعالى، وقَصْدَ معصيته، لا لحاجةٍ غيرها، فإنَّ الشيخ لكمالِ عقله، وتمام معرفته بطولِ ما مرَّ عليه من الزَّمان، وضعف أسباب الجماع، والشَّهوة للنِّساء،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

واختلال دواعيه؛ لذلك عنده ما يُريحه من دواعي الحلال في هذا ، ويخلّي سرَّه منه ، فكيف بالزِّنى الحرام؟!

وإنَّما دواعي ذلك الشَّبابُ ، والحرارة الغريزيَّة ، وقلَّة المعرفة ، وغلبة الشَّهوة ؛ لضعف العقل ، وصغر السِّنِّ. . .][1].

فإذا صدرت هذه الجريمة المنكرة ممَّن انقطعت دواعيها في نفسه ، وضعُفت مُغرياتها ، ودوافعها عنده ؛ دلَّ ذلك على انحطاطه ، وانسلاخه من إنسانيَّته ، وانحداره إلى بهيميَّة حقيرةٍ ، وعلى تأصُّل الشَّرِّ في نفسه ، وعلى استخفافه بشريعة الله ، ولذلك كان الشَّيخ الزَّاني مستحقّاً لهذا الوعيد الشَّديد.

* والكذب نقص في رجولة المرء ، ينبئ عن جبنه ، وخسَّة طبعه ، وهو سمةٌ من سمات المنافق ؛ الذي جاء وصفه في الحديث الصَّحيح ، وذلك في قوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان»[2] وهو من أبشع الخصال. . . والمؤمن الصَّادق لا يكذب ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥] وهو طريقٌ إلى النَّار ، وسببُ الشقاء في الدُّنيا ، «. . . إنَّ الكذب يهدي إلى الفجور ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار»[3]. . . والكذَّاب مُزدرى منبوذٌ ، لا يثق النَّاس به ، ولا يطمئنون إلى كلامه.

ولكن قد يضعف الإنسان ، فيخاف ، ويحملُه خوفه على الكذب.

وقد يرغب في منفعةٍ ، ويطمع في منزلةٍ ، فيحمله ذلك على الكذب.

أمَّا المَلِكُ ؛ الَّذي لا يخشىٰ أحداً من النَّاس ، ولا يحتاج إلى مداهنة أحدٍ ، أو مصانعته ، فما عذره إن كذب؟ إنَّه غنيٌّ عن الكذب مطلقاً.

ولذلك كان كذبه دليلاً على سوء الطَّويَّة ، والاستخفاف بالدِّين ، وبالخلق

---

(١) شرح مسلم للنَّوويِّ ٢/ ١١٧.
(٢) البخاريُّ ١/ ١٢ برقم ٣٣ ، ومسلمٌ ١/ ٥٦ برقم ٥٩.
(٣) البخاريُّ ٨/ ٢١ برقم ٦٠٩٤ ، ومسلمٌ برقم ٢٦٠٧ وأبو داود ٤/ ٤٠٧ برقم ٤٩٨٩ ، وأحمد ١/ ٣٨٤ ، والترمذيُّ ٣/ ١٣٧ برقم ١٩٧١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكريم ، وكان مستحقّاً هذا العقاب الشّديد . قال القاضي عياض :

[وكذلك الإمام لا يخشىٰ أحداً مِنْ رَعِيَّته ، ولا يحتاج إلى مداهنته ، ومصانعته ، فإنَّ الإنسان إنَّما يُداهن ، ويصانع بالكذب ، وشبهه مَنْ يحذره ، ويخشىٰ أذاه ، ومعاقبته ، أو يطلب عنده بذلك منزلةً أو منفعةً][1] .

* والكِبْرُ دناءةٌ وقحةٌ تدلُّ على خلوِّ النَّفس من معاني الخير ، والنُّبل ، وما تكبّر أحدٌ إلا لِضَعَةٍ يجدها في نفسه[2] ، والمُتكبّر يريد أن يعوِّض عن نقصه بالتَّعالي ، والكبرياء ، فالتكبُّر تعويضٌ عن ذاك النَّقص الَّذي يحسُّ به العاجزون الَّذين لم يستطيعوا أن ينجحوا في الحياة ، ولا أن يصلوا إلى انتزاع إعجاب مخالطيهم ، فلجؤوا إلى الكِبْر ، ليوهموا أنفسهم : أنَّهم فوق الناس .

والكِبْر قيدٌ ، وذُلٌّ ، وإثم .

إنَّه قيد ؛ إذ يسجن صاحبه في ذاته ، ونفسه ، فلا يستطيع أن يتجاوزها ، ولا يقوىٰ على أن يفكِّر في غيرها . ومن هنا كان الكِبْر حائلاً دون استكمال الفضائل ، والتخلُّص من النَّقائص ، ويقعد بالمرء عن الآفاق الرَّحيبة الَّتي يتطلَّع إليها المُتواضع ، ويبلغها ، فلا يتعلَّم ما يَجْهَل كما قيل :

الْعِلْـمُ حَـرْبٌ لِلْفَتَـى الْمُتَعَـالِـي ... كَـالسَّيْـلِ حَـرْبٌ لِلْمَكَـانِ الْعَـالِـي[3]

والكِبْر ذلٌّ يجلب إلى صاحبه المَهانة ؛ ذلك لأنَّه عندما يتكبَّر على النَّاس ، وينظر إليهم نظرة استخفافٍ ، واستهانةٍ يقابلونه بالكراهيَّة ، والازدراء ، أو بالحقد ، والمكر ؛ إن لم يستطيعوا مواجهته .

والكِبْرُ إثمٌ يجلب إلى صاحبه سَخَطَ الجبَّار ، وغضَبَه .

ويحاول المتكبِّر أن يتمسَّك بمسوِّغاتٍ تُقنعه هو وحدَه بسلامة تصرُّفه ، ويصدِّق نفسه أنَّه أرقىٰ من النَّاس . . . وإن كانت هذه المسوِّغات تافهةً لا قيمة لها ، ولا شأن .

---

(١) شرح مسلم ٢/١١٧ .
(٢) هذا من كلام لعمر رضي الله عنه .
(٣) انظر التبيان للنّوويّ ص ٣٧ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكثيراً ما تكون وفرةُ المال ، وضخامةُ المسكن ، وأناقةُ الملبس أسباباً تدفعه إلى الكِبْر ، وتبدو له حُجَجاً كافيةً ليقتنع النَّاس بأنَّ صاحبها فوقهم ومن مستوىً رفيع ، وهذا لا يكون إلا من إنسان عاميٍّ قصير النَّظر ، فإن كان المتكبِّر فقيراً ؛ دلَّ تكبُّره على حقارة نفسه ؛ لأنَّه لم يتكبَّر استجابةً لدافع الغرور بالغنى ، والبطر بالنِّعمة . . . وعلى ذلك فهو مستحقٌّ لذاك الوعيد المُخيف الوارد في الحديث .

وعندما يسود التَّواضُع في المُجتمع تعمُّ المحبَّة ، ويزول البغي .

عن عياض بن حمارٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الله أوحىٰ إليَّ أن تواضعوا ؛ حتى لا يفخَر أحدٌ على أحدٍ ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ» رواه مسلمٌ ، وأبو داود ، وابن ماجه(١) .

قال القاضي عياض : [وكذلك العائل الفقير قد عدم المال ، وإنَّما سبب الفخر ، والخيلاء ، والتَّكبُّر ، والارتفاع على القرناء الثَّروةُ في الدّنيا ؛ لكونه ظاهراً فيها ، وحاجاتُ أهلها إليه ، فإذا لم يكن عنده أسبابها ؛ فلماذا يستكبر ، ويحتقر غيره؟ فلم يبق فعلُه إلا لضربٍ من الاستخفاف بحقِّ الله تعالى](٢) .

ويحسن بنا أن نورد بعض الأحاديث عن النّبيِّ ﷺ في الكِبْرِ :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما نقصت صدقةٌ من مالٍ ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزّاً ، وما تواضع أحدٌ لله إلا رَفَعه» . رواه مسلمٌ ، والتِّرمذيُّ(٣) .

* عن طارق بن شهابٍ ، قال : خرج عمر بن الخطَّاب إلى الشَّام ، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح ، فأتوا على مخاضةٍ ، وعمر على ناقةٍ له ، فنزل عنها ، وخلع خفَّيه ، فوضعهما على عاتقه ، فخاض بهما المخاضة .

---

(١) مسلمٌ ٤/ برقم ٢٨٦٥ (رقم الحديث في كتاب الجنَّة ٦٤) وأبو داود ٤/ برقم ٤٨٩٥ ، وابن ماجه ٢/ برقم ٤٢١٤ .

(٢) شرح مسلم ٢/ ١١٧ .

(٣) مسلمٌ برقم ٢٥٨٨ ، والترمذيُّ برقم ٢٠٢٩ .

فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هذا: تخلع خفَيك، وتضعُهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة؟ ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك.

فقال عمر: أوّه!! لو قال ذا غيرُك أبا عبيدة! جعلتُه نكالاً لأمَّة محمَّد، إنَّا كنّا أذلَّ قومٍ، فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزَّنا الله به؛ أذلّنا الله. رواه الحاكم، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشَّيخين، ووافقه الذَّهبيُّ[(١)].

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنَّه قال على المنبر:

أيُّها النَّاس! تواضعوا، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تواضع لله؛ رفعه الله، وقال: انتعش؛ نعشك الله! فهو في أعين النَّاس عظيم، وفي نفسه صغير، ومن تكبَّر؛ قصمه الله، وقال: اخسأ! فهو في أعين النَّاس صغيرٌ، وفي نفسه كبير»[(٢)].

* عن جابرٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من أحبِّكم إليَّ وأقربكم منِّي مجلساً يوم القيامة أحاسِنُكم أخلاقاً، وإنّ أبغضَكم إليَّ، وأبعدكم منِّي مجلساً يوم القيامة الثَّرثارون، والمتشدِّقون، والمُتفيهقون»[(٣)].

قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثَّرثارين، فما المُتفيهقون؟ قال: «المُتكبِّرون». رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ غريب[(٤)].

* وعن أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ، قالا: قال رسول الله ﷺ: «العزُّ إزارُه،

---

(١) المستدرك ١/ ٦١ ـ ٦٢.

(٢) رواه أحمد، والبزَّار، والطَّبرانيُّ، وهذا لفظه. قال المنذريُّ: ٣/ ٢٣١: [ورواةُ أحمد، والبزَّار يحتجُّ بهم في الصَّحيح].

(٣) الثَّرثار: الكثير الكلام تكلُّفاً. والمتشدِّق: هو المتكلم بملْءِ شدقيه تفاصحاً، وتعاظماً، واستعلاءً على غيره، وهو معنى المُتفيهق أيضاً.

(٤) التِّرمذيُّ برقم ٢٠١٨.

والكبرياء رداؤُه ، فمن ينازعني عَذَّبْتُه» . رواه مسلمٌ[١] .

* وعن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال : «لا يدخل الجنَّة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كِبْر» .

فقال رجل : إنَّ الرَّجل يُحبُّ أن يكون ثوبُه حسناً ، ونعلُه حسنةً ؟

قال : «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال . الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ[٢] وغَمْطُ النَّاس» . رواه مسلمٌ ، والتِّرمذيُّ[٣] .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال :

«مَنْ جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : يا رسول الله ! إنَّ إزاري يسترخي إلا أن أتعاهده .

فقال له رسولُ الله ﷺ : «إنَّك لست ممَّن يفعله خيلاء»[٤] وهذا لفظ البخاريِّ .

وإنَّه لتهديدٌ رهيبٌ ذاك الوعيد الَّذي ورد في الحديث . . . إنَّه يتضمَّن عقوبةً شديدةً في ذاك الموقف العصيب ، الَّذي يتطلَّع فيه كلُّ إنسان إلى رحمة الله ، إنَّه يومٌ ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [المعارج : ١١ ـ ١٤] . في ذلك اليوم يتعرَّض هؤلاء الثلاثة إلى غضب الله ، وعذابه الأليم ، فما أفظع جزاءَهم ! وما أصبرهم على النَّار !

في الحديث تأثُّرٌ واضحٌ بالقرآن الكريم . . وفي ذلك صورٌ رائعةٌ . وفيه ما يسمَّىٰ في علم البديع بالجمع ، وهو أن يجمع المتكلِّم بين شيئين ، فأكثر في حكمٍ واحدٍ .

وفي الحديث : أنَّ المعصية تتفاوت باختلاف مقترفها ، وأحواله .

وفيه ما يقرِّر رعاية الأسباب والدَّواعي ، والحديث كلُّه يبيِّن بشاعة هذه الكبائر .

* * *

---

(١) مسلمٌ برقم ٢٦٢٠ .

(٢) بطر الحق : دفعه ، وردُّه . وغَمْطُ النَّاس : احتقارُهم ، وازدراؤهم .

(٣) مسلمٌ برقم ٩١ ، والتِّرمذيُّ برقم ١٩٩٨ .

(٤) رواه مالكٌ ، والبخاريُّ برقم ٥٧٨٤ ، ومسلمٌ برقم ٢٠٨٥ ، والترمذيُّ برقم ١٧٣٠ .

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحديث الخامس عشر

قبول الظاهر من الناس

عن المقداد بن الأسود ، وكان حليفاً لبني زُهرة ، وكان ممَّن شهد بدراً مع رسول الله ﷺ ، قال: قلت لرسول الله ﷺ: أرأيتَ إن لقيتُ رجلاً من الكفَّار ، فاقتتلنا ، فضرب إحدى يديَّ بالسَّيف ، فقطعها ، ثمَّ لاذ منِّي بشجرةٍ ، فقال: أسلمت لله [وفي روايةٍ: فلمَّا أهويت لأقتله ؛ قال: لا إله إلا الله] أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟

فقال رسول الله ﷺ: «لا تَقْتُلْهُ».

فقلت: يا رسولَ الله! إنَّه قطع إحدى يديَّ ، ثمَّ قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله؟.

قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَقْتُلْهُ ، فإنْ قتلتَهُ ؛ فإنَّه بمنزلتك قبل أن تقتُله ، وإنَّك بمنزلته قبل أن يقول كلمتَه الَّتي قال». رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأبو داود ، والنَّسائيُّ في الكبرى(١).

قد يكون من المفيد ـ قبل دراسة الحديث ـ أن نشرح بعض الألفاظ

(١) البخاريُّ برقم ٤٠١٩ ، ومسلمٌ برقم ١٥٥ ، وأبو داود برقم ٢٦٤٤ ، والسُّنن الكبرى ٥/ ١٧٤ ، وانظر تحفة الأشراف ٨/ ٩٠٢ ، ومشكل الآثار للطَّحاويِّ ١/ ٤٠٧ وتاريخ بغداد ٤/ ٢٤٢ ، وفتح الباري ١٢/ ١٨٩ ، وشرح النَّووي ٢/ ٩٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والجمل ؛ الَّتي وردت فيه ، فذلك يُعينُنا على فهم المعنى ، واستجلاء النَّواحي البيانيَّة ؛ الَّتي حفَل بها الحديث .

* قوله (ثمَّ لاذ منِّي بشجرةٍ) : اللَّوذ بالشَّيء : الاستتار به ، والتحصُّن به .

وقوله (فإن قتلتَه فإنَّه بمنزلتك قبل أن تقتُله) أي : إنَّه معصوم الدَّم محكومٌ بإسلامه .

* وقوله (وإنَّك بمنزلته قبل أن يقول كلمته الَّتي قال) أي : إنَّك مباح الدَّم بالقصاص ؛ إن أصرَّ ورثتُه على القِصاص منك ، لا أنَّكَ بمنزلته في الكفر .

* وقوله (فاقتتلنا) اقتتل : صيغة (افتعل) ذكر العلماء : أنَّ أشهر المعاني التي تدلُّ عليها هذه الصِّيغة ستَّةُ معانٍ ، هي :

الاتخاذ ، نحو : (اختتم زيدٌ) ، أي : اتَّخذ زيدٌ خاتماً .

والاجتهاد ، والطَّلب ، نحو (اكتسب) أي : طلب الكسب .

والمشاركة ، نحو : (اقتتل زيدٌ وعمرٌو) أي : تقاتلا .

والإظهار ، نحو : (اعتذر) .

والمبالغة ، نحو : (اقتدر) .

والمطاوعة ، نحو : (جمعته فاجتمع) .

ومعنى هذه الصِّيغة في الحديث المشاركةُ .

راوي هذا الحديث الَّذي أجرىٰ الحوار مع رسول الله ﷺ هو المقداد بن الأسود ، وكان حليفاً للأسود الزُّهري ، وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة البهرانيُّ[1] . قال الكلبيُّ : كان عمرو بن ثعلبة أصاب دماً في قومه ، فلحق بحضرموت فحالف كندة ، وتزوَّج امرأةً هناك ، فولدت له المقداد ، فلمَّا كَبِرَ المقداد ؛ وقع بينه وبين أبي شمر بن حجر الكنديِّ خلافٌ ، فضرب المقداد

---

(١) نسبة إلى بهراء بن الحاف بن قضاعة (انظر شرح النَّوويِّ ٢/ ١٠٢) وجاء في اللُّباب ١/ ١٩٢ : وهي قبيلةٌ نزل أكثرها مدينة حمص .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رجلَه بالسَّيف ، وهرب إلى مكَّة فحالف الأسود بن عبد يغوث الزُّهري ، وتبنَّى الأسودُ المقدادَ ، فصار يقال: المقداد بن الأسود[١] ، فلمَّا نزلت الآية الكريمة ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٥] قيل: المقداد بن عمرو ، ولكنَّ النسبة السَّابقة هي الَّتي غلبت عليه ، واشتهر بها فكان مشهوراً بالمقداد بن الأسود .

وقد أسلم المقداد قديماً ، قال عبدُ الله بن مسعودٍ: أوَّل مَنْ أظهر الإسلام بمكَّة سبعةٌ ، منهم المقداد[٢] .

وهاجر إلى الحبشة ، وشهد بدراً ، والمشاهد بعدها ، وكان فارساً يوم بدرٍ ، حتَّى إنَّه لم يثبت أنَّه كان فيها على فرسٍ غيرُه .

وهو صاحب الكلمة الرَّائعة يوم بدرٍ عندما قال النَّبيُّ ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها النَّاس!» فقام المقداد ، فقال: يا رسول الله! امض لما أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك ، فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون ، والله! لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمَادِ ؛ لجالدنا معك من دونه حتَّى تبلغه ، فدعا له بخيرٍ[٣] .

وذكر ابن حجر في «الإصابة»[٤]: أنَّه كان طويلاً ، آدم ، كثير الشَّعر ، أعين[٥] ، مقروناً[٦] ، يصفِّر لحيته ، عظيم البطن ، وكان له غلامٌ روميٌّ . فقال له: أشقُّ بطنك فأُخْرِجُ مِنْ شَحْمِهِ حتَّى تلطُف[٧] ، فشقَّ بطنه ، ثمَّ خاطه ،

---

(١) الإصابة ٣/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ .
(٢) شرح مسلم ٢/ ١٠٢ .
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٦ ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ٣/ ٢٦٢ ونور اليقين لمحمد الخضري ١٠٩ .
(٤) الإصابة ١/ ٤٣٣ .
(٥) رجلٌ أعين: واسع العين .
(٦) المقرون الحاجبين .
(٧) أقول: كون النَّاس يفكِّرون في ذاك الزمان بمثل هذا الصنيع سبقٌ لا شك فيه ، فنحن الآن نسمع أن بعض المُصابين بالسِّمَنِ يقدمون على إجراء عمليةٍ يزيلون بها كمِّيات الشَّحم من=

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فمات المقداد رضي الله عنه ، وهرب الغلام. وكان موته سنة ٣٣ في خلافة عثمان ، وهو ابن سبعين سنة.

وقد أورد ابن حجر في فضله حديثاً أخرجه التِّرمذيُّ ، وابن ماجه ، وقال ابن حجر: وسندُه حسنٌ ، وفيه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ الله أمرني بحبِّ أربعةٍ وأخبرني: أنَّه يحبُّهم. . .» وذكر منهم المقداد[1].

هذا الحديث واحدٌ من أحاديث عدَّةٍ يصلح أن يصوِّر لنا رغبة الصَّحابة ـ ذاك الجيل المثاليِّ ـ في معرفة دين الله ، وقد كان المقداد رضي الله عنه في سؤاله ناجحاً في تصوير حالةٍ معيَّنةٍ تصويراً بالغ الدَّلالة: رجلٌ كافر يقطع يد رجلٍ مسلمٍ في ساحة الحرب. . فيلحقُه المسلم ، ويدركه ، ويتمكَّن منه ، ولمَّا أدركَ الكافر: أنه مقتولٌ احتمىٰ بشجرةٍ يدفع عن نفسه الضَّربة القاتلة ، ثمَّ يسارع إلى النُّطق بالشَّهادتين ، ويعلن إسلامه.

إنَّ غريزة حبِّ الانتقام تبرز هاهنا في ذِرْوة الظُّهور ، ومكَّن لها من ذلك الظُّهور تمكُّن المسلم من الكافر ؛ الَّذي قطع يده ، وكون هذا الكافر لم ينطق بالشَّهادتين إلا عندما رأىٰ السَّيف مُصْلَتاً فوق رأسه ، وكان قبل لحظاتٍ يفتك الفتك الذَّريع بالمسلمين.

أرأيتم إلى دقة التَّصوير في هذه الحالة؟ وبعد عرض هذا الوضع المثير المعقَّد ؛ الذي يتضمَّنه السُّؤال يأتي الجواب من رسول الله ﷺ قاطعاً: «لا تَقْتُلْهُ» فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.

إنسانٌ بُتِرَتْ يدُه ، وبلغ الألمُ منه مبلغاً يكاد يُفقِده السَّيطرة على أعصابه ، وتصرفاته ، وقطرات الدَّم ما تزال تنزِف منه ، وحياتُه مهدَّدةٌ إن لم يتوقَّف

= بطونهم ، والعجيب كيف قبل المقدام اقتراح غلامه؟ ولعلَّ الغلام أقنعه بمقدرته الطِّبيَّة ، وبسهولة العمليَّة. . . ترىٰ ما الأدوات الَّتي استعملها؟ وكيف شقَّ بطنه دون مخدِّرٍ؟ إنَّه خبر يلفت النَّظر.

(١) ابن ماجه برقم ١٤٩ ، والتِّرمذيُّ ٥/٦٣٦ برقم ٣٧١٨ ، والثَّلاثة الباقون: عليٌّ ، وأبو ذرٍّ ، وسلمان.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النَّزيف ، أو إنْ تعرَّض الجرح إلى الالتهاب ، وقد تمكَّن من عدوِّه الَّذي أفقده يده إلى الأبد . . . وعندما همَّ بردِّ العُدوان ، والانتقام منه قال كلمة التَّوحيد .

في هذه الحالة على هولها يجب أن يقف عند حدود الله . . فالجواب صريحٌ حازمٌ من رسول الله ﷺ : «لا تَقْتُلْهُ» .

من خلال ذلك الموقف الَّذي يطلب من المسلم أن يقفه تبدو مكانة العقيدة في حروب الإسلام الَّتي يخوضها .

إنَّ هذا التَّصوير الَّذي نلمسه في الحديث ، والَّذي يشدُّنا ، ويثير تشوُّقنا إلى معرفة التَّصرُّف السَّليم ؛ الَّذي ينبغي أن نتصرَّفه في مثل هذه الحالة لا يمكن أن تؤدِّي العبارات الأخرىٰ ما أدَّاه ذاك التَّصوير .

وهذه الصُّورة الَّتي افترضها المقداد صورةٌ واقعيَّةٌ ممكنةٌ . . بل لقد وقعت مع أسامة رضي الله عنه ، كما جاء في الحديث المتَّفق عليه[1] . قال أسامة :

بعثنا رسول الله ﷺ في سريَّةٍ ، فصبَّحنا الحُرُقات [اسم موضع] من جُهينة ، فهزمناهم ، ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم ، فلمَّا غشيناه ؛ قال : لا إله إلا الله . فكفَّ عنه الأنصاريُّ ، وطعنتُه برمحي ؛ حتَّى قتلته . فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرتُه للنَّبيِّ ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «أقال : لا إله إلا الله ، وقتلتَه؟» .

قلت : يا رسول الله! إنَّما كان متعوِّذاً ، إنَّما قالها خوفاً من السِّلاح .

قال : «أفلا شققت عن قلبه حتَّى تعلم : أقالها ، أم لا؟»

[والمعنى : أفلا شققت عن قلبه لتنظر هل قالها القلب ، واعتقدها ، وكانت فيه ، أم لم تكن فيه . بل جرت على اللِّسان فحسب؟ يعني : وأنت لست بقادرٍ على هذا ، فاقتصر على اللِّسان فقط ، ولا تطلب غيره] .

فما زال رسول الله ﷺ يكرِّرها عليَّ حتَّى تمنَّيت أنِّي أسلمت يومئذٍ : (أقال لا إله إلا الله ، وقتلته؟) وفي روايةٍ : (أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله) . وفي

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٨٧٢ ، ومسلمٌ برقم ١٥٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

روايةٍ: (قال: فكيف تصنع بلا إله إلاالله إذا جاءت يوم القيامة).

قال: يا رسول الله! استغفر لي.

قال: «فكيف تصنع بلا إله إلاّ الله؛ إذا جاءت يوم القيامة».

فجعل لا يزيد على أن يقول: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله؛ إذا جاءت يوم القيامة»؟!

قال سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ: وأنا والله لا أقتل مسلماً حتَّى يقتلَه ذو البُطين (يعني أسامة)].

قال: قال رجلٌ: ألم يقل الله: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]؟!

فقال سعد: قد قاتلنا حتَّى لا تكون فتنةٌ، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتَّى تكون فتنةٌ.

وقصَّة أسامة الموحية المُثيرة القائمة على الحوار تستحقُّ أن نقف عندها لولا أنَّنا الآن في صدد شرح حديث المقداد، ولكنَّني أقف وقفةً سريعةً أمام هذا الَّذي رَدَّ على سعدٍ رضي الله عنه مستشهداً بالآية الكريمة على غير وجهها، فكان ردُّ سعدٍ شديداً.

قال ما معناه: نحن أصحاب محمَّد ﷺ حقَّقنا المراد من هذه الآية، فقاتلنا حتَّى لا تكون فتنةٌ. أما أنت، وأصحابُك؛ فإنَّكم تريدون أن تقاتلوا حتَّى تكون فتنةٌ. وهذا يذكِّرني بحال كثيرٍ من الَّذين لا يفقهون النُّصوص، ولا يستوعبون معانيها على الوجه الصَّحيح... فيقعون في المُخالفة من حيث يريدون الاتِّباع، وفي جوابه بيانُ: أنَّ الآية لا تعارض الحديث.

إنَّ المقداد رضي الله عنه عندما سأل هذا السُّؤال، وعرض تلك الحالة المفترضة، سأل عن أمرٍ ممكن الوقوع، بل وقع ما يقرب منه مع أسامة رضي الله عنه، كما رأينا آنفاً.

ولكنَّ الصُّورة الَّتي عرضها المقداد فيها توضيحٌ أكثر للحكم، وأبلغ،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفيها تشديدٌ على الأخذ بالظَّاهر ولو كان هناك ما يدعو إلى الانتقام من جهةٍ ، وإلى الرِّيبة في صدق الرَّجل من جهةٍ أخرىٰ.

ففي هذه الصُّورة ذكرٌ لعدوان الكافر ، وقطعِه يدَ المسلم ، وهذا لم يكن مثله في قصَّة أسامة ، ومع ذلك فإنَّه عندما قال كلمة التَّوحيد بعد أن تمكَّن منه المسلم المجاهد لم يجد عليه سبيلاً ؛ لأنَّ تلك الكلمة عصمت دمَه على ما كان منه .

شرع الله للمسلمين القتال في سبيله ، وحضَّهم على ذلك حضّاً عظيماً ، وهذا الحديث يوضِّح الغاية من القتال في الإسلام . . إنَّها إعلاء كلمة الله ، ونصر دينه ، ولم تعهد الدُّنيا في الجاهلية الَّتي كانت قبل الإسلام قتالاً لمثلٍ أعلىٰ ، ولغايةٍ نبيلة. بل كانت الحروب قائمةً على القهر ، والجبروت ، والمنافع الماديَّة ، وكان الدَّافع إلى القتال القصد إلى تحصيل منفعةٍ عاجلةٍ لشخص الطَّاغية ، ومطامعه في السِّيادة ، والتحكُّم ، أو لصالح قومه ، وأغراضهم العنصريَّة ، أو لمصلحة القبيلة ، وسيطرتها ، ولتحصيل المغانم . . أمَّا أن تكون الغاية ساميةً تتمثَّل في رضا الله ، وإعلاء كلمته ، فذلك هو ما شهدَتْه الدُّنيا في الإسلام .

إنَّ المسلم المقاتل يحمل السِّلاح للدَّعوة إلى الحقِّ ، فإن استجاب النَّاس له ؛ كانوا مسلمين ، لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا . ولذلك لا يجوز أن يقوم أيُّ مسوِّغٍ لقتل من أراد الدُّخول في الإسلام من الكفَّار المستهدفين للقتال . وهذا المعنى الإسلاميُّ يُعْرَضُ كثيراً في نصوص من الكتاب ، والسُّنة : فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦] . ومن ذلك قوله ﷺ: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ؛ فذلك في سبيل الله»(١) .

والحديث الَّذي بين أيدينا يقرِّر بوضوحٍ : أنَّ المقام الأول للعقيدة ؛ فالقتال

---

(١) متَّفقٌ عليه من حديث أبي موسىٰ . رواه البخاريُّ ١/ برقم ١٢٣ ، ومسلمٌ ٣/ برقم ١٩٠٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مشروعٌ ما دام يسعىٰ إلى هذا الغرض النَّبيل؛ الَّذي حدَّده الإسلام: وهو أن يكون الدِّين لله.

والحديث يبيِّن بوضوح: أنَّ العقيدة تستعلي في القتال على الغرائز البشريَّة؛ التي تستعبد كثيراً من النَّاس، كحبِّ الانتقام. وأنَّ العقيدة ينبغي أن تحكُم تصرُّفاتِ الناس، وتعلوَ فوق أيِّ اعتبار.

إنَّ تاريخنا على مرِّ عصوره يقيم الأدلَّة الكثيرة على أنَّ العقيدة هي التي كانت ـ وما زالت ـ تحكم تصرُّفات الفرد المسلم الملتزم بالإسلام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ... وكانت تتضاءل أمامها كلُّ القوىٰ، والاعتبارات الأخرىٰ، وكلُّ العلاقات والرَّوابط؛ الَّتي تقوم في حياة النَّاس.

* فهذا وحشيُّ بن حرب؛ الَّذي قتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ عندما قدِم على رسول الله ﷺ مسلماً مع وفد أهل الطَّائف لم يصبه شيءٌ من الأذى ما دام قد دخل في الإسلام، وأصبح معصوم الدَّم. يقول وحشي ـ كما روى البخاريُّ في صحيحه[1] ـ: [فلما رآني رسول الله ﷺ قال: «آنت وحشي؟» قلت: نعم. قال: «أنت قتلت حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما بلغك. قال: «فهل تستطيع أن تغيِّب وجهك عنِّي؟»] هذا كلُّ ما قاله لوحشيٍّ؛ الَّذي فجعه بمقتل عمِّه أسد الله[2] سيِّد الشهداء، وتحقَّق لوحشي ما سمعه من رجلٍ: والله ما يقتل محمدٌ أحداً دخل في دينه[3].

* والقريب الكافر هدفٌ للقتل، ولو كان أباً، أو ابناً، أو أخاً، ومن أروع ما يروىٰ في ذلك كلمةُ عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ في أعقاب غزوة بدرٍ، عندما سأله النَّبيُّ ﷺ رأيه في الأسارى، فاقترح عليه أن يمكِّنه من قريبٍ له؛ ليضرب عنقه، ويمكِّن عليّاً، وحمزة من أقربائهم ليضربوا أعناقهم. وقد

---

(١) البخاريُّ برقم ٤٠٧٢.

(٢) انظر سير أعلام النُّبلاء ١/ ١٧٢ وانظر ترجمة وحشي في الإصابة ٣/ رقم التَّرجمة ٩١١١.

(٣) انظر سير أعلام النُّبلاء ١/ ١٧٥.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

أورد ابن كثيرٍ(١) كلمة عمر رضي الله عنه كما يأتي :

[أرى أن تمكِّنني من فلانٍ ـ قريبٍ لعمر ـ فأضرب عنقه ، وتمكِّن عليّاً من عقيلٍ فيضرب عنقه ، وتمكِّن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه ، حتَّى يعلم الله : أنَّه ليست في قلوبنا موادَّةٌ للمشركين] .

وذكر ابن حجر في الإصابة(٢) أنَّ أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدرٍ ، فنزلت فيه الآية : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

[المجادلة : ٢٢] .

وهو فيما أخرجه الطَّبرانيُّ بسندٍ جيِّدٍ عن عبد الله بن شوذَب ، قال : جعل والد أبي عبيدة يتصدَّىٰ لأبي عبيدة يوم بدرٍ ، فيحيد عنه ، فلما أكثر قصده ، فقتله ، فنزلت ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا . . .﴾ .

ومن ذلك كلمة عليٍّ بن أبي طالبٍ لعمرو بن عبد ودٍّ : (أمَّا أنا فإني لا أكره أن أهرق دمك) جواباً على قول عمرو : (غيرك يا بن أخي يا بن أبي طالب فإنِّي أكره أن أهرق دمك) وإنْ كان شيخ الإسلام ابن تيميَّة ينتقد هذه القصَّة(٣) .

وهذا الحديث العظيم يدلُّ على أنَّ الحقد لا ينبغي أن يحكم تصرُّفات المسلم الصَّادق . . بل عليه أن يتحرَّر بدافع من الدِّين من أيِّ مظهرٍ من مظاهره . . ويستأصل شأفته من ذاته . . . وهذا أمرٌ يمكن أن يصل إليه المرء بترويض نفسه ، وتربيتها ، وأخذها بالحزم ، وحملها على كظم الغيظ ، وإقناعها بالتزام شرع الله ، وبتذكيرها بما أعدَّ الله لعباده الَّذين يخافون مقام

---

(١) البداية والنِّهاية ٣/ ٢٩٧ .

(٢) الإصابة ٢/ ٢٤٤ ورقم الترجمة ٤٤٠٠ .

(٣) انظر القصَّة في البداية والنهاية ٤/ ١٠٥ ـ ١٠٦ وانظر نقدها في «منهاج السُّنَّة» لابن تيميَّة ٨/ ١٠٦ ـ ٢٢٠ ، وهي مذكورة في كتاب الطُّرف .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ربهم ، وينهون نفوسهم عن الهوىٰ ، ويؤثرون هديه على دوافعهم الغريزيَّة . . .

وقد يكون ذلك في بادئ الأمر صعباً ، ولكنّ المسلم الحازم يبلغه في نهاية المطاف . . . كما بلغه الجيل المثاليُّ من أصحاب رسول الله ﷺ . . . بينما يقوم كيان الحركات الشُّيوعيَّة ، وعمادُها على الحِقْد . . منه تنطلق ، وعن روحه تصدُر في كلِّ تصرفاتها .

أرأيت الَّذي ضرب يد المسلم ، وقطعها كيف يصبح معصوم الدَّم بعد أن يسلم لله؟ ولا يجيز الإسلام لأتباعه أن يخضعوا لأهوائهم ، وغرائزهم . . بل يرتفع بهم إلى مستوىً أرقىٰ ، فقتالهم لله ، وإحجامهم لله ، وما يصيبهم فهو في سبيل الله ، ومن دخل في الإسلام فهو أخٌ لهم في الله ، مهما كان حاله فيما سبق . . فيستجيب المسلمون لذلك .

إنَّ الإنسان بالإسلام يبدأ حياةً جديدةً ، والإسلام يَجُبُّ ما قبله من الذُّنوب . . . فكلُّ من يتعرَّض له بسوءٍ ، أو أذىً تجري عليه أحكام القصاص ، ومن هذه الأحكام أن يقتل به قاتِلُه . . إنَّه يصبح مساوياً للمسلمين من كلِّ وجهٍ ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم .

والإسلام عندما يقبل كلَّ مَنْ يُعلن كلمة التَّوحيد إنَّما يطبِّق مبدأ إجراء أحكام النَّاس على الظاهر ، ويكل إلى الله سرائرهم ، ولأنَّه سبحانه هو وحده الَّذي يعلم ما يسرُّون ، وما يُعلنون . . ولا يطَّلع على ما في القلوب إلاَّ علام الغيوب . . .

ذلك لأنَّ فتح باب المعاملة على ما يظنُّ النَّاسُ في حقيقة تصرفات الآخرين ، ونيَّاتهم ، وعدم إجراء أحكامهم على الظَّاهر قد ينشر الإجرام ، ويمكِّن أصحاب الأغراض الخسيسة مِنْ تحقيق أغراضهم ؛ بحجَّة أنَّ تصرُّف خصومهم الظَّاهر لا يوافق مقصدهم الحقيقيَّ ، فكلُّ إنسان مجرم يستطيع أن يجد لجريمته عذراً في أنَّ تصرفه مع صاحبه إنَّما كان لأنَّ قصده يجعله مستحقّاً للعقوبة ، وإن كان ظاهر عمله متَّفقاً مع أحكام الشَّرع .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ رسول الله ﷺ سدَّ هذا الباب . . وبذلك سدَّ طُرق الاستغلال وقطع دابر الظُّلم .

وهو في الوقت نفسه يحذِّر المنافقين ، وينذرهم بسوء المصير ، ويخبرهم : أنَّه سبحانه مطَّلعٌ عليهم ؛ إذ لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ، وهو علاَّم الغيوب ، يعلم السِّرَّ ، وأخفىٰ .

والحكمة مِنْ قبول الظَّاهر من النَّاس : أنَّ في ذلك مصلحةً أخروية للنَّاس محقَّقةً ، ومصلحةً للإسلام في نشره ، والتَّمكين له . ولنضربْ على ذلك المثل الآتي :

أسلم رجلٌ كنَّا نرتاب في أمره ، أو يغلب على ظنِّنا : أنَّه لم يؤمن بالإسلام عن عقيدةٍ ، ولا عن اقتناع بصلاحيَّته . . بل أسلم ؛ لجلب مصلحةٍ دنيويَّةٍ ، أو لدفع عقوبةٍ ، أو أذيَّةٍ . . إنَّ قبولنا إسلامه الظَّاهر ، وحفظ حياته فرصةٌ نتيحها له ليطَّلع عن كثبٍ على حياة المسلمين ، وواقعهم الفاضل ، فيدخل في قلبه حبُّ الإسلام ، ويُقْبِل عليه من أعماقه . . . وفي العصر الأوَّل كان المؤلَّفة قلوبهم ، وهم أصناف ، منهم قومٌ أسلموا ؛ ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم ، وكانوا يُعْطَوْنَ تأليفاً لقلوبهم ، وتثبيتاً لهم على الإسلام[1] .

إذاً فليكن هذا الرَّجل متظاهراً بالإسلام . . فنحن نقبل منه ظاهره ، ونعامله عليه ، ونكِل أمره إلى الله . . وليعشْ في وسط المسلمين الواعين الصَّادقين العاملين بالإسلام ، فستقوده فطرتُه ، وموازنتُه بين حياة الكافرين الَّتي يعرفها ، وحياة المسلمين النَّظيفة السَّامية ، الكريمة ، العادلة ؛ الَّتي يتعرَّف عليها سيقوده ذلك كلُّه إلى الانقياد إلى الحقِّ عن اقتناع . ولنفرض : أنَّ هذه الفرصة التي أتيحت له لم تنفعْهُ وبقي سرّاً على ما كان عليهِ من الكفر . إنَّ ذلك لا يضرنا

---

(١) ذكر العلماء : أنَّ المؤلفة قلوبهم يكونون مسلمين ، وكفاراً ، فقد يعطىٰ الكفَّار من الزَّكاة ؛ ليسلموا ، وهذا نوعٌ ، وقد يعطى الكفَّار ؛ ليذبُّوا عن الإسلام ، وهذا نوعٌ آخر ، وقد يعطىٰ من دخل في الإسلام ؛ ليثبت إسلامهم ، أو يعطوا ليسلم نُظَراؤُهُمْ ، وهذان نوعان آخران (انظر كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى في سورة التَّوبة : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ . . . ﴾ الآية وكتب الفقه في مبحث مصارف الزَّكاة) .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

في شيءٍ؛ لأنَّه خضع لنظام الإسلام، ودولته، وبقيت الفرصة متاحةً له، ولذرِّيته من بعده... فإن مات هو على حاله فإنَّ ذرِّيَّته تهتدي، وتندمج مع المجتمع الإسلاميِّ.

وإنَّ قبول الإنسان في دائرة المسلمين، واعتباره واحداً منهم بغضِّ النَّظر عن ماضيه، ودينه، وسلوكه السَّابق يدلُّ على تسامح هذا الدِّين، وسعة صدره، وبعده عن العصبيَّات، والعنصريَّات الضَّيقة الَّتي تأبىٰ أن تُدخِل فيها من ليس منها. فالإسلامُ إذاً دينٌ عالميٌّ.

وهذه العالميَّة تمكِّن أمَّة الإسلام من أن تستفيد من مواهب الأمم الأخرى وخصائص عقليَّاتها، ذلك؛ لأنَّ الإنسان كائنٌ عملت في تكوينه عوامل متعدِّدةٌ من بيئيةٍ، واقتصاديَّةٍ، واجتماعيَّة، ووراثيَّةٍ، فعندما تقوم هذه الجنسيات المختلفة في خدمة فكرةٍ يعطي هذا التَّعدُّد تلك الفكرة العمقَ، والنُّضج، والإبداع.

وهذا الَّذي كان بالنسبة إلى حضارتنا حيث عملت فيها كل الطَّاقات، والمواهب، والخصائص؛ الَّتي كانت من أممٍ متعدِّدةٍ، فكانت حضارةً إسلاميَّة، عمل في خدمتها العربيُّ، والفارسيُّ، والروميُّ، والتُّركيُّ، والشَّرقيُّ، والغربيُّ.

هـذا وإن إسلام الكافر يعصم دمه، ويمكِّنه من التَّمتُّع بالحقوق الَّتي للمسلمين، ولكنَّ ذلك لا يُحلُّه منزلة القيادة والرِّياسة... إذ لا يصل إلى هذه المرتبة إلاَّ مَنْ تُقدِّمه أعمالُه، وسلوكُه، وبلاؤه، وأمورٌ أخرىٰ تدلُّ على حسن إيمانه.

وهنا أحبُّ أن أشير إلى أمرٍ يقع فيه كثيرٌ من المغفَّلين بدافعٍ طيِّبٍ مِنْ حُسْن الظنِّ بالآخرين، والفرح بدخول ناس في الإسلام، ولا سيَّماً إن كانوا أعلاماً مشهورين.. إنهم يُحِلُّون هؤلاء الَّذين أسلموا محلاً كبيراً لا يتناسب مع واقعهم... فهم يسألونهم عن أحكامٍ تفصيليَّةٍ من أحكام الشَّريعة، وهم حديثو عهدٍ بالإسلام، لا يعرفون هذه الأمور، ويريد هؤلاء السُّذَّج من أولئك الذين أسلموا حديثاً أن يرسموا لهم المخطَّطات، وأن يوضِّحوا لهم المُشكلات.. وقد يطلعونهم على ما لديهم من أسرارٍ، وعلى ما يعرفون من أوضاعٍ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولو كان هؤلاء المُغَفَّلون يملكون شيئاً من الأمر ؛ لوسدوا إليهم كثيراً من المسؤوليَّات . . . وهذا شيءٌ غير سديدٍ .

وإذا عرف أعداؤنا هذا التَّساهل منَّا ، خطَّطوا ؛ ليفسدوا علينا ديننا ، ودنيانا عن طريق نفر ممَّن يدخل في الإسلام ظاهراً ، وقد حصل شيءٌ من ذلك ، وما خَبَرُ يهود الدُّونمة عنَّا ببعيدٍ .

إنَّ دخول الرَّجل في الإسلام يعصم دمَه ، ويجعلُه واحداً من المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم . . . ثُمَّ يعامل بعمله ، وسلوكه . . إنَّنا ينبغي أن نفيد من إمكانيات هؤلاء الذين يدخلون في الإسلام ، ومن معلوماتهم عن واقع مجتمعاتهم ، وعن نواحي الضَّعف في عقيدتهم السَّابقة ، وعن مفاسد الأنظمة الجاهليَّة ؛ التي يعرفون منها أكثر ممَّا نعرف ، وأن نستعين بهم في نقل حقائق ديننا إلى لغتهم بأسلوبٍ جزلٍ عندهم ، وأن نعرف منهم النَّواحي الَّتي يرجىٰ التَّأثير بها على قومهم ؛ إن طُرقت في دعوتنا إيَّاهم إلى الإسلام .

أمَّا بالنسبة إلى معرفة الدِّين ، فإنَّنا نحن المطالبون بتعليمهم ، وإرشادهم ، وتوضيح كثيرٍ من الأمور إليهم .

وهكذا كان سلفُنا الصَّالح يتعامل مع مَنْ يدخل في هذا الدِّين ، وكانوا يُكرمونهم ، ويحافظون على حياتهم ، وأموالهم ، ويصُونون أعراضهم ، وكراماتهم ، ولكنَّهم لا يجعلونهم فوراً محلَّ القيادة ، والتَّوجيه ، والإفتاء ، والتَّخطيط ، وفي سيرة سيِّدنا عمر رضي الله عنه أمثلةٌ كثيرةٌ من ذلك ، لقد كان يستفيد من الطَّاقات ؛ الَّتي تدخل في الإسلام ، لكنَّه لم يكن يعهد إليها بالمسؤوليَّات العسكريَّة ، ولا الإداريَّة ، ولا الفكريَّة .

وقد أرسل عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى قائدٍ من قوَّاده أربعة نفرٍ من الأبطال الأشدَّاء ؛ الَّذين عادوا إلى الإسلام بعد أن كانوا مرتدِّين ، وقال له في رسالته : أرسلت إليك فلاناً ، وفلاناً ، وكلُّ واحدٍ منهم يعدل ألفاً ، وإيَّاك أن تؤمِّر واحداً منهم على عشرةٍ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وذكر ابن كثيرٍ[1]: أنَّ طلحة بن خويلد من الشُّجعان المذكورين، والأبطال المشهورين، وأنَّ عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ كتب له بالوصاة إلى الأمراء أن يُشاوَر، ولا يُوَلَّى شيئاً من الأمر، ونُقل عن ابن سعدٍ: أنَّه كان يُعدل بألف فارسٍ لشدَّته، وشجاعته، وبصره بالحروب. وكذلك فقد ذكر ابن كثير[2]: أنَّ عمرو بن معديكرب ارتدَّ، ثمَّ تاب، وحسن إسلامه.. ثم أمره عمر ـ رضي الله عنه ـ بالمسير إلى سعدٍ، وكتب بالوصاة به، وأن يشاوَر، ولا يولَّى شيئاً.

وجاء في «مختار الأغاني» لابن منظورٍ: كتب عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى سعد بن أبي وقَّاصٍ: إنِّي قد أمددتك بألفي رجلٍ: عمرو بن معديكرب، وطليحة بن خويلد، فشاوِرْهما في الحرب، ولا تولِّهما شيئاً[3].

وأخيراً فإنَّ هذا الحديث قد ضمَّ صورةً جميلةً للحوار الذي كان يقوم بين الرَّسول، وأصحابه أحياناً ليقفوا على أحكام الشَّريعة.

وفيه صورةٌ لواقع الصَّحابة الَّذين كانوا وقَّافين عند حدود الله، إذا بُلِّغوا حُكْماً من أحكام الله؛ وقفوا عنده لا يتعدَّونه.

وفيه زجرٌ شديدٌ، وتهديدٌ، ووعيدٌ لمن يقتل إنساناً بعد أن ينطق بالشَّهادتين، وقد ورد على وجهٍ قد يُفهم منه ـ لأوَّل وهلةٍ ـ كفرُ مَنْ يفعل ذلك «وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته الَّتي قال» وإن كان المعنى كما قرَّرنا: أنَّه بمنزلته في استحقاق القتل.

وفيه: أنَّ مَنْ قال: (أسلمتُ لله) فقد أسلم.

وفيه جوازُ السُّؤال عن النَّوازل قبل وقوعها؛ إن كانت مِمَّا يُتَوَقَّع، أمَّا ما نُقِلَ عن بعض السَّلف من كراهة ذلك؛ فهو محمولٌ على ما يَنْدُر وقوعُه،

(١) البداية والنِّهاية ٧/ ١١٨، وانظر سير أعلام النبلاء ١/ ٣١٧، وتاريخ الطَّبري ٣/ ٥٥٧.
(٢) البداية والنهاية ٧/ ١١٩.
(٣) مختار الأغاني ٧/ ٣٧١ طبع المكتب الإسلامي.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأمّا ما يمكن وقوعُه ؛ فالسُّؤال عنه مشروعٌ .

وفيه الموازنة بين حالين لكلٍّ مِنَ القاتل والمقتول، والموازنة أسلوبٌ بيانيٌّ بليغٌ[(١)] .

وفيه دعوةٌ إلى كظم الغيظ ، واستئصال شأفة الحِقْد من النَّفس .

* * *

---

(١) انظر ما كتبناه عنها في «التَّصوير الفنِّي في الحديث النَّبويِّ» ص ٥١٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث السادس عشر

الجـور

عن النُّعمان بن بشيرٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال:

تصدَّق عليَّ أبي ببعض ماله، فقالت أمِّي عَمْرَةُ بنتُ رواحة: لا أرضىٰ حتَّى تُشْهِدَ رسولَ الله ﷺ! فانطلق أبي إلى رسول الله ﷺ؛ ليشهدَ على صدقتي.

فقال له رسول الله ﷺ: «أفعلتَ هذا بولَدِكَ كلِّهم؟» قال: لا.

قال: «فلا تُشْهِدني إذاً، فإنِّي لا أشهدُ على جَوْرٍ. أَشْهِدْ علىٰ هذا غيري. اتَّقوا الله، واعدِلوا في أولادكم».

فرجع أبي، فردَّ تلك الصَّدقة[1].

رواه مالكٌ في «الموطَّأ» في كتاب الأقضية في باب ما لا يجوز من النُّحْل.

ورواه أحمد في المُسند، ورواه البخاريُّ في «صحيحه» في كتاب الهبة: في باب الهبة للولد، وإذا أعطىٰ بعض ولده شيئاً؛ لم يجز حتَّى يَعْدِلَ بينهم، ويعطيَ الآخر مثلَه، ولا يُشهد عليه.

---

(1) الموطأ ٢/ ٧٥١، والمسند ٤/ ٢٦٨، وما بعدها، والبخاريُّ برقم ٢٥٨٦ و٢٥٨٧، ومسلمٌ برقم ١٦٢٣، والنَّسائيُّ ٦/ ٢٥٨، وأبو داود برقم ٣٥٤٢، وابن ماجه برقم ٢٣٧٥، والتِّرمذيُّ برقم ١٣٦٧، وابن حبَّان (موارد الظمآن ص ٢٨٠) والأدب المفرد برقم ٩٢، وشرح معاني الآثار للطَّحاوي ٤/ ٨٤ ـ ٩٠، وفتح الباري ٥/ ٢١٠، وشرح النَّوويِّ ١١/ ٦٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ورواه مسلمٌ في «صحيحه» في كتاب الهبات: في باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

ورواه النَّسائيُّ في «سننه» في كتاب النُّحْل، بل إنَّ كتاب النُّحْل كُلَّه قصره على هذا الحديث، فقد أورده بطرقه، وذكر اختلاف ألفاظ النَّاقلين له (٦/ ٢٥٨).

ورواه أبو داود في «سننه» في كتاب البيوع في باب الرَّجل يُفَضِّل بعض ولده (٣/ رقم الحديث ٣٥٤٢).

ورواه ابن ماجه في «سننه» في أوَّل كتاب الهبات في باب الرَّجل ينحَل ولده (٢/ رقم الحديث ٢٣٧٥).

ورواه التِّرمذي في «جامعه» في كتاب الأحكام في باب ما جاء في النُّحل والتَّسوية بين الولد (٢/ ٢٩٢).

ورواه ابن حبَّان (موارد الظمآن ص٢٨٠ رقم الحديث ١١٤٧).

ورواه الطَّحاوي في «شرح معاني الآثار» في باب الرَّجل ينحَل بعض بنيه دون بعضٍ. ورواه البخاريُّ في «الأدب المفرد» في باب أدب الوالد، وبرِّه بولده.

وقد روى هذا الحديث عن النُّعمان[1] عددٌ كثيرٌ من التَّابعين:

منهم: عروةُ بن الزُّبير عند مسلمٍ، والنَّسائيِّ، وأبي داود.

ومنهم: أبو الضُّحى (مسلم بن صبيح الكوفيُّ) عند النَّسائيِّ، وابن حبَّان، وأحمد، والطَّحاويِّ.

ومنهم: المُفَضَّل بنُ المُهَلَّبِ عند النَّسائيِّ، وأحمد، وأبي داود.

ومنهم: عبد الله بن عُتبة بن مسعودٍ عند أحمد.

ومنهم: عونُ بن عبد الله عند أبي عوانة.

ومنهم: الشَّعبيُّ عند البُخاريِّ، ومسلمٍ، وأحمد، وأبي داود،

---

(١) هذا وقد أخرج مسلمٌ الحديث أيضاً عن جابرٍ (انظره برقم ١٦٢٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والنَّسائيِّ ، وابن ماجه ، وابن حبَّان ، وغيرهم ، ورواه عن الشَّعبيِّ كثيرٌ[(١)] .

ومن المفيد أن نورد بعض الرِّوايات الَّتي فيها زيادةٌ في هذه القصَّة ؛ لتكتمل الصُّورة ، فَمِنْ مزايا هذه الطَّريقة : أنَّها تُعطينا نصّاً مُتكاملاً ، فما نقص في روايةٍ تكمِّله روايةٌ أخرىٰ . وقد جمع مسلمٌ عشر رواياتٍ لهذا الحديث في الباب الَّذي أشرنا إليه آنفاً .

* ففي روايةٍ لمسلم (رقم ٩) أنَّ بشيراً قال : إنِّي نحلت ابني هذا غلاماً كان لي . فقال رسولُ الله ﷺ : «أكُلَّ ولدِك نَحَلْتَهُ مثل هذا» قال : لا . قال : «فأرْجِعْهُ» . وفي روايةٍ لمسلمٍ (رقم ١٠) «فارْدُدْهُ» .

وفي روايةٍ لمالكٍ في «الموطَّأ» ٢/ ٧٥١ : «فارْتَجِعْهُ» .

* وفي رواية لمسلمٍ (رقم ١٢) : [قال النُّعمان ؛ وقد أعطاه أبوهُ غلاماً ، فقال له النَّبيُّ ﷺ : «ما هذا الغلام؟» قال : أعطانيه أبي . قال : «فكلَّ إخوته أعطيته كما أعطيت هذا؟» قال : لا . قال ﷺ : «فَرُدَّهُ»] .

* وفي روايةٍ لمسلمٍ (رقم ١٤) : [النُّعمان بن بشير : أنَّ أمَّه بنت رواحة سألت أباه بعض الموهوبة[(٢)] من ماله لابنها ، فالتوى بها سنةً[(٣)] ، ثمَّ بدا له[(٤)] ، فقالت : لا أرضىٰ حتَّى تُشهِد رسولَ الله ﷺ على ما وهبت لابني ، فأخذ بيدي ، وأنا يومئذٍ غلامٌ ، فأتى رسولَ اللهِ ﷺ ، فقال :

ـ يا رسول الله ! إنَّ أمَّ هذا بنت رواحة أعجبها أن أُشْهِدَك على الَّذي وَهَبْتُ لابنها .

ـ فقال رسول الله ﷺ : «يا بشير ! ألك ولدٌ سوى هذا؟» ـ قال : نعم .

---

(١) انظر «فتح الباري» ٥/ ٢١١ .
(٢) أي : بعض الأشياء الموهوبة .
(٣) أي : مَطَلَها .
(٤) أي : ظهر له في أمرها ما لم يظهر أوَّلاً .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ـ قال: «أكلَّهم وهبتَ له مثلَ هذا؟» ـ قال: لا. ـ قال: «فلا تُشْهِدْني إذاً، فإنِّي لا أشهد على جَوْرٍ»].

* وفي روايةٍ (رقم ١٦): [«لا تُشْهِدْنِي على جَوْرٍ»].

* وفي روايةٍ له (رقم ١٧): [ثمَّ قال: «أيسرُّك أن يكونوا إليك في البرِّ سواءً» قال: بلى! قال: «فلا إذاً»].

* وفي روايةٍ له (رقم ١٨): [قال: «أليس تريد منهم البرَّ مثل ما تريد من ذا؟» قال: بلى! قال: «فإنِّي لا أشهد» قال ابن عون: فحدَّثت به محمَّداً، فقال: إنَّما حُدِّثْتُ: أنَّه قال: «قاربوا بين أولادكم»].

وأخرج الطَّحاويُّ في شرح معاني الآثار ٨٦/٤ من طريق المغيرة عن الشَّعبيِّ، عن النُّعمان، ولفظه: «سوُّوا بين أولادكم في العطيَّة، كما تحبُّون أن يسوُّوا بينكم في البرِّ».

* وفي روايةٍ لأبي داود: [قال: «هذا جورٌ» أو قال: «هذا تلجئةٌ، فَأَشْهِدْ على هذا غيري» قال: «أليس يَسُرُّك أن يكونوا لك في البرِّ، واللُّطف سواءً؟» قال: نعم، قال: «فأشْهِدْ على هذا غيري. إنَّ لهم عليك من الحقِّ أن تعدِل بينهم، كما أنَّ لك عليهم من الحقِّ أن يَبرُّوك»].

* وفي روايةٍ للنَّسائيِّ: «ألا سوَّيت بينهم» وفي روايةٍ له، ولابن حبَّان: «سوِّ بينهم».

هذه الرِّوايات كلُّها عن النُّعمان بن بشيرٍ، رضي الله عنه، وقد أخرج مسلمٌ هذا الحديث من رواية جابرٍ[1]، رضي الله عنه، وفيها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أفكلَّهم أعطيت مثل ما أعطيتَه؟» قال: لا. قال: «فليس يَصْلُح هذا، وإنِّي لا أشهد إلا على حقٍّ».

وبعد أن أوردت أهمَّ الرِّوايات؛ الَّتي فيها زيادةٌ، والَّتي تُسْهِمُ في توضيح الحادثة، وتبيِّن المناسبة، الَّتي قرَّر فيها رسول الله ﷺ هذا التَّوجيه التَّربويَّ

(١) مسلمٌ برقم ١٦٢٤ برقم ١٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكريم أحبُّ أن أقدِّم بين يدي دراستي للحديث نظراتٍ لغويةً سريعةً في بعض الألفاظ.

- ففي قوله ﷺ: «أفعلت هذا بولدك كلِّهم؟» وردت كلمة الولد. والولد يكون واحداً، ويكون جمعاً، ويطلق على الذَّكر، والأنثى، وكذا الوُلْد (بوزن القُفل) يكون واحداً، وجمعاً، وإن كان يغلب عليه أنَّه جمعُ ولدٍ كأَسَد، وأُسْد.

- وكلمة (كلُّ) هي اسمٌ موضوع لاستغراق أفراد المُنكَّر، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ولاستغراق أجزاء الفرد المعرَّف كقولك: كلُّ زيدٍ حسنٌ، وهي إمَّا أن تكون تابعاً، وعندئذٍ تجب إضافتها، كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ﴾ [الحجر: ٣٠] وإمَّا ألَّا تكون تابعاً، كقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَۖ﴾ [الفرقان: ٣٩] وقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ولفظ (كلُّ) حكمه الإفراد، والتَّذكير. ومعنى (كلُّ) بحسب ما تضاف إليه.

- والجور: الظُّلم. جاء في «مفردات الرَّاغب»: [جار عن الطريق، ثمَّ جُعل ذلك أصلاً في العدول عن كلِّ حقٍّ، فَبُنِيَ منه الجَوْرُ].

وفي قول النُّعمان: (فردَّ تلك الصَّدقة) الصَّدقة: ما أعطيته في ذات الله تعالى للفقراء، وهي ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القُربة، كالزَّكاة؛ لكنَّ الصَّدقة في الأصل تُقال للمُتطَوَّع به، والزَّكاة تُقال للواجب. وقيل: يُسمَّى الواجب صدقةً إذا تحرَّى صاحبه الصِّدْق في فعله، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

لكنَّ الصَّدقة وردت في هذا الحديث بمعنى الهبة، وهذا ما سنذكره في الفوائد الَّتي تستنبط من الحديث، ولهذا الاستعمال ظلٌّ محبَّبٌ، إذ ينفي عن الصَّدقة ذلك الظِّلَّ المُخجل لمن تُعطى إليه، فالهبة الودودة صدقةٌ.

تربية الأولاد أمرٌ عظيم يوليه الإسلام ما يستحقُّ من الرِّعاية.. إنَّها الخُطوة الأولى المُتقدمة في بناء المجتمع المتماسك صاحب الرِّسالة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لقد اهتمَّ الإسلام بالولد من قبل أن يُولد ، وذلك عندما حثَّ أباه على اختيار الزَّوجة الصَّالحة المتديِّنة ؛ الَّتي ستطبع في نفوس أبنائها ، وبناتها المفاهيم الإسلاميَّة عن الحياة ، والكون ، والإنسان ، وتغرس فيهم القيم الفاضلة ، والمُثل العُليا ، كما تراها من منظورٍ إسلاميٍّ . يقول ﷺ : «فاظفر بذات الدِّين تربت يداك»[١] .

وقال أبو الأسود الدُّؤليُّ لبنيه : قد أحسنت إليكم صغاراً ، وكباراً ، وقبل أن تولدوا .

قالوا : وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولَد؟ قال : اخترت لكم من الأمَّهات من لا تُسَبُّون بها ، وأنشد الرِّياشيُّ :

فَأَوَّلُ إِحْسَانِي إِلَيْكُمْ تَخَيُّرِي ... لِمَاجِدَةِ الأَعْرَاقِ بَادٍ عَفَافُهَا[٢]

ثمَّ أوصىٰ الإسلام أباه بحسن انتقاء اسمِه ، فرغَّب في بعض الأسماء ، ونهى عن التَّسمية ببعض الأسماء .

وقد فصَّل الإمام النَّوويُّ في ذلك في كتاب الأسماء من كتابه «الأذكار»[٣] .

وكذلك فقد عقد ابن القيِّم في «زاد المعاد»[٤] فصلاً في هديه ﷺ في الأسماء ، والكُنَىٰ .

وعدَّ رسول الله ﷺ تربية الولد مسؤوليةً يُحاسب عليها المرءُ ؛ إن قَصَّر فيها ، فقال : «كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته»[٥] .

وأمر والده أن ينشِّئه على الصَّلاة ، وقراءة القرآن ، فقال ﷺ : «علِّموا

---

(١) رواه البخاريُّ برقم ٥٠٩٠ ، ومسلمٌ برقم ١٤٦٦ ، وأبو داود برقم ٢٠٤٧ ، وابن ماجه برقم ١٨٥٨ ، والتِّرمذيُّ برقم ١٠٨٦ ، والنَّسائيُّ ٦/ ٨٦ .

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» ١٤٢ .

(٣) الأذكار ط عبد القادر الأرناؤوط ص ٢٤٥ .

(٤) زاد المعاد ٢/ ٣٣٤ .

(٥) البخاريُّ ٢/ ٥ برقم ٨٩٣ ، ومسلمٌ ١٨٢٩ ، وأبو داود ٣/ ١٨٠ برقم ٢٩٢٨ ، والتِّرمذيُّ ٣/ ٣٣ برقم ١٧٠٥ ، وأحمد ٢/ ٥ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أولادكم الصَّلاة ؛ إذا بلغوا سبعاً ، واضربوهم عليها ؛ إذا بلغوا عشراً ، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»[1] . وجعل الإسلام تربية الولد حقّاً له على الوالد:

أخرج البخاريُّ في «الأدب المفرد» عن ابن عمر: أنَّه قال: «كما أنَّ لوالدك عليك حقّاً كذلك لولدك عليك حقٌّ»[2] .

وأخرج البخاريُّ أيضاً في «الأدب المفرد» عن نُمَيْر بن أوسٍ: أنَّه كان يقول: «الصَّلاح من الله ، والأدب من الآباء»[3] .

ومن أهمِّ الأمور الَّتي ينبغي للأب أن يراعيها في تربية أولاده تخيُّره الأقران الصَّالحين لأولاده ؛ لأنَّه ﷺ يقول: «المرء على دين خليله ؛ فلينظر أحدُكم من يُخالل»[4] ويقول: «مثلُ الجليس الصَّالح ، والجليس السُّوء كمثل صاحب المِسك ، وَكِيْرِ الحدَّاد ، لا يَعْدَمُك من صاحب المِسْك: إمَّا أن تشتريَه ، أو تجدَ ريحَه . وكيرُ الحدَّاد يحرِقُ بيتك ، أو ثوبَك ، أو تجدُ منه ريحاً خبيثةً»[5] .

إنَّ معظم ما يلاقيه الجيل المعاصر من أزماتٍ اجتماعيَّةٍ ، ومشكلاتٍ نفسيَّةٍ عائدٌ إلى فساد التَّربية ، ومن المنتظر أن تتضاعف هذه الأزمات ، والمشكلات في المستقبل ؛ إن لم تُعالج ، وتُتدارك ، ذلك: أنَّ أُسُسَ الأسرة الفاضلة الَّتي كانت تقوم على مبادئ الخير ، والفضيلة تتعرَّض إلى الهجوم المركَّز ، وقد ضعُفت ، وتضعضعت في بعض القطاعات ، والبُلدان ، وتأثَّر المجتمع الإسلاميُّ بأوضاع غريبةٍ عن المسلمين كلَّ الغرابة ، وأصبح كثيرٌ من المفاهيم الإسلاميَّة بعيداً عن بعض أبنائنا ؛ الَّذين تأثَّروا بتلك الأوضاع ، وانحرفت

---

(١) مختصر زوائد مسند البزَّار لابن حجر ص ١٨٩ ، ورقم الحديث ٢٢٢ ، ومجمع الزَّوائد ١/ ٢٩٤ ، وأورده الألبانيُّ في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٠٢٦ .

(٢) الأدب المفرد ١٧ . وانظر ضعيف الأدب المفرد للألبانيِّ ص ٢٩ رقم ٢١ .

(٣) الأدب المفرد ١٧ ، وانظر ضعيف الأدب المفرد للألبانيِّ ص ٢٩ برقم ٢٠ .

(٤) أبو داود ٤/ ٣٥٩ برقم ٤٨٣٣ ، والتِّرمذيُّ ٣/ ٢٧٨ برقم ٢٣٧٨ وأحمد ٢/ ٣٠٣ ، والمستدرك ٤/ ١٧١ .

(٥) البخاريُّ برقم ٢١٠١ و٥٥٣٤ ، ومسلمٌ ٨/ ٣٨ برقم ٢٦٢٨ ، وأحمد ٤/ ٤٠٥ ، والمستدرك ٤/ ٢٨٠ ، وفتح الباري ٤/ ٣٢٣ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أسرُهم لأسبابٍ ليس المجال مجال شرحها ، وبدأت الغُربة عن الإسلام تنتشر هنا ، وهناك .

والحديث الَّذي بين أيدينا يتضمَّن توجيهاً نبويَّاً كريماً ، وهو (العدل بين الأولاد) وهذا أساسٌ مهمٌّ من أُسُسِ التَّربية .

إنَّ التَّصرُّف الَّذي يحسَبه الأب هيناً قد يترك في نفس الطِّفل آثاراً عميقةً ، وخطيرةً جدَّاً . . وكثيراً ما لا يشعر الوالد بخطورة تصرُّفه هذا .

فالنَّظرة ، والابتسامة ، والعطيَّة ، والمُصاحبة في النُّزهة ، والملاعبة في البيت ، وجلب اللُّعب ، والملابس ، والحلويَّات ، ومنح الهدايا ، والنقود . . لكلٍّ أولئك وغيرها آثارٌ مهمَّةٌ فيما إذا كان هناك تحيُّز لولدٍ دون بقيَّة الأولاد .

والولد يدرك أموراً كثيرةً نظنُّ : أنَّه لا يفطَن إليها . . إنَّه لَيُدرك ذلك ؛ حتَّى قبل أن ينطق ، ويُبِيْن .

وقد يُعرِّضُ هذا التَّحيُّزُ لولدٍ وتفضيلُه على إخوته الأولادَ الآخرين إلى متاعبَ نفسيَّةٍ أليمة . ويُنْشِئ فيهم من العُقد النَّفسيَّة ما يجعلهم مصابين بالاكتئاب ، وأمراضٍ أخرىٰ وبيلةٍ ، وقد يكون سبباً في عقوق الأبوين ، والحقد على الإخوة . وقد يرشِّحهم ليكونوا مجرمين مفسدين في الأرض .

* وقد سمَّى الرَّسول ﷺ تفضيل بعض الولد على بعض جَوْراً ، لم يرض أن يشهد عليه ، وأمر الأب أن يرجع في عَطِيَّته . وامتثل الرَّجل لأمر رسول الله ، ونُصْحِه .

* وفي قصة يوسف وإخوته عبرةٌ لمن كان له قلبٌ ، أو ألقىٰ السَّمع وهو شهيد : ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [يوسف : ٧ ـ ١٠] لقد أدرك إخوة يوسف : أنَّ يوسف ، وأخاه أحبُّ إلى أبيهم ، فغاظهم ذلك ، وكادوا له كيداً ،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وآذوه ، وفكَّروا في قتله ، ثمَّ أجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبِّ . . وكان ذلك ، وتتمة القصَّة معروفةٌ .

إنَّ هؤلاء الَّذين فعلوا ذلك أولاد نبيٍّ ، نشؤوا في بيتٍ عريقٍ ورث المكارم كابراً عن كابر . . بيت النُّبوَّة ، والخُلُق الأصيل ، ومع ذلك فإنَّهم تصرَّفوا مع أخيهم يوسف هذا التَّصرُّف القاسي الشَّديد ، ليخلو لهم وجه أبيهم ، ويسعدوا بحبِّه دون منافسٍ ، أو منازع .

وفي الحديث صورةٌ للمستوىٰ الرَّفيع الَّذي كان عليه الصَّحابة رضوان الله عليهم . . فالزَّوجان في قصَّتنا ، والأولاد . . كلُّهم وقفوا عند حدود الشَّرع ، فلا الزَّوجة أصرَّت على طلبها ، ولا الولد وجد في نفسه ، ولا الوالد تردَّد في امتثال التَّوجيه النَّبويِّ ، فردَّ الصَّدقة .

وهذه الأسرة الفاضلة مثالٌ للأسر الَّتي كان يتكوَّن منها المجتمع المثاليُّ الفريد في ذاك العصر الأغرِّ . . . لقد كان كلُّ صحابيٍّ نموذجاً حيَّاً للإسلام .

وكانت هذه الحادثة سبباً في أن يعلم المسلمون هذا الأمر العظيم ، وهو : (العدل في الأولاد) وكانت تطبيقاً عمليَّاً لهذا التَّوجيه الكريم . . . وهذا التَّوجيه فيه مصلحةُ الأولاد ؛ ليبقوا متحابِّين فيما بينهم ، بارِّين بأبويهم .

يقول الله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾ [النساء : ١١] .

إنَّ هذا النَّصَّ ورد في آية المواريث ، وهو نصٌّ عامٌّ نجد تفصيلاً له في السُّنَّة في أحاديثَ كثيرةٍ ، منها هذا الحديث الَّذي يأمر فيه النَّبيُّ ﷺ بالعدل في الأولاد .

وممَّا يؤسف له أن نجد بعض النَّاس لا ينتبهون على هذا الموضوع ، ولا ينفِّذون هذه الوصيَّة ، فترى بعضهم يفضِّلون الذكور على الإناث ، ويقدِّمونهم في كلِّ أمرٍ ، ويقسون على البنات في المعاملة ، ويكلِّفونَهُنَّ بالأعمال وحدهنَّ ، وقد يوجهون إليهنَّ إهانات مؤلمةً ، ويستمرُّون في هذا السُّلوك إلى أن تتزوَّج البنت ، أو تموت . . . وهذا ظلمٌ لا يرضاه الله ، ولا رسوله ، إنَّ هذا يؤثِّر في نفوسهنَّ ، وقد يجعلهنَّ كارهاتٍ لإخوانهنَّ ، وآبائهنَّ ، أو معقَّداتٍ ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حاقدات على المجتمع ، ويبرز خطرهنَّ عندما تصبح الواحدة منهنَّ والدةً ، تخرِّج للأمَّة بنين ، وبناتاً. وترىٰ بعضهم يفضل الولد الأكبر على الآخرين.

وقد يفضِّل بعضهم البنتَ الجميلة على أخواتها ، وقد تفضِّل الأمُّ البناتَ على الأبناء نكايةً بالكنَّات ، فتؤثر البناتَ ، ولا تذكر أبناءها. وقد يعمد أحد الأبوين إلى إعطاء واحدٍ من الأولاد سواءٌ كان ذكراً ، أو أنثى ، ويسجِّل باسمه العقاراتِ ، والدُّور ، ويحرم الآخرين.

ولكلِّ ذلك آثارٌ سيِّئةٌ ، وهي تدخل في الجَوْرِ ، وقد وَقَفْتُ على مضاعفاتٍ خطيرةٍ لهذه المخالفات.

* «اتَّقوا الله ، واعدلوا في أولادكم».

إنَّ في قرن التَّقوى بالعدل في الأولاد إشارةً واضحةً إلى أنَّ العدل في الأولاد ممَّا يناسب تقوى الله ، والتَّفريط فيه تفريط في التَّقوىٰ.

* وفي الحديث عظةٌ رائعةٌ تكمن في سؤال الرَّسول ﷺ: «أفعلت هذا بولدك كلِّهم؟» عظةٌ لكلِّ مَنْ يتصدَّىٰ للإفتاء ، والحكم ؛ إنَّ عليهم أن يستوعبوا تمام الاستيعاب القضيَّة الَّتي تعرض عليهم قبل أن يُفتوا فيها ، أو يُصدِروا الحكم عليها ، أو يُشيروا برأيٍ فيها... إنَّ عليهم أن يستوعبوا تمام الاستيعاب القضيّة التي تعرض عليهم قبلَ أن يفتوا فيها أو يصدروا الحكم عليها أو يشيروا برأي فيها ، إن عليهم أنْ يستوضحوا عن كلِّ غامضٍ فيها ؛ حتَّى لا يُستغلَّ رأيهم ، ولا يُستخدموا في تحقيق أغراض أعدائهم... إنَّ عليهم أن يكونوا متَّصفين باليقظة ، والنَّباهة ، والوعي ، كما أحبَّ الإسلام لأتباعه أن يكونوا.

ويذكِّرني هـذا الموقـف الرَّائـع من الرَّسول ﷺ بالواقع المؤلم لبعض الصَّالحين المُغفَّلين الَّذين يُستغلُّون من قبل أعداء الإسلام بتصريحاتهم ، وفتاواهم من حيث لا يشعرون ، ولو أنَّهم كانوا على جانبٍ من اليقظة ؛ لما وقعوا في شَرَكِ أولئك الأشرار.

الحديث يدلُّ على وجوب التَّسوية في عطيَّة الأولاد. وهذه المسألة خلافيَّةٌ ، وحديث النُّعمان حجَّةُ مَنْ أوجبه. قال ابن حجر في «فتح الباري»:

شبكة الألوكة
www.alukah.net

[وقد تمسَّك بهذه الرِّوايات مَنْ أوجب التَّسوية في عطيَّة الأولاد وبه صرَّح البخاريُّ، وهو قول طاووس، والثَّوريِّ، وأحمد، وإسحاق... وعن أحمد: يجوز التَّفاضل؛ إن كان له سببٌ، كأن يحتاج الولد لزمانته، ودَيْنه، أو نحو ذلك دون الباقين.

وقال أبو يوسف: تجب التَّسوية؛ إن قصد بالتَّفضيل الإضرار.

وذهب الجمهور إلى أنَّ التَّسوية مستحبَّةٌ، فإن فضَّل بعضاً؛ صحَّ، وكُرِه][1].

وقد أورد الحافظ ابن حجر في هذا الموضع عشرة أجوبةٍ أجاب الجمهور على حديث النُّعمان؛ الَّذي قد يدلُّ على وجوب التَّسوية، ولكنَّه انتقدها، وأورد تعقُّباتٍ عليها، وبيّن أنَّها لا تصلح جواباً لمن يستدلُّ بالحديث على الوجوب، وهذا يدلُّ على أنَّ رأي ابن حجر وجوبُ التَّسوية في العطيَّة. وتابع كلامه عن رأي الجمهور، فقال:

[واستُحِبَّت المبادرة إلى التَّسوية، أو الرُّجوع... فحملوا الأمر على النَّدب، والنَّهي على التنزيه.

ومن حجَّة مَنْ أوجبه: أنَّه مقدِّمة الواجب؛ لأنَّ قطع الرَّحم، والعقوق محرَّمان، فما يؤدِّي إليهما يكون محرَّماً، والتَّفضيل ممَّا يؤدي إليهما.

ثمَّ اختلفوا في صفة التَّسوية:

فقال محمَّد بن الحسن، وأحمد، وإسحاق، وبعض الشَّافعية، والمالكيَّة: العدل أن يُعطىٰ الذَّكرُ حظَّين، كالميراث، واحتجُّوا بأنَّه حظُّها من ذلك المال؛ لو أبقاه الواهب في يده حتَّى مات.

وقال غيرهم: لا فرق بين الذَّكر، والأنثى. وظاهر الأمر بالتَّسوية يشهد لهم.

واستأنسوا بحديث ابن عباسٍ رفعه: «سوُّوا بين أولادكم في العطيَّة، فلو

---

(١) فتح الباري ٥/ ٢١١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كنتُ مفضِّلاً أحداً ؛ لفضَّلت النِّساء»[1]. أخرجه سعيد بن منصور ، والبيهقيُّ من طريقه ، وإسناده حسنٌ].

قلت: والرَّأي الثَّاني هو الراجح ، وهو الصَّواب إن شاء الله. وقد أيَّد الطَّحاويُّ هذا الرَّأي ، واستدلَّ له بأدلَّةٍ كثيرةٍ[2].

وهكذا فإنَّ التَّسوية واجبةٌ ، ولا فرق بين الذَّكر ، والأنثىٰ ، هذا إنْ لم يكن هناك داعٍ يدعو إلى علاج وضعٍ معيَّنٍ. قال أبو الوليد الباجي في «المُنتقىٰ»[3]:

[وعندي: أنَّه إذا أعطىٰ البعض على سبيل الإيثار: أنَّه مكروه ، وإنَّما يجوز ذلك ، ويعرى من الكراهية ؛ إذا أعطىٰ البعض لوجهٍ ما من جهةٍ يختصُّ بها أحدُهم ، أو غرامةٍ تلزمه ، أو خيرٍ يظهر منه ، فيخصُّ بذلك خيرهم على مثله ، والله أعلم].

وقال التِّرمذيُّ[4]:

[وقد رُوِيَ من غير وجهٍ عن النُّعمان بن بشير ، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم ، يستحبُّون التَّسوية بين الولد. حتَّى قال بعضهم: يسوِّي بين ولده حتَّى في القُبلة.

وقال بعضُهم: يسوِّي بين ولده في النُّحْل ، والعطيَّة: الذَّكر ، والأنثىٰ سواءٌ ، وهو قول سفيان الثَّوريِّ. وقال بعضهم: التَّسوية بين الولد أن يعطى الذَّكرُ مثل حظ الأنثيين مثل قسمة الميراث ، وهو قول أحمد ، وإسحاق].

وقد أوردنا هذين القولين ، ورجَّحنا القول بالتَّسوية بين الذَّكر والأنثىٰ ، والله أعلم.

---

(١) انظر سنن سعيد بن منصور ١/ ٩٧ برقم ٢٩٣ ، ولفظه هناك: «ساووا بين أولادكم».
(٢) شرح معاني الآثار ٤/ ٨٧.
(٣) المُنتقىٰ ٦/ ٩٣.
(٤) التِّرمذيُّ ٢/ ٢٩٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولمزيدٍ من التَّوضيح نورد هاهنا كلام الإمام النَّوويّ ـ رحمه الله ـ في «شرح مسلمٍ» قال:

[وفي هذا الحديث أنَّه ينبغي أن يُسَوِّي بين أولاده في الهبة، ويهب لكل واحدٍ منهم مثل الآخر، ولا يفضِّل، ويسوِّي بين الذَّكر والأنثىٰ. وقال بعض أصحابنا: يكون للذَّكر مثل حظِّ الأنثيين، والصَّحيح المشهور: أنه يسوّي بينهما لظاهر الحديث.

فلو فضَّل بعضهم، أو وهب لبعضهم دون بعضٍ، فمذهب الشَّافعيِّ، ومالكٍ، وأبي حنيفة: أنَّه مكروهٌ، وليس بحرام(١)، والهبة صحيحةٌ. وقال طاووس، وعروة، ومجاهد، والثَّوريُّ، وأحمد، وإسحاق، وداود: هو حرامٌ. واحتجُّوا برواية: «لا أشهد على جَوْرٍ» وبغيرها من ألفاظ الحديث.

واحتج الشَّافعيُّ وموافقوه بقوله ﷺ: «فَأَشْهِدْ عَلَىٰ هذا غيري» قالوا: ولو كان حراماً، أو باطلاً؛ لما قال هذا الكلام(٢). فإن قيل: قاله تهديداً. قلنا: الأصل في كلام الشَّارع غيرُ هذا](٣).

والهبة التي ورد ذكرها في الحديث كانت غلاماً، كما دلَّت على ذلك الرِّوايات السَّابقة التي أوردناها، ولكن وقع في رواية أبي حريز ـ عند ابن حبَّان، والطَّبرانيِّ ـ عن الشَّعبيِّ، كما ذكر ابن حجرٍ في الفتح: [عن الشَّعبيِّ: أنَّ النُّعمان خطب بالكوفة، فقال:

إنَّ والدي بشير بن سعد أتىٰ النَّبيَّ ﷺ، فقال: إنَّ عمرة بنت رواحة نفست بغلامٍ، وإنِّي سمَّيتُه النُّعمان، وإنَّها أبت أن تربِّيه حتَّى جَعَلتُ له حديقةً من أفضلِ مالٍ هو لي، وإنَّها قالت: أشهدْ على ذلك رسولَ اللهِ ﷺ. . وفيه قوله ﷺ: «لا أشهد على جَوْرٍ».

---

(١) قلت: القول الصَّحيح: أنَّ ذلك حرامٌ إلا أن يكون هناك داعٍ يدعو إليه كعلاج مريضٍ، أو تشجيع إنسانٍ خيِّرٍ، أو ما إلى ذلك.

(٢) انظر تفصيل ذلك في مناقب الشَّافعي للبيهقيِّ ١/ ٣٤٥ وما بعدها. وانظر باب الهبة في الأمِّ.

(٣) شرح مسلم ١١/ ٦٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وجمع ابن حبَّان بين الرِّوايتين بالحَمْل على واقعتين:

إحداهما عند ولادة النُّعمان، وكانت العطيَّة حديقةً، والأخرىٰ بعد أن كبِر النُّعمان، وكانت العطيَّة عبداً.

وهو جمعٌ لا بأس به، إلا أنَّه يعكِّر عليه أن يبعد أن ينسى بشير بن سعدٍ مع جلالته الحكم في المسألة؛ حتَّى يعود إلى النَّبيِّ، فيستشهده على العطيَّة الثَّانية بعد أن قال له في الأولىٰ: «لا أشهد على جَوْرٍ». وجوَّز ابن حبَّان أن يكون بشيرٌ ظنَّ نسخ الحكم....][1].

ثمَّ قال ابن حجرٍ: [ثمَّ ظهر لي وجهٌ آخر من الجمع، يسلم من هذا الخدش، ولا يحتاج إلى جوابٍ، وهو أنَّ عمرة لمَّا امتنعت من تربيته إلاَّ أن يهب له شيئاً يخصُّه به؛ وهبه الحديقة المذكورة تطييباً لخاطرها، ثمَّ بدا له، فارتجعها، لأنَّه لم يقبضها منه أحدٌ غيره، فعاودته عمرة في ذلك، فمطلها سنةً أو سنتين، ثمَّ طابت نفسه أن يهب له بدل الحديقة غلاماً، ورضيت عمرةُ بذلك، إلا أنَّها خشيت أن يرتجعه أيضاً، فقالت له: أشهدْ على ذلك رسولَ الله ﷺ، تريد بذلك تثبيت العطيَّة، وأن تأمن من رجوعه فيها، ويكون مجيئه إلى النَّبيِّ ﷺ للإشهاد مرَّةً واحدةً وهي الأخيرة، وغاية ما فيه: أنَّ بعض الرُّواة حفظ مالم يحفظ بعضٌ، أو كان النُّعمان يقصُّ بعض القصَّة تارةً، ويقصُّ بعضها أخرىٰ، فسمع كلٌّ ما رواه، فاقتصر عليه، والله أعلم].

وبعد، فإنَّ من فوائد الحديث الأمور الآتية:

١ ـ العدل في الأولاد واجبٌ، وتفضيل بعضهم على بعضٍ دون مسوِّغٍ شرعيٍّ أمرٌ غير جائزٍ.

٢ ـ استُدِلَّ بحديث النُّعمان أيضاً على أنَّ للأب أن يرجع فيما وهبه لابنه، وكذا الأمُّ، وهو قولُ أكثر الفقهاء.

إلا أنَّ المالكيَّة فرَّقوا بين الأب، والأم، فقالوا: للأمِّ أن ترجع إن كان

---

(١) فتح الباري ٥/٢١٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأب حيّاً دون ما إذا مات ، وقيّدوا رجوع الأب بما إذا كان الابن الموهوب له لم يستحدث دَيْناً ، أو يَنْكِح .

وقال الشَّافعيُّ: للأب الرُّجوع مطلقاً. وقال أحمد: لا يحلُّ لواهبٍ أن يرجع في هبته مطلقاً.

وقال الكوفيُّون: إنْ كان الموهوب له صغيراً ؛ لم يكن للأب الرُّجوع ، وكذا إن كان كبيراً ، وقبضها.

وقالوا: وإن كانت الهبة لزوجٍ من زوجته ، أو بالعكس ، أو لذي رحمٍ ، لم يجز الرُّجوع في شيءٍ من ذلك. وحجَّة الجمهور في استثناء الأب: أنَّ الولد وماله لأبيه ، فليس في الحقيقة رجوعاً ، وعلى تقدير كونه رجوعاً فربما اقتضته مصلحة التَّأديب .

٣ ـ وفي الحديث النَّدب إلى التَّألُّف بين الإخوة ، وترك ما يوقع الشَّحناء ، أو يورث العقوق .

٤ ـ وفي الحديث كراهة تحمُّل الشَّهادة فيما ليس بمباحٍ .

٥ ـ وفي الحديث: أنَّ الإشهاد في الهبة مشروعٌ ، وليس بواجبٍ .

٦ ـ وفي الحديث جواز الميل إلى بعض الأولاد ، والزَّوجات دون بعضٍ ، وإن وجبت التَّسوية بينهم في غير الأمور القلبيَّة الَّتي لا يد للإنسان فيها .

٧ ـ وفي الحديث: أنَّ للإمام الأعظم (الحاكم ، والملك ، والرَّئيس) أن يتحمَّل الشهادة .

٨ ـ وفي الحديث مشروعية استيضاح الحاكم ، والمُفتي عمَّا يمكن استيضاحه قبل إصدار الحكم ، أو الفتوىٰ ، وفيه عظةٌ بالغةٌ بالنسبة للقضاة ، والمفتين: أنْ يستوعبوا القضيَّة المعروضة عليهم ، ويفهموا جوانبها .

٩ ـ وفي الحديث فائدةٌ لغويَّةٌ : أنَّ الهبة تُسَمَّىٰ صدقة .

١٠ ـ ونختم هذه الاستنباطات بإيراد كلمةٍ للشَّافعي ، ذكرها البيهقيُّ في كتابه «مناقب الشَّافعيِّ» بعد أن أورد الحديث :

شبكة الألوكة - قسم الكتب

[قال الشَّافعيُّ: وقد سمعت في هذا الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أليس يَسُرُّك أن يكونوا في البرِّ إليك سواءً؟»

قال: بلى.

قال: «فأرْجِعْهُ».

قال الشَّافعيُّ: حديث النُّعمان حديثٌ ثابتٌ، وبه نأخذ، وفيه دَلالةٌ على أمورٍ: منها: حُسْن الأدب في ألا يُفَضِّل رجلٌ أحداً من ولده على بعضٍ في نُحْلٍ، فَيَعْرِضُ في قلب المُفَضَّل عليه شيءٌ يمنعه من برِّه؛ لأنَّ كثيراً من قلوب الآدميين جُبِلَ على الاقتصار عن بعض البرِّ إذا أوثر عليه...][1].

وقال: [ويستحبُّ أن يُسَوِّي بينهم؛ لئلا يُقَصِّر أحدٌ منهم عن برِّه، فإنَّ القرابة يَنْفَسُ بعضُهم بعضاً ما لا يَنْفَسون العِدا...][2].

قال العلامة أحمد إبراهيم في كتابه «الهبة، والوصيَّة، وتصرُّفات المريض»:

[وسأذكر هنا إيثار الإنسان بعض أولاده بالهبة، أو تفضيل بعضهم على بعضٍ، فأقول: إنَّ للعلماء في ذلك ثلاثةَ مذاهب:

الأوَّل: جواز ذلك مطلقاً مع الكراهة، وهو مذهب الجمهور.

الثَّاني: وجوب التَّعديل بين الأولاد في العطيَّة، فإن فضَّل بعضَهم على بعضٍ؛ سوَّى بينهم وجوباً برجوعه فيما وهب، أو زيادة المفضول ليساوي الفاضل، أو إعطائهم جميعاً على السَّواء؛ إن كان أعطىٰ بعضهم دون بعض.

فإن مات الواهب قبل فعل هذا الواجب؛ سلمت الهبة لمن وُهبت له من الأولاد، واستقرَّ التَّفضيل؛ إن كان، فليس لبقيَّة الورثة الرُّجوع، إلا أن تكون الهبة في مرض موت الواهب، فإنَّها تتوقَّف على إجازة الباقين، كما هو حكم هبة المريض عند جمهور العلماء.

---

(١) مناقب الشَّافعيِّ ١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) مناقب الشَّافعيِّ ١/ ٣٤٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والتَّسوية بين الأولاد أن يجعل للذَّكر مثل حظِّ الأنثيين ، وفي روايةٍ : أنهما سواءٌ . وهذا هو مذهب الإمام أحمد .

الثَّالث : بطلان الهبة على هذه الصِّفة . وقد حكاه في «نيل الأوطار» عن طاووس ، والثَّوري ، وإسحاق ، وبعض المالكيَّة ، وأحمد] .

وقال في الهامش : [وزاد في «شرح المجموع» للإمام زيد : أنَّ هذا أيضاً هو مذهب عروة ، ومجاهد ، وداود . وفي «المغني» أنَّ ابن المبارك كان يقول بذلك أيضاً . وقال الشَّوكانيُّ : الحقُّ أنَّ التَّسوية واجبةٌ ، والتَّفضيل محرَّمٌ . وانظر «الدُّرر البهيَّة» و«الرَّوضة النَّديَّة» وحكى في «بداية المجتهد» عن مالكٍ : أنَّه يجوز التَّفضيل ، ولا يجوز أن يهب لبعضهم جميع المال دون بعضٍ .

ونقل الشَّوكانيُّ عن «فتح الباري» : أنَّ القول بالبطلان هو المشهور من مذهب هؤلاء ، ثمَّ حكى قولين لأحمد : أحدهما ما ذكرته آنفاً ؛ وهو المُعتمد عند أصحابه ، والثَّاني : أنَّه يجوز التَّفضيل ؛ إن كان له سببٌ ، كأن يحتاج الولد المفضَّل ، أو الذي آثره أبوه بالعطيَّة لزمانته ، أو دَيْنِه ، أو نحو ذلك دون الباقين][1] .

ثمَّ قال : [ولأهمِّيَّة هذه المسألة سأذكرها بنوعٍ من البَسْطِ ، فأقول][2] .

ونقل عن عددٍ من الكتب من أهمِّها : الهنديَّة في الفقه الحنفيِّ ، والمهذَّب للشِّيرازيِّ الشَّافعيِّ ، وقوانين ابن جزي المالكيِّ ، والمغني ، وفتح الباري ، ونيل الأوطار ، وشرح المجموع في فقه الزَّيديَّة[3] .

❊ ❊ ❊

---

(١) الهبة والوصيَّة وتصرُّفات المريض لأحمد إبراهيم ١٨ ـ ١٩ .

(٢) الهبة والوصيَّة وتصرُّفات المريض لأحمد إبراهيم ١٩ ، وكتب بحثاً مطوَّلاً من ١٩ ـ حتى ٢٥ .

(٣) أقول : ثمَّ نظرت في «دليل الرَّسائل الجامعية في السُّعودية» فوجدت : أنَّ عبد الله بن محمد ابن ناصر الحمود أعدَّ رسالة ماجستير في المعهد العالي للقضاء من جامعة الإمام سنة ١٣٩٧ هـ وعنوانها : «آراء العلماء في حكم التَّسوية بين الأولاد» ولم أطَّلع عليها .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث السابع عشر

إنما الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلة

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّما النَّاس كالإبل المِئَة لا تكاد تجدُ فيها راحلةً». رواه البُخاريُّ.

ورواه مسلمٌ بلفظ: «تجدون النَّاس كإبلٍ مئةٍ لا يجد الرَّجلُ فيها راحلةً»[(١)].

وهو آخر حديث في كتاب فضائل الصَّحابة.

ورواه التِّرمذيُّ بلفظ: «إنَّما النَّاسُ كإبلٍ مئةٍ لا يجد الرَّجلُ فيها راحلةً». وفي روايةٍ: «أو قال: لا تجد فيها إلا راحلةً».

ورواه ابن ماجه بلفظ: «النَّاس كإبلٍ مئةٍ لا تكاد تجد فيها راحلةً». ورواه ابن حبَّان.

ورواه أحمد في مواضعَ عدَّةٍ[(٢)].

الإبل: قال الخطَّابيُّ: العرب تقول لِلْمِئَةِ من الإبل: إبل. يقولون: لفلانٍ إبلٌ، أي مئة بعيرٍ، ولفلانٍ إبلان، أي: مئتا بعيرٍ. فعلى هذا: يكون قوله: «النَّاس كإبلٍ مئةٍ» يكون قوله: (مئة) تفسيراً لقوله (إبل)؛ لأنَّ مجرّد لفظ (إبل)

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٤٩٨، ومسلمٌ برقم ٢٥٤٧، وانظر الفتح ١١/ ٣٣٣، وشرح النَّوويِّ ١٦/ ١٠١.

(٢) التِّرمذيُّ برقم ٢٨٧٦، وابن ماجه برقم ٣٩٩٠، وأحمد ٢/ ٧ و٤٤، وابن حبَّان (الإحسان ١٣/ برقم ٥٧٩٧ و١٤/ ٦١٧٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ليس مشهور الاستعمال في المئة ، ومن هنا ذكر ﷺ كلمة (مئة) تفسيراً وتوضيحاً .

أمَّا الرِّواية «النَّاس كالإبل المئة» فقوله (المئة) للتأكيد .

والرَّاحلة عند العرب هي النَّجيبة المختارة من الإبل للرُّكوب . وتستعمل للذَّكر النجيب ، والأنثىٰ النَّجيبة من الإبل ، والهاء في (الرَّاحلة) للمبالغة .

والمعنى : لا تجد في مئةٍ من الإبل راحلةً تصلح للرُّكوب ؛ لأنَّ الَّذي يصلُح للرُّكوب ينبغي أن يكون وطيئاً ، سهل الانقياد ، سريعاً ، كثير الاحتمال . وكذا لا تجد في مئةٍ من الناس مَنْ يصلح للصُّحبة بأن يعاون رفيقه ، ويُلين جانبه ، ويدافع عنه .

قال ابن حجر : [والرِّواية بإثبات (لا تكاد) أولىٰ ؛ لما فيها من زيادة المعنى ، ومطابقة الواقع ، وإن كان معنى الأوَّل يرجع إلى ذلك ، ويُحمل النَّفي المُطلق على المبالغة ، وعلى أنَّ النَّادر لا حكم له] .

إنَّ أكثر الناس أهل نقصٍ ، وأمَّا أهل الفضل ؛ فعددهم قليلٌ جدّاً ، فهم بمنزلة الرَّاحلة في الإبل ، وهذا المعنى نجده في كتاب الله عزَّ وجلَّ في مواضع كثيرةٍ جدّاً ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] و[يوسف : ٢١] ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [هود : ١٧] ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ ﴾ [صٓ : ٢٤] ومن ذلك قوله : ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] . وقوله سبحانه : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] وقوله : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] وقوله سبحانه في قصَّة نوح عليه السَّلام : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود : ٤٠] . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ [الإسراء : ٨٩] وقوله : ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

وجاء في حديث عبد الله بن مسعودٍ ، قال : قال ﷺ : « . . . وما أنتم في

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أهل الشِّرك إلا كالشَّعرة البيضاء في جلد الثَّور الأسود ، أو كالشَّعرة السَّوداء في جلد الثَّور الأحمر». رواه البخاريُّ[1].

وجاء في حديث أبي سعيدٍ قال: قال ﷺ: «إنَّ مثلكم في الأمم كمثل الشَّعرة البيضاء في جلد الثَّور الأسود ، أو كالرَّقْمَةِ في ذراع الحمار». رواه البُخاريُّ[2].

والرَّقمة: واحدة الرَّقمتين ، وهما لحمتان تليان باطن ذراعي الفرس لا شعر عليهما ، أو هَنتان شبه ظفرين في قوائم الدَّابة[3].

يقرِّر الحديث حقيقةً ملموسةً في عالم الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهي أنَّ المرء الَّذي تُرضى أحواله ، وتَقتربُ من الكمال أوصافُه قليلٌ جداً.

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَىٰ سَجَايَاهُ كُلُّهَا   كَفَىٰ المَرْءَ نُبْلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

وقال ابن الرُّومي:

أَعَيَّرْتَنِي بالنَّقص ، والنَّقْصُ شَامِلٌ   وَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْطَىٰ الكَمَالَ فَيَكْمُلُ[4]

وكذلك فإنَّ الرَّجل الجواد ؛ الَّذي يحمل أثقال النَّاس ، ويتحمَّل الحَمَالاتِ عنهم ، ويُساعد في كشف كُرَبِهِمْ ، ويُغيث الملهوف منهم عزيزُ الوجود ، كالرَّاحلة في الإبل الكثيرة.

إنَّ النَّاس كثيرٌ ، ولكنَّ المرضيَّ الأحوال منهم قليلٌ ، ونسبة وجوده واحدٌ في المئة ، وهذه النِّسبة احتماليَّةٌ ليست متعيِّنةً ، ولا متحقِّقةً دائماً ، وكذلك فإنَّ الإنسان الَّذي أوتي نصيباً من الحسن الخَلْقي قليلٌ سواءٌ كان ذكراً ، أو أنثى.

والمؤمنون في النَّاس قليلٌ بالنسبة إلى الكفّار ، والمؤمنون طبقاتٌ ،

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٥٢٨ ، وانظر الفتح ١١/ ٣٧٨.
(٢) البخاريُّ برقم ٦٥٣٠.
(٣) القاموس المحيط.
(٤) أدب الدُّنيا والدِّين ١١٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ودرجاتٌ ، والصَّادق في إيمانه ، الملتزم بمقتضيات هذا الإيمان ، الزَّاهد في الدُّنيا ، الرَّاغب فيما عند الله قليلٌ كقلَّة الرَّاحلة في الإبل ، وقد طرق الشُّعراء هذا المعنى ، فقال السَّموءَل :

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيْلٌ عَدِيْدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الكِرَام قَلِيْلُ
وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيْلٌ وَجَارُنَا ... عَزِيْزٌ وَجَارُ الأَكْثَرِيْنَ ذَلِيْلُ(١)

وقال البحتريُّ :

وَلَمْ أَرَ أَمْثَالَ الرِّجَالَ تَفَاوَتَتْ ... إِلَىٰ المَجْدِ حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ(٢)

وقال دِعْبِل :

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بَلْ مَا أَقَلَّهُمُ ... اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدَا
إِنِّي لأَفْتَحُ عَيْنِي حِيْنَ أَفْتَحُهَا ... عَلَىٰ كَثِيْرٍ ، وَلَكِنْ لَا أَرَىٰ أَحَدا(٣)

وقيل :

تَمَسَّكْ إِنْ ظَفِرْتَ بِوُدِّ حُرٍّ ... فَإِنَّ الحُرَّ فِي الدُّنْيَا قَلِيْلُ(٤)

إنَّ أكثر النَّاس يسعون في تحقيق مصالحهم ، فإذا رُغِّبوا ، وأُغروا بما يحسَبون : أنَّه نافعٌ لهم ؛ انطلقوا في الإقدام عليه ، متجاهلين القِيَمَ الأخلاقيَّة ، والمُثل العُليا الكريمة .

وكذلك إذا خُوِّفوا بضياع المنافع ، أو بالتَّعرُّض إلى المكروه ؛ خافوا ، ولم يفعلوا إلا ما تُمليه عليهم مصالحُهم . . . هكذا أكثرُ النَّاس . . . ويبقى القليل من النَّاس ممَّن لا يثنيه عن عزمه على الخير ترغيبٌ ، ولا ترهيبٌ . وما أجمل أبيات علي بن الجهم لأخيه :

تَوَقَّ النَّاسَ يا بْنَ أَبِي وَأُمِّي ... فَهُمْ تَبَعُ المَخَافَةِ وَالرَّجَاءِ
وَلَا يَغْرُرْكَ مِنْ وَغْدٍ إِخَاءٌ ... لأَمْرٍ مَا غَدَا حَسَنَ الإِخَاءِ

---

(١) الحماسة لأبي تمام ١/٢٨ .
(٢) نهاية الأرب ٣/٩٨ .
(٣) ديوان دعبل ٩٧ .
(٤) المنتظم لابن الجوزيِّ ٩/٨ ووفيات الأعيان ١/١٠ .

أَلَــمْ تَــرَ مُظْهِــرِيــنَ عَلَــيَّ عَيْبَــاً   وَهُــمْ بِــالأَمْــسِ إِخْــوَانُ الصَّفَــاءِ
فَلَمَّــا أَنْ بُلِيْــتُ غَــدَوا وَرَاحُــوا   عَلَــيَّ أَشَــدَّ أَسْبَــابِ البَــلاَءِ
أَبَــتْ أَخْطَــارُهُــمْ أَنْ يَنْصُــرونِــي   بِمَــالٍ أَوْ بجــاهٍ أَوْ ثَــرَاءِ
وَخَــافُــوا أَنْ يُقَــالُ لَهُــمْ: خَــذَلْتُــمْ   صَــدِيقَــاً ، فَــادَّعَــوا قِــدَمَ الجَفَــاءِ[١]

النَّاس كإبل مئةٍ لا تكاد تجدُ فيها راحلةً. . . إذا سلمنا بصحَّة التَّشبيه الوارد في هذا الحديث ، فهذا يقتضي منا أن نحذر كثيراً من النَّاس ، وألا ننخدع بمظاهرهم ، وألا نشهد لأحدٍ شهادة تزكيةٍ. . . إلا بعد تجربةٍ ، وتوثيقٍ ، وتمحيصٍ ، وعلينا أن نربِّي أنفسنا ، ونتعهَّدها ، عسىٰ أن نكون من هذا القليل.

الأصدقاء كثيرٌ ، ولكنَّ الأوفياء قليلٌ ، فلا يتورَّط المرءُ بإعطاء ماله ، أو إفشاء سرِّه لمن يظنُّ أنَّه جيِّدٌ قبل أن يتأكَّد ، فقد يكون في ذلك إحراجٌ له ، أو إفلاسٌ ، أو هلاكٌ ، إنَّ الَّذي يتَّقي الله حقَّ التَّقوىٰ هو الَّذي يمكن أن تطمئنَّ له ، وهو الَّذي تجده يحفظ غيبتك ؛ إذا غبت ، وينصحك ؛ إذا استنصحت ، وينجدك ؛ إذا استنجدت ، ويعينك في الأزمات ؛ إذا طلبت منه المعونة ، ويدلُّك على الله بقوله ، وفعله. وهذا في الدُّنيا قليل.

إنَّ معرفة هذه الحقيقة الواقعة تحمينا من الصَّدمة الَّتي ستواجهنا إن لم نكن مدركين لهذه الحقيقة. وهذه المعرفة تجعل الخسارة محدودةً ، إذ إن الإنسان لا بدَّ له من أن يتعاون مع الآخرين في شؤون حياته ، ولا بدَّ له من أن يثق بمن يتعاون معه ، ولكنَّ معرفته بالحقيقة التي قرَّرها الحديث تجعله لا يغالي في الثِّقة ، ولا يتورَّط بإعطاء المال.

الصُّورة البيانيَّة[٢] الجميلة الموجودة في الحديث قائمةٌ على التَّشبيه ، وهي منتزعةٌ من حياة المخاطبين الَّذين كانوا يعتمدون على الإبل اعتماداً كلِّيّاً في حياتهم. فالبعير هو الحيوان الَّذي يناسب العربيَّ في ضربه في الأرض ، يقطع

(١) مختار الأغاني لابن منظور ٧/ ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢) انظر أسرار البلاغة للجرجاني ٩١ و٢١٣.

على ظهره الفيافي ، ويحمل عليه أثقاله إلى بلدٍ لم يكن ليبلغَه إلا بشقِّ الأنفس. وفي حالة استقراره يشرب مِنْ لبنه ، ويأكل مِنْ لحمه ، ويلبس مِنْ وَبَرِه. وإنَّنا لنجد في الشِّعر الجاهليِّ صدى هذه العلاقة بين العربيِّ ، والنَّاقة[1]. . . فلا تكاد تجد راحلةً في مئةٍ من الإبل ، والحديث كلُّه يقوم على هذه الصُّورة الَّتي توضِّح قلَّة النَّاس الصَّالحين.

والصُّورة البيانيَّة من أهم العناصر التي تحقق الجمال في النص من الناحية البلاغية ، والتي توفر الوضوح في المعنىٰ ، وتعين على إدراكه وتمثُّله أعظم العون.

إنَّ الرَّجل الصَّالح الفاضل ؛ الَّذي يُنجِد من استنجد به ، ويدفع عن صديقه المخاطر ، ويحمل عنه أعباء الحياة قليلٌ ، وكذلك النَّاقة ؛ الَّتي تُسعف راكبها من الانقطاع في الطَّريق ، وتحمل طعامه ، وشرابه ، ومتاعه ، وتبلغ به البلد المقصود.

والنَّاقة بفطرتها مطواعةٌ ، فإذا جمعت إلى ذلك كونها راحلةً نجيبةً ، كانت شيئاً نفيساً عند العربيّ ، ولا بُدَّ للمرء من صديقٍ يعين على نوائب الدَّهر ، كما أنَّه لا بدَّ للعربيِّ في حياته البدويَّة ؛ الَّتي تقوم على انتجاع الكلأ ، والارتحال من النَّاقة الَّتي تسعفه.

والحياة إذا عريت عن الصَّديق المؤنس ، والرَّفيق المُعين تصبح جحيماً لا يُطاق.

قال حسَّان بن ثابتٍ:

أَخِــلاَّءُ الــرِّخَــاءِ هُــمُ كَثِيْــرٌ ... وَلَكِــنْ فِــي البَـلاَءِ هُــمُ قَلِيْــلُ
فَــلاَ يَغْـرُرْكَ خِلَّــةُ مَــنْ تُــؤَاخِــي ... فَمَــا لَــكَ عِنْــدَ نَــائِبَــةٍ خَلِيْــلُ
وَكُــلُّ أَخٍ يَقُــولُ أَنَــا وَفِــيٌّ ... وَلَكِــنْ لَيْــسَ يَفْعَــلُ مَــا يَقُــولُ
سِــوَىٰ خِــلٍّ لَــهُ حَسَــبٌ وَدِيْــنٌ ... فَــذَاكَ لِمَــا يَقُــوْلُ هُــوَ الفَعُــولُ[2]

---

(١) انظر كتابي: فنُّ الوصف في مدرسة عبيد الشِّعر.

(٢) ديوان حسان ٣٩٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والإنسان مدنيٌّ بطبعه، لا بدَّ له من صديقٍ، وَمَنْ وُفِّق إلى رجلٍ يشبه الرَّاحلة فذلك هو السَّعيد. قال الإمام الماورديُّ:

[اعلم: أنَّ الله تعالى لِنافذ قُدرته، وبالغ حكمته خَلَقَ الخلق بتدبيره، وفَطَرهم بتقديره، فكان من لطيف ما دبَّر، وبديع ما قدَّر أنْ خلقهم محتاجين، وفطرهم عاجزين، ليكون بالغنى منفرداً، وبالقُدرة مختصَّاً، حتَّى يشعرنا بقدرته: أنَّه خالق، ويعلِّمنا بغناه: أنَّه رازق، فنذعن بطاعته رغبةً، ورهبةً، ونقرُّ بنقصنا عجزاً، وحاجةً.

ثمَّ جعل الإنسان أكثر حاجةً من جميع الحيوان؛ لأنَّ من الحيوان ما يستقلُّ بنفسه عن جنسه، والإنسان مطبوعٌ على الافتقار إلى جنسه، واستعانتُه صفةٌ لازمةٌ لطبعه، وخلقةٌ قائمةٌ في جوهره، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. يعني: عن الصَّبر عمَّا هو إليه مفتقر، واحتمال ما هو عنه عاجزٌ][(١)].

وقال[(٢)]: [لأنَّ الإنسان مقصودٌ بالأذيَّة، محسودٌ بالنِّعمة، فإذا لم يكن آلفاً مألوفاً؛ تخطَّفته أيدي حاسديه، وتحكَّمت فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمةٌ، ولم تَصْفُ له مدَّةٌ، فإذا كان آلفاً مألوفاً؛ انتصر بالأُلفة على أعاديه، وامتنع مِنْ حاسديه].

فإذا كان ذلك كذلك؛ فليذكر المرءُ هذه الحقيقةَ؛ الَّتي عبَّر عنها الرَّسول ﷺ بأسلوب القَصْر: إنَّما النَّاس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلةً.

إنَّ تقرير هذه الحقيقة ليدفع الأمَّة الإسلاميَّة إلى تأهيل عددٍ من الرِّجال المقتدرين على القيام بمصالح الأمَّة الكبرى كلِّها، ليتولوا قيادتها في ميادين العلم، والاقتصاد، والصِّناعة، والمهارات، وذلك بأن تستكمل فيهم أوصاف الكمال، والتَّفوق، وقد قيل: العلم بالتَّعلُّم، والحلم بالتَّحلُّم.

إنَّ أصحاب الموهبة موجودون، وهم قليلٌ، فيجب على الأمَّة أن تفيد من

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين ١١٦.

(٢) أدب الدُّنيا والدِّين ١٣٢ ـ ١٣٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

استعدادهم ، وموهبتهم ، وأن تتعهَّدهم ، وترعاهم ، وتعدَّهم لقيادة الأمَّة ، وأن توفِّر لهم كلَّ ما وصل إليه العقل البشريُّ ، والتَّجربة البشريَّة من وسائل ، وأفكار وما إلى ذلك .

إنَّنا نحتاج إلى مسلمين صالحين مقتدرين أصحاب موهبةٍ ، وكفاءةٍ ، وإبداع في الصَّحافة ، والتَّأليف ، والاقتصاد ، والتَّعليم ، والصِّناعة ، والفنون العسكريَّة ، والإعلام والزَّعامة السِّياسيَّة ، والفكريَّة وغيرها . قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

* * *

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحديث الثامن عشر

حجبت النار بالشهوات

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

«حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ، وَحُجِبَتِ الجَنَّةُ بالمَكَارِهِ» متَّفقٌ عليه[1]. وفي رواية مسلمٍ: «حُفَّتِ النَّار...» بدل: (حُجِبَت).

وقد رواه عن النَّبيِّ ﷺ أبو هريرة، رضي الله عنه، كما ذكرنا، وأنسٌ ـ رضي الله عنه ـ أيضاً، ورُوي موقوفاً على ابن مسعودٍ، رضي الله عنه.

وأخرجه أصحاب المُدوَّنات، نذكر منهم: البخاريَّ، ومسلماً، وأحمدَ في المسند، وفي كتاب الزُّهد، والتِّرمذيَّ، والدَّارميَّ، وأبا يعلىٰ، وعبدَ بن حميد، كما ذكر ذلك السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير، والجامع الكبير[2].

أودُّ أن أقف وقفةً سريعةً مع المفردات، والصُّور الواردة في هذا الحديث الموجز الجميل قبل أن أبدأ بتأمُّل معانيه، ودراسته دراسةً مُتأنِّيةً.

للحديث ـ كما سبق أن ذكرنا ـ روايتان: إحداهما: (حُجِبَت) والأخرى: (حُفَّت) وهما بمعنىً متقاربٍ، وكلٌّ منهما صورةٌ بيانيَّةٌ معبِّرة جميلةٌ.

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٤٨٦، ومسلمٌ برقم ٢٨٢٢.

(٢) انظر «الجامع الكبير» ١/ ٥٠٢، والجامع الصَّغير، وانظر المسند ٢/ ٢٢٢ و٢٧٣ و٣/ ١٥٣ و٢٥٤ والدَّارميُّ ٢/ ٣٣٩، والتِّرمذيُّ برقم ٢٥٥٩، ومسند أبي يعلىٰ ٦/ ٣٢٧٥، وشرح السُّنَّة ٤١١٤، وفيض القدير للمناويِّ ٣/ ٣٧٣ و٣٨٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حُجِبَتْ: سُتِرَتْ. وحُجِبَتِ النَّار بالشَّهوات ؛ أي: جُعِلَتِ الشَّهواتُ حِجاباً بين الشَّخص، وبين النَّار. وحُجِبَتِ الجنَّة بالمكاره ؛ أي: حجبت الجنَّة بما أُمِرَ بِهِ المُكلَّف مِنْ مجاهدة النَّفس فعلاً للواجبات، والمندوبات، وتركاً للمحرَّمات، والمكروهات، كالإتيان بالعبادة على وجهها، والمحافظة عليها، وأداء السُّنَن الرَّاتبة، وغيرها، وكتجنُّب المنهيّ عنه قولاً، وفعلاً.

وهكذا فالجنَّة، والنَّار ـ كما تدلُّ على ذلك الصُّورة البيانيَّة ـ محجوبتان، فَمَنْ هتك الحجاب اقتحمها ودخلها[1]، وَمَنْ تعاطىٰ الشُّبهات المُحَرَّمة وصل إلى النَّار، وَمَنْ قام بأداء الواجبات وامتنع عن المُحرَّمات، وعانى في تحقيق ذلك ما عانىٰ من المشقَّات المعبَّر عنها بالمكاره دخل الجنَّة.

حُفَّت: قال القرطبيُّ[2]: [أصل الحفِّ الدَّائر بالشيء المُحيط به، الَّذي لا يتوصَّل إليه إلا بعد أن يُتخطَّى غيرُه. فمثَّل المُصطفىٰ ﷺ المكاره، والشَّهوات بذلك.

فالجنَّة لا تُنَالُ إلا بقطع مفاوز المكاره، والصَّبر عليها. والنَّار لا يُنجىٰ منها إلا بفطم النَّفس عن مطلوباتها الَّتي حرَّمها الشَّرع، أو كرهها].

إذاً فقد جعلت الشَّهوات مُحْدِقَةً بالنَّار، مطيفةً بأحفَّتها، لا يمكن لأحدٍ أن يقع في الشَّهوات، ثمَّ ينجو مِنْ ولوج النَّار إلا أن يشاء الله، أو أن يتوبَ توبةً نصوحاً.

وكذلك فقد جُعلت المكاره من الواجبات، والمندوبات محيطةً بالجنَّة من كلِّ جهاتها، ونواحيها، فلا يستطيع امرؤٌ أن يدخلها إلا بتخطِّيها، واحتمال تلك المكاره من الجُهْد في الطَّاعة والصَّبر عن الشَّهوة.

المكاره: قال المناوي: [المكاره: جمع مكرهة، وهي ما يكرهه المرء،

---

(١) فيض القدير للمناوي ٣/ ٣٧٣.
(٢) فيض القدير للمناوي ٣/ ٣٨٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويشقُّ عليه من القيام بحقوق العبادة على وجهها ، كإسباغ الطُّهر في الشِّتاء وتجرُّع الصَّبر على المصائب][1] .

وقال أيضاً : [وأُطلق عليها المكاره ؛ لمشقَّتها ؛ وصعوبتها على العامل][2] .

وجاء في «تاج العروس» : [ومكاره الدَّهر هي نوازله ، وشدائده ؛ جمع مكروه . . وفي الحديث : إسباغ الوضوء على المكاره ، وهو جمع مكره لما يكرهه الإنسان ، ويشقُّ عليه][3] .

وهي هنا ما أُمر به المكلَّف مِنْ مجاهدة النَّفس فعلاً ، وتركاً ، كالإتيان بالعبادات ، والمحافظة عليها ، واجتناب المنهيَّات قولاً ، وفعلاً ، والصَّبر على المصائب بأنواعها ، فكلَّما صبر على واحدةٍ قطع حجاباً من حجب الجنَّة ، وكلَّما أدَّىٰ واجباً يشقُّ على النَّفس أداؤه ؛ قطع حجاباً آخر من حُجُب الجنَّة . . . ولا يزال يقطع حُجُبها حتَّى لا يبقىٰ بينه وبينها إلا مفارقة روحه بدنَه ، فيقال : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٣٠] .

الشَّهوات : جمع شهوة ، وهي حركة النَّفس ؛ طلباً لما يلائمها ، أو يَلَذُّ لها ، ويراد بها هنا : [ما يُسْتَلَذُّ من أمور الدُّنيا ممَّا منع منه الشَّرع أصالةً ، أو لاستلزامه ترك مأمورٍ ، وأُلحقت بها الشُّبهات ، والإكثارُ من المباحات خوفَ الوقوع في محرَّمٍ][2] .

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ وبديع بلاغته في ذمِّ الشَّهوات ؛ وإن مالت إليها النُّفوس ، والحثِّ على الطَّاعات ؛ وإن كرهتها ، وشقَّت عليها[4] .

الإسلام رسالةٌ عظيمةٌ ، فيها الالتزام بالخُلُق الإسلاميِّ الزَّكيِّ ، والدَّعوة إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، والبُعد عن الشرِّ ، والإتيان بالخير

---

(١) فيض القدير للمناوي ٣/ ٣٨٩ .
(٢) فيض القدير للمناوي ٣/ ٣٧٣ .
(٣) مادَّة : كره .
(٤) هذا من كلام ابن حجر نقله المناوي ٣/ ٣٨٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والمعروف ، وبذل المال ، وعون الضَّعيف ، والجهاد بالنَّفس ، والمال ، وصلة الأرحام ، وعبادة الله ، والبُعد عن المحارم.

إنَّ الإسلام سموٌّ إلى المستوىٰ الأفضل ، وترفُّعٌ عن الدَّنايا.

وإذا كان ذلك كذلك ؛ فالأخذ بتعاليمه ليس أمراً سهلاً ، ولا هيِّناً.

إنَّ هذه الرِّسالة العظيمة لا تطيقها النُّفوس الشِّرِّيرة الصَّغيرة ، الَّتي تضعف أمام المُغريات ، والمخاوف ، فتقع في عددٍ من المُخالفات الَّتي تنتهي بأصحابها إلى النَّار ، والعياذ بالله.

إنَّ الارتفاع في كلِّ أمر صعبٌ يحتاج إلى قوَّةٍ ، وإرادةٍ ، وتصميمٍ.. أمَّا الانحدار ؛ فأمره يسيرٌ هيِّنٌ. إنَّ الارتقاء إلى قمَّة الجبل صعبٌ ، لا يقوىٰ عليه الضُّعفاء ، والمرضىٰ ، أمَّا النُّزول إلى السَّفح ، والوادي ، فأمرٌ سهلٌ لا يحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ. ولكنَّ الإنسان الَّذي يعلم : أنَّ في قمَّة الجبل ما يتمنَّاه من العيش الرَّغيد ، والمأوىٰ المُريح ، والمسكن المنيع ، والمنظر الجميل ، يهونُ عليه ما يلاقيه في صعوده ؛ لما يتوقَّع من الأمن ، والرَّاحة ، والمُتعة ، والسَّعادة.

وأخبار التَّاريخ ، وأحداث الواقع تشهد على صدق هذه الحقيقة بالنِّسبة إلى الأفراد ، والشُّعوب ، فالأمَّة الَّتي تريد أن ترقى إلى المجد لا تبلغ ذلك إلا بالجِدِّ الدَّؤوب ، والعمل الصَّادق ، والبذل ، والفداء ، وكذلك الفرد. قال أبو تمَّام :

لاَ تَحْسِبِ المَجْدَ تَمْراً أَنْتَ آكِلُه ... لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا[1]

وقال أبو تمام أيضاً :

بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَىٰ فَلَمْ تَرَهَا ... تُنَالُ إلاَّ عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ[2]

أمَّا الأمَّة الَّتي تضعف عن الجدِّ ، والعمل ، والبذل ، وتخلُدُ إلى الشَّهوات والملذَّات ؛ فسرعان ما تهوي إلى حضيض الخُمول ، والذُّلِّ.

---

(١) ديوان أبي تمَّام ٣/ ٤٢.

(٢) ديوان أبي تمَّام ١/ ٧٣.

ومن هنا كانت كلُّ دعوةٍ تريد لنفسها التَّمكين في الأرض ، والسِّيادة في الدُّنيا تُلزِم أتباعها بقيودٍ ، وتفرض عليهم لوناً خاصَّاً من الحياة الجادَّة ، وتندبُهم إلى الجهاد ، والفداء ، وتحمِلُهم على أنْ يتركُوا كثيراً من الملذَّات ، والشَّهواتِ المحرَّمات ، أو المباحات الَّتي يضرُّ تعاطيها الأمَّة ؛ كالرُّكونِ إلى الرَّاحة ، والقعودِ عن القتال يوم النَّفير وما إلى ذلك . . . وقد تطلب منهم أن يقدِّموا أرواحهم ، وأن ينزلوا عن شيءٍ من أموالهم ، واستقرارِهم .

وهذا امتحانٌ لإيمان المؤمن ، وابتلاءٌ له ، ليتبيَّن صدقُه في دعواه ، أو كذبُه فيها . هل يستطيع أن يتغلَّب على سُلطان تلك المُغريات ، والمَخاوف؟ ويمضي في تحمُّل عناء التَّكاليف ، وأدائها؟ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] .

وهل يقوى على أن يبقى محافظاً على المُستوىٰ الكريم ؛ الَّذي يريده الإسلام له؟

إنَّ الاستقامة على طريق الحقِّ ، والاستمرار في سلوكه أصعبُ من الإتيان به مرَّةً أو مرَّتين ، من أجل ذلك أراد الله لأنبيائه ، وأوليائه أن يكون طريقُهم طريق الجهاد ، وبذل الأموال ، والأنفس . قال الإمام أبو حامدٍ الغزاليُّ :

[بيَّن بهذا الحديث : أنَّ طريق الجنَّة وعرٌ ، وسبيلٌ صعبٌ ، كثيرُ العقبات ، شديدُ المشقَّات ، بعيدُ المسافات ، عظيمُ الآفات ، كثيرُ العوائق والموانع ، خفيُّ المهالك والقواطع ، غزيرُ الأعداء والقطَّاع ، عزيز الأتباع والأشياع][1] قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] .

وورد في معنى الحديث الَّذي ندرسه حديثٌ صحيحٌ آخر[2] أخرجه

---

(١) نقل ذلك المناويُّ في «فيض القدير» ٣/ ٣٨٩ .

(٢) التِّرمذيُّ برقم ٢٥٦٠ ، وأبو داود برقم ٤٧٤٤ ، والنَّسائيُّ ٧/ ٣ ، والحاكم ١/ ٢٧ ، وانظر صحيح النَّسائيِّ للألبانيِّ برقم ٣٥٢٣ ، وصحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ برقم ٢٠٧٥ .

التِّرمذيُّ ، وأبو داود ، والنَّسائيُّ ، والحاكم عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ ، قال : «لمَّا خَلَقَ اللهُ الجنَّة والنَّار ؛ أرسل جبريلَ إلى الجنَّة فقال : انظر إليها ، وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها . قال : فجاءها ، فنظر إليها ، وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه ، فقال :

ـ فوعزَّتك لا يسمع بها أحدٌ إلاَّ دخلها .

فأمر بها ، فحفَّت بالمكاره . فقال : ارجع إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . قال : فرجع إليها ، فإذا هي قد حُفَّت بالمكاره . فرجع إليه ، فقال :

ـ وعزَّتك لقد خفتُ ألا يدخلَها أحدٌ .

قال : اذهب إلى النَّار فانظر إليها ، وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها ، فإذا هي يركبُ بعضُها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال :

ـ وعزَّتك لا يسمع بها أحدٌ ، فيدخلها .

فأمر بها فحفَّت بالشَّهوات ، فقال : ارجع إليها . فرجع إليها ، فقال :

ـ وعزَّتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحدٌ إلاَّ دخلها» .

لقد وقف الإسلام من الشَّهوات الإنسانيَّة الموقف الوسط الرَّائع :

لم يُصادمْهَا ، ولم يتجاهلْهَا ، ولم يُطْلِقْهَا ، ولم يُبِحْ لِلمسلمين أن يُسرفوا في تعاطيها ، والانغماس فيها دون قيدٍ ، ولا حدٍّ .

فعندما حرَّم على أتباعه بعض المحرَّمات ممَّا يندرج في باب الشَّهوة ، عوَّضهم بما يماثِلُها من المُباحات ، والمستحبَّات . فقد حرّم عليهم الزِّنى ، وأحلَّ لهم الزَّواج ، ودعاهم إليه ، وحرَّم عليهم أكل الرِّبا ، وأكل مال اليتيم ، والسَّرقة ، والرِّشوة ، وأحلَّ لهم الكسب المشروع من تجارةٍ ، وصناعةٍ ، وزراعةٍ . . وحرَّم عليهم لحم الخنزير ، وأحلَّ لهم لحوم الأنعام ، وحرَّم عليهم الخمر ، وأحل لهم أنواع الشَّراب . . . وبالجملة فقد حرَّم عليهم الخبائث ، وأحلَّ لهم الطَّيبات .

إنَّ الإسلام لا يقهر النَّفس حرماناً لها من الطَّيبات ، بل يَحظرُ الأمور ؛ الَّتي

تعود على الفرد والأمَّة، بالشَّرِّ المُستطير، والضَّرر الظَّاهر والخفيِّ. والإسلام يعترف بالغرائز، والميول الطَّبيعيَّة، ويوظِّفها في دائرة المصلحة، وعمران الأرض. يقول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وشرع تشريعاتٍ تُصرِّف تلك الشَّهوات في السَّبيل المفيد وتُصعِّدها، وسنَّ من الأحكام ما ينظِّمها على وجهٍ يستوفي الإنسان حاجتَه من تلك الشَّهوات مع تسخيرها لخدمة الهدف السَّامي من الحياة، وهو عبادةُ الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهذه الأحكام تجعل تلك الشَّهوات معينةً على استقامة الحياة النَّظيفة السَّليمة، وتجنِّب المجتمع الويلات، والأمراض، والمخاطر؛ الَّتي يمكن أن تحصل من وراء التَّنافس عليها.

وَأَوْضَحَ في الوقت ذاته: أنَّ هذه الشَّهوات كلَّها من المتع الزَّائلة، وأنَّ من ظلم الإنسان لنفسه أن يَقْصُرَ همَّه عليها، وأن يُسرِف فيها. فقد قال سبحانه بعد أن عدَّد الشَّهوات من النِّساء، والأولاد، والأموال، والمراكب، والأراضي، والعقارات؛ قال: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

لقد أعطاها قيمتها الحقيقيَّة... وقرَّر: أنَّ الجنَّة خيرٌ منها.. الجنَّة التي تحيط بها المكاره خيرٌ من تلك الملذَّات، والشَّهوات.

وفي الجنَّة الخلود والأزواج المطهَّرة، وأعظم من ذلك كلِّه رضوانُ الله تبارك وتعالى. إنَّ تقرير هذا يجعل المرء المسلم إذا وقع في صراع بين ما يدعوه إلى الجنَّة، وما يدعوه إلى الاستجابة للشَّهوة؛ يجعله لا يتردَّد في إيثار الجنَّة.

الجنَّة الَّتي هي هدف كلِّ مسلم.. الجنَّة الَّتي هي سِلْعَةُ الله الغالية.. لا بُدَّ لمن أرادها أن يسعىٰ لها سعياً حثيثاً، ويُقَدِّم لها النَّفس، والنَّفيس.. وقد قيل:

. . . . وَمَنْ يَخْطُبِ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ المَهْرُ[1]

وليس كثيراً أن يتحمَّل المسلمُ المكاره مهما عظُمت في سبيل الوصول إلى الجنَّة ، والتمتُّع بذاك النَّعيم المقيم فيها. . . ؛ لأنَّ دخولها هو الفوز الحقيقيُّ كما قال سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

قال كلثوم بن عمرٍو العتابيُّ :

وَللهِ فِـي عَـرْضِ السَّمَـواتِ جَنَّـةٌ وَلَكِنَّهـا مَحْفُـوفَـةٌ بِـالْمَكَـارِهِ[2]

[الجنَّة تلك الأمنيَّةُ الغالية ؛ الَّتي يسعى لها السَّاعون من المؤمنين على مرِّ العصور. . . الجنَّة الَّتي كانت في قلوب السَّلف الصَّالح ، وأعصابهم شُعْلةً تحرِّكهم لضرب أعلى أمثلة البطولة في الجهاد. الجنَّة تلك الغايةُ الكريمةُ ؛ الَّتي ترنو إليها العيون الحالمة ، وتهفو إليها الأرواح المَشُوقَةُ في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ. . . يستعذبون العذاب مِنْ أجل الحصول عليها.

إنَّها أعظم مرغوبٍ عند المؤمن ، ودخولُها والانتهاء إليها أملٌ يتراءى له في رحلة العمر ؛ التي تستغرق حياتَه كلَّها.

وما أكثر ما كانت الجنَّةُ حافزاً إلى الخير ، والحقِّ ، مهما كان في الطَّريق إليها من المخاطر ، والعقبات ، والأشواك ، بل لو كان فيها الموت المحقَّق. كان هذا في أيَّام النَّبيِّ ﷺ ، كما أخبر أنسٌ ـ رضي الله عنه ـ قال :

انطلق رسولُ الله ﷺ وأصحابه حتَّى سبقوا المشركين إلى بدرٍ ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : «لا يقدمنَّ أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتَّى أكون أنا دونه» .

فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى جنَّةٍ عرضُها السَّموات ، والأرض» .

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (١٦٥) طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت .

(٢) نهاية الأرب ٣/ ٨٦ .

قال عُمَيْرُ بن الحُمام الأنصاريُّ: يا رسول الله! جنَّةٌ عرضُها السَّمواتُ، والأرض؟

قال ﷺ: «نعم». قال عُمَيْرٌ: بخٍ، بخٍ!

فقال رسول الله: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟!».

قال: لا والله يا رسول الله! إلا رجاءَ أن أكون مِنْ أهلها.

قال ﷺ: «فإنَّك مِنْ أهلها».

فأخرج تمراتٍ من قَرَنه (وهو جعبة النَّشَّاب) فجعل يأكل منهنَّ، ثمَّ قال: لئن أنا حييتُ حتَّى آكل تمراتي هذه، إنَّها لحياةٌ طويلةٌ. فرمىٰ بما كان معه من التَّمر، ثمَّ قاتلهم حتَّى قُتِل(١).

وكان مثلُ هذا الموقف أيضاً في الأيَّام مِنْ بعده، فلقد قال أبو موسىٰ الأشعريُّ وهو بحضرة العدوِّ: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبواب الجنَّة تحت ظلال السُّيوف».

فقام رجلٌ رثُّ الهيئة، فقال: يا أبا موسىٰ! أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السَّلام، ثمَّ كسر جَفْنَ سيفه، فألقاه، ثمَّ مشىٰ بسيفه إلى العدوِّ، فضرب به حتَّى قُتل](٢) [انظر صحيح مسلمٍ ٦/ ٤٥ برقم ١٩٠٢].

ووِجْدانُ المُسلم الحيِّ عندما يتصوَّر هول النَّار، وفظاعتَها، وما يلقاه فيها داخلها تصغر في عينه اللَّذائذ، والشَّهوات. يقول الإمام الغزاليُّ:

[دارٌ ضيقةُ الأرجاء، مظلمةُ المسالك، مبهمةُ المهالك، يخلد فيها الأسير، ويُوقد فيها السَّعير، شرابُهم فيها الحميم، ومستقرُّهم الجحيم، الزَّبانية تقمعُهم، والهاوية تجمعُهم، أمانيهم فيها الهلاكُ، وما لهم منها

(١) انظر صحيح مسلمٍ برقم ١٩٠١ وفي طبعة إستانبول ٦/ ٤٤.
(٢) انظر التَّصوير الفنِّي في الحديث النَّبويِّ ص ٥٢.

فكاكٌ ، قد شُدَّت أقدامهم إلى النَّواصي ، واسودَّت وجوهُهم من ظلمة المعاصي ، يُنَادُون من أكنافها ، ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك ! قد حقَّ علينا الوعيد ، يا مالك ! قد أثقلنا الحديد ، . . . بل يكبُّون على وجوههم مغلولين ، النَّار مِنْ فوقهم ، والنَّار مِنْ تحتهم ، والنَّار عن أيمانهم ، والنَّار عن شمائلهم ، فهم غرقىٰ في النَّار ، طعامُهم نارٌ ، وشرابُهم نارٌ ، ولباسهم نارٌ ، ومهادُهم نارٌ][1] .

والحديث كلُّه صورةٌ بيانيَّةٌ موفَّقةٌ ، تُبيِّن طريق الجنَّة ، وطريق النَّار ، وفي ذلك تحذيرٌ ، وأيُّ تحذيرٍ ، فبعد المكاره ، والعقبات جنَّاتٌ تجري مِنْ تحتها الأنهار .

وبعد الشَّهوات والملذَّات نارٌ حامية .

والحديث يدلُّ على خاصَّةٍ تميَّز بها الحديث النَّبويُّ ، وهي خاصَّة الموسيقا العذبة الجميلة ، فإذا ردَّدت هذا الحديث ؛ أحسَسْت بروعة الإيقاع ، وتذوُّق تلك الحَلاوة ؛ الَّتي تحسُّ بها مِنْ ذاك التَّرديد .

* * *

---

(١) الإحياء ٤/ ٥١٤ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث التاسع عشر

إنما الأعمال بالنيات

عن عمر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات، وإنَّما لكلِّ امرىءٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها، أو امرأةٍ يَنكِحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، وأحمد[1].

قال ابن رجب:

[هذا الحديث تفرَّد بروايته يحيى بن سعيدٍ الأنصاريُّ عن محمَّد بن إبراهيم التَّيميِّ، عن علقمة بن وقَّاص اللَّيثيِّ، عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

وليس له طريقٌ يصِحُّ غير هذا الطَّريق، كذا قال عليُّ بن المدينيِّ، وغيرُه.

وقال الخطَّابيُّ: لا أعلم خلافاً بين أهل الحديث في ذلك، مع أنَّه روي من حديث أبي سعيدٍ، وغيره، وقد قيل: إنَّه روي من طرقٍ كثيرةٍ، لكن لا يَصِحُّ من ذلك شيءٌ عند الحفَّاظ. ثمَّ رواه عن الأنصاريِّ الخَلْقُ الكثيرُ، والجمُّ الغفير، فقيل: رواه عنه أكثر من مِئَتَيْ راوٍ، وقيل: رواه عنه سبعمئة راوٍ. ومن

---

(١) البخاريُّ برقم ١، ومسلمٌ برقم ١٩٠٧، وأبو داود برقم ٢٢٠١، والترمذيُّ ١٦٤٧، والنَّسائي ١/٥٨، وابن ماجه برقم ٤٢٢٧، وأحمد ١/٢٥ و٤٣.
وانظر شرح الحديث في فتح الباري، وشرح النَّووي، وفي مجموع فتاوى ابن تيميَّة، فقد كتب رسالةً كاملةً في شرحه، وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أعيانهم الإمامُ مالك ، والثَّوريُّ ، والأوزاعيُّ ، وابن المبارك ، واللَّيث بن سعدٍ ، وحمَّاد بن زيدٍ ، وشعبة بن عُيينة ، وغيرُهم[(١)].

واتَّفق العلماء على صحَّته ، وتلقِّيه بالقبول ، وبه صدَّر البخاريُّ كتابه الصَّحيح ، وأقامه مقام الخُطبة له إشارةً منه إلى أنَّ كلَّ عملٍ لا يراد به وجه الله فهو باطلٌ ، لا ثمرة له في الدُّنيا ، ولا في الآخرة ، ولهذا قال عبد الرَّحمن ابن مهدي : لو صنفت كتاباً في الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطاب في الأعمال بالنِّيَّات في كلِّ باب .

وعنه أنَّه قال : من أراد أن يصنِّف كتاباً ؛ فليبدأ بحديث «الأعمال بالنِّيَّات» .

وهذا الحديث أحد الأحاديث الَّتي يدور الدِّين عليها][(٢)] .

وجاء في «فتح الباري» : [قال أبو عبد الله : ليس في أخبار النَّبيِّ ﷺ شيءٌ أجمع ، وأغنىٰ ، وأكثر فائدةً من هذا الحديث ، واتَّفق عبد الرَّحمن ابن مهدي ، والشَّافعيُّ ـ فيما نقله عنه البويطي ـ وأحمد بن حنبل ، وعليُّ بن المَدينيِّ ، وأبو داود[(٣)] ، والتِّرمذيُّ ، والدَّارقطنيُّ ، وحمزة الكنانيُّ على أنَّه ثلثُ الإسلام»[(٤)] .

* * *

إنَّما : أداةٌ من أدوات القَصْرِ ، أكثر ما تُستعمل فيما يعلمه المخاطب .

والقَصْرُ في الحديث حقيقيٌّ ، ولا عبرة لما قاله بعضُهم[(٥)] من أنَّه إضافيٌّ ؛

---

(١) إذاً فالحديث غريبٌ في أوَّله مشهورٌ في آخره ، فهو ليس متواتراً ؛ لأنَّ من شرط المتواتر أن ينقله جمعٌ عن جمعٍ في كلِّ مراحل السَّند . والحديث تفرَّد به يحيى عن محمد عن علقمة ، عن عمر .

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦١ .

(٣) انظر كتابنا «أبو داود حياتُه وسُننه» ص ٤٤ ، فقد ذكرت هناك كلمة أبي داود في الأحاديث الأربعة الَّتي تكفي الإنسان لدينه ، وأوَّلها حديثنا هذا .

(٤) فتح الباري ١/ ١١ .

(٥) كما ورد في «دليل الفالحين» .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لأنَّ مفهوم النِّيَّة ممَّا يختلف فيه النَّاس ، فالنِّيَّة هي الدَّافع الَّذي يحملُ الفردَ على القيام بالعمل ، فلا قيمة للعمل إلاَّ إن كانت نِيَّتُهُ طيبةً صالحةً .

الأعمال: معروفة ، وهي عامَّةٌ للأعمال الشَّرعيَّة والمعاشيَّة .

الباء: في قوله بالنِّيَّات للسَّببيَّة . والتَّقدير : وجود الأعمال شرعاً ، واعتبارها مستقرٌّ ، أو ثابتٌ بسبب النِّيَّة ، ويصحُّ كونها للملابسة ، وكونُها للمصاحبة . وقيل : الباء للاستعانة .

النِّيَّة: مصدر الفعل (نوىٰ) وقيل : هي اسم مصدر .

ومعناها لغةً : القصد . قال البيضاويُّ : النِّيَّة عبارةٌ عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرضٍ من جلب نفع ، أو دفع ضُرٍّ حالاً ، أو مآلاً . والشَّرع خصَّصها بالإرادة المتوجِّهة نحو الفعلِ ؛ لابتغاء رضا الله ، وامتثال حكمه[1] .

والنِّيَّة في الحديث محمولةٌ على المعنىٰ اللُّغويِّ .

وقالوا : إنَّ النِّيَّة شرعاً : قصد الشَّيء مقترناً بفعله إلا في الصَّوم ، والزَّكاة للعسر ، وإن تراخىٰ الفعل عن القصد ؛ سُمِّي ذاك القصد عَزْماً .

وقال ابن رجب : [واعلم : أنَّ النِّيَّة في اللُّغة نوعٌ من القصد ، والإرادة ، وإن كان قد فُرِّق بين هذه الألفاظ .

والنِّيَّة في كلام العلماء تقع بمعنَيين :

أحدهما: بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعضٍ ، كتمييز صلاة الظُّهر من صلاة العصر . . . وهذه النِّيَّة هي التي توجد في كلام الفقهاء كثيراً .

والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل : هل لله وحده لا شريك له ، أم لله ، وغيره؟ وهذه النِّيَّة هي التي توجد في كلام السَّلف المُتقدِّمين ، وهي الَّتي يتكرَّر ذكرها في كلام النَّبيِّ ﷺ تارةً بلفظ النِّيَّة ، وتارةً بلفظ الإرادة ،

---

(١) انظر «فتح الباري» ١/ ١٣ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وتارةً بلفظٍ مقاربٍ لذلك][1] وقد جاء ذكر النِّيَّة في كتاب الله تعالى بغير لفظ النِّيَّة من الألفاظ المُقاربة:

* فقد ورد معناها في القرآن بلفظ (الإرادة) كثيراً، مثل قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

* وورد معناها في آياتٍ أخرى بلفظ الابتغاء، نحو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢٠] وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ـ والجار والمجرور (بالنِّيَّات) لا بُدَّ من تعليقه. ويعلقونه بمحذوفٍ، وتقديره مختلفٌ، فقدَّره بعضهم: تعتبر، وقالوا: إنَّما تعتبر الأعمال بالنِّيَّات، أي: إنَّ الأعمال لا يُعْتَدُّ بها شرعاً إلا بالنِّيَّة.

وقدَّره بعضُهم: تصحُّ، وقالوا: إنَّما تصح الأعمال بالنِّيَّات؛ لأنَّ الأعمال من غير نيَّةٍ لا قيمة لها، ولا تؤدي إلى الثَّمرة المطلوبة منها.

وقيل: تكمل الأعمال بالنِّيَّات، وقيل: تحصل، أو تستقرُّ.

هناك أمور يستحب أن ينوي الإنسان فيها التقوِّي على طاعة الله، كالأمور الَّتي يقوم بها المرء استجابةً لفطرته، وغرائزه، كالأكل، والشُّرب، ونحو ذلك. فمن نوى في هذه الأمور نيَّةً حَسَنَةً كانَ له الثَّوابُ، وانقلبت هذه الأمور عباداتٍ، وبارك الله له في أعماله، ولكنَّ الشَّرع لا يوجب عليه الإتيان بالنِّيَّة.

ومن ذلك ما ورد من الوعد بالأجر لِمَنْ يضع اللُّقمة في فم زوجته يبتغي بذلك وجه الله. قال ﷺ: «. . . وإنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٦٥ ـ ٦٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عليها ؛ حتَّى اللُّقمة تجعلها في في امرأتِك» . متَّفقٌ عليه[١] .

والنِّيَّة في هذه الأمور مفيدةٌ للفرد ، والأمَّة :

لأنَّ ذلك يوقظ في الفرد مراقبة الله ، وابتغاء الخير ، وينمِّي فيه روح التَّديُّن ، ويقضي فيه على الأثرة ، وحبِّ الذَّات .

ولأنَّ ذلك يجعل أعمال الأفراد مربوطةً بما يعود على الأمَّة بالخير .

ـ إنَّ النِّيَّة لَتُغيِّر من طبيعة العمل :

فالصَّلاة خير موضوعٍ ، وهي شيءٌ سامٍ في نظر الدِّين ، ولكن إذا كانت نيَّةُ من يأتي بها الرِّياءَ ، وخداعَ النَّاس ، وغشَّهم ؛ كانت تلك الصَّلاة شيئاً مذموماً .

والكذب خُلُقٌ ذميمٌ يهدي إلى الفجور ، ولكن إذا كانت نيَّةُ المرء إصلاحَ ذات البين ؛ كان أمراً جائزاً ، بل محموداً ، كما جاء في حديث أمِّ كلثوم ـ رضي الله عنها ـ أنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذَّاب الَّذي يُصلح بين النَّاس فَيُنْمي خيراً ، أو يقول خيراً». متَّفق عليه[٢] . وهذا خاصٌّ فيما جاء فيه نصٌّ ، كما في حديث أمِّ كلثوم ، أمَّا المُحرَّمات ؛ فلا تجعلها النِّيَّة أمراً مباحاً ، ولا محموداً أبداً . . . إنَّ المُباحات فقط إن نوىٰ صاحبها فيها الطَّاعة كانت أمراً مستحبّاً ، كما ذكرنا .

إنَّ العبادات ، والمعاملات لا تصحُّ ، ولا تعتبر إلا بالنِّيَّة ، فمن امتنع عن الطَّعام ، والشَّراب من طلوع الفجر إلى الغروب بسبب الحَبْسِ ، أو عدم القابليَّة لا يُعتبر صائماً ؛ إن لم ينوِ الصِّيام لله تعالى .

ومن سبَح ، وغطس في البحر للتبرُّد ، أو التَّنظُّف ، ولم ينو غسل الجنابة ، أو الجمعة لا يجزئه ذلك .

---

(١) البخاريُّ برقم ٥٣٥٤ ، ومسلمٌ برقم ١٦٢٨ .

(٢) البخاريُّ برقم ٢٦٩٢ ، ومسلمٌ ٢٦٠٥ ، وانظر كلام الإمام النَّوويِّ في كتابه رياض الصَّالحين (باب بيان ما يجوز من الكذب) .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهكذا فالنِّيَّة كما تكون ركناً في العبادات ينبغي أن تكون متعلِّقةً بمقاصد الأعمال أيضاً ، ودوافعها .

* يقول ﷺ : «وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما[1] نوىٰ» .

يُحاسَب النَّاسُ على نيَّاتهم ، فإن كانت نيَّة العامل خيراً ، وقصدُه وجه الله ؛ أثابه الله ، وأعطاه ، وضاعف له الأجر ، وإن كانت نيَّته شرّاً ، وقصده الرِّياء للعباد ؛ حُرِم الثَّواب ، وقد يوقعه هذا الحال في الشِّرك الَّذي يحلُّه جهنَّم دار الهوان ، والعذاب ، والشَّقاء ، وساءت مصيراً .

* ويقول : «فمن[2] كانت هجرتُه إلى الله ورسوله ، فهجرتُه إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرتُه لِدنيا يُصيبها ، أو امرأةٍ يَنكحها ؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

هذا تفصيلٌ لبعض الإجمال فيما قبله ، وتمثيلٌ على ذاك المبدأ الَّذي قرَّره الشَّطر الأول للحديث .

وقد سبق أن تحدَّثت عن الهجرة حديثاً وافياً فيما سبق من هذه الدُّروس[3] ، وسأشير بعض الإشارات إلى الهجرة ممَّا يتَّصل بموضوع الحديث الَّذي نحن بصدد دراسته :

الهجرة (لغةً) : التَّركُ . و«شرعاً» : مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام خوفَ الفتنة .

---

(١) قيل في إعرابها : إنَّها اسم موصول ، أو نكرةٌ موصوفةٌ ، أو حرف مصدري . فعلى القول الأول : وإنَّما لكلِّ إنسانٍ ما نواه . وعلى القول الثَّاني يكون التقدير : وإنَّما لكلِّ إنسانٍ شيءٌ نواه ، وعلى القول الثالث : وإنَّما لكلِّ إنسانٍ منويُّه .

(٢) لك في إعراب (مَنْ) قولان :
فإما أن تكون شرطيَّة ، وعندئذٍ فالفاء في قوله «فهجرته . .» رابطةٌ للجواب .
وإما أن تكون موصولةً ، وعندئذ فالفاء داخلة على الخبر لمشابهة اسم الموصول للشَّرط في العموم ، أو تضمُّنه له .

(٣) انظر الحديث الخامس من هذا الكتاب .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا التَّعريف يندرج تحت قولنا: مفارقة ما يكرهه الله إلى غيره ممَّا يحبُّه الله. ووجوبها باقٍ، أمَّا الحديث «لا هجرة بعد الفتح» فمعناه: لا هجرة بعد فتح مكَّة لأنَّها أصبحت دار إسلام، وكانت هجراتٌ في تاريخ الإسلام بدءاً من عهد النُّبوة حتَّى عهدنا هذا. والهجرات التي حصلت في حياة النَّبيِّ ﷺ هي: الهجرة إلى الحبشة مرَّتين، والهجرة إلى المدينة، وهذه أعظمها بركةً، وأهمُّها في تاريخنا كلِّه. والهجرة من الحبشة إلى المدينة[1].

ومن الهجرة هجرةٌ من دار الخوف إلى دار الأمن، ومنها هجرةٌ من دار الكفر إلى دار الإسلام[2].

ولنا أن نتساءل: لماذا اختيرت الهجرة من دون الأعمال لتكون تفصيلاً لما سبق من الإجمال؟

والجواب: أنَّها اختيرت؛ لأنَّها تجمع الأعمال كلَّها: أمرها، ونهيها، أمَّا الأمر؛ فظاهرٌ من امتثال أمر الشَّارع بالسَّفر، والاتِّجاه إلى المجتمع الإسلاميِّ؛ ليستطيع أن يحيا الحياة الإسلاميَّة، وليتعاون مع إخوانه على نشر الدِّين، وأمَّا النَّهي فظاهرٌ كذلك من امتثال نهي الشَّارع عن الإقامة في بلاد الكفر، ولو كان في هذا الامتثال تركُ الأهلِ، والدِّيار، والأموال، وظاهرٌ أيضاً من الحديث «المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه».

ولأنَّ الهجرة من أصعب الأمور على النَّفس؛ إذ إن حبَّ البلد فطرةٌ فُطِر النَّاسُ عليها، فالإنسان يألف بلده، وفيه مكان رزقه، وموطنُ ذكرياته، وأهلُه وأصدقاؤه. وقد تعدل مفارقة الأوطان القسريَّة القتل، ولذا فقد قرنها الله تبارك وتعالىٰ به، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦] ولذلك فإنَّ النَّفي عقوبةٌ من أشدِّ العقوبات زجراً.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتب السِّيرة.
(٢) انظر ما قلنا عن الهجرة وحكمها في الكلام على الحديث الخامس من هذا الكتاب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

* وقوله ﷺ: «فمن كانت هجرتُه إلى الله[1] ورسوله» كنايةٌ عن إخلاصه في هذه الهجرة، لا يريد بذلك إلا رضوان الله، وامتثال أمر رسوله.

والدُّنيا مشتقَّةٌ من (الدُّنوِّ) أي: القرب، لسبقها على الآخرة، أو لدنوِّها من الزَّوال، وهي مؤنث أدنى. وتُطلق على كلِّ المخلوقات من الجواهر، والأعراض الموجودة قبل الدَّار الآخرة، كالمال، والشَّهوة، والنِّساء، والبنين، والجاه، وقد تطلق على كلِّ جزءٍ منها.

والمراد هنا: عَرَضُها، ومتاعها، فالتَّعبير بها مجازٌ مرسلٌ من تسمية الشَّيء باسم محلِّه، وذكر (المرأة) بعد (الدُّنيا) من ذكر الخاصِّ بعد العامِّ، وقد يكون تنبيهاً على سبب الحديث[2].

---

(١) الجار والمجرور متعلِّقان بـ (هجرة) إن أعربنا (كان) تامَّةً، أو متعلِّقان بمحذوف خبر (كان) إن أعربناها ناقصةً. ومثل هذا الإعراب يردُ في قوله ﷺ: «ومن كانت هجرته لدنيا».
والجار والمجرور في قوله: «فهجرته إلى الله ورسوله» متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، وكذا في قوله: «... إلى ما هاجر إليه».
وهناك نكتةٌ لطيفةٌ في قوله: «ومن كانت هجرته لدنيا... فهجرته إلى ما هاجر إليه» فقد فرَّق بين الموضعين فأتىٰ بحرف الجرِّ «إلى» مرَّة، وأتىٰ باللام مرةً أخرىٰ، وحكمة التغاير إفادة أنَّ مَنْ كانت هجرته لأجل تحصيل ذلك كان هو نهاية هجرته، لا يحصل له غيره من ثواب الله.

(٢) ذكر ابن حجر في «الفتح» ١/ ١٠ حديث مهاجر أمِّ قيس، فقال:
[وقصَّة مهاجر أمِّ قيسٍ رواها سعيد بن منصور، قال: أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال:
من هاجر يبتغي شيئاً، فإنَّما له ذلك، هاجر رجل ليتزوَّج امرأةً، يقال لها: أمُّ قيس، فكان يقال له: مهاجر أمِّ قيس.
ورواه الطَّبرانيُّ من طريقٍ أخرىٰ عن الأعمش بلفظ: كان فينا رجلٌ خطب امرأةً يقال لها: أمُّ قيس، فأبت أن تتزوَّجه حتى يهاجر، فهاجر، فتزوَّجها، فكنَّا نسمِّيه مهاجر أمِّ قيس. وهذا إسنادٌ صحيح على شرط الشَّيخين، ولكن ليس فيه أنَّ حديث الأعمال سيق بسبب ذلك].
قلت: وفي تصحيح ابن حجر ـ رحمه الله ـ للحديث نظرٌ؛ لأنَّه عن الأعمش، وهو مدلِّس، وقد عنعن، والله أعلم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* وقوله ﷺ: «ومن كانت هجرتُه لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه».

نجد أنَّ التَّعبير قد اختلف عمَّا ورد في الجملة السَّابقة «فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى اللهِ ورسوله» ففي الجملة السَّابقة كرَّر في الجزاء ما ذكره في العمل؛ لأنَّ في ذلك شرفاً، وارتفاعاً، وتبرُّكاً.

أمَّا الهجرة إلى الدُّنيا والمرأة؛ فلم يكرِّر ما ورد في العمل لإظهار عدم الاحتفال بأمرها: (الدُّنيا، والمرأة) والتَّنبيه على أنَّ العدول عن ذكرهما أبلغ في الزَّجر، فكأنَّه قال: إلى ما هاجر إليه، وهو حقيرٌ، مهينٌ، لا يُجدي.

إننا نجد في واقع النَّاس اليوم أعمالاً متَّحدةً في مظهرها، مختلفةً في دوافعها، والله سبحانه هو الَّذي يعرف دخائل النُّفوس، وخباياها.. إنَّه سبحانه لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض، ولا في السَّماء، ويعلم ما تُخفيه الصُّدور. وسيجازي النَّاس على نيَّاتهم.

وقد يستطيع المرء صاحبُ النَّظرة النَّافذة أحياناً أن يفرِّق بين هذه الأعمال، ؛ لأن الآثار قد تُلمَس في بعض الحالات، والتَّناقض في مواقف أصحاب النِّيَّات الخسيسة قد يكشف هذه الدَّوافع على حقيقتها.. ولكنَّ ذلك أمرٌ احتماليٌّ بالنِّسبة للبشر.

إنَّ العمل الفاضل لا يكون فاضلاً عند الله بمظهره، وصورته فقط... بل يكون فاضلاً من النَّاحية الإسلاميَّة عندما يكون الدَّافع إليه فاضلاً.

فالمظهر، والصُّورة وعاءٌ، والمضمون يكون في النِّيَّة والمقصد والدَّافع: «إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم، وأجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم»(١).

فالإحسان إلى الفقراء أمرٌ طيِّبٌ، وعملٌ نبيلٌ، ولكنَّه لا يبلغ هذه الدَّرجة

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٥٦٣ و٢٥٦٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من الحسن بمظهره، وصورته؛ إن كانت نيّة الَّذي قام به سيئةً، كالرَّغبة في ابتغاء ثناء النَّاس، وهذا هو الرِّياء.

ومن هنا نجد الآية الكريمة الآتية تقرِّر: أنَّ الصدقة الَّتي يدفع إليها الرِّياء لا يحصل صاحبها على شيءٍ من الثَّواب، وأنَّ هذا الرِّياء يُبطلها كما يُبطل الصَّدقةَ المنُّ، والأذىٰ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وهكذا سائر الأعمال.

ولا ينالُ المرء إلا نتيجة نيَّته، إن كانت أمراً محموداً خيِّراً؛ نال الثَّواب، وإن كانت أمراً مذموماً شرِّيراً؛ حلَّت به العقوبة.

وقد جاءت نصوص كثيرةٌ تقرِّر هذا المعنى فمن ذلك الحديث الذي رواه أبو موسىٰ الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء: أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» متفق عليه[1].

ومن ذلك حديث أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«إنَّ أوَّل النَّاس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشْهِد، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمته، فعرفها.

قال: فما عملت فيها؟

قال: قاتلت فيك حتى استُشْهِدتُ.

قال: كذبت، ولكنَّك قاتلتَ؛ لأن يقال: جريٌ، فقد قيل.

ثمَّ أُمر به، فَسُحِب على وجهه؛ حتَّى أُلقيَ في النَّار.

ورجلٌ تعلَّم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتِي به، فعرَّفه نعمته، فعرفها.

---

(١) صحيح البخاريِّ برقم ١٢٣، وصحيح مسلمٍ برقم ١٩٠٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: فما عمِلت فيها؟

قال: تعلَّمتُ العلم، وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن.

قال: كذبتَ، ولكنَّك تعلمتَ؛ ليقال: عالمٌ، وقرأتَ القرآن؛ ليقال: هو قارىءٌ، فقد قيل. ثمَّ أُمِر به، فسُحِبَ على وجهه، حتَّى ألقي في النَّار.

ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتِي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها.

قال: فما عملتَ فيها؟

قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنْفَقَ فيها إلاَّ أنفقتُ فيها لك.

قال: كذبتَ، ولكنَّك فعلتَ؛ ليقال: هو جوادٌ، فقد قيل. ثمَّ أُمِر به فَسُحِب على وجهه، ثمَّ أُلقي في النَّار».

رواه مسلمٌ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ[1].

فهاهم أولاء ناسٌ قاموا بأعمالٍ طيِّبةٍ من الجهاد، والبذل، والتَّعليم، ولكنَّ دوافعها غيرُ خالصةٍ لوجه الله، فلم يكن لهم من أعمالهم شيءٌ من الأجر، وكانوا أوَّل خلق الله تُسَعَّرُ بهم النَّارُ يوم القيامة، والعياذ بالله تعالى!

* * *

(١) مسلم برقم ١٩٠٥، والترمذيُّ برقم ٢٣٨٢، والنَّسائي ٦/ ٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث العشرون

نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس

عن عبد الله بن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من النَّاس: الصِّحَّة، والفراغ» رواه البخاريُّ، وأحمد، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه، والحاكم[1].

إنَّ الَّذي يُوَفَّق لشكر النِّعمة، واستعمالها فيما يرضي الله قليلٌ. أمَّا الكثير من النَّاس؛ فهم مغبونون في النِّعم؛ التي أكرمهم الله بها، ومن هذه النِّعم: الصِّحَّة والفراغ.

* إنَّ الصِّحَّة نعمةٌ عظمى، تتيح للمرء أن يسعد في الحياة، وأن يتنعَّم بما أحلّ الله له من الطَّيبات؛ لأنَّ المريض لا يجد اللَّذة في كلِّ مُتَع الحياة... فالماء العذب مرٌّ في فمه ينكره، ولا يُسِيغُه، ولو شربه إنسانٌ معافى؛ لوجده عذباً زُلالاً. كما قيل:

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مرٍّ مَرِيْضٍ ... يَجِدْ مُرّاً به المَاءَ الزُّلالاَ

قال البوصيري:

قَدْ تُنْكِر العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وينكر الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

والسَّعادة التَّامة، والهناءة الكاملة لا تكونان إلا بالصِّحَّة، ولا يمكن للمال أن يحلَّ محلّها، ولا أن يأتيَ بها إن غابت، بينما الصِّحَّة تأتي بالمال؛ إن كان

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٤١٢، والتِّرمذيُّ برقم ٢٣٠٤، وابن ماجه برقم ٤١٧٠، وأحمد ١/٢٥٨، والحاكم ٤/٣٠٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

صاحبها موفقاً نشيطاً. وإنَّ الغنيَّ المريض يتمنَّىٰ لو يفتدي بمالِه كلِّه مِمَّا يعاني من المرض.

والمريض لا يقوىٰ على الاستكثار من النَّوافل، والقرُبات من صلاةٍ، وصيامٍ، وحجٍّ، وعمرةٍ، وإعانةٍ للضَّعيف، وإكرامٍ للضَّيف، وإغاثةٍ للملهوف، وأمرٍ بالمعروف، ونهيٍ عن المُنكر... وما إلى ذلك من صنوف الخير، والطَّاعة.

فالعاقل مَنْ يغتنم صحَّته، ويستعين بها في القيام بالواجبات، واجتناب المحرَّمات، والتزوُّد من الخير، وهذا هو الشُّكر الحقيقيُّ.

ومن لم يفعل ذلك كان مغبوناً، وماذا بعد الصحة إلا المرض، ولله در القائل:

أرىٰ بصري قد رابني بعد صحة وحَسْبُكَ داءً أن تصحَّ وتَسْلَما

إنَّ المرض ظاهرةٌ من ظواهر التخلُّف الَّتي يعاني منها المسلمون، ويشترك مع الجهل، والفقر، والسُّلوك الهابط في إضعاف الأمَّة، وهي أمورٌ قائمةٌ في كثيرٍ من ديارنا، وقد تحدَّث عن خطرها الكُتَّاب[1] منذ أكثر من خمسين سنةً. وإنَّه ليؤسفني أنْ أقرِّر: أنَّ هذه الآفات المُهلكة ما تزال تفتك بالأمَّة حتَّى الآن. ويأتي في رأس هذه الآفات المرض. والسَّعيد من عرف النِّعمة، وقدَّرها قدرها وهي موجودةٌ فقام بواجب شُكْرِها، أمَّا الَّذي لا يعرف النِّعمة إلا بعد زوالها؛ فهو إنسانٌ مخذولٌ، فاته وقت الشُّكر، وضاعت عليه النِّعمة، وقد قيل: الصِّحَّة تاجٌ على رؤوس الأصحَّاء لا يعرفه إلا المرضى.

والمرض قد يقضي على الموهبة، والإبداع، ويُضعِف الإنتاج الماديَّ من تجارةٍ، وصناعةٍ، وزراعةٍ، وقد يؤثِّر على الإنتاج الفكريِّ كمَّاً، ونوعاً.

والأمراض نوعان: جسميَّةٌ، ونفسيَّةٌ، وكلاهما يوهن صحَّة الفرد، وكيان الأمَّة.

---

(١) من أمثال الزَّيَّات في وحي الرِّسالة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإنَّه لَيحزُنني: أنَّ كثيراً من الأمراض الفتَّاكة ما تزال تستوطن في عددٍ من بلاد المسلمين، مع أنَّ الإسلام دعا إلى التَّداوي، والحذر من أسباب المرض. ونحن مدعوُّون إلى أن نحمَد الله على نعمة العافية، ونُفيدَ من الصِّحَّة حال وجودها، وإلى أن نعمل على نشر الوعي الَّذي يُفيدنا في معرفة قيمة الصِّحَّة والوقت.

إنَّ ذلك يدفعنا إلى محاربة الأمراض، وأسبابها من الفواحش، والجراثيم والمخدِّرات، والمسكرات، وما إلى ذلك، فالابتعاد عن الأسباب وقايةٌ، والوقاية خيرٌ من العلاج.

* والفراغ نعمةٌ عظمى؛ لأنَّ الشُّغل المستمرَّ يوهن الجسم، ويَحْجُبُ المرء عن مصادر الثَّقافة، ويحول بينه وبين ارتقاء الرُّوح، ويمنعه من التأمُّل في الكون، والحياة، وسنن الله في خلقه، ويَحرمُه الرَّاحة، والتمتُّع بمباهج الحياة وزينتها، ويَمْنَعُه من الاستكثار من الطَّاعات، والقُرُباتِ، ولا يمكِّنه من مساعدة الآخرين، فلا يُغيث ملهوفاً، ولا يَفعَل معروفاً، ولا يَنْصُر مستجيراً، ولا يدعو إلى الله، ولا يأمر بالمعروف، ولا يَنْهىٰ عن المنكر، بل لا يُمَكِّنه من بناء بيته على الأساس السَّليم؛ الَّذي يلتزم بمبادئ الإسلام العظيم، فلا يجد الوقت لتربية أولاده على ما يُريد. ومن هنا كان الفراغ نعمةً كبرىٰ لمن يكرمه الله به، فإذا وجد الفراغ؛ كان شكرُه أن يملأه بما يعود عليه وعلى أبناء أمَّته بالخير، والثَّواب.

والفراغ يَعْقبُه الشُّغْل، كما أنَّ الصحة يَعْقُبُها المرض، ولو لم يأت المرض جاء الهرم، وهو سقمٌ، وضعفٌ دائمٌ. قال محمود الورَّاق:

وَبَادِرْ شَبَابَكَ أَنْ يَهْرَمَا ... وَصِحَّةَ جِسْمِكَ أَنْ يَسْقَمَا
وَأَيَّامَ عَيْشِكَ قَبْلَ المَمَاتِ ... فَمَا دَهْرُ مَنْ عَاشَ أَنْ يَسْلَمَا
وَوَقْتَ فَرَاغِكَ بَادِرْ بِهِ ... لَيَالِيَ شُغْلِكَ فِي بَعْضِ مَا
وَقَدِّمْ فَكُلُّ امْرِئٍ قَادِمٌ ... عَلَىٰ بَعْضِ مَا كَانَ قَدْ قَدَّمَا[1]

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ١٠٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَأنشدَ أحمدُ بن أيُّوب:

اغْتَنِمْ فِي الفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مَوْتُك بَغْتَهْ
كَمْ صَحيحٍ رَأَيْت مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيْحَةُ فَلْتَهْ[1]

وقال الشَّاعر:

يَسُرّ الفتى طُوْلُ السَّلاَمَةِ والبَقَا فَكَيْفَ تَرَىٰ طُوْلَ السَّلاَمَةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ الفَتَىٰ بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصِحَّةٍ يَنُوءُ إِذَا رَامَ القِيَامَ وَيُحْمَلُ

* * *

المرء في سباقٍ مع الأجلِ وظروف الحياة الصَّعبة، والعمرُ يمرُّ سريعاً، ولذا فقد وردت نصوصٌ كثيرةٌ في الكتاب والسُّنَّة تأمر بالمُسارعة إلى الخير، والمُسابقة إلى الطَّاعة؛ لأنَّ الإنسان لا يشعر بنفسه إلا وقد وخطه الشَّيب، وتخطَّىٰ مرحلة الشَّباب، واقترب من نهاية رحلة الحياة.

قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١].

فالله سبحانه يأمرنا بالمسارعة إلى المغفرة، والجنَّة، والمسابقة إليهما قبل أن يُحالَ بيننا، وبينهما، ولا ينبغي أن تغرَّنا الحياةُ الدُّنيا، فقد جاء قبل هذه

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ١٠٦ وقال المحبي في خلاصة الأثر ١/ ٣٠٥: إنَّ أحمد بن أيوب عندما تكلَّم على ترجمة الإمام البخاريِّ أنشد له هذين البيتين، و أفاد: أنَّه ليس للبخاريِّ غيرهما. والله أعلم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الآية قوله سبحانه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وعن ابن عباسٍ قال: قال ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابَك قبل هَرَمِك، وصحَّتك قبل سُقْمِك، وغناك قبل فَقْرِك، وفراغَك قبل شُغْلِك، وحياتَك قبل موتك». رواه الحاكم في «المستدرك»، والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان»، وهو حديث صحيحٌ[(١)].

وعن أبي هريرة، قال: قال ﷺ: «بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً مُنْسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هَرَماً مُفْنِداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدَّجال، فشرُّ غائبٍ ينتظر، أو السَّاعة، فالسَّاعة أدهىٰ وأمَرُّ». رواه التِّرمذيُّ. وفي سنده محرز، وهو واهٍ، ولكن معناه صحيحٌ رائعٌ، وتشهد له أدلَّةٌ كثيرةٌ ثابتةٌ[(٢)].

وقد حدَّثنا القرآن: أنَّ الخاسرين يوم القيامة يُدْعَوْن إلى السُّجود امتحاناً لإيمانهم، فلا يستطيعون؛ لأنَّ ظهورهم تصير طبقاً واحداً، كما جاء ذلك في حديثٍ في الصَّحيحين[(٣)]، وذكر: أنَّهم في الدُّنيا كانوا يُدعون إلى السجود وهم سالمون، فيأبون، فكان عاقبةَ أمرهم الذلُّ المهينُ، والعذابُ المقيمُ. قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ (٤٢) خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٢ ـ ٤٣].

إنَّ نِعَمَ الله لا تُحصىٰ ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤ والنحل:

---

(١) المستدرك ٤/ ٣٠٦، وشعب الإيمان ١٨/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ برقم ٩٧٦٧ ـ ط الهند، بومباي الدَّار السَّلفيَّة ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦، وانظر صحيح الجامع الصَّغير ١٠٧٧، وقال: صحيح.

(٢) انظر كتابنا «الحديث النَّبوي» ص ٦٩ الطبعة الثامنة ـ المكتب الإسلامي.

(٣) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشِف ربُّنا عن ساقه، فيسجد له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقىٰ مَنْ كان يسجد في الدُّنيا رياءً، وسمعةً، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً» انظر البخاريَّ برقم ٤٩١٩، ورواه مسلمٌ برقم ١٨٣ في حديثٍ طويلٍ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١٨] ومن أجلِّها الإيمان ، وقد ذكر رسول الله ﷺ هاهنا هاتين النِّعمتين ؛ لأنَّ المرء بهما يقوم بالواجبات ، والمستحبَّات ، وذلك يعود نفعه عليه ، وعلى مجتمعه في الدُّنيا والآخرة .

فإذا اجتمعت الصِّحَّة ، والفراغ لدىٰ المسلم صاحبِ الهمَّة الَّذي يقدِّر هاتين النِّعمتين حقَّ قدرهما ، استطاع أن يؤدِّي شكرَهما ، وأن يبلغ رضوان الله .

إنَّ الصِّحَّة وحدها لا تكفي لإنجاز أعمال الخير ، وفعل القُرُبات ؛ إن كان الإنسان مشغولاً بأعمالٍ أخرىٰ ، والصِّحَّة هي الَّتي تُمَكِّن صاحبها من العمل ، والفراغ هو الَّذي يوفر الظَّرف الزَّمانيَّ ؛ الَّذي يَتِمُّ العمل فيه .

كثيرٌ من المسلمين في العالمِ الإسلاميِّ اليوم يبدِّدون أوقاتهم ، ويضيِّعونها فيما لا طائل تحته ، تراهم يتسكَّعون في الطُّرقات ، ويجلسون في القهوات ، ويتحلَّقون حول أجهزة التِّلفزيون ، والمذياع ، ويلعبون الورق ، وقد يقامرون ، ويعبثون . وغيرهم في جدٍّ دؤوبٍ ، واستفادةٍ من الوقت والصِّحَّة . فكيف لا يكونون مغبونين؟!

في الحديث صورةٌ بيانيَّة منتزعةٌ من البيئة التِّجارية . . . كلُّ تاجرٍ له رأس مالٍ ، والتَّاجر المفلح هو الذي يحافظ على رأس ماله ، ويبتغي الرِّبح من تجارته ، فإنْ حافظ على رأس ماله ، واستطاع أن يكسب الرِّبح المُجزِئ ؛ كان موفَّقاً في تجارته ، وإنْ أضاع رأس مالِه ، وخسر ؛ كان مغبوناً .

والصِّحَّة ، والفراغ رأسُ مال المسلم ، وينبغي أن يُعنَىٰ المسلم الموفَّق برأس المالِ ، ويحافظ عليه ، ويوظِّفه فيما يعود عليه بالرِّبح الوفير .

وابتغاؤه الرِّبح يقتضيه أن يستفيد من صحَّته ، وفراغه ، فيؤدِّي الواجبات ، ويجتنب المحرَّمات ، ويستكثر من القُرُبات .

فمن فعل ذلك ؛ حافظ على رأس المال ، وحصل على الرِّبح الكثير ، وكان موفَّقاً في تجارته ؛ الَّتي يظهر ربحها في الآخرة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] فَسُرَّ ، وفاز بالنَّعيم الأبديِّ في الجنَّة .

ومن غلب عليه الكسل فلم يعمل الصَّالحات ، واستعان بصحَّته على

www.alukah.net
شبكة الألوكة

معصية الله ، وشغل فراغه باقتراف المحرَّمات ، وانقاد إلى الهوىٰ المهلك ، والنَّفس الأمَّارة بالسُّوء ، والشَّيطان الغرور ؛ أضاع رأس المال ، وخسر الخسارة العُظمى ، وهناك يدعو ثبوراً ، ويُسْحَب على وجهه في النَّار ، وإنَّه لمغبونٌ حقَّاً ، فالمغبون من باع بضاعته بثمنٍ بخسٍ يقلُّ عن رأس المال ، فكيف بِمَنْ أضاع رأسَ المَالِ كلِّه؟

* * *

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الحادي والعشرون

الرضا بما قسم الله

عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«انظروا إلى مَنْ هو أسفلَ[1] منكم، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقَكُم، فهو[2] أَجْدَرُ ألاَّ تزدروا[3] نعمة الله عليكم».

هذا الحديث متَّفق عليه، ورواه أحمد في المسند، وفي كتاب الزُّهد، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه.

وفي روايةٍ للبخاريِّ، ومسلم: «إذا نظر أحدُكم إلى مَنْ فُضِّلَ عليه في المال والخَلْق؛ فلينظر[4] إلى مَنْ هو أسفل منه»[5].

وقال ابن حجر: [وقد وقع في نسخة عمرو بن شُعيب عن أبيه، عن جده،

---

(١) إذا نصبتَ (أسفل) كان ظرفاً متعلِّقاً بخبر (هو) على نحو ما جاء في القرآن ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾، وإذا رفعت، كانت خبراً لـ«هو».

(٢) الفاء للتَّعليل، ومعنى أجدر: أحقُّ.

(٣) تزدروا: أي: تحقروا، وأصله (تزتروا) فقلبت التاء دالاً، والفعل الثُّلاثي: زرى. وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جرٍّ بحرف الجر المحذوف، والجار والمجرور متعلقان بـ«أجدر».

(٤) الفاء رابطة للجواب.

(٥) البخاريُّ ٨/ ٨٧ برقم ٦٤٩٠، ومسلمٌ ٨/ ٢١٣ برقم ٢٩٦٣، والمسند ٢/ ٢٥٤ و٤٨٢، والزُّهد لأحمد ١٨ و٧٧، والتِّرمذيُّ برقم ٢٥١٣، وابن ماجه برقم ٤١٤٢، وانظر الفتح ١١/ ٣٢٢، وشرح النَّوويِّ ١٨/ ٩٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

رفعه ، قال: «خَصْلتان مَنْ كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً:

مَنْ نظر في دنياه إلى مَنْ هو دونه ، فحمد الله على ما فضَّله به عليه ،

وَمَنْ نظر في دينه إلى مَنْ هو فوقه ، فاقتدىٰ به».

وأمَّا مَنْ نظر في دنياه إلى مَنْ هو فوقه ، فَأَسِف على ما فاته ؛ فإنَّه لا يُكتب شاكراً ، ولا صابراً][1].

وأخرج الحاكم من حديث عبد الله بن الشِّخير ، رفعه:

«أَقِلُّوا الدُّخول على الأغنياء ؛ فإنَّه أحرىٰ ألا تزدروا نعمة الله»[2].

وأخرج ابن حبَّان عن أبي ذرٍّ: قال: أوصاني خليلي ﷺ بخصالٍ من الخير: أوصاني ألاَّ أنظر إلى مَنْ هو فوقي ، وأن أنظر إلى مَنْ هو دوني[3].

إنَّ قوله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فُضِّل عليه في المال والخَلْق ؛ فلينظر إلى مَنْ هو أسفل منه». حديثٌ جامعٌ لمعانٍ كثيرةٍ من الخير ، والرِّوايات لهذا الحديث الَّتي أشرنا إليها تعين على تقرير المعنى المُتكامل ، وكذلك فإنَّ حديث عبد الله بن عمرٍو ، وحديث عبد الله بن الشِّخير ، وحديث أبي ذرٍّ توضِّح جوانب الموضوع.

* * *

إنَّ المسلم إن امتثل أمر رسول الله ﷺ في هذا الحديث الجميل ، فنظر في أمور الدِّين إلى مَنْ تقدَّمه ، وفاقه ، ونظر في أمور الدُّنيا إلى مَنْ دونه؛ أورثه ذلك رضاً يغمر نفسه بالسَّعادة ، وضاعف لديه الرَّغبة في الاستزادة من الطَّاعة ، وأقبل على ربِّه مجتهداً في الحصول على مرضاته ، وأحسَّ بنعم الله

---

(١) الفتح ١١/ ٣٢٣.

(٢) المستدرك ٤/ ٣١٢.

(٣) موارد الظمآن رقم ٢٠٤١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الَّتي تغمره ، فلهج لسانه بالشُّكر ، وفاضت الطُّمأنينة في نفسه ، وكان في سعادةٍ داخليَّةٍ لا توصف ، ولا تحدُّ.

إنَّ السَّعادة الحقيقيَّة كامنةٌ في أن يرضى المرء بما قسم الله له. وقد دلَّت أخبار التَّاريخ في الماضي ، وأحداثُ الحياة في الحاضر علىٰ أنَّ السَّعادة ليست في المال الوفير ، ولا في المَنْصِب الكبير ، ولا في الجمال الرَّائع ، ولا في النَّسب الشَّريف . . . ولكنَّها في أعماق النَّفس. والسُّموُّ درجاتٌ ، والتَّخلُّف درجاتٌ :

إنَّ المرء لا يكون بحالٍ تتعلَّق بالدِّين من عبادة ربِّه ، والإحسان إلى خَلْقه إلَّا وجد مَنْ هو فوقه في ذلك . . فإذا نظر إليه ؛ طلبت نفسُه اللَّحاق به ، واستصغر حاله ، فيكون أبداً في زيادةٍ تقرِّبه من ربِّه.

ولا يكون على حالٍ متأخِّرةٍ من الدُّنيا إلا وجد مِنْ أهلها مَنْ هو أسوأُ حالاً منه. فإذا نظر إليه ، ووازن بين حاله ، وحاله ؛ علم : أنَّ نعمة الله وصلت إليه دون كثيرٍ من النَّاس ، وعرف : أنَّه في بحرٍ من النِّعم ، فيُلزم نفسه الشُّكر ، ويعظُم اغتباطه بذلك ، ويحمَد العاقبة يوم المعاد[١] .

إنَّ هذا المسلك دواءٌ لمن نظر إلى مَنْ هو فوقه في الدُّنيا ، فأثار ذلك في نفسه الحسرة ، وأوقد فيها نيران الحسد ، واستصغر ما عنده مِنْ نعم الله . . . أَلَا فلينظر إلى مَنْ هو أسفل منه . . . لتطمئنَّ نفسه ، وترضىٰ ، وتعظُم في عينه نعمُ الله عليه ، وليكون ذلك داعياً إلى الشُّكر.

إنَّ التنافس في شؤون الدُّنيا ، ومصالحها سببُ اختلاف النَّاس ، وسببُ شقائهم ، وتنافرهم ، وحروبهم. ومعظمُ مشكلات النَّاس كائنٌ بسبب ذاك التَّنافس المُتحرِّر من قيود الشَّرع والمُثل. وإذا انصرف النَّاس إلى تحصيل الأمور الدُّنيويَّة ، والانكباب على الملذَّات ، وتسابقوا في ذلك ؛ ازدرىٰ كلُّ واحدٍ منهم نعمة الله عليه ، وحقد على الَّذين فاقوه فيها ، وحسدهم عليها ،

---

(١) هذا الكلام مستفادٌ من كلام لابن بطَّال أورده ابن حجر في الفتح .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فتراه مغموماً مهموماً ، تحرق صدرَه مشاعرُ الحِقْد ، والبغضاء .

قال بعضهم : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من الحسود؛ نَفَسٌ دائمٌ ، وَهَمٌّ لازمٌ ، وقلبٌ هائمٌ[1] .

وقال الماورديُّ : [لو لم يكن مِنْ ذمِّ الحسد إلا أنَّه خُلُقٌ دنيءٌ يتوجَّه نحو الأَكْفَاءِ ، والأقارب ، ويختُّص بالمُخالط والمُصاحب ، لكانت النَّزاهة عنه كرماً ، والسَّلامة منه مغنماً ، فكيف وهو بالنَّفس مضرٌّ ، وعلى الهمِّ مصرٌّ ، حتَّى ربما أفضىٰ بصاحبه إلى التَّلف . . .

وقد قال معاوية ـ رضي الله عنه ـ : ليس في خصال الشَّرِّ أعدلُ مِنَ الحسد ، يقتل الحاسدَ قبل أنْ يصِل إلى المَحسود .

وقال بعضُ الحكماء : يكفيك من الحاسد أن يَغْتَمَّ في وقت سرورك][2] .

وينطَلِق ذاك الَّذي ينظر إلى مَنْ فوقه ؛ ليتدارك ما فاته غير عابىءٍ بقواعد الشَّرع ، ولا بكريم الخُلُق . . وإذا عمَّ هذا ؛ فسدت الضَّمائر ، وملأت السَّخائم النُّفوس ، وتبلَّد الحسُّ ، وخيَّم الرَّان على القلب . . وكان الحقد الطَّبقيُّ ؛ الذي يُؤَرِّثُ نار الكراهية بين أبناء الأمَّة الواحدة . وإنَّنا لنشهد في عصرنا نتائج هذا الحقد الطَّبقيِّ البغيض ، الَّذي لا يقدِّم للبائس عوناً ، ولا يشجِّع الموسرَ على الإحسان . . . بل يمزِّق الأمَّة الواحدة بعد أن كان صفُّها مرصوصاً ، فتعمُّها الفُرقة ، ويأكلُها الاختلاف . وقد تضجَّر منه أبناء النِّظام ؛ الَّذي يقوم عليه كما نرىٰ ، ونسمع في دول أوربة الشَّرقيَّة .

هذا وإنَّ ذاك الَّذي ينظر إلى مَنْ هو فوقه لا يستفيد في شيءٍ ، فلا يتغيَّر حاله ، ولا يسعد عيشه ، بل يُضْحِي إنساناً معقَّداً ناقماً حاقداً ، لا يطمئنُّ إليه أحدٌ ، ولا يأنس بقربه إنسانٌ .

إنَّ الرِّضا بما قسم الله لِلْعبد ، والقناعةَ به ، وحبَّ الآخرين ، وإرادةَ الخَيْرِ

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين ٢٤٤ .

(٢) أدب الدُّنيا والدِّين ٢٤٥ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لهم ، والبعدَ عن الحسد ، وشكرَ الله على نِعَمِه ، معانٍ تُفهَم من هذا الحديث .

إنَّ الحياة السَّعيدة للأفراد ، والمجتمعات تكون بالرِّضا والقناعة بما وهب الله مِنْ متاع الحياة الدُّنيا ، وتكون بسيادة المعاني الكريمة من الإيمان ، وحُسْن الخُلُق ، والحبِّ ، والتَّعاون ، والإيثار . . . وما إلى ذلك .

أمَّا إذا تجرَّد الأفراد من الرِّضا ، والقناعة، والإيمان ، وحسن الخُلُق ؛ استوىٰ الإنسان ، والحيوان الأعجم . . . إنَّ أفراد القطيع تتسابق على المرعىٰ ، ولا تفهم معنىٰ الحبِّ ، والإيثار ، والتَّعاون . . . وإنَّ الَّذي يؤلم المسلم : أنَّ هذه الرُّوح المادِّية الخسيسة الغريبة عنَّا ؛ الَّتي يئنُّ منها المجتمع الأوربيُّ ، بدأت تتسرَّب إلى بعض مجتمعاتنا على نسبٍ متفاوتةٍ بين قُطْرٍ ، وَقُطْرٍ ، إنَّها روحٌ شرِّيرةٌ ، تحمل الآلام ، والويلات ، والشُّرور .

إنَّنا نجد في المجتمع المادِّيِّ المُتصارع المرأة تحقِد على الرَّجل . . . والصِّغار يحقِدون على الكبار . . . والفقراء يحقِدون على الأغنياء . . . وأبناء القُرى يحقِدون على أبناء المُدن ، والعمَّال على أرباب العمل . . وهكذا . . . ويَسْتَغِلُّ أعداءُ الإسلام هذا الوضع المريض ، ويوقدون نار العداوة بين الصُّفوف ، حتَّى يكون بأسُ المسلمين بينهم شديداً ، وبذلك يتسنَّى لهم ما يريدون .

وقولُه ﷺ : «فهو أجدر ألَّا تزدروا نعمة الله عليكم» يحذِّر مِنْ أمرٍ خطيرٍ سيىءٍ ، لا يليق بالمسلم أن يرضىٰ به ، ولا أن يقبله ، وهو ازدراء نعمة الله على عباده ، ومن ازدرىٰ نعمة الله ؛ حُرِمَ شكره ، ومَنْ حُرم الشُّكر ؛ ترحَّلت عنه النِّعم ، وتسابقت إليه المِحَن ، وابتُلي بالغمِّ ، والهمِّ ، والحزن الدَّائم ، والتسخُّط لما هو فيه مِنَ الخير .

فما أعظم نِعَمه سبحانه! قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم : ٣٤ والنحل ١٨] . أجل . . . إنَّ نعم الله لا يمكن أن تُحْصَىٰ ، وهذا الكلام ليس مبالغةً ، ولا مجازاً ، بل هو حقيقةٌ يقود إليها التأمُّل الواعي في أحوال النَّاس ، وفي الأمراض ، والمصائب المادِّيَّة ، والمعنويَّة ، فما أعظم منن الله

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الظَّاهرة ، والباطنة ! ولهذا كان من دعاء النَّبيِّ ﷺ قوله : «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1] وقال : «يا معاذ! إنِّي أحبُّك ، فلا تدعنَّ أن تقول دُبُرَ كلِّ صلاةٍ مكتوبة : اللَّهُمَّ! أعنِّي على ذِكْرك ، وشُكْرك ، وحُسْن عبادتك»[2].

وقد طالبنا بشكر النِّعمة ، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤] ولن يشكرَ العبدُ النِّعمةِ إلا إذا رآها جليلةً عظيمةً ، فمن أراد أن يقوم بواجب الشُّكر ؛ فجديرٌ به أن ينظر إلى من هو أسفل منه في أمور الدُّنيا ، ويوازن بينه ، وبينه ، وألاَّ ينظر إلى مَنْ هو فوقه . . . إنَّه إن فعل ذلك ؛ رأىٰ فضل الله عليه كبيراً ، لأنَّ كثيراً مِنْ أقرانه في العِلْم ، والنَّسب ، والخُلُق ، والعبادة ، والصِّفات الأخرىٰ لم يحظوا بالنِّعم الجليلة التي أكرمه الله بها . وعندما يرىٰ الإنسان شيئاً جميلاً قد خصّه الله به دون كثيرٍ من النَّاس ؛ يزداد جمالاً في عينه ، ويعظم قدره عنده . وعندئذٍ فهو حريٌّ أن يؤدِّي شكره .

أمَّا إذا نظر إلى من هو فوقه ؛ فإنَّه يرىٰ نفسه مجرَّداً من النِّعم الَّتي حيزت لغيره ، وهذا يجعله لا يرىٰ ما هو فيه من الخيرات والبركات شيئاً مذكوراً ، وسيقوده ذلك إلى ازدراء هذه النِّعم ، واحتقارها ، وسيُحرم الشُّكرَ ، وجزاءَه ، وسيُحرم السَّعادةَ ؛ الَّتي في حنايا الشُّكر .

يا أخي! كم من نعمةٍ تتقلَّب فيها! كم أنت مغمورٌ بفضل الله! ولنتذكر بعض هذه النِّعم ، فانظر ، وتدبَّر ، وتأمَّل :

هذا الإيمانُ الَّذي هديت إليه ، فأصبحت من الرَّاشدين نعمةٌ عظمىٰ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]. تصوَّر هؤلاء الضَّالِّين ؛ الَّذين يسيرون في سُبُل الضَّلالة الباطلة ، ويرفعون شعاراتٍ خدَّاعةً زائفةً . . لقد ضلَّ سعيُهم في الحياة

---

(١) رواه مسلمٌ برقم ٤٨٦ ، وأبو داود برقم ١٤٢٧ .
(٢) رواه أبو داود برقم ١٥٢٢ ، والنَّسائي ٣/ ٥٣ ، وهو حديث صحيح .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الدُّنيا وهم يحسبون أنَّهم يُحْسِنُون صنعاً. . . وازن بين حالك، وحالهم؛ لتتبيَّن عِظَمَ نعمة الإيمان الَّتي أنت فيها.

ومن ثمرات الإيمان أداءُ الواجبات، والامتناعُ عن المحرَّمات، فإذا كنت ممَّن وُفِّق إلى ذلك، فاحمد الله على فضله، وتذكَّر ناساً مثلك وقعوا في قاذورات المعاصي، وقصَّروا فيما أوجب الله عليهم حتَّى خُتِم على قلوبهم. . . أليس ما أنت فيه من الطَّاعة نعمةً مِنْ نعم الله؟ فهل أدَّيت شُكرها؟

هذا العقل الَّذي يضبط تصرُّفاتك، ويرشدك إلى سواء السَّبيل نعمةٌ عظمى. . تصوَّر المجنون وحاله، تَعْرِفْ قيمة هذه النِّعمة الجليلة. . . فهل أدَّيت شُكرَها؟

هذا البصر الَّذي تعرف به طريقك، وبه تمارس عملك، وتقرأ، وتكتب، وتزرع، وتصنع، وتغدو، وتروح. . . نعمةٌ عظمىٰ تَرْجَحُ أموالَ الدُّنيا، تصور إخوةً لك كراماً حُرِمُوا هذه النِّعمة. . . فهل أدَّيت شُكرها؟

هذا السَّمع؛ الَّذي هو نافذةٌ تصل بها المعرفة إلى عقلك، وبه تستطيع محاورة الآخرين، والتَّعاون معهم، والإفادة منهم. . . نعمةٌ عظمى. . . تصوَّر إنساناً حُرِم نعمة السَّمع، فَحُرِم بذلك نعمة النُّطق. . . كم يعاني في حياته. . . فهل قمت بأداء شكر هذه النِّعمة.

هذه الصِّحَّة، والقوَّة، والقدرة على القيام، والقعود، والحركة الَّتي تُمكِّن من العبادة، والقيام بعملك. . . نعمةٌ كبرى، لا تقدَّر بمال الدُّنيا. . . تصوَّر حال مَنْ حُرِمها، فهو طريحُ الِفراش ابتُلي بأنواع الأمراض، لا يقوىٰ على قضاء حاجته، ولا إزالة ضرورته، يضيق أهلُه وبنوه به ذَرْعاً، ويتمنَّون وفاته، ويشعر مِنْ جرَّاء ذلك بأقسىٰ المشاعر، وأشدِّها إيلاماً لنفسه. . . فهل شكرت هذه النِّعمة؟

هذا الغِنى عن النَّاس نعمةٌ عظيمةٌ. . . توفِّر عليك كرامتك، وتصون ماء وجهك. . . فأنت تجد الطَّعام الشَّهيَّ، والشَّراب الهنيَّ، والمسكن الواسع، والمركب المُريح، والنفقة المطلوبة. . . تصوَّر يا أخي! وتذكَّر: أنَّ هناك ناساً

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لا يجدون القوت، ولو كان يسيراً، وناساً لا يجدون المأوىٰ، ولو كان ضيِّقاً... فيضطرُّهم ذلك إلى تكفُّف أيدي النَّاس... فهل أدَّيت شكر هذه النِّعمة؟

هذه الزَّوجة الصَّالحة نعمةٌ كبيرةٌ لأنَّها تُعفُّك، وتُهَيِّئُ لك طعامك، وملبسك، وتقوم على تدبير شؤون بيتك، وتربِّي أولادك، وتشاركك مشاعرك، وتؤنسك، تصوَّر حال ناسٍ لا يقدرون أن يتزوَّجوا كم تكون حياتُهم مضنيةً صعبةً.. فهل أدَّيت شكر هذه النِّعمة؟

ومثل ذلك يقال للمرأة الَّتي أكرمها الله بزوجٍ صالحٍ يُعِفُّها، ويكرمها، وَيُهَيِّئُ لها الحياة السَّعيدة... فهل أدَّيتِ يا أختي! شكر هذه النِّعمة؟ هل تصوَّرت حال نساءٍ عوانس قَضَيْنَ أعمارَهُنَّ، ولم يتزوجن، فحُرِمْنَ من الولد؛ الَّذي يعين في الشَّيخوخة، والضَّعف.

وهؤلاء الأولاد الَّذين هم زينة الحياة الدُّنيا نعمةٌ كبيرة.. وهل عرفت حال الَّذين حُرِموا هذه النِّعمة من الضَّجر، والقلق، والحسرة، والشَّقاء؟ فهل قدَّرت هذه النِّعمة قدرها، وقمت بِشُكرها؟

هذا الأمن الَّذي أنعم الله به عليك نعمةٌ عظمى... فأنت آمنٌ على نفسك، وعِرْضك، ومالك... تصوَّر حال أقوامٍ في عصرنا هذا لا يأمنون على أنفسهم، ولا على أموالهم... فهل أدَّيت شُكْر هذه النِّعمة؟

يا أخي! ألست معي بعد ذلك بأنَّك تسبح في بحورٍ مِنَ النِّعم، وأنَّ كلَّ واحدةٍ من هذه النِّعم لا تقوَّم بثمنٍ.. فانظر إلى هذه النِّعم، واقْدُرْها قَدْرَها، واسعَد بها.

في الحديث علاجٌ لِمَن نظر إلى مَنْ فُضِّلَ عليه في المال والخَلْق، يقول ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فُضِّل عليه في المال والخَلْق؛ فلينظر إلى مَنْ هو أسفل منه».

قد ينظر الإنسان إلى مَنْ هو أغنىٰ منه، وإلى مَنْ هو أقوىٰ منه، وأجمل... ينظر إليهما نظرة إعجاب، وموازنةٍ بينهما، وبينه.

ذلك: أنَّ المرء قد ينظر إلى الغنيِّ، والقويِّ، والجميل بسبب اجتماعه معه في الطَّريق، أو المسجد، أو العمل... وقد يخطر على باله.. فماذا يصنع؟

هذه حالةٌ لا بُدَّ أن تقع، أو تَرِدَ على الذِّهن... فكيف يتصرَّف المرء، ولا سيَّما: أنَّ الشَّيطان قاعدٌ مترصِّد.

إنَّ هذه النَّظرة المعجبة المتطلِّعة إن لم يُعالجها المرء؛ أقضَّت مضجَعه، وسلبتْه سعادتَه، وصغَّرت ما لديه من النِّعم، وبدَّدت هدوءَه، وأحلَّت الألم محلَّ السُّرور، والآهات العميقة محلَّ البسمات، والضَّحكَاتُ، وجعلت الحزن والاكتئاب يسيطر على المرء محلَّ البهجة، والفرح، والانشراح.

وهذه النَّظرة قد تأتي دون تعمُّدٍ... فماذا يصنع هذا الَّذي تعرَّض لها؟

الحديث الشريف يقدِّم له العلاج: إنَّ عليه أن ينظر إلى مَنْ هو أسفل منه في المال، والولد، والنَّسب، وأصناف النعم.. إنَّ ذلك يُذْهِبُ عنه الغمَّ، والحزن، ويبرز قيمة النِّعم العظمىٰ الَّتي أكرمه الله بها، فيعترف بهذه النِّعم، ويتحدَّث بها، ويكون ذلك دافعاً له إلى شكر المُنعِم المُتفضِّل، والشُّكر هو رأس العبادة، وشكر الله واجبٌ على العبد، فكلُّ ما بالعباد من نعمةٍ ظاهرةٍ، أو باطنةٍ خاصَّةٍ، أو عامَّةٍ، فهو من الله جلَّ جلاله.

لو أننا فعلنا ذلك؛ لقضينا على كثير من أسباب الغمِّ والنكَدِ، ولوفَّرنا أعصابنا الَّتي يحرقُها هذا الشُّعور المتوقِّد، ولاستأصلنا شأفة الحَسَد من الصُّدور. والحَسَدُ ينطلق من هذه النَّظرات الحمقاء الَّتي لا تفيد صاحبها ولا تسرُّه.. بل تسيء إليه، وتحزنه. انظر إلى دخلك الَّذي تكسبه.. وتذكَّر كثيراً ممَّن هم في مستواك... وكن منصفاً في هذه الموازنة... أليس هناك عددٌ كبيرٌ منهم لا ينعم بما تنعم به[1]؟

بل ربما وجدت كثيراً من هؤلاء يفوقونك في عددٍ من الصِّفات، والمزايا، ومع ذلك فإنَّ دخلك يفوق دخل كلِّ واحدٍ منهم.

(١) انظر كتابنا «نظرات في الأسرة المسلمة» موضوع: مِنْ أخطاء الموازنة.

إنَّ هذا يجعلك تفرح بهذه النِّعمة العظيمة ، ويعصمك من الوقوع في رذيلة الحَسَد ، ويقيك من النَّكَد ، والألم ، وازدراء نعمة الله عليك .

وهناك أمران اثنان :

١ ـ ربَّما استويت مع بعض هؤلاء النَّاس في الصِّفات والمواهب ، وزاد مالهم عن مالك .

لكن ما يدريك : أنَّ الله أصابهم بمصائب في أجسامِهم ، وأنفسِهم ، وأهليهم جعلت حياتهم جحيماً لا يُطاق . فاحمَدِ الله على العافية ، وسلْهُ من فضله .

٢ ـ ربَّما تكون ممَّن ضُيِّق عليه في رزقه ، أو ابتُلي في صحَّته ، فتذكَّر يا أخي! من هو أشدُّ مصيبةً منك ، فما مِنْ مكروهٍ إلا ويوجد مكروهٌ أعظمُ منه . واحمد الله على أن عافاك ممَّا ابتلىٰ به كثيراً مِنْ خلقِه .

* * *

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الثاني والعشرون

حكم القاضي لا يغير من الحقيقة شيئاً

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول:

«كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذِّئب فذهب بابن إحداهُما، فقالت لصاحبتها: إنَّما ذهب بابنك. وقالت الأخرى: إنَّما ذهب بابنك.

فتحاكمتا إلى داود ـ عليه السَّلام ـ فقضىٰ به للكُبرى، فخرجتا على سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسِّكِّين أشقُّه بينهما.

فقالت الصُّغرىٰ: لا تفعل، يرحمك الله! هو ابنُها.

فقضىٰ به للصغرى». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، والنَّسائيُّ[1].

ونظرةً في ألفاظ الحديث تنبئُنا: أنَّ الوضوح يتجلَّىٰ في مفردات هذا النَّصِّ، وجُمَلِه، وممَّا يُستطرف في رواية الحديث: أنَّ راويه أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: والله إنْ سمعتُ بالسِّكِّين قطُّ إلا يومئذٍ، وما كنَّا نقول إلا المُديَة.

وقد وردت هذه الكلمة في كتاب الله العزيز في سورة يوسف: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١] ولم ترد فيه إلا مرَّةً واحدةً هي هذه الآية.

وجاء في «الفتح»: أنَّ المُدْية مثلثة الميم، وسمِّيت بذلك؛ لأنَّها تقطع

---

(١) البخاريُّ برقم ٣٤٢٧، ومسلمٌ ١٧٢٠، والنَّسائيُّ ٨/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مدىٰ حياة الحيوان. والسِّكِّين: تذكَّر، وتؤنَّث، وقيل لها ذلك؛ لأنَّها تسكِّن حركة الحيوان.

هذه القصَّة وقعت في بني إسرائيل أيام رسولَي الله: داود، وسليمان عليهما السَّلام، وهي قصَّةٌ ثابتةٌ لا شكَّ فيها، نؤمن بها، ونصدِّقها؛ لأنَّها وردت إلينا بطريقٍ صحيحةٍ عن المعصوم ﷺ.

ومعلومٌ: أنَّ التَّوجيه النَّبويَّ يقتضي الإذن لنا بأن نرويَ عن بني إسرائيل بشرط ألا نصدِّقهم، ولا نكذِّبهم، يقول ﷺ: «حدِّثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج»[(١)] ويقول: «لا تصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا...﴾»[(٢)] وجاء هذا الحديث في روايةٍ ذكرها ابن تيميَّة[(٣)]: «... ولا تكذِّبوهم، فإمَّا أن يحدِّثوكم بحقٍّ، فتكذِّبوه، وإمَّا أن يحدِّثوكم بباطلٍ، فتصدِّقوه، وقولوا: آمنا...».

أمَّا إذا جاء الخبر عن بني إسرائيل[(٤)] في الكتاب، أو السنَّة الصَّحيحة؛ فيجب الإيمانُ به، وتصديقُه، ومن ذلك الحديث الَّذي ندرسه الآن.

قصَّةٌ قصيرةٌ رائعة يحكيها رسولُ الله ﷺ، ببيانه العذب السَّاحر، وتصويره الحيِّ الأخَّاذ، جرت أيام أخويه: داود، وسليمان عليهما السَّلام.

والقصَّة وسيلةٌ ناجحةٌ في الدَّعوة، والإرشاد، وأداةٌ محبَّبةٌ من قِبَلِ السَّامعين؛ ولا سيَّما العامَّة، وأسلوبٌ جذَّاب، يشدُّ المُخاطبين إلى متابعة أحداث القصَّة، حتَّى تنتهي بهم إلى النتيجة؛ التي يرمي إليها راويها، ومن يتحدَّث بها دون أن يشعروا أنَّ فكرةً تُملَىٰ عليهم، ودون أن يتضجَّروا من ثِقَل

---

(١) رواه البخاريُّ ٤/ ١٣٦ برقم ٣٤٦١، والدَّارميُّ ١/ ١٣٦، والتِّرمذيُّ ٣/ ٣٧٦ برقم ٢٦٦٩ عن عبد الله بن عمرٍو. ورواه أبو داود عن أبي هريرة ٣/ ٤٣٨ برقم ٣٦٦٢.

(٢) رواه البخاريُّ عن أبي هريرة ٦/ ١٨ برقم ٤٤٨٥ و٩/ ٩٠ برقم ٧٣٦٢.

(٣) مجموع الفتاوىٰ ١٩/ ٦٣.

(٤) انظر موضوع الإسرائيليات في كتابنا «المحاتُ في علوم القرآن» ٢٦٤ ـ ٢٦٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التَّوجيه. ولذا فقد قيل: إنَّ القصَّة جنديٌّ من جند الله[(١)].

وهي [من أشدِّ الأساليب تأثيراً على النَّاس، وإذا أحسن المرء اختيار القصَّة، وأجاد طريقة العرض؛ بلغ من مراده أكثر ما يريد، فهي سلاحٌ فعَّالٌ، وأداةٌ ممتعةٌ مفيدةٌ، ومِنْ أجل ذلك نرىٰ: أنَّ القرآن الكريم قصَّ علينا أخبار الأمم السَّابقة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] وكذلك نرىٰ في السُّنَّة المُطهَّرة قصصاً لِمَا كان في بعض الأمم الخالية][(٢)].

وتتضمّن هذه القصَّةُ تصويراً لعدوانِ ظالمٍ مِنْ طَرَفٍ في دعوى يتعرَّض له الطَّرف الآخر، وليس مع المظلوم بينةٌ، ولَم يتَّضحْ وجهُ الحقِّ للقاضي، فرجَّح ما ظنَّه حقّاً، فلم يوافق الصَّواب، وقد يكون ترجيحه نتيجةً لبلاغةٍ متفوِّقةٍ، وفصاحةٍ مبينةٍ، ومقدِرةٍ على عرض القضيَّة بما يتَّفق ومصلحة العارض، وكم في النَّاس من أصحاب المواهب ممَّن يستطيع أحدُهم أن يقلب الحقَّ باطلاً، وأن يُبْرِز الباطلَ في هيئة الحقِّ، ورسولُ الله ﷺ يقول: «إنَّ من البيان لسحراً». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ[(٣)].

ومن أجل ذلك حذَّر رسول الله ﷺ المتخاصمين من أن يأخذ أحدٌ منهم ما ليس له نتيجةً لقضاء القاضي؛ لأنَّ هذا الحكم لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً. وقرَّر: أنَّ مَنِ اجترأ على أكل الحرام؛ الَّذي قُضِيَ له به؛ لتلبيسه الحقَّ على القاضي، فإنَّما يتقحَّم في النَّار:

عن أمِّ سلمة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

---

(١) القائل هو الجنيد. جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١/ ٢١١: [سئل الجنيد: ما للمريدين وسماع القصص، والحكايات؟ فقال: الحكايات جندٌ من جند الله تعالى يقوِّي بها قلوب المريدين. فقيل له: هل في ذلك شاهد؟ فتلا قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] وانظر هذه الكلمة في طبقات الشافعية ٢/ ٢٦٥.

(٢) من تقدمتي لكتاب «الباعث على الخلاص» ص ١٢ دار الورَّاق.

(٣) البخاريُّ ٧/ ١٨ برقم ٥١٤٦، ومسلم برقم ٨٦٩، وأبو داود ٤/ ٤١٤ برقم ٥٠١١، وأحمد ٢/ ١٦، ومالك ٢/ ٩٨٦، والتِّرمذيُّ برقم ٢٠٢٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«إنَّما أنا بشر ، وإنَّكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحُجَّته من بعضٍ ، فأقضيَ له بنحو ما أسمع ؛ فمن قَضَيْتُ له بحقِّ أخيه ، فإنَّما أقطَع له قطعةً من النَّار» متَّفقٌ عليه[1] .

وقد دلَّت الأحداث على أنَّ قدرة الإنسان على التَّزوير ، والتَّلبيس كبيرةٌ ، وعلى أنَّ احتياله على القواعدِ الفقهيَّة ، والنُّصوص القانونيَّة لا حدَّ له ، ولا يمكن أن يضبط هذه التَّصرُّفات احتياطُ محتاطٍ ، ولا توقُّع متوقِّع ، فالثِّقة بأن تكون قواعدُ التَّنظيمات ، وموادُّ القوانين قادرةٌ على أن تمسك بكلِّ مزوِّرٍ ، متجاوزٍ محتالٍ ثقةٌ في غير محلِّها . وهي على أيَّة حالةٍ غير مُطْلَقةٍ .

أمَّا الفرد في المجتمع المُسلم . . ذاك الفرد الَّذي صاغته مبادئ الإسلام فلا يرضىٰ أن يأخذ شيئاً ليس له . . لأنَّه إنما يأخذ قطعةً من النَّار . ومَنْ يقوىٰ على أخذ قطعة من النَّار ، وأكلها؟ !

وهذا هو الفرق بين الحكم الدِّيني الرَّبَّانيِّ السَّماويِّ ، والحكم القانونيِّ البشريِّ الأرضي . إنَّ الحكم الدِّينيَّ يؤكِّد ـ وهو يقرِّر الحكم القضائيَّ ـ ما سبق أن غرسه في أعماق النُّفوس ، وهو : مخافة الله .

وتلازِم الفردَ المسلمَ ـ الَّذي يواجَه بحكم القاضي في المجتمع الإسلاميِّ المثاليِّ مراقبةُ الله ، عزَّ وجلَّ ، وترافقه أبداً ، سواءٌ كان محكوماً عليه ، أم محكوماً له ـ يقظةُ الوجدان ، فلا يُقدِم المتديِّن على أخذ ما ليس حقاً له ، ولو قضىٰ به القاضي ؛ لأنَّ الله العليَّ الكبير مطَّلعٌ عليه ، عالمٌ بواقعه ، وتصرُّفاته ، لا تخفىٰ عليه سبحانه خافيةٌ ، يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصُّدور .

أمَّا الحكم القانونيُّ المجرَّد عن النَّزعة الدِّينيَّة ، فإنَّه لا يمكن أن يصل إلى هذا المستوىٰ الرَّفيع بحالٍ من الأحوال .

إنَّنا نرىٰ أعمدة الصُّحف في بلاد العالم تزدحم بالأخبار المُذهلة ؛ الَّتي تحكي حوادث الغصب ، والعُدوان ، والسَّرقة ، والقتل ، والاحتيال . وكثيراً

---

(١) رواه البخاريُّ برقم ٦٩٦٧ ، ومسلمٌ برقم ١٧١٣ ، ورواه أحمد أيضاً ٦/ ٢٠٣ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما نسمع ضياع حقِّ إنسانٍ ضعيفٍ لا يملك نفقة المُحامين الكبار ، ولا يستطيع دفع الرَّشاوي . . . ولا يقدر أن يدافع عن نفسه لجهله ، وعيِّه . . . وما أسهل الاحتيال على القانون ، والتفلُّت من سيطرة أحكامه في هذه الأيام .

إنَّ الإسلام عندما يقرِّر : أنَّ حكم القاضي لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً ، ولو كان هذا القاضي نبيّاً . إنَّما يقرِّر درساً يفتقر إليه النَّاس اليوم ، وفي كلِّ زمانٍ .

إنَّ المُعتدي الظَّالم يعرف من نفسه حقَّ المعرفة : أنَّه معتدٍ . . . ألا فليذكر : أنَّ علم الله ـ جلَّ جلاله ـ لا حدَّ له ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ١٦] .

وليذكر : أنَّه ـ جلَّ وعزَّ ـ شديدُ العقاب ، سريع الحساب ، يمهل ، ولا يهمل ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : ٤٢ ـ ٤٣] ويقول سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [إبراهيم : ٥١] .

أمَّا أولئك المظلومون ؛ الَّذين اعتُدي على حقوقهم ، واستولىٰ عليها الظَّالمون ظلماً ، وعدواناً ؛ فليعلموا أيضاً : أنَّه لن تضيع لهم ذرَّةٌ ، وسيوفَّون أجورهم ، وحقوقهم كاملةً غير منقوصةٍ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧ ـ ٨] .

هناك امرأتان تنازعتا ولداً ، كلٌّ منهما تدَّعي : أنه ابنُها . . . ولنبدأ القصَّة من أوَّلها :

هاتان امرأتان ، لعلَّهما كانتا تعملان في الحقل ، أو تجمعان الحطب من البرِّيَّة ، ولعلَّهما تركتا ولديهما أمام أمتعتهما . . . وفي لحظةٍ خاطفةٍ يعمِد الذِّئب إلى ولدٍ من الولدين ، ويذهب به .

يا لله ! يذهب الذِّئب بطفلٍ صغيرٍ ، ويلتهمه بأسنانه مسرعاً . . يفجع قلب الأمِّ الرَّؤوم بفلذة الكبد . . وما إن يبصرانه ويروِّعهما هذا المشهد المفزع ، حتى تلحقا بالذِّئب ولكنَّه يمضي بعيداً . . . إلى غير رجعةٍ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وتعود المرأتان تُنعمان النَّظر في الولد الَّذي نجا من فتك الذِّئب ، وبقي حيّاً فتدَّعي كلٌّ منهما : أنَّ الولد المفقود ولدُ الأخرىٰ ، وأنَّ الموجود ولدُها .

والمرأتان من بني إسرائيل ، وكانتا في عهد سيدنا داود عليه السَّلام ، فتحاكمتا إليه ، وكان ملكاً ، وقاضياً . . . ويبدو أنَّ الكبرىٰ كانت أفصح لساناً من الصُّغرىٰ ، وأقوىٰ بياناً . . والنَّبيُّ بشرٌ مثلُ النَّاس ، يستوي معهم ؛ إن لم ينزل عليه وحيٌ من السَّماء . . . فحكم داود عليه السَّلام به للكُبرى . . . وهو في الحقيقة ليس لها . . وذهبتا . . . وتملَّك الكبرىٰ فرحٌ لا يوصف ، ولا يحدُّ ؛ إذ ظفرت بولدٍ تدَّعيه لنفسها ، تلتمس فيه البدل من ولدها المفقود المأكول وترجو في المستقبل خيرَه ، وعونَه .

ولعلَّ ممَّا دعا سيدنا داود أن يحكم للكُبرىٰ بالولد : أنَّ هذا الولد الباقي كان في يدها ، وعجَزت الصُّغرىٰ عن إقامة البيِّنة[١] .

أما أمُّ الغلام الحقيقيَّة ، وهي الصُّغرىٰ ، فقد كانت تسير إلى جانبها منكسرة الخاطر ، قد هدَّها الحزنُ المُفجع لانتزاع ولدها منها بالباطل ، وهي تراه حيّاً بين ذراعي المرأة المُغتصِبة . . . لا تستمتع بجمال طفولته البريئة ، ولا تُشبع غريزة الأمومة بتربيته على عينها ، وتحت رعايتها . . ولا تتوقع منه في المستقبل إحسان البرِّ ، ولا صلة الرَّحم .

ومرَّتا ـ وهما على هذه الحالة الَّتي ذكرنا ـ على سليمان ﷺ ، فعرضتا الأمر عليه من جديدٍ .

ويبدو أنَّ الكبرىٰ وافقت على الاحتكام إليه ؛ لأنَّها في تصوُّرها قد ملكت حقّاً في القضاء ، ولا تتوقَّع من الابن النَّبيِّ الصَّالح إلا إبرام ما قضىٰ به الأب النَّبيُّ الصَّالح ، غير أنَّ مشيئة الله أرادت أن يظهر الحقُّ ، ويتَّضح ، ويعود لصاحبه ، وبدا للولد الصَّالح ما لم يَبْدُ للأب الكريم ، وقد يكون سليمان رأىٰ جزع المظلومة البائسة الَّتي يمزِّق قلبَها الحزنُ ، والحنانُ ، والألمُ ، والعطفُ ،

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٦٤ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فارتسم أثر ذلك على وجهها ، فساعده ذلك على أن تصدُق فراستُه ، وتنفذ بصيرتُه . . فألهمه الله طريقةً تجعل الحقَّ يظهر بوضوح . فقال : ائتوني بالسِّكّين أشقُّه بينهما . فقالت الصُّغرىٰ : لا تفعل يرحمك الله ! هو ابنُها .

فقضىٰ به للصُّغرى ؛ لأنَّه أصبح مقتنعاً بأنه ولدُها ، وبأنَّ تلك الكبرىٰ كاذبةٌ في دعواها ، وقد تكون الكبرىٰ اعترفت بأن الولد ليس لها ، عندما قضىٰ سليمان به لتلك بعد أن ثبت كذِبُها .

قال الحافظ ابن حجر :

[ويحتمل أن يكون سليمان عليه السَّلام ممَّن يسوغُ له أن يحكم بعلمه ، أو تكون الكبرىٰ في تلك الحالة اعترفت بالحقِّ لمّا رأت من سليمان الجدَّ ، والعزم في ذلك](١) ويذهب الحافظ إلى أنَّ سليمان ـ عليه السلام ـ لم ينقض حكم أبيه ، وإنَّما الموضوع من باب تبدل الأحكام بتبدُّل الأسباب .

ولا أريد الخوض في الموضوع الفقهي عن حكم القاضي بعلمه(٢) ، غير أنَّ من المفيد أن نشير إلى أنَّ هذا الموضوع خلافيٌّ عند العلماء ، وأكثر العلماء على أنَّه ليس له أن يحكم بعلمه .

إنَّ الرأفةَ بالولد ، وحُبَّه ، والحنانَ عليه حمل ذلك كلُّه الأمَّ على أن تتنازل عن حقِّها ، وتعترف بأنَّه ولد المرأة الأخرىٰ . . . رضيت أن تقاسي آلام الابتعاد عن وليدها ، وانتزاعه منها في مقابل ألاَّ يصاب بسوءٍ ، وألا يتعرَّض للموت ، وهذا مثلٌ من أمثلة الحنان ، والحبِّ اللَّذَيْنِ يغرسُهما الله في قلب الأمِّ . . كم تعاني الأمَّهات من صنوف الألم ، وألوان الشَّقاء ، ليسعد الأولاد ، وينعموا ! ! !

من أجل هذا كان البرُّ بالوالدين من أعظم القرُباتِ ، والواجبات ، ومهما يبذل الأبناء في سبيل برِّ والديهم ؛ فلن يستطيعوا أن يوفوهم حقَّهم . قال

(١) الفتح ٦/ ٤٦٥ .
(٢) سبق أن كتبت بحثاً في هذا الموضوع . وانظر ما كتبه ابن القيِّم في كتابه : «الطُّرق الحكميَّة» ٢١٠ ـ ٢١٧ وفي الموضوع مجالٌ كبير للنَّظر ، والاجتهاد .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال رسول الله ﷺ: «لا يجزي ولدٌ والداً إلا أن يجده مملوكاً، فيشتريَه، فيعتقَه»(١) رواه مسلمٌ، وغيرُه.

وفي القصَّة دليلٌ على المستوىٰ الرَّاقي الَّذي بلغه الذَّكاء عند سيِّدنا سليمان عليه السَّلام، وهي تدلُّ على أنَّ الرأي السَّديد، والتَّوفيق لا يتعلَّقان بالسنِّ. ويغلِب على الظنِّ: أنَّ سليمان تظاهر بالجدِّ في الموضوع، وإلا فلو بدا عليه: أنه غير جادٍّ: لما استطاع أن يصل إلى الحقيقة.

إنَّ هذه القصَّة الرَّائعة لنذيرٌ لكلِّ مَنْ تُحدِّثُهُ نفسُه بالعدوان... نذيرٌ له بأن يفتضح، فيخسر ما كان يظنُّ: أنه ربحه، ويخسر رضا الله، وثقة النَّاس، ويبوء بالإثم الكبير... فهذه الأمُّ الثَّكلىٰ؛ التي فُجِعت بوليدها؛ الَّذي قد يكون وحيداً جمعت إلى الكارثة المفجعة فضيحتها، ووضوح عدوانها، وكذبها، وباءت بغضب الله، وسخطه، واشمئزاز النَّاس، واحتقارهم، وكانت في غنى عن ذلك لو أنَّها رضيت بقضاء الله، وقدره، ألا فلا يغترَّ المبطلون؛ الَّذين تنطلي أساليبهم على النَّاس في الحياة الدُّنيا، فما يدريهم: أنَّهم سيواجَهون بالفضِيحة في مُقبِل الأيام، ولينتظروا الفضيحة الكبرىٰ يوم يقوم النَّاس لربِّ العالمين، في ذاك اليوم العصيب، الَّذي يجدون فيه ما قدَّموا، وليس لهم من حميمٍ، ولا شفيعٍ يُطاع.

❊ ❊ ❊

---

(١) وهو حديث أبي هريرة، رواه مسلمٌ برقم ١٥١٠، وأبو داود برقم ٥١٣٧، والتِّرمذيُّ برقم ١٩٠٦ وابن ماجه ٣٦٥٩، وأحمد ٢/ ٢٣٠ و٤٤٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الثالث والعشرون

مثل البخيل والمنفق

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول:

«مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديدٍ، من ثُدِيِّهمَا إلى تراقِيْهِمَا: فأمَّا المُنفق؛ فلا ينفق إلا سَبَغَتْ ـ أو وَفَرَتْ ـ على جلده، حتَّى تُخْفِيَ بنانَه، وتَعْفُو أثره.

وأمَّا البخيل فلا يريد أن يُنفِق شيئاً إلاَّ لَزِقَتْ كلُّ حَلْقَةٍ مكانَها، فهو يُوَسِّعُها ولا تتَّسِع».

قال أبو هريرة: فأنا رأيتُ رسولُ الله ﷺ يقول بأصْبَعِهِ هكذا في جيبه، فلو رأيته يُوَسِّعُها ولا تتوسَّع. رواه البُخاريُّ، ومسلمٌ، وأحمد، والنَّسائيُّ[1].

والجُبَّة: ثوبٌ مخصوصٌ، وما زالت هذه الكلمة مستعملةً في بعض البلاد العربيَّة، وعلماء فقه اللغة يذكرون: أنَّ هذه المفردة دخلت في اللُّغة الفرنسيَّة من العربيَّة.

ولا مانع من إطلاق هذه الكلمة على الدِّرع. ووردت هذه الكلمة في بعض روايات الحديث في الصَّحيحين بلفظ «جُنَّتَانِ» بالنُّون بمعنى الدِّرع.

والثَّدْيُ جاء في «المختار»: [الثَّديُ يُذَكَّر، ويُؤَنَّث، وهو للرَّجل، والمرأة أيضاً. والجمع أَثْدٍ، وثُدِيٌّ، بضمِّ الثَّاء، وكسرها].

---

(١) البخاري برقم ١٤٤٣ و٥٧٩٧، ومسلمٌ ١٠٢١، والنَّسائيُّ ٥/ ٧٠، وأحمد ٢/ ٢٥٦ و٣٨٩ و٥٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والتَّراقي : جمع تَرْقُوَة ، وهي العظم المُشرف في أعلىٰ الصَّدر إلى طرف ثُغْرَة النَّحر .

جاء في «المختار» [والتَّرقوةُ : العظم الَّذي بين ثُغرة النَّحر ، والعاتق ، ولا تُضمُّ التَّاء] .

هذا الحديث ورد بروايات متعدِّدة في الصَّحيحين ، وبعضها يُكمل بعضاً ، ويَحْسُنُ أن أشير إلى بعضها ممَّا له علاقةٌ بالمعنى :

ففي روايـة لهما : «عليهما جبَّتان من حديـدٍ قد اضْطَرَّت أيدِيَهُمـا إلى ثُدِيِّهما» .

وفي روايةٍ لهما : « . . . من حديد من لدن ثُدِيِّهما إلى تَراقِيهِمَا» وكذلك رواية النَّسائيِّ : «إنَّ مثل المنفق المتصدِّق ، والبخيل كمثل رجلين عليهما جُبَّتان ـ أو جنَّتان ـ من حديدٍ من لدن ثُدِيِّهما إلى تراقِيهما» .

فقد دلَّت الرِّواية الأولىٰ : أنَّ الجبَّـتين ضيِّقتان ، قد اضطرَّت أيدِيَهما إلى ثُديِّهما ، وتراقِيهما ، حتَّى كانت يدا كلٍّ منهما مغلولتين إلى عنقه ، ودلَّت الرِّواية الثَّانية والرِّواية الَّتي صدَّرنا بها حديثنا على أنَّ الجُبَّتين قصيرتان ، فهما من لدن ثُدِيِّهِما إلى تراقِيهما .

هذا الحديث يقوم على الصُّورة البيانيَّة؛ الَّتي تأخذ بمجامع القلوب ، وتسحر الألباب ، والَّتي تؤدِّي المعنى المطلوب بدقائقه ، وتفصيلاته بأجلىٰ بيانٍ، وأعمق تأثيرٍ، وأوجز كلامٍ. تعرض هذه الصُّورة أمام أبصارنا، وخيالنا ، وعقولنا حقائق قائمةً في دنيانا ، قلَّ أن ننتبه عليها ، وبعرضها هذا يبرز الحلُّ النَّاجع لما يمكن أن تنطوي عليه تلك الحقائق مِنْ متاعبَ ، ومشكلات .

إنَّ هذا الحديث الجميل ، وأمثاله لتقيمُ الدَّليل القاطع ، والبُرهان السَّاطع على صحَّة قوله ﷺ : «أوتيتُ جوامع الكَلِم»[1] .

---

(١) انظر البخاري ٤/ ٤٣ برقم ٢٩٧٧ ، ومسلمٌ ٢/ ٦٤ برقم ٥٢٣ ، وسنن الدَّارقطني ٤/ ١٤٤ ، والدُّرر برقم ١٦١ ، ومجموع الفتاوىٰ ١٨/ ٣٠٨ـ ٣٠٩ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنك كلَّما نظرت في هذه الصُّورة المعبِّرة وقفت على معنىً ، وعلى جانبٍ من جوانب التَّصوير ، يختلف عن الجوانب الأخرى .

إنَّنا لا نجد في هذا الحديث كلاماً غير هذا التَّمثيل الَّذي ضربه رسولُ الله ﷺ للمتصدِّق ، والبخيل .

ولنعرض جانباً جانباً من جوانب هذه الصُّورة الرَّائعة :

هناك رجلان : أحدُهما بخيلٌ ، لا ينفق ، ولا يتصدَّق على الآخرين ، بل ولا يسخو على نفسه ، وأسرته بالطَّيبات من الطَّعام ، ولا بالفاخر من اللِّباس ، ولا بالمُريح من المسكن ، والمركب مع غناه الواسع ، وثرائه الكبير .

وثانيهما : كريمٌ ينفق ، ويتصدَّق على الفقراء ، والبائسين ، ولا يحرم نفسه ، وأسرته ممَّا أحلَّ الله له من الطَّيبات الَّتي أخرجها لعباده من طعامٍ ، وملبسٍ ، ومسكنٍ ، ولا يسرف ، ولا يبذِّر .

تعرض الصورة هذين النَّموذجين اللَّذَيْن يكثُر وجودُهما في الحياة ، كما يأتي : رجلان عاريان ، ليس عليهما من ثيابٍ إلا قميصاً من حديدٍ قصيراً ، من الكتف إلى الثَّدْي ، لا يجاوزه ، وهو بعد ذلك ضيِّق أشدَّ الضِّيق ، قد اضطرَّ يدي كلٍّ منهما إلى أن تكون على كتفه من الأعلىٰ وعلى الثَّدي من الأسفل ، لا يتحرَّكان إلا بصعوبةٍ .

هذا الجانب من هذا التشبيه يُشير إلى أنَّ هناك ضروراتٍ لا بُدَّ من قضائها ، يستوي فيها الغنيُّ ، والفقير ، والجواد ، والبخيل . إنَّ كلاًّ منهما لا بُدَّ له من أن يأكل ، ويشرب حتَّى يبقىٰ حيَّاً ، ولا بُدَّ له من مأوىً يقيه حرَّ الصَّيف ، وبرد الشِّتاء ، يظلُّه من الشَّمس ، ويحميه من لسع الزَّمهرير ، ولا بُدَّ له من لباس يستر سوءَته ، ويدفع عنه تأثير العوامل الخارجيَّة .

هذه الضَّرورات ينفق النَّاس من أموالهم مقداراً مُعيَّناً لسدِّها ، وقضائها ، فأشدُّ النَّاس بخلاً ينفقُ على هذه الضَّرورات ما يقيم أَوَدَه ، ثمَّ لا يجود بعد ذلك بشيءٍ مهما قلَّ .

ولكنَّ هذا المقدار لا يحقِّق سعادةً لصاحبه ، ولا متعةً ، ولا يتيح له أن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يحقِّق ذاته ، وأن يقيم العلاقات الاجتماعيَّة مع الآخرين .

إنَّ لابس الجُبَّة يُعدُّ لابساً ، ولكنَّ عورته باديةٌ ، ومعظم جسمه مكشوفٌ ، والجُبَّة صلبةٌ قاسيةٌ ؛ لأنَّها من الحديد ، وهي من الضِّيق بحيث تحبسُ يديه وتضمُّهما إلى التَّراقي .

ولكن شأن هذه الجبَّة عجيبٌ عجيبٌ . . . إنَّها تطول ، وتمتدُّ ، وتنبسط حلقاتُها بالبذل ، والإنفاق . وهذا جانبٌ آخر من جوانب هذه الصُّورة الرَّائعة : هنا يكون موقفان وحالان مختلفان لهذين الرَّجلين :

أمَّا المُتصدِّق الكريم ؛ فإنَّه ينفق من ماله ، ويَبْذُلُ ممَّا آتاه الله ، فسرعان ما تنبسط حلقاتُ الجبَّة ، وتطول ، وتطول ، وإذا هي سابغةٌ تعفو أثَرَهُ إذا مشى ، وتُغطِّي أكمامُها بَنانَهُ ، فيقوى على استخدام يديه ، ويجرؤ على مقابلة النَّاس ، والتَّعامل معهم ؛ لأنَّه مستور العورة . فيغدو ، ويروح آمناً سعيداً ، مسروراً بخلاصه من الضِّيق ، والعنت ، والفضيحة .

وأمَّا البخيل ؛ فيبقىٰ في إنفاقه في حدود الضَّرورة لا يجاوزها إلى غيرها ، فلا يطعم أحداً ، ولا يجود بشيءٍ ، وقد يعظم هذا البُخل ؛ حتَّى يكون على نفسه ، فيحرمها من كلِّ شيءٍ إلا ممَّا لا بدَّ له منه ، وهو في هذه الحال محكومٌ بنفسه الخسيسة ، الشَّحيحة ، الدَّنيئة .

وقد يريد أن يَبْذُلَ ، ويتصدَّق . . . ويحاول ذلك . . ولكنَّه يخفق في محاولته ، وتنهزم إرادته أمام طبيعة الشُّح الَّتي أحضرتها الأنفس ، فتبقى حلقات الجُبَّة على ما هي عليه ، بل تزداد ضغطاً ، وتقلُّصاً . . وضيقاً . . . ويبقىٰ الرَّجل مكشوف العورة أمام النَّاس ، والنَّاس يُطلقون ألسنتهم فيه ، يشتمونه ، ويعيبونه . . . وهكذا يظلُّ في عزلةٍ ، وضيقٍ ، وغمٍّ . . وقد يحاول مرَّةً أخرىٰ أن يتصدَّق ، ولكنَّه يبوء بالهزيمة .

إنَّ الإنفاق ، والجود يستر العيوب ، والمساوئ كما سترت تلك الجبَّة جسم هذا الرَّجل ، ولله درُّ صالح بن عبد القدوس :

ويُـظْهِرُ عَـيْـبَ المَرْءِ فِي النَّاس بُخْلُهُ ... ويَسْتُـرُه عَنْـهُـمْ جَمِيـعَـاً سَخَـاؤُهُ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَغَـطَّ بِـأَثْـوَابِ السَّخَـاءِ فَـإِنَّنِـي ... أَرَىٰ كُلَّ عَيْبٍ والسَّخَاءُ غِطَاؤُهُ[1]

وقال آخر:

إِذَا كُنْتَ جَمَّاعَاً لِمَالِكَ مُمْسِكَاً ... فَـأَنْـتَ عَلَيْـهِ خَـازِنٌ وَأَمِيْـنُ

تُـؤَدِّيْهِ مَـذْمُـومَـاً إِلَـىٰ غَيْـرِ حَـامِـدٍ ... فَيَـأْكُلُـه عَفْـوَاً وَأَنْـتَ دَفِيْـنُ[2]

إنَّ هذا التَّشبيه الرَّائع يمكن أن يفهم على جوانب متعدِّدةٍ كلُّها قائمةٌ في دنيا الواقع، وقد قرَّر علماء البلاغة: أنَّ النُّكتَ البلاغيَّة قد تتعدَّد في الصُّورة، والعبارة الواحدة، وتختلف حسب التَّوجيه. وأحسب: أنَّ هذا يدخل في غنى الأسلوب النَّبويِّ بالمعاني، فالصُّورة الواحدة تُفهم على وجوهٍ عدَّةٍ كلُّها تصدق على الواقع. وإذا كان علماء البلاغة ـ في بعض الأمور كالاستعارة التَّبعيَّة ـ يقولون: إنَّ كلَّ استعارةٍ تبعيَّة يمكن أن تكون قرينتُها استعارةً مَكْنيَةً، وإذا أُجريت واحدةٌ امتنع إجراء الأخرىٰ، فإنَّنا بالنِّسبة إلى الصُّورة في دراستنا الأدبيَّة نقبل كلَّ التَّوجيهات إن كانت ضمن دائرة الشَّرع، وممَّا تقبلُها أحكامه، ومقاصده.

وهذا جانبٌ آخر تدلُّ عليه هذه الصُّورة الرَّائعة، وهو كون الجبَّة الحديديَّة جبَّةً ضيِّقةً... وقد قلنا: إنَّ في ذلك إشارةً إلى الضَّرورات المادِّيَّة الَّتي يستوي في الاضطرار إليها الأحياءُ من البشر كراماً، وبخلاء، مسلمين، وكافرين. ونقول: إنَّ في كونها ضيقةً إشارةً إلى أنَّ الضَّرورات؛ إن اقتصر الإنسان عليها في حياته، لا ينفق إلا على طعامه، وشرابه، وسكنه، وملبسه، وقضاء ضروراته، لا يعين محتاجاً، ولا يصل رحماً، ولا يعمل خيراً، ولا يُنفق لنصرة دِيْنٍ، ولا لنشر فضيلةٍ... إن اقتصر في الإنفاق على ما ذكرنا؛ ضاق صدرُه وكان في غمٍّ دائمٍ، وهمٍّ مقيمٍ، وأحسَّ بكراهية الآخرين له، فبادلهم كرهاً بكرهٍ، وأضمر لهم حقداً، وكيداً، وانعزل عن النَّاس.

إنَّ اقتصاره على هذه الضَّرورات يهبط به إلى مستوىٰ الحيوان الأعجم؛

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين ١٦٩.

(٢) أدب الدُّنيا والدِّين ١٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الَّذي لا همَّ له إلا قضاء ضروراته ، فهو ـ أي : الحيوان ـ لا يفكِّر في مثلٍ أعلىٰ ولا مكرمةٍ من المكارم ، ولا يحيا ليقيم مجتمعاً فاضلاً يقوم على توحيد الله ، وعبادته ، وتطبيق شرعه .

ومثله في معاناة الضِّيق المعنويِّ مثلُ لابس تلك الجُبَّة الحديدية الضَّيِّقة في معاناته الضِّيق المادِّيِّ .

وجانبٌ آخر من الصُّورة يدلُّ على أمرٍ يقوم في حياة النَّاس :

هذه الجبَّة القصيرة الضَّيِّقة من حديدٍ ، والحديد صُلْبٌ قاسٍ ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الحرص ، وحُبَّ التَّملُّك ، والاستمساك بالمال طبيعةٌ قاسيةٌ قسوة الحديد ، صُلْبةٌ صلابة الحديد ، لا تلين مهما كانت الدَّواعي إلا نادراً ، فإذا غالبتها رغبة الخير ، وعاطفة الرَّحمة ؛ وجدت قسوةً ، وصلابةً ، لا تتجاوب معها . . . فتتجمَّد رغبةُ الخير ، وتتصلَّب عاطفة الرَّحمة ، عند الَّذين يخضعون لغريزة الحرص .

وهذا ما نجده في كثيرٍ من النَّاس الَّذين لا يلتزمون بمقتضيات الإيمان ، ولا بشرائع الإسلام ، إنَّ إنفاق المرء ممَّا رزقه الله صفةٌ من أبرز صفات المتَّقين المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٢ ـ ٣] .

وقد يمكن أن تدلَّ هذه الجُبَّة الحديدية على طبيعة الخير ، والرَّحمة ، فهي جامدةٌ في نفوس النَّاس ، قاسيةٌ قسوة الحديد .

والسَّخاء يُلينها . . . فإذا تعوَّد المرء الإنفاق ؛ لانت هذه الطَّبيعة ، وزادت في عطائها ، وفي مساعدة الآخرين .

وقد شبَّه القرآن الكريم القلوب الَّتي لا تلين لدعوة الحقِّ ، ولا تستجيب لنداء الرَّحمة بالحجارة . . . بل إنَّها لأشدُّ قسوةً من الحجارة . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٤] .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ المعطي إذا أعطىٰ يُعاني في أوَّل مرَّةٍ صراعاً مع نفسه، والشَّيطان؛ إذ الشيطان يخوِّفه من الفقر، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧ ـ ٢٦٨].

فإذا تكرَّر منه العطاء؛ تغلَّب على نفسه، والشَّيطان، ولا تلبث أن تألفَ نفسُه الكزَّةُ هذا السُّلوكَ، فتلين، وتنبسط يده بالعطاء ويعتاده. أمَّا البخيل؛ فإنَّه يدعها على جمودها، وصلابتها.. بل إنَّه ليزيدها جموداً، وصلابةً، وهكذا حتَّى يصبح الإمساك عادةً له، لا يقوىٰ على مخالفتها.

وممَّا يدلُّ عليه الحديث: أنَّ المال ينمو بالصَّدقة، وهذا أمرٌ دلَّت عليه آيات القرآن الكريم، وأحاديث النَّبيِّ ﷺ، وهو أمرٌ مشاهَدٌ ملموسٌ.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من يومٍ يصبح العبادُ فيه إلَّا ملكان ينزلان.

فيقول أحدهما: اللَّهُمَّ أعط منفقاً خَلَفاً!

ويقول الآخر: اللَّهُمَّ أعط ممسكاً تَلَفاً!». متفق عليه(١).

فالآية الكريمة فيها عهدٌ من الله، وإخبار بأنَّ الله سبحانه يخلف ما ينفقه العبد، سواءٌ كان كبيراً، أو صغيراً ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ ووَعْدُ الله حَقٌّ لا يتخلَّف.

ألا فلتهنأ عينُ الكريم بما سيلقىٰ في دنياه من الذِّكر الحسن على ألسنة النَّاس، ومن نموِّ ماله؛ الَّذي تكفَّل الله به، وتعويضه. وحسبه أنَّ ملكاً يدعو له كلَّ يومٍ بالخَلَفِ، كما أخبر بذلك الصَّادق المصدوق.

---

(١) انظرهُ في البخاريِّ برقم ١٤٤٢، ومسلمٍ برقم ١٠١٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهناك حديثٌ يقوم على صورةٍ رائعةٍ ، يدلُّ على أنَّ الإمساك يضيق الرِّزق ، والإنفاق يوسِّعه .

عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال لي رسولُ الله ﷺ : «لا تُوكِي فَيُوكىٰ عليكِ» . متَّفقٌ عليه[1] .

إنَّ المنفق يكسب رضوان الله ، وثقة النَّاس ومحبَّتهم ، وينمو مالُه ، ويكون في الآخرة في الجنَّة ، وذلك هو الفوزُ العظيم .

أمَّا البخيل الممسك ، فإنَّه يبوء بسخط الله ، وبُغْض النَّاس ، ويحاسَبُ على كنزه المال ، ومنعه حقَّ الله فيه ، ويدعو المَلَكُ على ماله بالتَّلف ، كما دلَّ على ذلك الحديث المتَّفق عليه مِنْ أنَّ ملكين ينزلان فيقول أحدهما : اللَّهُمَّ أعط منفقاً خَلَفاً ! ويقول الآخر : اللَّهُمَّ أعط ممسكاً تَلَفاً ! ويلقىٰ في الآخرة جزاء عمله .

ولمَّا كانت الأنفسُ مجبولةً على حبِّ المال ، والشُّحِّ ؛ فإنَّ الإسلام دعا إلى أن يتعوَّد المرء البذل مهما كان وضعه الماديُّ ، فإذا لم يكن يملك إلا تمرةً فليتصدَّق بنصفها . عن عديِّ بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : «اتَّقوا النار ولو بشقِّ تمرةٍ» ، متَّفقٌ عليه[2] .

وممَّا جاء في عِظَم ثواب الصَّدقة القليلة ، حديث الفَلُوِّ وهو قوله ﷺ : «مَنْ تَصدَّق بعدل تمرةٍ من كسبٍ طيِّبٍ ـ ولا يقبلِ الله إلا الطيب ـ فإنَّ الله يقبلها بيمينه ، ثم يربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدكم فَلُوَّهُ حتَّى تكون مثل الجَبَلِ»[3] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «يا نساء المسلمات لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسِنَ شاةٍ» . متَّفقٌ عليه[4] .

---

(١) انظرهُ في البخاريِّ برقم ١٤٣٣ و١٤٣٤ ومسلمٍ برقم ١٠٢٩ .

(٢) انظر البخاريَّ برقم ١٤١٧ ، ورواه مسلمٌ برقم ١٠١٦ .

(٣) البخاريُّ ٢/ ٩٣ برقم ١٤١٠ ، ومسلمٌ برقم ١٠١٤ ، والتِّرمذيُّ ٢/ ٢٣ برقم ٦٦٢ ، وابن ماجه ٥٩٠ .

(٤) انظر البخاريَّ برقم ٢٥٦٦ ، ورواه مسلمٌ برقم ١٠٣٠ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال النَّوويُّ: [قال الجوهري: الفِرسِنُ من البعير كالحافر من الدَّابة. قال: وربما استعير في الشَّاة][(١)] وجاء في شرح الحديث: [لا تمتنع جارةٌ من الصَّدقة والهدية لاستقلالها، واحتقارها الموجود عندها، بل تجود بما تيسَّر؛ وإن كان قليلاً كفِرسن الشَّاة، فهو خيرٌ من العدم، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾][(٢)].

إنَّ الذي يتصدَّق بالقليل إن كان معسراً؛ يتصدَّق بالكثير إذا ما أيسر. وهذا أمرٌ مشاهدٌ. والجود بالقليل ربما يقع موقع الحاجة من المسكين.

إنَّ نصف تمرة.. ربما تنقذ إنساناً من الموت جوعاً... وإن فِرْسِنَ شاةٍ ربما يكون مطلب قومٍ جياعٍ يرونه شيئاً نفيساً.

وقد حدث: أنَّ قوماً يبدو عليهم الفقر، وظهرت عليهم علامات الجوع، ومرُّوا بالقرب من منزل إنسانٍ كريمٍ فقيرٍ، فهزَّه منظرُهم، وتأثَّر لمرآهم، فدعاهم.. ولم يكن عنده إلا الرزُّ وكسراتٌ من الخبز، وقليلٌ من السَّمن.. فأجابوا دعوته.. ولما دخل على أهله؛ قالت له زوجه: كيف تدعوهم، ولا لحم عندنا، ولا طبيخ، فقد يوسعوننا ذمَّاً إذا عادوا إلى أهليهم. فقال لها: إنَّنا نقدِّم لهم ما عندنا ابتغاء وجه الله.. ولا نريد منهم جزاءً، ولا شكوراً.. ولكنَّ القوم كانوا في حالةٍ من الجوع تفوق الوصف، ورأوا ما قُدِّم إليهم شيئاً نفيساً.. فأكلوا، وسُرُّوا.. وانطلقوا يلهجون بالثَّناء، ويخصُّونه بالدُّعاء.

أخرج النَّسائيُّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

ـ سَبَقَ درهم مِئَةَ ألفِ دِرْهمٍ.

ـ قالوا: وكيف؟

ـ قال: كان لرجل درهمان تصدَّق بأحدهما، وانطلق رجلٌ إلى عُرْضِ

---

(١) رياض الصَّالحين باب بيان كثرة طرق الخير.

(٢) ابن علاَّن ١/ ٣٤٥ نقلاً عن حاشية في رياض الصَّالحين ط الأرناؤوط.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ماله ، فأخذ منه مئة ألفٍ ، فتصدَّق بها[1].

وقوله: «إلى عُرْضِ ماله» أي: إلى جانبه ، كنايةً عن أنَّ المبلغ المأخوذ ـ وهو مئةُ ألفِ درهمٍ ـ شيءٌ يسير بالنِّسبة إلى ماله الكثير ، ولقد كان الصَّحابة يتصدَّقون من كسبهم القليل امتثالاً لأمر الرَّسول ﷺ ؛ الَّذي كان يريد أن يُرَوِّضهم ، ويربِّيهم على خُلُق الإنفاق.

عن أبي مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسولُ الله ﷺ يأمرنا بالصَّدقة ، فما يجد أحدنا شيئاً يتصدَّق به ، حتى ينطلق إلى السُّوق ، فيحمل على ظهره ، فيجيءُ بالمُدِّ ، فيعطيَه رسولَ الله ﷺ. إنِّي لأعرف اليوم رجلاً له مئةُ ألفٍ ، ما كان له يومئذٍ درهم[2]. نعم يذهب الواحد منهم إلى السُّوق يشتغل حمَّالاً ، ويتصدَّق مِنْ كسبه.

ولا يُعاب مَنْ تصدَّق بالقليل. عن أبي مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا أمرنا رسولُ الله ﷺ بالصَّدقة ، فتصدَّق أبو عقيل بنصف صاع ، وجاء إنسانٌ بشيءٍ أكثر منه. فقال المنافقون: إنَّ الله عزّ وجلَّ لغنيٌّ عن صدقة هذا. وما فعل هذا الآخر إلا رياءً ، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩][3].

إنَّ عدد الَّذين يستطيعون أن يتصدَّقوا بالقليل عددٌ كبيرٌ ، [وربَّما اجتمع لدى الفقير والمحتاج من الصَّدقات القليلة ؛ الَّتي تُقَدَّم إليه ما يغني حاجته ، ويسدُّ جَوْعته ، ويحلُّ أزمَته ، والقطرات المتعدِّدة تملأ الإناء الواسع][4].

إنَّ المجتمع المسلم مجتمع السَّخاء ، والجُود ، والبذل ، والعطاء ، لا فرق بين الغنيِّ والفقير إلا في الكَمِّيَّة ، ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ

---

(١) النَّسائيُّ ٥/ ٥٩ وصحيح النَّسائيِّ للألبانيِّ ٢/ برقم ٢٣٦٧.
(٢) النَّسائيُّ ٥/ ٥٩ ، وصحيح النَّسائيِّ للألباني ٢/ برقم ٢٣٦٩.
(٣) رواه البخاريُّ برقم ٤٦٦٨ ، وانظر الفتح ٨/ ٣٣٠ ، ورواه النَّسائيُّ ٥/ ٥٩ ـ ٦٠ ، وصحيح النَّسائيِّ للألبانيِّ ٢/ برقم ٢٣٧٠.
(٤) التَّصوير الفنِّيُّ في الحديث ، الطَّبعة الأولى ٣٢٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

نعم هذه سمة المجتمع المسلم... الإنفاق... سواءٌ كان المكلف ذا سعةٍ أم كان مِمَّن قُدِرَ عليه رزقُه... ولا يكلِّف الله نفساً إلا وُسْعَها.

إنَّ هذا يجعل من أفراد المجتمع أفراداً مُتعاونين كراماً مُنفقين.

وقد رغَّب الشَّرع المُطهَّر في أن يكون الإنفاق خالصاً من الرِّياء بعيداً عن المَنِّ، والأذى... وآيات سورة البقرة الطَّويلة تقرِّر هذا بأسلوب معجز: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٤].

إنَّ هذا الإنفاق كرمٌ سام، بعيدٌ عن الأذىٰ، والرِّياء، لا ينتظر صاحبُه من الخَلْق جزاءً، ولا شُكوراً... وهذا لا يمكن أن يُتصوَّر إلا في حَمَلة هذا الدِّين.

يَعْرِضُ الحديثُ الشَّريف الجميل صورتين متقابلتين للبخيل، والمُنفق، يَعْرِضُهما على وجهٍ متَّصلٍ بالحياة الاجتماعيَّة؛ التي لا تستغني عن الرَّحمة والتَّعاون، وتبادل الثِّقة، والتَّواصل بين النَّاس، ذلك؛ لأنَّ الإنفاق متَّصلٌ بهذه الأمور، والبُخل على النَّقيض من ذلك يَفيض بالقسوة، والتَّقاطع، وبأزمة الثِّقة.

إنَّ المنفق إنسانٌ تملأ الرَّحمة قلبه، وتحرِّكه ليكون اليد الحانية، الَّتي تواسي المُصابين، وتعين البؤساء، وبتوفر عددٍ كبير من هؤلاء المُنفقين تزول المآسي، وتطمئنُّ القلوب، وتسُودُ الثِّقة بين النَّاس، ويكون الخير العميم. والبخيل على النَّقيض مِنْ ذلك.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفي صورة البخيل الَّتي يَعْرِضُها الحديث قضيَّةٌ من أهمِّ القضايا الَّتي يعاني منها النَّاس... وهذه القضيَّة هي: انهزام الإرادة الخيِّرة أمام الغرائز، والشَّهوات.

والإرادة الخيِّرة الفاضلة يُمليها العقلُ، والشَّرع، ورعاية مصلحة الفرد والجماعة، وعاقبة انهزام الإرادة الخيِّرة أمام الغرائز شقاءٌ، وعناء، وظلمٌ، وعدوانٌ، وبؤسٌ، وقلقٌ، ومساوئُ لا تُحصىٰ.

نلمسُ ذلك في الحديث من محاولة البخيل الإنفاقَ، وإخفاقه في هذه المحاولة، ولقد ضاقت حلقات الجبَّة عليه نتيجةً لذلك، فعمد إلى توسيع الجبَّة الحديدية القاسية، وأخفق مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ ففي روايةٍ لأحمد في المسند[1]: «وأمَّا البخيل فلا تزداد عليه إلا استحكاماً»، وفي روايةٍ أخرىٰ له[2]: «فيجهد أنْ يوسِّعها فلا تَتَّسِع».

ونرىٰ في الحديث: أنَّ البخيل، والمنفق كليهما يشتركان في إرادة الإنفاق: فأمَّا المُتصدِّق المنفق؛ فيريد أن يتصدَّق وسرعان ما تنتصر إرادتُه على غريزة الحرص، وعلى النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، وينفق.

وأمَّا البخيل؛ فيريد ـ أيضاً ـ ذلك؛ لأنه إنسانٌ تهبُّ على قلبه نسماتُ الرَّحمة، ويرىٰ ما حصل للمُنفق من الاحترام، والاهتمام من قبل النَّاس، وما حصل له من النُّموِّ في المال، فيريد أن يتصدَّق، ولكن إرادته تنهزم أمام غريزة الحرص، والنَّفس؛ الَّتي أُحضِرت الشُّحَّ. فتلزم كلُّ حلقة في الجُبَّة موضعها، وتتقلَّص، وتضيق عليه، كما جاء في رواية لمسلمٍ: «إذا همَّ المُتصدِّق بصدقةٍ اتَّسعت عليه، حتى تُعَفِّيَ أثَره.

وإذا هَمَّ البخيل بصدقةٍ تقلَّصت عليه، وانضمَّت يداه إلى تراقيه، وانقبضت كلُّ حلقة إلى صاحبتها».

---

(١) المسند ٢/ ٢٥٦.

(٢) المسند ٢/ ٣٨٩.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويمثِّل ذلك رسولُ الله ﷺ بحركةٍ توضِّح للسَّامعين ، والمخاطَبين المعنىٰ ، فقد وضع ﷺ أُصْبَعَهُ في جيبه ، وشرع يوسع ذاك الجيب ، ولا يتوسَّع .

وهذا أسلوبٌ من أساليب النَّبيِّ ﷺ التعبيريَّة ، يسلك فيه مسلك الإشارة والحركة في تصوير المعنى الَّذي يريد تقريره .

لقد عرض الحديثُ إرادةَ كلٍّ من البخيل ، والمتصدِّق ، انتصرت إرادةٌ ، وانهزمت أخرىٰ ، وكان انتصار إرادة المتصدِّق خيراً عليه ، كما كان انهزام إرادة البخيل ضيقاً عليه ، وشرّاً . ومن هنا عمَد الإسلام إلى تربية الإرادة الخيِّرة ، وتقويتها في أتباعه ؛ حتَّى يكون لها النَّصر في كلِّ مرحلةٍ من مراحل الحياة ، وفي كلِّ صراعٍ مع الغريزة والشَّهوة .

إنَّ تكاليف الشَّرع كلَّها تعتمد على الإرادة القوية بدءاً من إقامة الصَّلاة إلى الصِّيام ، وانتهاءً بِبَذْلِ المال ، والرُّوح في سبيل الله ؛ إن دعا داعي الجهاد .

ولذلك كان حمَلةُ الرِّسالات ، وأصحابُ المثل رجالاً أشدَّاء ، يملكون الإرادة القويَّة الَّتي تُنَحِّي جانباً كلَّ العوائق من طريقها من غريزةٍ ، وشهوةٍ ، ومصلحةٍ ، وخوفٍ ، وهزيمةٍ :

إِذَا هَـمَّ أَلْقَـىٰ بَيْـنَ عَيْنَيْـهِ عَـزْمَـهُ ⁂ وَنَكَّـبَ عَـنْ ذِكْـرِ العَـوَاقِـبِ جَـانِبَـا

ومن الأمور الَّتي وقف العلماء عندها في الحديث : أنَّ رسول الله ﷺ قابل بين (البخيل) و(المُنفق) ، مع أنَّ الَّذي يتبادر للذِّهنِ : أنَّ الكلمة الَّتي تقابل (البخيل) هي كلمة (الكريم) . وبحثوا عن الحكمة في اختيار (المُنفق) محلَّ (الكريم) فقالوا : أراد بذلك ﷺ أن يقرِّر أنَّ السَّخاء المحمود هو ما أمر به الشَّرع ، وندب إليه ، لا ما يفعله كثيرٌ من المسرفين مدَّعين : أنَّ فعلهم كرمٌ .

ومن ذلك ما تتناقله كتب الأدب من نحر بعضهم الإبل ، والشَّاء لإطعام الطَّير ، أو للتَّفاخر .

فقد زعموا : أنَّ جدَّ منصور بن الزبرقان النّمريِّ أطعم ناساً نزلوا به ، ونحر لهم ، ثمّ رفع رأسه فإذا هو برخم يَحُمْنَ حول أضيافه ، فأمر أن يُذبح لهنَّ كبشٌ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويُرمى لهنَّ، فسُمِّي (مطعم الكبش الرَّخم)[1] وهذا فعلٌ محرَّمٌ نهى عنه رسول الله ﷺ، فقد أخرج أحمد، وأبو داود عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«لا عَقْرَ فِي الإسلام»[2].

وأخرج أبو داود عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن طعام المُتَبارِيَيْنِ أن يؤكل[3].

وأخرج أيضاً عن ابن عباسٍ: أنه قال:

نهى النَّبيُّ ﷺ عن معاقرة الأعراب[4].

قال الإمام الخطَّابي في «معالم السُّنن» تعليقاً على حديث أبي داود: عن ابن عباسٍ، قال: نهى رسول الله عن مُعاقرة الأعراب؛ قال: [هو أن يتبارى الرَّجلان: كلٌّ واحدٍ يجاود صاحبه، فيعقِر هذا عدداً من إبله وهذا عدداً من إبله، فأيُّهما كان أكثرَ عقراً؛ غلب صاحبه، ونَفَره...] ثمَّ قال: [وفي معناه ما جرت به عادة النَّاس من ذبح الحيوان بحضرة الملوك، والرُّؤساء عند قدومهم البلدان، وأوان حدوث نعمةٍ تتجدَّد لهم في نحو ذلك من الأمور][5].

وقال الخطَّابيُّ: [كان أهل الجاهليَّة يعقرون على قبر الرَّجل الجواد. يقولون: نجازيه على فعله؛ ليأكلها السِّباع، والطير، فيكون مُطعماً في مماته، كما في حياته][6].

---

(١) مختار الأغاني لابن منظور ١٠/ ١٤٠، ونهاية الأرب للنُّويريِّ ٣/ ٨٥ إلا أنَّ النُّويريَّ ذكر أنَّ منصوراً هو مطعم الكبش الرَّخم.

(٢) المسند ٢/ ١٩٧، وأبو داود برقم ٣٢٢٢.

(٣) أبو داود برقم ٣٧٥٤، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ١٤ ـ ١٥ طبعة دار الشَّعب.

(٤) أبو داود برقم ٢٨٢٠.

(٥) «معالم السُّنن» بتحقيق محمَّد حامد الفقي ٤/ ١١٣ ـ ١١٤ وانظر «شرح السُّنَّة» للبغويِّ ١١/ ٢٢٦ أقول: وانظر «المجموع» للإمام النَّوويِّ ٨/ ٣٠٩ ط المطيعي.

(٦) «شرح السُّنَّة» للبغويِّ ١١/ ٢٢٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن المُعاقرات المشهورة معاقرة سحيم بن وثيل الرِّياحي ، وغالب بن صعصعة والد الفرزدق أُورِدُها كما ذكرها أحمد محمَّد شاكر ، وعبد السَّلام هارون في ترجمتهما لسحيم في «الأصمعيات» قالا :

[وهو صاحب القصَّة المشهورة في المُعاقرة ، وذلك: أنَّ أهل الكوفة أصابتهم مجاعةٌ ، فخرج أكثر النَّاس إلى البوادي . فعقر غالبُ بن صعصعة والدُ الفرزدق لأهله ناقةً صنع منها طعاماً ، وأهدى منه إلى ناسٍ من تميم ، فأهدىٰ إلى سحيم جفنةً ، فكفأها سحيم ، وضرب الَّذي أتىٰ بها ، ونحر لأهله ناقةً .

ثم تفاخرا في النَّحر ، حتَّى نحر غالبٌ مئة ناقة ، ولم تكن إبل سحيم حاضرةً ، فلمَّا جاءت نحر سحيم ثلاثمئة ناقةٍ .

وكان ذلك في خلافة سيِّدنا عليِّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ فمنع النَّاس من أكلها ، وقال: إنَّها ممَّا أُهِلَّ لغير الله به ، فجُمعت لحومها على كناسة الكوفة ، فأكلتها الكلاب ، والعُقبان ، والرُّخْم[(١)] .

إنَّ ما يفعله بعض النَّاس من التَّبذير ، والإسراف سفهٌ ممقوتٌ ؛ لأنَّ المال محترمٌ في نظر الشَّرع ، وإتلافُه دون أن يؤدِّيَ مهمَّةً ، أو وظيفةً مشروعةً أمرٌ محظورٌ ، والكلمات لها ظلالٌ ، وإشعاعاتٌ معيَّنةٌ ، فالإنفاق ممَّا رزق الله : كلمةٌ قرآنيَّةٌ كثيرة الورود في كتاب الله ، عندما يكون الحديث عن المؤمنين المتَّقين .

وبدا البخيل في هذه الصُّورة النَّبويَّة مسكيناً يعاني من الضِّيق ، وضعف

(١) قال المحقِّقان للأصمعيات: القصَّة مفصَّلةٌ في «النقائض» ٤١٤ ـ ٤١٨ و٦٢٥ و٦٢٦ و١٠٧٠ ـ ١٠٧١ ، و«الأمالي» ٣/ ٥٢ ـ ٥٤ ، و«الخزانة» ١/ ٤٦١ ـ ٤٦٣ ، و«معجم البلدان» ٥/ ٣٩٥ ، وأشار إليها الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٣/ ١٦٤ ، و«اللسان» ٦/ ٢٧٠ .
قلت: وقد أورد القصَّة أيضاً ابن كثيرٍ في تفسيره (٣/ ١٤ ـ ١٥) عند تفسير قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ نقلاً عن ابن أبي حاتم على نحو آخر ، وفيها:
[فخرج عليٌّ على بغلةِ رسول الله ﷺ البيضاء ، وهو ينادي: يا أيُّها النَّاس لا تأكلوا لحومها ؛ فإنَّما أهلَّ بها لغير الله] ثمَّ قال ابن كثير: [هذا أثرٌ غريبٌ ، ويشهد له بالصحَّة ما رواه أبو داود . . .] ثمَّ أورد الأحاديث ؛ الَّتي ذكرناها .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الإرادة، والفضيحة، وكراهية النَّاس له الشَّيءَ الكثير.

وإنَّه لمسكينٌ حقَّاً، يجمع مالاً يتعب بجمعه، ولا يستمتع به، وعليه مسؤوليَّتُه، وقد يتعرَّض للمخاطر من أجل المحافظة عليه، وهو ضيِّق الصَّدر، مغلولُ اليدين.

وأمَّا في الآخرة؛ فإنَّه سيحاسب عليه مِنْ أين اكتسبه، وكيف منع الفقراء حقَّهم فيه؟ ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، فلا ينفكُّ البخيل عن ضيقٍ، وهمٍّ، وحرمانٍ، وغمٍّ، وهو حارس نعمته، وخازن ورثته، ومسؤوليَّته كبيرةٌ... وما أروع هذه الصُّورة التي ظهر فيها البخيلُ، وقسيمُه المنفق! فصلوات الله، وسلامُه على مَنْ أوتي البيان، وجوامع الكَلِم.

❊ ❊ ❊

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	رقم الصفحة
(٢) سورة البقرة		
﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ... يُنفِقُونَ﴾	٢ ـ ٣	٣٥٤
﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ﴾	٩	١٥٤
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ﴾	٧٤	٣٥٤
﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾	٧٩	١٤٨
﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ﴾	٨٩	٣٥
﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾	١٣٦	٣٤٢
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾	١٤٣	٢٤٢
﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ... ٱلْمُمْتَرِينَ﴾	١٤٦ ـ ١٤٧	٣٥
﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾	١٥٢	٣٣٦
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ﴾	١٥٥	٥٢
﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾	١٧٣	٢١٢
﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ﴾	١٧٧	٢٣٧
﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾	١٨٤	٢١٢
﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾	١٨٥	١٨٤ ، ٢١٢
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾	٢١٤	٣٠٥
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟﴾	٢١٨	٩٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ٢٣٣ .... ١٨٤

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ٢٤٣ .... ٢٩٤

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ٢٦٢ .... ٣٥٩

﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ ﴾ ٢٦٣ .... ٣٥٩

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ ﴾ ٢٦٤ .... ٣٢٠

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ . . عَلِيمٌ ﴾ ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .. ٣٥٥

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ٢٨٦ .... ٢١٢

(٣) سورة آل عمران

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ٥ .... ٢٤٥

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ١٤ ... ٢٤١ ، ٣٠٧

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ ١٥ .... ٣٠٧

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ ٣٠ .... ٣٢٨

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ ﴾ ٧٩ .... ١٤٧

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ . . . ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ ٨١ ـ ٨٢ ..... ٣٥

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . . ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ ١٣٣ ـ ١٣٦ .. ٣٢٦

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ ١٣٩ .... ٨٤

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ١٤٥ .... ٦٣

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ ١٥٢ ...... ٣١٤

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ ﴾ ١٥٩ .... ٢١١

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ١٨٠ .... ٣٦٤

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ١٨٥ .. ٢٧٩ ، ٣٠٨

(٤) سورة النساء

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ ١١ .... ٢٨٣

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ ٢٨ .... ٢٩٩

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ ﴾ ٣١ .... ١٦٤

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ ٦٦ . ٩٧ ـ ٩٨ ، ٣١٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ٧٦ .... ٢٦٥
﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ ٨٦ .... ١٢٥
﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ ٨٩ .... ٧٩
﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . رَّحِيمًا﴾ ٩٥ ـ ٩٦ .... ١٠٠
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . . . غَفُورًا﴾ ٩٧ ـ ٩٩ ..... ٩٠
﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ ١٠٠ .... ٧٩
﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ ١١٤ .... ٣١٤
﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ ١٤٧ .... ٦٤
﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ ١٧١ .. ١٧٢ ، ١٨٩

(٥) سورة المائدة

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟﴾ ٢ ..... ٥٥ ، ٢٣٦
﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ٣ .... ١٩٠
﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ٦ .... ١٨٤
﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا﴾ ٢٤ .... ٢٦١
﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ ٧٧ .... ١٨٩

(٦) سورة الأنعام

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ٥٩ .... ٢٤٥
﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ ١١٦ .... ٢٩٤
﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ١٥٢ .... ١٨٤

(٧) سورة الأعراف

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ ١٧ .... ٢٩٤
﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ٤٢ ... ١٨٤ ـ ١٨٥
﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا﴾ ١٥٦ .... ٣٨
﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ ١٥٧ ٣٦، ٣٨، ٢٤٧
﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٨٧ .... ٢٩٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ . . . مُّبْصِرُونَ﴾ ٢٠٠ ـ ٢٠١ . . ١٤٢

(٨) سورة الأنفال

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ ١٦ . . . . ١٠٥
﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ ٣٠ . . . . ١٩٦
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟﴾ ٣٦ . . . . ١٩٦
﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ﴾ ٣٩ . . . . ٢٦٤

(٩) سورة التوبة

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ ٢٤ . . . . ١٣٣
﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ ٣٤ . . . . ١٤٨
﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾ ٤١ . . . . ١٠٥
﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٧٩ . . . . ٣٥٨
﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى﴾ ٩١ . . . ١٠١ ، ١٠٢
﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا . . . ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ٩٥ ـ ٩٦ . . . . . ٤٩
﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ ١٠٣ . . . . ٢٧٩
﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ . . . ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ١١٧ ـ ١١٩ . . ٤٩
﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ ١٢٢ . . . . ٣٠٠

(١١) سورة هود

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ﴾ ١٥ . . . . ٣١٤
﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٧ . . . . ٢٩٤
﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ٤٠ . . . . ٢٩٤
﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ٥١ . . . . ١٤٧

(١٢) سورة يوسف

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ . . . فَٰعِلِينَ﴾ ٧ ـ ١٠ . . . . . ٢٨٢
﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ٣١ . . . . ٣٤١
﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٣ . . . . ٢٩٤

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ١١١ .... ٣٤٣

(١٣) سورة الرعد

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ ٢٨ .... ٢٤٧

(١٤) سورة إبراهيم

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ٧ .... ٦٤

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ٣٤ ... ٣٢٧، ٣٣٥

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ ٣٨ .... ٢٤٥

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا... هَوَاءٌ﴾ ٤٢ ـ ٤٣ .... ٣٤٥

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ٥١ .... ٣٤٥

(١٥) سورة الحجر

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ﴾ ٣٠ .... ٢٧٩

(١٦) سورة النحل

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ ٩٠ .... ٢٤٧

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٠٥ .... ٢٥٤

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا﴾ ١١٤ .... ٣٣٦

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ ١٢٥ .... ٢١١

(١٧) سورة الإسراء

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا﴾ ١٦ .... ٢٣٢

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ٢٣ ٦٤، ١٦٦، ٣٤٨

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ ٢٤ .... ٦٤، ١٦٦

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ... بِالْحَقِّ﴾ ٣١ ـ ٣٣ .... ٢٥٣

﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ٨٩ .... ٢٩٤

(١٨) سورة الكهف

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ﴾ ٤٥ .... ٢١٨

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ٤٦ .... ١٣٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ ٤٨ ٢٢١
﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ ٤٩ ١٦٥

(٢٠) سورة طه

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾ ٧ ٢٤٥
﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ ٤٤ ٢١١

(٢٢) سورة الحج

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ﴾ ٤١ ١٤٦
﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ... ٧٨ ١٨٠ ، ١٨٤

(٢٣) سورة المؤمنون

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ ٥ ٢٥٢
﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ . . . ٱلْعَادُونَ ﴾ ...... ٦ ـ ٧ ٢٥٣
﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا ﴾ ١١٥ ٢٢١

(٢٤) سورة النور

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ ﴾ ٢٧ ١٢٤
﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ . . . فُرُوجَهُنَّ ﴾ .... ٣٠ ـ ٣١ ١١٩

(٢٥) سورة الفرقان

﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ ٣٩ ٢٧٩
﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا . . . رَّحِيمًا ﴾ .... ٦٨ ـ ٧٠ ٢٥٣

(٢٨) سورة القصص

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ ٣٠ ٤١
﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ ... ٧٧ ١٣٣ ، ٢١٩

(٢٩) سورة العنكبوت

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ ٤ ٢٤٥
﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ ﴾ .. ٤٨ ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩
﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ ٦٤ ٢٢٠

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٣٠) سورة الروم

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ٣٠ .... ٢٤٧
﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ ٣٩ .... ٣١٤

(٣١) سورة لقمان

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ ... تَعْمَلُونَ﴾ ١٤ ـ ١٥ .... ١٦٦
﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ ١٦ ... ٢٤٥، ٣٤٥

(٣٣) سورة الأحزاب

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ ٥ .... ٢٦١
﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ٦ .... ٩٦

(٣٤) سورة سبأ

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ١٣ .... ٢٩٤
﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ٣٩ .... ٣٥٥

(٣٦) سورة يس

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ٩ .... ٩٥
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ... عَلِيمٌ﴾ ٧٨ ـ ٧٩ .... ٢٢١

(٣٧) سورة الصافات

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ... الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٠١ ـ ١٠٥ ... ١٩

(٣٨) سورة ص

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ٢٤ .... ٢٩٤

(٤٠) سورة غافر

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ١٩ .... ٢٤٥

(٤١) سورة فصلت

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ﴾ ٣٤ .... ٢١١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

(٤٢) سورة الشورى

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . . . يَغْفِرُونَ ﴾ ٣٦ ـ ٣٧ . . . . ١٦٥

(٤٧) سورة محمد

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ٣١ . . . . ٣٠٥

(٤٨) سورة الفتح

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ ١٧ . . . ١٠٢ ، ٢١٢

(٤٩) سورة الحجرات

﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ ٧ . . . . ١٦٥

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ ﴾ ١٧ . . . . ٣٣٦

(٥١) سورة الذاريات

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ ١٩ . . . . ٣٦٤

﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . . . تَنطِقُونَ ﴾ ٢٢ ـ ٢٣ . . . . ١٣٨

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ٥٦ . . . . ٣٠٧

(٥٣) سورة النجم

﴿ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى . . . ٱللَّمَمَ ﴾ ٣١ ـ ٣٢ . . . . ١٦٥

(٥٥) سورة الرحمن

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ٦٠ . . . . ٥٨ ، ١٦٧

(٥٧) سورة الحديد

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ٢٠ . . . . ٣٢٧

﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ ٢١ . . . . ٣٢٦

(٥٨) سورة المجادلة

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ ﴾ ٢٢ . . . . ٢٦٧

(٥٩) سورة الحشر

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ٩ . . . . . . ٥٤ ، ٩٦

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ ٢١ .... ١٨

(٦٠) سورة الممتحنة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ ١٢ .... ٢٥٣

(٦١) سورة الصف

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ . . . تَفْعَلُونَ ﴾ ٢ ـ ٣ .... ٢٣٤
﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ٦ .... ٣٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ . . ٱلْفَوْزُ ﴾ ١٠ ـ ١٢ .... ١٠٥
﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ ١٣ .... ١٠٦

(٦٢) سورة الجمعة

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ٢ .... ٣٨

(٦٣) سورة المنافقون

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٨ .... ٨٥

(٦٤) سورة التغابن

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ . . . وَأَطِيعُوا۟ ﴾ ١٥ ـ ١٦ ..... ٨٣

(٦٥) سورة الطلاق

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ٧ ..... ٣٥٨ ـ ٣٥٩

(٦٦) سورة التحريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ ٦ .... ١٤٢

(٦٨) سورة القلم

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ . . . سَٰلِمُونَ ﴾ ٤٢ ـ ٤٣ .... ٣٢٧

(٧٠) سورة المعارج

﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ . . يُنجِيهِ ﴾ ١١ ـ ١٤ .... ٢٥٨

(٧٣) سورة المزمل

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ ٥ .... ١٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

(٧٤) سورة المدثر

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ١ ـ ٢ ...... ١٠٨

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ ٣٨ .... ٢٧٩.

(٧٩) سورة النازعات

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ . . . ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ٤٠ ـ ٤١ .... ١٤٢

(٨٥) سورة البروج

﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ ٨ .... ١٩٦

(٨٧) سورة الأعلى

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . . وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ١٦ ـ ١٧ .... ٢٢٠

(٨٩) سورة الفجر

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ٢٠ .... ١٣٢

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . . . جَنَّتِى ﴾ ٢٧ ـ ٣٠ .... ٣٠٣

(٩٢) سورة الليل

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى . . . ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ١٧ ـ ٢٠ .... ٣١٤

(٩٣) سورة الضحى

﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ٤ .... ٢٢٠

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ١٠ .... ٥٧

(٩٦) سورة العلق

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . . . يَعْلَمْ ﴾ ١ ـ ٥ .... ١٥ ، ٢٥

(٩٩) سورة الزلزلة

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ ٧ .... ٣٤٥ ، ٣٥٧

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ٨ .... ٣٤٥

(١٠٠) سورة العاديات

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ٨ .... ١٣٢

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهرس الاحاديث النبوية

طرف الحديث	رقم الصفحة
ـ آ ـ	
«آنت وحشي؟»	٢٦٦
«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب»	٢٥٤
ـ أ ـ	
«أبايعك على أن تعبد الله وتقيم الصلاة»	٨٥
«أبشر بخير يوم مرَّ عليك مذ ولدتك أمك»	٤٨
«أتجد ما تحرر رقبة؟»	١٨٦
«أتدرون من المفلس؟»	١٢١
«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة»	٢٣٩
«اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات»	١٤١، ١٤٢
«اتقوا النار ولو بشق تمرة»	٣٥٦
«اجتنبوا السبع الموبقات»	١٢٢، ١٦٥
«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»	١٩٠
«أحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني»	٤٠
«أخرج من عندك»	٩٢
«إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم»	٥٦

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«أدومها وإن قل» ١٩٠
«إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» ٢٣١
«إذا صلى أحدكم للناس فليخفف» ٢٠١
«إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا عليكم» ٢٣١
«إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال» .... ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٨
«إذا همَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه» ٣٦٠
«اذبح ولا حرج» ١٨٥
«أربعة يبغضهم الله عز وجل : البياع الحلاف» ٢٤٩
«ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» ١٦٩
«ارجع فصلِّ ، فإنك لم تصل» ٢٠٣
«ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس» ١٥٥
«استحيوا من الله حق الحياء» ٢٢٨
«استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس» ٢٤٣
«أسجعٌ كسجع الأعراب» ٧٤
«أشيروا عليَّ أيها الناس» ٢٦١
«اصرف بصرك» ١١٩
«اغتنم خمساً قبل خمس» .... ٢٢٥ ، ٣٢٧
«اغزوا باسم الله ، في سبيل الله» ١٠٣
«أفتَّان أنت؟» ٢٠٨
«أفعلت هذا بولدك كلهم؟» .... ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤
«أفكلهم أعطيت مثل ما أعطيته؟» ٢٧٨
«أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم» ٢٦٣
«أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله» ٢٦٣
«اقرأ والشمس وضحاها ، والضحى» ٢٠٠
«أقلوا الدخول على الأغنياء» ٣٣٢
«أكثروا ذكر هاذم اللذات» .... ٢٢٧ ، ٢٢٨

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«أكل ولدك نحلته مثل هذا؟» ٢٧٧
«اكلفوا من الأعمال ما تطيقون» ١٩٠
«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ١٦٧
«أليس تثنون عليهم به ، وتدعون لهم؟» ٦٠
«أليس تريد منهم البر مثل ما تريدون من ذا؟» ٢٧٨
«أليس يسرك أن يكونوا في البر سواء؟» ٢٩٠
«أمّ قومك ، فمن أمّ قوماً فليخفف» ٢٠٢
«إمّا لا ، فأدوا حقها» ١١٣
«الإمارة أولها ندامة وأوسطها غرامة» ١٤٤
«إن أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون» ١٧٤
«إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» ٣٠٩
«إن أشكر الناس لله تبارك وتعالى أشكرهم للناس» ٦١
«إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل» ١٥١
«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل» .... ١١١ ، ٣٢٠
«إن خير دينكم أيسره» ١٨٧
«إن دين الله في يسر» ١٨٧
«إن الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين» .... ١٧٣ ، ١٨٢ ، ٢١٢
«أن رجلاً أتى إلى رسول الله ﷺ في المسجد» ١٨٦
«أن رسول الله ﷺ كان أخف الناس صلاة» ٢٠٢
«إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة» ٧٢
«إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت» ٤١
«إن الكذب يهدي إلى الفجور» ٢٥٤
«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل» ٣٢
«إن الله أمرني بحب أربعة» ٢٦٢
«إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر» ٢٥٦
«إن الله تعالى حر م عليكم عقوق الأمهات» ٧٥

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم» ٣١٩
«إن مثل المنفق المتصدق والبخيل كمثل رجلين» ٣٥٠
«إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء» ٢٩٥
«إن المقسطين على منابر من نور» ١٤٥
«إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً» ٢٥٧
«إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» ١٦١
«إن من البيان لسحراً» ٣٤٣
«إن منكم منفرين فإذا صليتم فأوجزوا» ٢٠٣
«إن منكم منفرين فأيكم صلى بالناس» ٢٠٦
«إن النبي ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل» ٣٦٢
«إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق» ١٨٨
«أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» ٨٤
«إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» ٣٨
«إنا والله لا نولي على هذا العمل أحداً» ١٤٥
«إنا لا نولي هذا من سأله» ١٤٥
«أنت إمام قومك واقدر القوم بأضعفهم» ٢٠٤
«انتدب الله لمن خرج في سبيله» ١٠٦
«انظروا إلى من هو أسفل منكم» ٣٣١
«إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون» ١٤٣
«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى» .... ١١١ ، ٢٤٥ ، ٣١١
«إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ» ٣٤٤
«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ٢٣٨
«إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله» ٣٤
«إنما الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها» ٢٩٣
«إنما الناس كإبل مئة لا يجد الرجل فيها» ٢٩٣
«إني لأدخل الصلاة وأنا أريد إطالتها» ٢٠٢

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«إني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» .... ١٧٢ ، ١٧٩
«أوتيت جوامع الكلم» ٣٥١
«أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير» ٣٣٢
«أولئك العصاة! أولئك العصاة» ١٨٦
«إياكم والجلوس بالطرقات» .... ١١٣ ، ١٢٩
«إياكم والشح ، فإنما هلك من كان قبلكم» ١٤١
«أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء» ٢٧٨
«أيها الناس أفشوا السلام» ٧٤

- ب -

«بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون» ٣٢٧
«بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو في الدين» .... ١٧٥ ، ١٧٦
«البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك» ...... ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢
«بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا» ١٨٧
«بعثت بالحنيفية السمحة» ١٨٧

- ت -

«تجدون الناس كإبل مئة لا يجد الرجل فيها» ٢٩٣
«تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت» ١٢٥
«تعس عبد الدينار وعبد الدرهم» ١٣٤
«تعلموا العلم قبل أن يقبض» ١٧١
«تعوذوا بالله من جهد البلاء» ٧٤
«تكف شرَّك عن الناس فإنها صدقة منك» ١٢٢

- ث -

«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم» .... ٢٤٩ ، ٢٥٠

- ج -

«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله» ٢٢٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

- ح -

«حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره» ٣٠١

«حدِّث الناس كل جمعة مرَّة» ٦٧

«حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» ٣٤٢

- خ -

«خذوا عني مناسككم» ١٧٥

«خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً» ٣٣٢

- د -

«دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء» ١٢٥

- ر -

«ربح صهيب! ربح صهيب» ٩٣

«رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يبلغ» ١٠١

«رفعُك العظم عن الطريق صدقة» ٥٥

«رؤيا الأنبياء وحي» ١٨

- س -

«سبعة يظلهم الله» ١٤٥

«سبق درهم مئة ألف درهم» ٣٥٧

«سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا» ١٧٣

«سووا بين أولادكم في العطية» .... ٢٧٨، ٢٨٥

- ص -

«الصلاة على وقتها» ١٦٨

«صلوا كما رأيتموني أصلي» ١٧٥

«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة» ١٦٣

«صنفان من أهل النار لم أرهما» ١٢٠

- ع -

«عُرضت على النبي ﷺ يوم أحد وأنا» ١٠١

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«العز إزاره والكبرياء رداؤه» .... ٢٥٧ ـ ٢٥٨
«علموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعاً» .... ٢٨٠ ـ ٢٨١
«عليك بالإياس مما في أيدي الناس» ٢٢٩

ـ ف ـ

«فاظفر بذات الدين تربت يداك» ٢٨٠
«فتّان! فتّان! فتّان» ٢٠١
«فزنى العينين النظر» ١١٩
«فيجهد أن يوسعها فلا تتسع» ٣٦٠

ـ ق ـ

«القصد القصد تبلغوا» .... ١٨٤ ، ١٨٨
«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» ٣٠٨

ـ ك ـ

«كان أحب العمل إلى رسول الله ﷺ الذي يدوم» ١٩٠
«كان أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي» ١٥
«كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالصدقة فيما يجد» ٣٥٨
«كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصبي مع أمه» ٢٠٢
«كان النبي ﷺ يوجز الصلاة ويكملها» ٢٠١
«كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب» ٣٤١
«الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين» ١٦٨
«كل سلامى من الناس عليه صدقة» .... ٥٥ ـ ٥٦
«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ٢٨٠
«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» .... ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٣

ـ ل ـ

«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك» ٢٠٩
«لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها» ٤٣
«لما أمرنا رسول الله بالصدقة فتصدق أبو عقيل» ٣٥٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل» ٣٠٦
«اللهم آت نفسي تقواها وزكِّها أنت خير من زكاها» ٧٤
«اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة» ٩٨
«ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس» ٣١٥

- م -

«ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟» ١٧٣
«ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه» .... ١٧٣ ، ١٨٠
«ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار» ١٨٥
«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لهما» ١٣١
«ما ذئبان ضاريان جائعان في زريبة غنم» ١٣١
«ما ذئبان ضاريان في حظيرة يأكلان ويفسدان» ١٣١
«ما ذئبان ضاريان في غنم أضاعها ربها» ١٣٢
«ما ذئبان ضاريان يأتيان في غنم غاب» ١٣٢
«ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم» .... ٢٠٢ ، ٢٠٣
«ما لكم ولمجالس الصعدات؟ اجتنبوا» ١١٤
«ما من مولود إلا يولد على الفطرة» ٢٤٧
«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان» ٣٥٥
«ما نقصت صدقة من مال وما زاد» ٢٥٦
«ما هذا الغلام؟» ٢٧٧
«مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان» ٣٤٩
«مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب» ٢٨١
«مثل المجاهد في سبيل الله والله أعلم بمن يجاهد» ١٠٦
«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم» ٥٦
«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ٢٨١
«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ٩٧
«المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم» ٥٦

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«من أُتي إليه معروف فليكافِ به» ٦٠
«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» ١٨٠
«من استعاذ بالله فأعيذوه» . . . . ٥١ ، ٥٣
«من استعاذكم بالله فأعيذوه» ٥١
«من اصطنع إليكم معروفاً فجازوه» ٥١
«من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غارماً» ٥٦
«من أعطى عطاءً فوجد ، فليجز به» ٥٩
«من أولي معروفاً أو أُسدي إليه معروف» ٦٠
«من أولي معروفاً فلم يجد له جزاءً إلا الثناء» ٥٩
«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب» ٣٥٦
«من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله» ١٤٨
«من تواضع لله رفع الله» ٢٥٧
«من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه» ٢٥٨
«من صنع إليه معروف فقال لفاعله» ٦٠
«من طلب العلم ليجاري به العلماء» ١٥١
«من طلب العلم ليماري به السفهاء» ١٥٠
«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» ١٥٦
«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا» . . . . ١١٢ ، ٢٦٥ ، ٣٢٠
«من الكبائر شتم الرجل والديه» ١٦١
«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير» ٦٢
«من نفَّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا» ٥٥
«من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى» ١١١
«المهاجر من هجر ما نهى الله عنه» ٣١٧
«مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله» ٢٤

- ن -

«الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة» ٢٩٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«نعم الشيء الإمارة لمن أخذها بحقها» ١٤٤
«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس» ٣٢٣
«نهى النبي ﷺ عن معاقرة الأعراب» ٣٦٢

- هـ -

«هذا تلجئة فأشهد على هذا غيري» ٢٧٨
«هذا جور» ٢٧٨
«هلك المتنطعون» . . . . ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٧

- و -

«وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» ٢٥٢
«وإذا استنفرتم فانفروا» ١٠٧
«وأما البخيل فلا تزداد عليه إلا استحكاماً» ٣٦٠
«وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله» ٣١٤
«وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم» ٢٤٦
«وتغيثوا الملهوف وتهدوا الضال» ١١٤
«والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا» ١٢٥
«وفي بضع أحدكم صدقة» ٢٥٢
«والله الذي لا إله إلا الله ما رأيت أحداً» ١٧١
«ولو مدّ لي في الشهر لواصلت وصالاً» . . . . ١٧٢ ، ١٧٩
«وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء» . . . . ٢٩٤ ـ ٢٩٥
«وملعون من سُئل بوجه الله ثم منع سائله» ٥٥
«ومن آتى إليكم معروفاً فكافئوه» ٥٨

- لا -

«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ٣٣٦
«لا أشهد على جور» ٢٨٧
«لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة» ٢٨
«لا تشهدني على جور» ٢٧٨

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» ٣٤٢
«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى» ١٧٧
«لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء» .... ١٥٠، ١٥١
«لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به» ١٥٢
«لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك» ٢٥٩
«لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة» ٨٧
«لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار» ٨٧
«لا توكي فيُوكى عليك» ٣٥٦
«لا عقر في الإسلام» ٣٦٢
«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» .... ٧٧، ٣١٧
«لا والله ما أبدلني الله خيراً منها» ٢٩
«لا يتمن أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد» ٢٢٩
«لا يتمن أحدكم الموت ولا يدع به» ٢٣٠
«لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده» .... ١٦٦، ٣٤٨
«لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة» ٢٣١
«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة» ٢٥٨
«لا يزني الزاني وهو مؤمن» ٢٥٢
«لا يشكر الله من لا يشكر الناس» ٦١
«لا يقبل الله عز وجل من مشرك» ٨٥
«لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون» ٣٠٨

- ي -

«يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة» ١٤٤
«يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك» ١٤٤
«يا أبا يحيى ربح البيع» ٩٣
«يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا» ١٢٤
«يا أيها الناس إن منكم منفرين فأيكم أمَّ» ١٩٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«يا بشير ألك ولد سوى هذا؟» ٢٧٧
«يا عباس عم رسول الله ﷺ لا تتمن الموت» ٢٣٠
«يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة» ١٤٣
«يا عبد الله كن كأنك غريب أو عابر سبيل» ٢١٥
«يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك» ١١٩
«يا معاذ أفتَّان أنت؟» ٢٠٠
«يا معاذ إني أحبك فلا تدعن أن تقول» ٣٣٦
«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة» ٢٥٢
«يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها» ٣٥٦
«يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا» ١٥٢
«يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا» ٢١٢
«يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا» ١٨٧
«يسلم الراكب على الماشي» ١٢٥

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهرس الأعلام

الاسم رقم الصفحة

- أ -

أبان بن إسحاق ٢٢٩
إبراهيم عليه السلام ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٣
ابن الأثير ١٧٤
ابن أذينة الليثي ٦٥
ابن إسحاق ٢٣
ابن تيمية ١٥٣ ، ٢٦٧ ، ٣٤٢
ابن التين ١٨٠
ابن جزي ٢٩١
ابن الجوزي ١٥٦ ، ١٩٥
ابن حبّان ٤١ ، ٥١ ، ٥٩ ، ١١٣ ، ١٣١ ، ١٥١ ، ١٧٢ ، ٢١٦ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٣٣٢
ابن حجر ١٩ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٣٣١ ، ٣٤٧
ابن خزيمة ١٧٢
ابن دقيق العيد ٢٠٤
ابن رجب ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣١١ ، ٣١٣
ابن الرومي ٢٩٥
ابن السائب ٦٨
ابن سعد ٢٧٢
ابن الصلاح ١٦٣
ابن عباس ٥٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٦ ، ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٨٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٦٢
ابن عمر ٥١ ، ٧٧ ، ١٠١ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٥٠ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٢٩٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ابن عمرو ٥٦
ابن عون ٢٧٨
ابن فارس ٧٨
ابـــن القيـــم ٢٨ ، ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٥٣ ، ٢٨٠
ابن كثير ٦٣ ، ٣٧ ، ٩٦ ، ١٥٧ ، ١٨٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢
ابن ماجه ٣٤ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ١٩٩ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٩٣ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٣١
ابن المبارك ١٨٨ ، ٢٩١ ، ٣١٢
ابن مسعود ٧١، ٧٢، ١٣٩، ١٥١، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٩٤ ، ٣٠١
ابن منظور ٢٧٢
ابن المنير ١٨٤
ابن هشام ٢٣
أبو الأسود الدؤلي ٢٨٠
أبو البقاء الرندي ٢٢٦
أبو بكر الصدِّيق ١٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤، ٩٦، ١٠٣، ١٠٤، ١٧١ ، ١٧٨ ، ٢٥٨
أبو بكرة ١٦٧
أبو تمام ٣٠٤
أبو حامد الغزالي ١٥٣ ، ٣٠٥
أبو حذيفة بن عتبة ٩٩
أبو حريز ٢٨٧
أبو الحسن الندوي ٩٢
أبو حنيفة ٢٨٧
أبو حيان ١٦٤ ، ٢٣٢
أبـــو داود ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٧ ، ٨٧ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٤١ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢٣١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٦٢
أبو الدرداء ٢٣٨
أبـــو ذر ٢٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٢٢ ، ١٤٤ ، ٢٥٠ ، ٣٣٢
أبو الزبير ٢٠٠
أبو سبرة ٩٩
أبو سعيد الخدري ٢٤، ٧٧، ١١٣، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٥٧ ، ٢٩٥ ، ٣١١
أبو سلمة ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أبو شمر بن حجر الكندي ٢٦٠
أبو صالح ١٤٤
أبو الضحى ، مسلم بن صبيح الكوفي ٢٧٦
أبو طلحة ١١٤
أبو العالية ٢٣٢
أبو عبد الله ٣١٢
أبو عبيدة بن الجراح ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧
أبو العتاهية ١٤١ ، ٢٢٥
أبو عثمان النهدي ٢٣٢
أبو عروة ١٨٧
أبو عقيل ٣٥٨
أبو عمر ٢٣٢
أبو عوانة ٢٧٦
أبو قتادة ٤٧ ، ١٨٧
أبو كبشة الأنماري ٣٤
أبو مسعود ، عقبة بن عمرو البدري الأنصاري ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٣٥٨
أبو موسى الأشعري ١٨ ، ٥٥ ، ١٤٥ ، ١٨٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠
أبو نخيلة البجلي ٨٤
أبو هريرة ٥٥ ، ٦١ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧
أبو وائل ٧١
أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٣٧ ، ٢٨٦
أبو يعلى ١٣١ ، ٢٠٣ ، ٢٣١ ، ٣٠١
أبو يوسف ٢٨٥
أبي بن كعب ٢٠٣
أحمد بن إبراهيم ٢٩٠
أحمد بن أيوب ٣٢٦
أحمد بن حنبل ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٨٧ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٩ ، ٢١٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣٠١ ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ،
٣٤٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢
أحمد التيجاني ١٥٨
أحمد محمد شاكر ٣٦٣
الأحوص بن محمد الأنصاري ٦٥
أسامة ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥
أسامة بن زيد ٦٠ ، ١٣٢
إسحاق ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩١
أسماء بنت أبي بكر ٩٢ ، ٣٥٦
إسماعيل عليه السلام ١٨ ، ٣٢
الأسود بن عبد يغوث الزهري
٢٦٠ ، ٢٦١
الأشعث بن قيس ٦١
أم سلمة ٩٣ ، ٩٤ ، ٣٤٣
أم الفضل ٢٣٠
أم كلثوم ٣١٥
أنس بن مالك ٦٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
١٨٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ،
٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣٦٢
الأوزاعي ٣١٢
أوس بن حجر ٨٨
- ب -
الباقر ٢٣٢
البحتري ٢٩٦
البخاري ٢٧ ، ٤٣ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٧ ،
٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٩ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥٦ ،
١٦١ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ،
١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ،
٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ،
٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٢٧٥ ،
٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ،
٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ،
٣٣١ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٩
البراء بن عازب ١٠١ ، ١١٤
البرنس كاثياني ٣٨
بريدة ١٠٣ ، ١١٩
البزار ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٨٨
بشير بن سعيد ٢٨٧ ، ٢٨٨
بهز بن حكيم ٨٥
البوصيري ٣٢٣
البويطي ٣١٢
البيضاوي ١٤٥ ، ٣١٣
البيهقي ٤١ ، ٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠١ ،
٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨
- ت -
الترمذي ٢٨ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٥٥ ،
٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٧ ، ١١٩ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٣١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٥ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٣١

تقي الدين أبو بكر بن محمد الحسيني الدمشقي ١٠٠

- ث -

الثوري = سفيان الثوري

- ج -

جابر بن عبد الله ٥٩، ١٣٢، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٥٧ ، ٢٧٨

الجرجراني ٧٩

جرير بن عبد الله ٨٤ ، ٨٩ ، ١١٩

الجوهري ٣٥٧

- ح -

الحاكم ٢٤ ، ٢٨ ، ٥١ ، ١٢٤ ، ١٧٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣٢

حذيفة ١٥٠

حسان بن ثابت ٢٩٨

الحسن ٢٢٢ ، ٢٣٢

الحصري ٩٦

الحلّاج ، الحسين بن منصور ١٥٧

حمّاد بن زيد ٣١٢

حمزة بن عبد المطلب ٢٦٦

حمزة الكناني ٣١٢

- خ -

خالد بن الوليد ٩٤

خديجة بنت خويلد ١٥، ١٦، ١٧ ، ٢١، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٢.

الخضر ٧١

الخطابي ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٩٣ ، ٣١١ ، ٣٦٢

الخطيب البغدادي ٤١ ، ١٥٧

- د -

الدارقطني ٣١٢

الدارمي ٨٧، ٢٢٩، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٩٩ ، ٢٤٤ ، ٣٠١

داود ٢٨٧ ، ٢٩١

داود عليه السلام ١٥٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦

الداودي ١٤٣ ، ١٨٠

دعبل ٢٩٦

- ذ -

الذهبي ٢٥٧

ذو الإصبع العدواني ٨٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

- ر -
الراغب ٧٩ ، ٢٧٩
رافع بن خديج ١٠١
الربيع بن زياد الحارثي ٢٣٣
ربيعة ١٤٩
ربيعة بن مقروم الضبي ٨٨
الرياشي ٢٨٠
- ز -
الزبير بن العوام ٩٦ ، ٩٩ ، ١٢٥
الزركلي ٢٢٣
الزهري ٢٣
زيد ٢٩١
زيد بن ثابت ٤٠ ، ١٠١ ، ١٤٤
زيد بن علي ٢٣٢
- س -
السبكي ٦٢
سحيم بن وثيل الرياحي ٣٦٣
السدي ٢٣٢
سراقة بن مالك بن جعشم ٩٢
سعد بن أبي وقاص ٢٢٩، ٢٦٤، ٢٧٢
سعد بن الربيع ٩٨
سعدي ياسين ٣٨
سعيد بن منصور ٢٨٦
سفيان ٢٠٠
سفيان الثوري ١٤٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٣١٢
سلم بن عمرو ١٤١
سلمة بن زيد البجلي ٨٩
سليمان ٢٨
سليمان بن داود عليه السلام ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨
السموءل ٢٩٦
سهل بن البيضاء ٩٩
سهل بن حنيف ٥٦
سهل بن سعد الساعدي ١٥٥
سيد قطب ١٩، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠
السيوطي ١٨٨ ، ٣٠١
- ش -
الشافعي ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣١٢
شريك بن عبد الله بن عيسى ١٤٤
شعبة بن عيينة ٣١٢
الشعبي ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٧
شقيق ٧١
شوقي ١٢١
الشوكاني ٧٨ ، ٢٩١
الشيرازي ٢٩١
- ص -
صالح بن عبد القدوس ٦٥ ، ٢٢٨ ، ٣٥٢
الصباح بن محمد ٢٢٩
صفوان بن أمية ٧٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صهيب ٩٢ ، ٩٣
- ط -
طارق بن شهاب ٢٥٦
طاووس ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩١
الطبراني ٥١، ١٣١، ١٣٢، ١٤٤ ، ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٦٧ ، ٢٨٧
الطحاوي ٨٧، ١١٣، ١١٤، ٢٣٥، ٢٧٦ ، ٢٧٨
طريح بن إسماعيل الثقفي ٦٦
طفيل ٩٦
طلحة بن خويلد ٢٧٢
طلحة بن عبيد الله ٤٨
طليحة بن خويلد ٢٧٢
- ع -
عاصم ٢٣٢
عاصم بن عدي ١٣٢
عامر بن ربيعة ٩٩
عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها ١٥، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٨ ، ٢٩، ٣٩، ٦٠، ٦٧، ٦٨، ٧٢ ، ٧٧ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠
العباس ٢٣٠
عبد بن حميد ٣٠١
عبد الرحمن بن سمرة ١٤٣
عبد الرحمن بن عوف ٩٨ ، ٩٩
عبد الرحمن بن مهدي ٣١٢
عبد السلام هارون ٣٦٣
عبد قيس بن خفاف التميمي ٨٨
عبد الله ٢٣٨
عبد الله بن أحمد ٦٣
عبد الله بن الحر الجعفي ٨٩
عبد الله بن الشخير ٣٣٢
عبد الله بن شوذب ٢٦٧
عبد الله بن عباس = ابن عباس
عبد الله بن عتبة بن مسعود ٢٧٦
عبد الله بن عمر = ابن عمر
عبد الله بن عمرو بن العاص ٧٧، ٩٧، ١٤١، ١٦١، ١٦٨، ١٦٩، ١٨٨ ، ٣٣٢
عبد الله بن المبارك ٢٢٢
عبد الله بن مرداس ٧١
عبد الله بن المعتز ٢٢٢
عبد الله بن واقد السعدي ٨٦
عبد المجيد بن عبدون ٢٢٧
عثمان بن أبي العاص ٢٠١، ٢٠٢ ، ٢٠٤
عثمان بن حاضر الأزدي ١٧٢
عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ٩٤
عثمان بن عفان ٩٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عثمان بن مظعون ٩٩
عدي بن حاتم ٢٠١، ٢٠٢، ٢٣٢ ، ٣٥٦
عروة ٢٨٧ ، ٢٩١
عروة بن الزبير ٢٧٦
العز بن عبد السلام ١٦٣ ، ١٦٤
عقيل بن أبي طالب ٢٦٧
علقمة بن وقاص الليثي ٣١١
علي ٢٣٢
علي بن أبي طالب ٣٧، ٩٥، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٥٢ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٦٣
علي بن الجهم ٢٩٦
علي بن المديني ٣١٢
عمر بن الخطاب ١٨ ، ٧٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣١١ ، ٣١٢
عمر بن عبد العزيز ٧٢ ، ١٤٧
عمرة بنت رواحة ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨
عمرو ٢٠٠
عمرو بن أبي أمية الضمري ٩٩
عمرو بن ثعلبة ٢٦٠
عمرو بن شعيب ٣٣١
عمرو بن ود ٢٦٧
عمرو بن معد يكرب ٢٧٢
عمير بن الحمام الأنصاري ٣٠٩
عون بن عبد الله ٢٧٦
عياض بن حمار المجاشعي ٢٤٦ ، ٢٥٦
عيسى ابن مريم ، المسيح عليه السلام ٣٣ ، ٤٢ ، ١٧٧ ، ١٨٩
العيني ٢٦

- غ -

غالب بن صعصعة ٣٦٣
الغزالي ٣٠٩
غيلان بن جرير ٧٢

- ف -

الفرزدق ٣٦٣

- ق -

القاضي عياض ٢٥٣ ، ٢٥٤
القرطبي ٣٨ ، ١٦٤ ، ٣٠٢
قصي بن كلاب ٩١
قصي الخطيب ١٥٨
قطري بن فجاءة ٣٣
قيس بن الخطيم الأنصاري ٨٨

- ك -

كلثوم بن عمرو العتابي ٣٠٨

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كعب بن مالك ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ١٣١، ١٥١
الكلبي ٢٦٠

- ل -

الليث بن سعد ٣١٢

- م -

ماعز ٣٧
مالك ١٠٣، ١٢٥، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٨٥، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٧، ٣١٢
الماوردي ٢٩٩، ٣٣٤
المباركفوري ٢١٦
المتلمس الضبعي ٨٧
مجاشع بن مسعود ٧٧
مجاهد ٢٨٧، ٢٩١
محب الدين الخطيب ١٥٨
محمد إقبال ٧٠
محمد بن إبراهيم التيمي ٣١١
محمد بن الحسن ٢٨٥
محمد حميد الله ٣٩
محمد قطب ٢٤٠
محمود الوراق ٣٢٥
مرارة بن الربيع العمري ٤٥
مسروق ١٨
مسعر ١٧١
مسلم ١٨، ٢٧، ٣١، ٣٧، ٤٣، ٥٥، ٥٦، ٧٧، ١٠٣، ١١٣، ١١٤، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٤١، ١٤٤، ١٤٥، ١٥١، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٧، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٩، ٣٢١، ٣٣١، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٦٠
مصطفى صادق الرافعي ١٥٣
مصعب بن عمير ٩٩
مطرف بن عبد الله بن الشخير ٧٢
معاذ بن جبل ٤٤، ١٨٧، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٦، ٣٣٦
معاوية ٨٧، ٣٣٤
معن بن عبد الرحمن ١٧١
المفضل بن المهلب ٢٧٦
المقداد بن الأسود ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٤
المقري ٢٢٦
المناوي ١٨٨، ٣٠٢

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المنذري ١٣١
منصور بن الزبرقان النمري ٣٦١
المهلب ١٤٥
موسى عليه السلام ١٦، ٢٦، ٣٢ ، ٣٣، ٤١، ٤٢، ٧١، ٢١١، ٢٦١
الميداني ١٨٨

- ن -

النجاشي ٩٩
النسائي ٥١ ، ٦٠ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٢١ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣٢١ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٧
النعمان بن بشير ٥٦ ، ٦٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠
نلسن الدانمركي ٣٨
نمير بن أوس ٢٨١
النواس بن سمعان ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣
نوح عليه السلام ٢٩٤
النووي ١٧ ، ١٩ ، ١٠٠ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٣٥٧

- هـ -

هارون عليه السلام ٢١١
هرمز ٢٨
هلال بن أمية الواقفي ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠
همام ٦٥
الهيثمي ١٨٨ ، ٢٣١

- و -

وابصة بن معبد ٢٤٣ ، ٢٤٧
الواحدي ١٦٣ ، ٢٥١
وحشي بن حرب ١١٤ ، ٢٦٦
ودَّاك بن نُميل المازني ٥٣
ورقة بن نوفل بن أسد ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٢

- ي -

يحيى بن سعيد الأنصاري ٣١١
يحيى بن المتوكل ، أبو عقيل ١٨٨
يزيد بن أبي سفيان ١٠٣
يزيد بن حمَّان السكوني ٥٣
يزيد بن معاوية النخعي ٧١
يوسف عليه السلام ٢٨٢ ، ٢٨٣

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ **أبو داود حياته وسننه** ـ محمد بن لطفي الصباغ ـ المكتبة الإسلامية ـ الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.

٢ ـ **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان** ـ الأمير علاء الدين بن بلبان ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣ ـ **إحياء علوم الدين** ـ **الإمام الغزالي** ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ١٣٥٨ هـ.

٤ ـ **أخبار عمر** ـ علي وناجي الطنطاوي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٦٤ م.

٥ ـ **أدب الدنيا والدين**: **الإمام الماوردي** ـ تحقيق مصطفى السقا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ مصورة عن طبعة مصر.

٦ ـ **الأدب المفرد** ـ **الإمام البخاري** ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار البشائر الإسلامية بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٩ م.

٧ ـ **أدب المملي والمستملي** ـ للسمعاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ مصورة عن طبعة ليدن ـ ١٩٥٢ م.

٨ ـ **الأذكار** ـ **الإمام النووي** ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ـ مطبعة الملاح ـ دمشق.

٩ ـ **إرشاد الفحول** ـ **الإمام الشوكاني** ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ١٩٣٧ م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١٠ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ـ لابن الأثير ـ دار الفكر ، بيروت . طبعة مصورة عن طبعة دار الشعب ، ١٩٨٩ م .
١١ ـ **أسرار البلاغة : الإمام الجرجاني** ـ تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المدني ، مصر ، الطبعة الأولى .
١٢ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر** ـ مطبعة مصطفىٰ محمد ـ مصر ١٣٥٨ م .
١٣ ـ **الأصمعيات ـ الأصمعي** ـ تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ مصر ـ الطبعة الأولى .
١٤ ـ **إعانة الطالبين** ـ البكري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٥ م .
١٥ ـ **اقتضاء العلم العمل ـ الخطيب البغدادي** ـ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .
١٦ ـ **أقوال مأثورة وكلمات جميلة** ـ محمد بن لطفي الصباغ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .
١٧ ـ **إلى الإسلام من جديد ـ أبو الحسن الندوي** ـ دار القلم ـ دمشق .
١٨ ـ **الأم ـ الإمام الشافعي** ـ المطبعة الميرية ـ مصر . وطبعة دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م .
١٩ ـ **البحر المحيط ـ أبو حيان الأندلسي** ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٣ م .
٢٠ ـ **بداية المجتهد ونهاية المقتصد ـ ابن رشد** ـ دار الفكر ـ بيروت .
٢١ ـ **البداية والنهاية لابن كثير** ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٥١ هـ .
٢٢ ـ **البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنقصان** ـ سعدي ياسين ـ المكتب الإسلامي بيروت ـ الطبعة الأولى .
٢٣ ـ **البصائر والذخائر ـ أبو حيان التوحيدي** ـ تحقيق د . وداد القاضي ـ دار صادر بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٨ هـ .
٢٤ ـ **تاج العروس في شرح القاموس** ـ الإمام الزبيدي ـ المطبعة الخيرية مصر ١٣٠٦ هـ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢٥ ـ تاريخ الطبري ـ الإمام ابن جرير الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ١٣٨٧ هـ.
٢٦ ـ تاريخ العرب ـ محمد أسعد طلس ـ دار الأندلس ـ بيروت.
٢٧ ـ التذكرة ـ الإمام القرطبي ـ تحقيق يوسف بديوي ـ دار ابن كثير ـ ط١ ـ ١٩٩٩ م.
٢٨ ـ تذكرة الحفاظ ـ الإمام الذهبي ـ حيدر أباد الدكن الهند ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م.
٢٩ ـ الترغيب والترهيب ـ الإمام المنذري ـ تحقيق مصطفى عمارة ـ مطبعة دار إحياء الكتب العربية ـ مصر.
٣٠ـ التصوير الفني في الحديث النبوي ـ محمد بن لطفي الصباغ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى.
٣١ ـ التعريفات ـ للجرجاني ـ تحقيق البجاوي ـ مصر ـ الطبعة الأولى.
٣٢ ـ تفسير ابن كثير ـ للإمام ابن كثير ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٣٣ ـ تفسير الآلوسي (روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني) ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٣٤ ـ تفسير القرطبي (الجامع الأحكام القرآن) ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٣٥ ـ تلخيص الحبير ـ ابن حجر العسقلاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣٦ ـ التمهيد لابن عبد البر ـ وزارة الثقافة ـ الرباط ـ ١٩٩٢ م.
٣٧ ـ تنوير البصيرة ببيان علامات الكبيرة عبد الله الصديق الغماري ـ الطبعة المصرية.
٣٨ ـ جامع الترمذي المطبوع أعلى تحفة الأحوذي طبع الهند سنة ١٣٤٣ هـ.
٣٩ ـ جامع الترمذي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٤٠ ـ جامع الدروس العربية ـ مصطفى الغلاييني ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ ط١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٤١ ـ **جامع العلوم والحكم لابن رجب**ـ تحقيق شعب أرناؤوط وإبراهيم باجس مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م.

٤٢ ـ **الجرح والتعديل** لابن أبي حاتم ـ حيدر أباد الدكن الهند.

٤٣ ـ **الحديث النبوي** مصطلحه بلاغته ـ محمد بن لطفي الصباغ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٣٩٢ هـ.

٤٤ـ **الحقوق الجزائية** ـ عبد الوهاب حومد.

٤٥ ـ **الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ** «بعثت بالسيف بين يدي الساعة» لابن رجب الحنبلي.

٤٥ ـ **حلية الأولياء** ـ أبو نعيم ـ مطبعة السعادة ـ مصر ٣٥١.

٤٧ ـ **الحماسة أبو تمام** ـ تحقيق عبد الله عسيلان ـ الرياض ـ جامعة محمد بن سعود.

٤٨ ـ **الحماسة ـ البحتري** ـ طبعة مصورة ـ بيروت ـ ١٩٨٠ م.

٤٩ ـ **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** ـ المحبي ـ تصوير دار صادر بيروت.

٥٠ ـ **الدرر البهية** ـ الأبي ـ دار الجيل ـ بيروت.

٥١ ـ **الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة** ـ السيوطي ـ تحقيق محمد بن لطفي الصباغ ـ مكتبة الوراق ـ الرياض.

٥٢ ـ **دليل الرسائل الجامعية في السعودية**.

٥٣ ـ **دليل الفالحين في شرح رياض الصالحين** ـ ابن علان ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥ م.

٥٤ ـ **الدليل القوي على أمية النبي** ـ سعدي ياسين.

٥٥ ـ **دول الطوائف** ـ محمد عبد الله عنان ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

٥٦ ـ **ديوان أبي العتاهية** ـ تحقيق شكري فيصل ـ مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م.

٥٧ ـ **ديوان أبي فراس** ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م.

٥٨ ـ **ديوان حسان بن ثابت** ـ تحقيق سيد حنفي ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٤ م.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥٩ـ **ديوان دعبل الخزاعي** ـ تحقيق عبد الكريم الأشتر ـ طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق.

٦٠ ـ **ديوان المعاني لأبي هلال العسكري** ـ تحقيق كرنكو ـ مكتبة القدسي ـ مصر ـ ١٣٥٢ هـ.

٦١ ـ **رغبة الأمل من كتاب الكامل** ـ سيد بن علي المرصفي ـ مصر ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م.

٦٢ ـ **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء** ـ **ابن حبان** ـ تحقيق مصطفى السّقا ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م.

٦٣ ـ **الروضة الندية** ـ القنوجي ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ ١٩٩٧ م.

٦٤ ـ **رياض الصالحين** ـ **الإمام النووي** ـ تحقيق الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق.

٦٥ ـ **الرياض النضرة**، الإمام المحب الطبري ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٩٨ م.

٦٦ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد** ـ **ابن القيم** ـ تحقيق عبد القادر الأرناوؤط وشعيب الأرناوؤط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى.

٦٧ ـ **الزهد والرقائق لابن المبارك** ـ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ـ طبعة الهند.

٦٨ ـ **الزهد** ـ **أحمد بن حنبل** ـ تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٥ هـ.

٦٩ ـ **زهر الآداب** ـ **الحصري** ـ تحقيق البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.

٧٠ ـ **سنن ابن ماجه** ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ مصر ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢ م.

٧١ ـ **سنن أبي داود** ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م.

٧٢ ـ **سنن الدارقطني** ـ تحقيق عبد الله هاشم اليماني المدني ـ دار المحاسن للطباعة ـ مصر ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٧٣ ـ **سنن الدارمي** ـ تحقيق محمد أحمد دهمان ـ مطبعة الاعتدال ـ دمشق ١٣٤٩ هـ.

٧٤ ـ **سنن النسائي الصغرى** ـ بعناية حسن محمد المسعودي ـ المطبعة المصرية بالأزهر ـ مصر.

٧٥ ـ **سنن النسائي الكبرى** ـ تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩١ م.

٧٦ ـ **السنن الكبرى** ـ **البيهقي** ـ مطبعة دار المعارف النظامية ـ حيدر آباد في الهند.

٧٧ ـ **سير أعلام النبلاء** ـ **الذهبي** ـ تحقيق مجموعة من الأساتذة ـ بيروت ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ هـ.

٧٨ ـ **سيرة ابن هشام** ـ تحقيق مصطفى السّقا ـ إبراهيم الأبياري ـ عبد الحفيظ شلبي مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده ـ مصر ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٧ م.

٧٩ ـ **شرح حديث: «ما ذئبان جائعان. . .»** ـ ابن رجب الحنبلي.

٨٠ ـ **شرح السنة** ـ **البغوي** ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٠ هـ.

٨١ ـ **شرح المقامات**ـ لأحمد بن عبد المؤمن الشريشي ـ تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٩٩ هـ.

٨٢ ـ **صحيح ابن ماجه** ـ ناصر الألباني ـ مكتب التربية لدول الخليج ١٤٠٨ هـ.

٨٣ ـ **صحيح أبي داود** ـ **ناصر الألباني** ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٩ هـ.

٨٤ ـ **صحيح البخاري** ـ تحقيق النووي وأبي الفضل وخفاجي ـ مطبعة الفجالة الجديدة ـ مصر ١٣٧٦ هـ.

٨٥ ـ **صحيح الترغيب والترهيب** ـ ناصر الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ ١٤٢١ هـ.

٨٦ ـ **صحيح الترمذي** ـ **ناصر الألباني** ـ مكتب التربية العربية ـ ١٤٠٨ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٨٧ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته ـ ناصر الألباني** ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق.

٨٨ ـ **صحيح مسلم** ـ طبعة إستانبول.

٨٩ ـ **صحيح مسلم** ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٩٠ ـ **صحيح النسائي: ناصر الألباني** ـ مكتب التربية العربي ١٤٠٩ هـ.

٩١ ـ **صحيح الأدب المفرد: ناصر الألباني** ـ دار الصديق ـ طبع الأردن سنة ١٤١٤ هـ.

٩٢ ـ **ضعيف الأدب المفرد: ناصر الألباني** ـ دار الصديق ـ طبع الأردن سنة ١٤١٤ هـ.

٩٣ ـ **طبقات ابن سعد** ـ دار صادر ـ بيروت.

٩٤ ـ **الطّرف** ـ جمعه وشرحه أبو الخير القواس وآخرون ـ مطبعة الترقي بدمشق ـ ١٩٣٨ م.

٩٥ ـ **عشرة النساء ـ النسائي** ـ حققه عمرو علي عمر ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٢ م.

٩٦ ـ **العدّة للصنعاني** على إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ـ المطبعة السلفية ـ مصر.

٩٧ ـ **علم السكان**. الدكتور عبد الكريم اليافي ـ جامعة دمشق.

٩٨ ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود** ـ شمس الحق العظيم أبادي ـ طبع الهند.

١٠٠ ـ **عيون الأخبار لابن قتيبة** ـ طبع مصر ـ مصورة عن دار الكتب ـ ١٩٦٣ م.

١٠١ ـ **الفائق ـ الزمخشري** ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم/ محمد علي البجاوي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصر.

١٠٢ ـ **فتاوى ابن تيمية**: جمع عبد الرحمن بن قاسم ـ مطابع الرياض ـ سنة ١٣٨١ هـ.

١٠٣ ـ **فتاوى ابن الصلاح** ـ المطبعة المنيرية بمصر ١٣٤٨ هـ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١٠٤ ـ **فتاوى النووي** ـ علاء الدين ابن العطّار. مطبعة الاستقامة ـ مصر ١٣٥٢ هـ.

١٠٥ ـ **فتح الباري** ـ **ابن حجر العسقلاني** ـ المطبعة السلفية ـ مصر ـ ١٣٨٠ هـ.

١٠٦ ـ **الفروق للقرافي** ـ طبعة مصورة ـ دار المعرفة ـ بيروت.

١٠٧ ـ **الفقيه والمتفقه** ـ الخطيب البغدادي ـ تحقيق إسماعيل الأنصاري ـ مطابع القصيم ـ الرياض.

١٠٨ ـ **فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر** ـ محمد بن لطفي الصّباغ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٠٩ ـ **الفوائد** ـ **ابن القيم** ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١١٠ ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير** ـ **المناوي** ـ مطبعة مصطفى محمد ـ مصر ـ سنة ١٣٥٦ هـ.

١١٣ ـ **القاموس المحيط** ـ **الفيروزأبادي** ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٧ م.

١١٤ ـ **القرامطة** ـ **لابن الجوزي** ـ تحقيق محمد بن لطفي الصّباغ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١١٥ ـ **كتاب القصاص والمذكرين** ـ تحقيق محمد بن لطفي الصبّاغ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٩هـ.

١١٦ ـ **القواعد** ـ العز بن عبد السَّلام ـ.

١١٧ـ **القوانين الفقهية** ـ **ابن جزي** ـ طبعة مصورة ـ مكتبة أسامة بن زيد ـ حلب.

١١٨ ـ **الكبائر للذهبي** ، طبعة مصر.

١١٩ ـ **اللباب** ـ **ابن الأثير** ـ (علي بن محمد) طبعة مصورة بالأوفست ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.

١٢٠ ـ **لسان العرب** ـ **ابن منظور** ـ طبعة دار صادر ـ بيروت.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٢١ ـ لمحات في علوم القرآن ـ محمد بن لطفي الصّباغ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.
١٢٢ ـ مجلة الوعي الإسلامي.
١٢٣ ـ مجمع الأمثال للميداني ـ طبع القاهرة ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
١٢٤ ـ المجموع للنووي ـ طبعة المطيعي بمصر.
١٢٥ ـ مختار الأغاني ـ ابن منظور ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.
١٢٦ ـ مختار الصحاح ـ الرازي ـ طبعة الترقي ـ دمشق ١٩٣٨ م.
١٢٧ ـ مختصر زوائد مسند البزار ـ ابن حجر ـ تحقيق: صبري عبد الخالق مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ـ سنة ١٤١٤ هـ.
١٢٨ ـ مختصر المقاصد الحسنة ـ تحقيق محمد بن لطفي الصّباغ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.
١٢٩ ـ المدخل الفقهي العام ـ مصطفىٰ الزرقا ـ مطبعة جامعة دمشق ـ ط٧ ـ ١٩٦٢ م.
١٣٠ ـ مرشد المحتار إلى خصائص المختار ـ محمد بن علي بن طولون ـ مصر.
١٣١ ـ المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ـ طبع حيدر أباد الدكن ـ الهند ١٣٣٣ هـ.
١٣٢ ـ المسند ـ أحمد بن حنبل ـ المطبعة الميمنية ـ مصر.
١٣٣ ـ مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٤٧ م.
١٣٤ ـ مشكل الآثار ـ الطحاوي ـ حيدر أباد ـ الدكن ١٣٣٣ هـ.
١٣٥ ـ المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية ـ مصر ـ الهوريني ـ المطبعة الميمنية ـ مصر ـ سنة ١٣٠٢ هـ.
١٣٦ ـ مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى ـ مصطفىٰ السيوطي الرحيباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.
١٣٧ ـ المصباح المنير ـ الفيومي ـ طبع دار المعارف ـ مصر ـ سنة ١٣٩٧ هـ.
١٣٨ ـ معالم السنن الخطابي ـ تحقيق أحمد شاكر ـ وحامد الفقي ـ مطبعة السنة ـ مصر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١٣٩ ـ **المعجم الأوسط للطبراني** ـ تحقيق محمود الطحان ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ سنة ١٩٨٥ م.

١٤٠ ـ **المعجم الصغير للطبراني** ـ مطبعة دار النصر للطباعة بمصر ـ سنة ١٣٨٨ هـ.

١٤١ ـ **المعجم الكبير للطبراني** ـ تحقيق حمدي السلفي ـ مطبعة المثنى ـ بغداد.

١٤٢ ـ **معيد النعم للسبكي** ـ طبع مصر.

١٤٣ ـ **المغني ـ ابن قدامة** ـ مطبعة المنار بمصر ـ سنة ١٣٤٢ هـ.

١٤٤ ـ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ـ ابن هشام** ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر.

١٤٥ ـ **المفهم ـ القرطبي** ـ دار الكتاب المصري مع دار الكتاب اللبناني.

١٤٦ ـ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة السخاوي** ـ مطبعة دار الأدب العربي ـ مصر ـ سنة ١٣٧٥ هـ.

١٤٧ ـ **مقاييس اللغة ـ لابن فارس** ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ سنة ١٣٨٩ هـ.

١٤٨ ـ **مكارم الأخلاق ـ الخرائطي** ـ المطبعة السلفية ـ مصر ـ سنة ١٥٣٠هـ.

١٤٩ ـ **من أسباب تخلف العمل الإسلامي** ـ محمد بن لطفي الصباغ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٥٠ ـ **مناقب الشافعي ـ البيهقي** ـ تحقيق سيد أحمد صقر ـ دار التراث ـ مصر.

١٥١ ـ **المنتخب من أدب العرب** ـ تأليف مجموعة من الأساتذة.

١٥٢ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ـ تحقيق المستشرق: كرنكو ـ مطبعة دائرة العثمانية ـ حيدر أباد ـ سنة ١٣٥٨ هـ.

١٥٣ ـ **المنتقى لأبي الوليد الباجي**: مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٢هـ.

١٥٤ ـ **منهاج السنة ـ ابن تيمية**: طبع جامعة الإمام محمد بن سعود ـ تحقيق محمد رسلان سنة ١٤٠٦ هـ.

١٥٥ ـ **المهذب ـ للشيرازي** ـ دار القلم ـ دمشق.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٥٦ ـ **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ـ الحافظ الهيثمي** ـ تحقيق محمد عبد الرازق حمزة ـ المطبعة السلفية ـ مصر.
١٥٧ ـ **موطأ مالك** ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ بيروت.
١٥٨ ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان ابن الخطيب** ـ تأليف المقري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر.
١٥٩ ـ **نهاية الأرب ـ النويري** ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب بمصر.
١٦٠ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير** ـ تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ مصر.
١٦١ ـ **النهاية لابن كثير** ـ طبع الرياض.
١٦٢ ـ **نهاية الأندلس** ـ محمد عبد الله عنان ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٨٨م.
١٦٣ ـ **نهج البلاغة** ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مصر.
١٦٤ ـ **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين** ـ محمد الخضري ـ الطبعة السابعة ـ مصر.
١٦٥ ـ **نيل الأوطار للشوكاني** ـ طبع مصر.
١٦٦ ـ **الهبة والوصية وتصرفات المريض** ـ تأليف أحمد إبراهيم ـ طبع مصر.
١٦٧ ـ **وحي القلم** ـ مصطفىٰ صادق الرافعي ـ دار المعارف ـ مصر.
١٦٨ ـ **الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني** ـ مطبعة صبيح ـ مصر ـ ط٣.

١٧٠ ـ **وفيات الأعيان لابن خلكان**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ طبع مصر، وطبعة دار صادر ـ بيروت ـ بتحقيق إحسان عباس.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المحتوى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المحتوى

مقدمة الطبعة الثانية ٥
مقدمة الطبعة الأولى ٩
الحديث الأول: بدء الوحي ١٥
حياته قبل البعثة وموقف خديجة ٢١
طرق الوحي ٢١
ترجمة ورقة ٢٧
خديجة وعائشة ٢٨
أميَّـة النبي ﷺ ٣٥
طرق الوحي ٣٩
الشكل الأول ٤٠
الشكل الثاني ٤٠
معاني الحديث ٤١
الحديث الثاني: قصة تخلف كعب وصاحبيه ٤٣
الحديث الثالث: أخلاق اجتماعية كريمة ٥١
الحديث الرابع: الاقتصاد في الموعظة ٦٧
ترك التكلُّف ٧٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحديث الخامس : الهجرة والجهاد والنية ٧٧
الهجرة ٨٠
دروس في الهجرة ٩٧
الجهاد ٩٩
النيَّـة ١١١
الحديث السادس : آداب الطريق ١١٣
١ ـ غضُّ البصر ١١٩
٢ ـ كفُّ الأذى ١٢١
٣ ـ ردُّ السلام ١٢٣
٤ ـ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ١٢٦
الحديث السابع : الحرص على المال والوجاهة ١٣١
الحرص على المكانة ١٤٢
العلم ١٥٠
الزُّهد والعبادة ١٥٥
الحديث الثامن : من الكبائر ١٦١
الكبيرة والصغيرة ١٦٢
برُّ الوالدين ١٦٥
الحديث التاسع : التنطُّع ١٧١
الحديث العاشر : يُسْر الإسلام ١٩٩
الحديث الحادي عشر : التوازن بين الدنيا والآخرة ٢١٥
شرح المفردات ٢١٦
الحديث الثاني عشر : الإمارة ٢٣١
الحديث الثالث عشر : البرُّ والإثم ٢٣٥
الحديث الرابع عشر : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ٢٤٩
الحديث الخامس عشر : قبول الظاهر من الناس ٢٥٩
الحديث السادس عشر : الجور ٢٧٥

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث السابع عشر : إنما الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلة . ٢٩٣
الحديث الثامن عشر : حجبت النار بالشهوات ٣٠١
الحديث التاسع عشر : إنما الأعمال بالنيات ٣١١
الحديث العشرون : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ٣٢٣
الحديث الحادي والعشرون : الرضاء بما قسم الله ٣٣١
الحديث الثاني والعشرون : حكم القاضي لا يغير من الحقيقة شيئاً ٣٤١
الحديث الثالث والعشرون : مثل البخيل والمنفق ٣٤٩
الفهارس العامة ٣٦٥
فهرس الآيات القرآنية ٣٦٧
فهرس الأحاديث النبوية ٣٧٧
فهرس الأعلام ٣٨٩
فهرس المصادر والمراجع ٣٩٩
المحتوى ٤١٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب